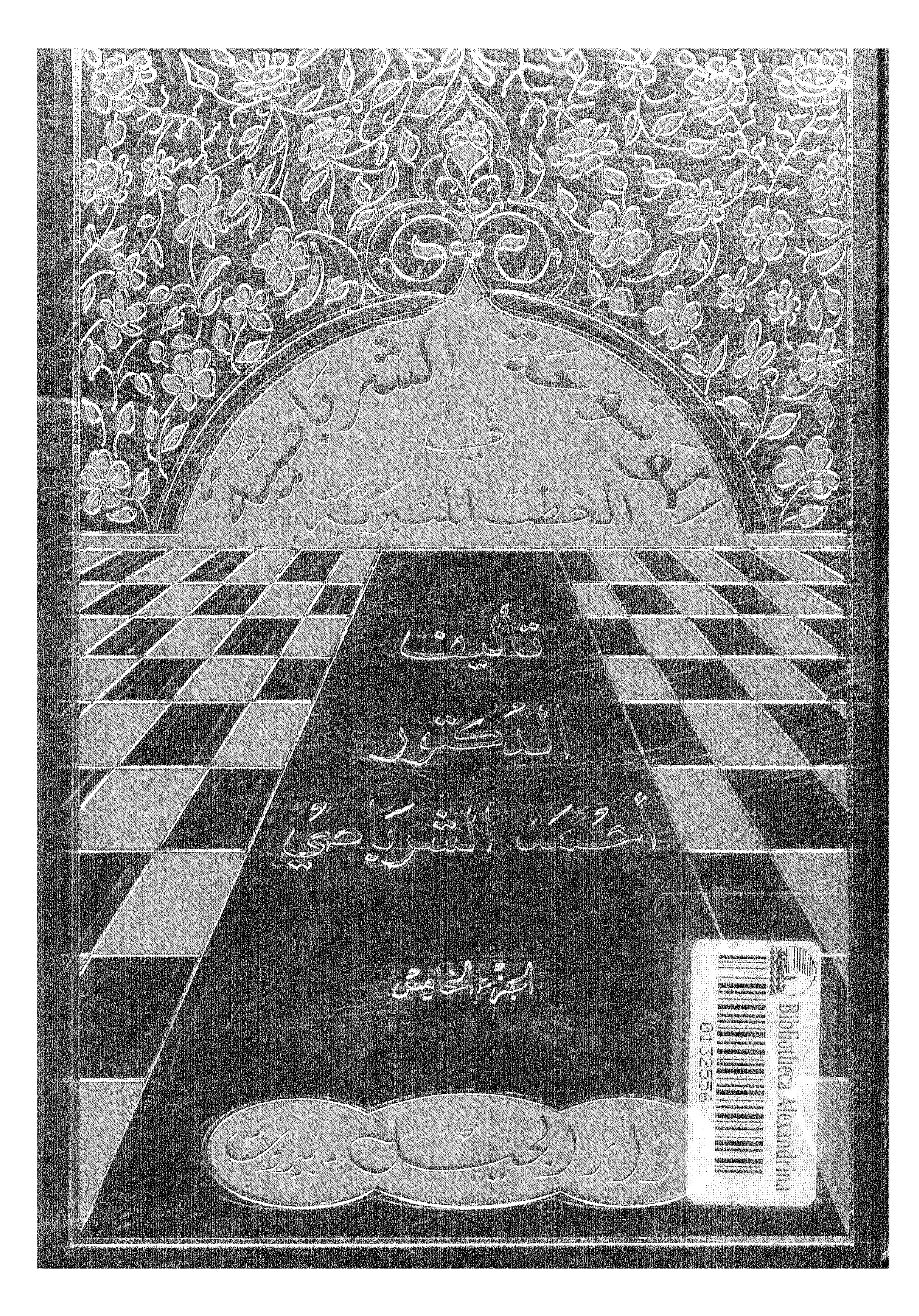

موسوعة الشرباصي في الخطب المنبرية
تأليف
الدكتور
أحمد الشرباصي
الجزء الخامس
دار الجيل - بيروت

الموسوعة الشرباصية
في
الخطب المنبرية

الموسوعة الشرباصية في الخطب المنبرية

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي

المجلد الخامس

دار الجيل
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله . وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا ، وإليك المصير » . « ربنا هيىء لنا من أمرنا رشداً » .

تقديم

تحت لواء هذا العنوان « الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية » أواصل المسيرة فى إخراج أجزاء هذه الموسوعة راجياً من ربى أن تكون خطوات هذه المسيرة منه وإليه فالأمل فيه والاعتماد عليه .

وهذا هو الجزء الخامس من الموسوعة أقدمه للقارئ الكريم مشتملا على مجموعة جديدة من الخطب المنبرية التى تعالج كثيراً من أمور الدين وشئون الحياة يبلغ عددها مائة وثلاث عشرة خطبة وتتضمن خطباً — كما قلت عنها فى تقديمى للجزء الأول من هذه الموسوعة — تبدو غريبة العنوان مثل : بين الناس والثعبان ومثل بين الناس والذباب إلخ ولكن بقراءة مثل هذه الخطب يتبين أن شيخنا الجليل عليه الرحمة والرضوان كان يهدف من وراء كل موضوع من مثل هذه الموضوعات إلى استنباط درس نافع أو موعظة بليغة أو عبرة تنفع المؤمنين والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا المؤلف ويجزى صاحبه ، أستاذنا الدكتور الشرباصى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

دكتور عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

مع كتاب الله

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هدى ببرهانه وأصلح بقرآنه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل القرآن ضياء بصره ونور صدره ، فكان خير الهادين ، فصلوات الله وسلامة عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

دعيت منذ أسابيع من قبل التلفزيون العربى لتقديم برنامج يومى فى تفسير القرآن الكريم بعنوان « مع كتاب الله » حيث يختم البرنامج الثانى كل ليلة بآيات ترتل ثم يعقبها شرح لمفرداتها وتفسير لمعانيها ، وقد استجبت لهذه المهمة مقدراً أنها جزء من الدعوة الدينية التى يجب أن تأخذها طريقها الواضح الواسع فى كل جهاز من أجهزة الإعلام لتحقيق غرضين متلازمين ، أولهما تضييق الخناق على ما لا يليق أن يعرض على الأسماع والأبصار من مواد لا تتلاقى مع التعاليم الدينية أو القيم الروحية ، وثانيهما تقديم ما يمكن تقديمه من الزاد الإلهى الطيب الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وأول حقيقة يجب أن نتذكرها هنا فى أنه لا يوجد فى العالمين كتاب وضع له تفاسير مثلما وضع للقرآن الكريم ، ما بين موجز مختصر ، ومتوسط معتدل ، وطويل مسهب ، ومع ذلك تبدو هذه التفاسير المتعددة المشارب والألوان كلجج المحيط الواسع التى تحتاج إلى السباح الماهر والملتقط البصير

الواعى ، وإلا اشتط به الطريق ، لأن الكثير من هذه التفاسير قد تسرب إليها بطرق مختلفة الكثير من القصص التى لا تثبت للتحقيق ، والكثير من الأخبار التى لا تحتمل التصديق ، والكثير من التأويلات التى خانها التوفيق ، ولقد برع المكرة من اليهود اللئام منذ صدر الإسلام فى دس الدسائس وبث المفتريات عن طريق إشاعة الأنباء والقصص والأوهام المتعلقة بتفسير القرآن ، محاولين بذلك أن يطمسوا جلال القرآن أو يحجبوا ضوءه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولم يعدهم المسلم البصير إذا رجع إلى كتب التفسير أن يأخذ كل ما يجد أو يعب من كل ما يصادفه بلا تدبر أو تميز ، بل أصبح همه كل همه أن يعزل مالا ينبغى أن يقبل مما فيها ، وأن يتتبع القول الحق والتفسير الصدق بين هذا الطوفان الغامر من التفسيرات التى يختلط فيها الغث بالسمين ،والقريب المقبول بالبعيد الغريب ، وهذا الأمر يشعرنا بخطورة واجبنا تجاه القرآن وتفسيره ، لأنه كتاب ربنا وأساس عقيدتنا ، ودستور حياتنا ، ودليلنا فى أولانا وأخرانا ، ومن واجبنا أن نبذل كل ما نستطيع مادياً ومعنوياً لخدمة هذا الكتاب ، وإعزاز هذا الكتاب ، واستمداد العزة كلها من هذا الكتاب ، وحسن التفهم لهذا التنزيل الإلهى المجيد كما أراد الله أن نتفهمه على قدر طاقتنا واستطاعتنا بلا تحريف أو تخريف أو شطط ، وفوق كل ذى علم عليم .

والحقيقة الثانية التى تؤلم وتؤسف أن الكثيرين من المسلمين قد اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وجعلوه وراء ظهورهم ، فهم لا يحفظونه ولا يحفظون جانباً منه ، وهم لا يألفون تلاوته أو الاستماع بتدبر وتأثر إليه ، وهم لا يحرصون على تفهم معانيه وتدبر آياته ، وإن كان منهم من يصغى إليه للاعجاب بنغمات تلاوته وترتيله ، ولو رجعنا إلى تاريخنا البعيد والقريب لوجدنا أن الأمة الإسلامية كانت تحرص على القرآن حفظاً وتحفظاً ، وفهماً وتفهيماً ، وبثاً

ونشراً ، فالطفل المسلم لا يكاد يبلغ السنة الرابعة أو الخامسة حتى يقاد إلى المكتب أو الكتاب ليحفظ القرآن ، وكان الكثير يتمون حفظه ، أو يحفظون أغلبه ، لأنهم يجدون فيه الغذاء والشفاء ، فالله تعالى يقول : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى » ويقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ويقول : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » والرسول يقول : « القرآن مأدبة الله » ويقول : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لصاحبه » ويقول : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

والحقيقة الثالثة التى تمض وترمض أن أغلب وسائل تحفيظ القرآن الكريم صارت فى خبر كان وأصبحت فى طى النسيان : كانت الكتاتيب تملأ بلاد الإسلام فعدا عليها عادى الزمان حتى أغلقت بحجة أنها متخلفة حسياً وصحياً وثقافياً ، وكانت جمعيات القرآن الكريم تناهض غيرها من دعوات غريبة أو مريبة ، فأصابها الحيف حتى تقلص ظلها وكسدت ريحها ، وكان الفتى لا يقبل طالباً فى الجامع الأزهر الشريف ، ولا معاهده الملحقة به ، أو المنبثقة عنه أو المشابهة لنظامه ، إلا إذا كان حافظاً للقرآن الكريم ، فأصبح هذا الشرط كمادة القانون المعطلة أو المجمدة ، يستشهد بها عندالضرورة ولكنها لا تغنى ولا تفيد ، وكان من عادة البيت المسلم أن تدوى فيه عند الصباح أصوات القارئين للقرآن ، وكان المؤمن يرى من واجبه اليومى أن يفتتح نهاره بفتح مصحفه وقراءة حزب منه ، يجعله لنفسه وحسه هادياً ومنيراً فصرنا نجد الكثيرين إذا فتحوا أجهزة الإذاعة وجدوا بها صوت تلاوةسارعوا بتحويل مؤشر الجهاز إلى شىء آخر من غناء أو طرب .

أمام هذا الطوفان من النسيان للقرآن ، والإعراض عن القرآن ، والاستخفاف بشأن القرآن ، يتحتم على أهل الإيمان أن يتنادوا للتلاقى فى ميدان

التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وأن يعقدوا عزمهم على العناية بأمر قرآنهم من كل وجه ، متذكرين قول رسولهم : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . ونحن فى الواقع لا يسهل علينا أن ننسى أو أن ننكر أن أجهزة الإذاعة السمعية والبصرية تردد آيات القرآن فى الصباح والمساء ، وأن عندنا محطة لإذاعة القرآن الكريم ، وأن هناك بعض البرامج التى تدور حول القرآن الكريم ، ولكننا نريد بجوار ذلك أن يشعر الفرد المسلم بواجبه نحو القرآن ، فيكون المصحف معه أو على مقربة منه ، ويكون لسانه رطباً بترديد آيات فيه كل يوم بتدبر وتأمل ، ويكون سمعه مصغياً إلى طائفة من آيات الله البينات فى استماع وإنصات ، ويكون عقله مشغولا بالتفكر فى بعض معانى التنزيل المجيد الذى قال فيه رب العزة جل جلاله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنذكر جيداً أن هذا الكتاب الإلهى المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد حمله المسلمون الأوائل فى أيمانهم ، فأضاءوا به شعاب حياتهم ومسالك دنياهم ، ثم حملوه إلى مشارق الأرض ومغاربها ففتحوا به مغاليق القلوب وعمروا به حنايا الرءوس ، فكان خيراً وبركة ، وهدى ورحمة ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فإلى القرآن يا أمة القرآن نكن من الفائزين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

القرآن كتاب الله

الحمد لله عز وجل ، نصب الدلائل وأنزل الآيات ، وحث على تطلب العبر والعظات : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » أشهد أن لا إله إلا الله ، بشر وأنذر ، وأوعد : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، وقر جنابه ، وعظم كتابه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، ففتح الله له فتحاً مبيناً ، وهداه صراطاً مستقيماً ، ونصره نصراً عزيزاً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى فروع دوحته المثمرة ، وأهل صحابته المزهرة ، والجامعين بين خيرى الدنيا والآخرة : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحق أحق أن يتبع ، وقد قالوا : الحق أبلج ، والله يقول : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » . وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم حين نشرت على الناس بياناً رسمياً تنكر فيه مباركتها لمشروع تلحين القرآن بالغناء مع الآلات الموسيقية واستعدادها للاسهام فى نفقاته ، ومع أن الوزارة كانت حليمة جداً فلم تذع بيانها إلا بعد أسبوع من نشر الخبر المنسوب إليها ، وسواء أكان هذا البيان إنكاراً لشيء لم يحدث حقيقة ، أو تداركاً لهفوة كانت ، أو تخلصاً من تبعة أمر تجل خطورته ، أو إرضاء للشعور الإسلامى الذى هاله مانشر ، فإن البيان على كل حال شيء يستحق الشكر ، وفيه اعتراف من القائمين على شئون التربية بأن للدين مكانته ، وللقرآن قداسته : ولكن هذا البيان مقصور على تحديد موقف الوزارة من تلك البدعة : وتبقى بعد ذلك البدعة فى ذاتها فقد تقوم بها هيئة أو جهة أو أفراد غير الوزارة

وليست هذه البدعة بنت اليوم ، فقد سبقت محاولات لإشاعتها ، ثم فشلت هذه المحاولات أمام يقظة الشعور الديني العام ، وكثير من الملحدين فى دين الله يتواصون بالكيد اللئيم الموصول للاسلام وللقرآن ، وهم يعمدون أحيانا إلى بذر بذورهم ونشر سمومهم فى تدرج على طريقة جس النبض وفتح الباب ، فإن سكت المسلمون أوتهاونوا أوغل الملحدون فى باطلهم وتوسعوا فى كيدهم ، وقد تكررت محاولات التهجم الأثيم على القرآن ، فتارة يقولون إن أخباره لا تطابق العلم والتاريخ ، وتارة يقولون إن قصصه خيالية وليست بحقيقية ، وتارة يقولون إنه غير مرتب يحتاج إلى ترتيب ، وتارة يقولون إن كتاتيب تحفيظه غير صحية فيجب أن تغلق ، وتارة يقولون إن الأزهر — وهو الجهة الوحيدة التى تشترط فى طلابها حفظ القرآن — يجب أن تضم معاهده إلى مدارس التعليم العام : ثم هاهم أولا يحاولون أكثر من مرة أن يتطاولوا على جلال القرآن وهيبته بتعريضه لبدعة تلحينه بالآلات الموسيقية وغنائه كما تغنى القصائد والمواويل، أكبر الظن أن هؤلاء سيعاودون المحاولة لذلك بعد حين طويل أو قليل ، بهذا الأسلوب أو ذاك ، ومن واجب ولاة الأمور أن لا يكتفوا بالموقف السلبي من هؤلاء المتهجمين على حمى القرآن المجيد ، بل من واجبهم أن يحملوا الناس بما لهم من سلطان وولاية على احترام هذا القرآن وتقديس مكانته وعدم التعرض لما يمس جلاله وجماله ...

إن القرآن كتاب الله الذى يقول فيه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق » ويقول : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أوكلم به الموتى (أى لكان هذا القرآن من عظمته

وجلالته) بل لله الأمر جميعاً » . ويصور لنا رسول الله عليه صلوات الله الصورة الطبيعية لتلاوة القرآن الكريم فيقول : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » . فمكان التلاوة هنا هو بيت لله ، والمتلو هو كتاب الله ، والمقصود من التلاوة هو المدارسة لإحلال الحلال وتحريم الحرام ومعرفة الأحكام ، وحلقة التلاوة محفوفة بالسكينة والرحمة والملائكة ، فأين المجال هنا للهو أو العبث أو المجون ؟ ! ...

ولسنا ننسى أن القرآن له جمال أسلوب وعذوبة تعبير ، وأن الصوت الجميل إذا رتله أثر وأثار ، ولكن شتان بين قارئ عذب الصوت مضبوط التلاوة يثير فى النفوس صور الوعد والوعيد ، ومشاعر الخوف والرجاء ، وعواطف الخشية والخشوع ، وبين مطرب يحاول أن يتخذ من تلحين القرآن وغنائه باباً لإطراب الناس وإبهاجهم ، وقد يتعللون بأحاديث فيها ذكر للتغنى بالقرآن والتطريب فيه وتحبيره ، وهذه كلها لا يقصد بها إلا الترتيل المحكم المؤثر المحرك للرغبة فى الخير والرهبة من الشر ، لأن القرآن كتاب تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ولأن الله جل جلاله يأمر نبيه بقوله : « ورتل القرآن ترتيلا » أى اقرأه فى بيان ومهل ونظام ، مع تدبر للمعانى واستجابة للمراد ، لأن معنى الترتيل هو التنسيق والنظام ، وكلما بعدت التلاوة عن التمطيط والترجيع والتلوى كانت أقرب إلى الترتيل والتأثير ، وتحتاج التلاوة إلى مراعاة قواعد التجويد المأثورة ، وأن تكون مصورة للمعانى ، يتأثر بها السامع ويتعظ ، وألا يخرج الأمر فيها عما يليق بجلالة التنزيل وعظمته : « إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » . ويقول الرسول صلوات

الله عليه : « اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها (أى بطرقها فى القراءة) وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق ، فإنه سيجىء بعدى أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء ، لا يتجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » . وفريق من العلماء يرى أن قراءة بعض القراء فيها شطط وانحراف لما فيها من ميل إلى الغناء المعروف ، فكيف إذن ببدعة تلحين القرآن العظيم تلحيناً كاملا كما يريدون ويحاولون على آلات الموسيقى والغناء ؟ ! . . .

والمراد الأساسى من الأغانى هو الإبهاج والترويح ، ثم قد يأتى التأثر الأدبى أو الأخلاقى بمعنى الأغنية إذا كانت شريفة نظيفة ، وهذا النوع بيننا نادر ،وقد يأتى التأثير الحسى أو الجنسى إذا كانت الأغنية تصور النداءات الخسيسة والرغبات الرخيصة ، وهذا النوع بيننا كثير ، وأما القرآن فالمراد الأساسى منه تشريع وتأديب ، وإنذار وتخويف . والأغانى فى أغلب أحيانها تختلط ألفاظها بألحانها فتختفى الألفاظ أو تغمض أو تدق على السمع ، ويجنى عليها المط واللى والتشدق ، فلا يستطيع الإنسان سماع الألفاظ بوضوح ، ولا فهم المعانى بيسر ، ومن الناس من لا يفهمون كلمات الأغنية إلا إذا قرأوها قبل سماعها : فماذا يكون الحال مع القرآن إذا صاحبته الألحان ؟ . لأيهما نستمع ، والحق تبارك وتعالى يقول : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ؟ وكيف نعسر والله يريد التيسير ؟ « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟ ! ... وماذا يصنع الخطيب على المنبر أو أو الإمام فى المحراب إذا أراد أن يتلو القرآن : أيقرأه بغير تلحين ، أم يقرؤه بتلحين فنضع بجواره فرقة لآلات الموسيقى كى تضبط له النغم ؟ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

إن أبناء الإسلام يحيطون القرآن المجيد بكل توقير وإجلال ، وبلغ بهم الحرص على حرمته أن حافظوا على رسم المصحف الإملائى مع ما فى طريقة

المصحف الإملائية من صعوبة على ناشئة اليوم لأنها طريقة بنت قرون وقرون وقد طالب مطالبون بطبع المصحف على الطريقة الإملائية المعاصرة فرفض العلماء ذلك ورفضه شيخ للأزهر لحق بربه وكان شيخاً معروفاً بالتحرر والتجديد ، ولكنهم خافوا من الجرأة على القرآن فسدوا باب الاقتراح والتعديل مهما كان . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نعمل اليوم للوحدة العربية ، ونحرض على الحديث فيها ، وعماد هذه الوحدة هو القرآن ، ولولا هذا القرآن لما بقيت عروبة ، ولا عزّ عرب ، ولولا هذا القرآن لاندثرت العربية وزالت أمام طغيان غيرها من اللغات ، ولكن القرآن الإلهى العظيم هو الذى صان العروبة والعربية ، وكتب لهذه اللغة البقاء والخلود : فإن أردتم مجد العرب فاطلبوه فى ظل الإسلام ، وإن أردتم إعزاز العروبة فأعزوا كتابها الإلهى الأعلى تعز وتعلو ، وإن أردتم سعادة الدنيا ونعيم العقبى ، فاجعلوا القرآن نوراً ودستوراً ، وضياء وشفاء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

مكانة القرآن

الحمد لله عز وجل ، ضلت الطرائق إلا طريقته ، وخابت الدعوات إلا دعوته : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يضل من أعرض عنه ، ويهدى إليه من ينيب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، تعلق بربه فما انفصل منه ، وأقبل عليه فما أعرض عنه ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى الفروع الطاهرة من آله وذريته ، والسابقين من أنصاره وصحابته ، والمستمسكين بكتابه وملته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

شاعت بين المتحللين والملحدين جريمة التطاول على الدين ، والاستخفاف بأوامر الله رب العالمين ، والتجارؤ على إنكار الخالق أو التشكيك فى وجوده ، والسخرية بكتابه وأحكامه ، مع أننا لو تركنا كل الأدلة العقلية والمنطقية على وجود البارئ المصور ، وعلى سمو الدين المنزل من السماء وصدق الكتاب الموحى به من رب السماء ، واتجهنا إلى قلب الإنسان ونفسه لوجدنا لديهما برهاناً أى برهان ؛ وقلب الإنسان رائده ودليله كما يقولون ، وفى نفسه من الدلائل ذات العجائب ما لو أنعم المرء فيه النظر لأعطاه خير العبر ، والقرآن المجيد هو الذى يقول : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ . . .

إن الإنسان قد يغتر بقوته وحيلته ، فيعرض عن حمى خالقه وهدى دينه حيناً طويلا أو قصيراً من الزمان ، ثم تجتاحه جائحة ، أو تلم بساحته ملمة تسد عليه منافذ الحيلة ، وتقطع الطرق أمامه ، فيحاول ما يحاول ،

ثم يضعف ويعجز ، وإذا هو بوعى أو بدون وعى يرفع وجهه إلى السماء قبلة الدعاء هاتفاً فى سره أو علنه قائلا : « يارب » ، فيحس عندها أنه مخلوق ضعيف قد عرف ربه أقوى الأقوياء ، فاستمد من حوله وطوله ، واعتز بقدرته وقوته ، وشعر بالطمأنينة والرجاء وبالراحة بعد التعب والعناء ، وقد يتعرض المرء لخطر من الأخطار ، أو زلزلة عنيفة من أحداث الحياة ، فيندفع إلى رحاب الله ، يجد فى هديه نجواه وسلواه ، وإن لم تمتلئ يده مادة ومتاعاً ، امتلأ قلبه على الأقل سكينة وطمأنينة ؛ وقد يضيق صدر المرء ، أو تحيط به الأحزان والأشجان ، ويصبح فى هم مقعد مقيم ، فإذا امتدت يده إلى المصحف كتاب ربه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتلا جانباً من سوره أو آياته ، أحس كأن مدداً روحياً عجيباً يأتيه من أفق رفيع وسيع ، فيدخل على نفسه بالرضى ، وعلى صدره بالثبات واليقين .

ولقد جرت عادة الناس بأنه إذا أقدم جماعة منهم على أمر جليل له خطورته ومخاوفه تعاهدوا باسم الله جل جلاله على الوفاء والصدق ، ووضعوا أيديهم معاً فوق المصحف الشريف وهم يأخذون هذا العهد ، وكأنهم يتذكرون أن هذا القرآن هو أعظم ميراث سلمه إليهم نبيهم صلوات الله عليه من ربهم عز شأنه ، وهذه اليد النبوية المحمدية هى التى صافحت أيدى المؤمنين آخذة العهد عليهم بأن يكونوا جنود الرحمن وأنصار القرآن وأبطال الإيمانوالسابقين إلى الجهاد والشهادة حتى يفوزوا فى دنياهم بالعز الشامخ وفى أخراهم بالنعيم المقيم : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدعليهالله فسيؤتيه أجراً عظيما».

ولسنا بهذا نستدل لشرعية هذا الوضع ، ولكن المعنى أن نقول إن المتعارف من وضع المتعاهدين أيديهم على المصحف فى موقفهم الدقيقالرهيب هو أنهم قد آمنوا بأن هذا القرآن هو أغلى شىء عندهم ، فهم يلمسونهبأيديهم

ليبنالوا أقباساً من أنوار جلاله وعظمته ، ولو كان لديهم ماهو أجل وأعظم لا تجهوا إليه وتعاهدوا عليه .

وعندما قامت الثورة مثلا فى وادينا ترامى إلى أسماعنا أن الذين نهضوا بأعبائها كانوا يحملون المصاحف عند بدئها بعد أن تعاهدوا عليها ، وكأنهم كانوا يشعرون أنفسهم بأن مايضمه هذا المصحف من هدى وخير فيه مدد أى مدد للذين يؤمنون بربهم ويستعينون بحول خالقهم فى الشدائد والأزمات ؛ وفيه تثبيت للعزائم وتحصين للنفوس ساعة إقدامها حتى تنطلق إلى غايتها التى تؤمن بها ، مفضلة التعب والنصب فى سبيل عقيدة ومبدأ ، على الراحة والدعة فى ظلال مذلة وهوان ! . . . وكذلك ترامت إلينا الأنباء بأن الذين قاموا بالثورة فى العراق الشقيق قد أقسموا حين بدئها على المصحف ، ولمسوه بأيديهم مجتمعة ، وتعاهدوا على المضى فيما اعتزموا دون تردد أو خيانة ، وكأنهم أحسوا أنهم مقبلون على أمر له خطورته وهوله ، فأرادوا أن يربطوا أيديهم بمبعث تيار روحى قوى ركين ، فلم يجدوا أمامهم إلا كتاب الله القاهر فوق عباده ، المسيطر على خلقه ، الذى بجلاله وقدرته تتم الصالحات وتجرى الأمور . . .

ومادام للقرآن فى نفوس المسلمين والمنتسبين إلى دين الله هذه المكانة ، عند الفزع والهول وهذا الإشعاع فى لحظات الشدة وأوقات الروع ، فمن أوجب الواجبات وألزم اللوازم أن يكون هذا القرآن على الدوام رائداً وقائداً ، ومناراً وشعاراً ، فإذا كنا نجد فيه عند الهول أو الهم عصمة وفرجاً فإنا واجدون فيه على الدوام وفى أوقات الأمان والسلام مسعداً وهادياً ، لأنه نور الله المبين ، وحبله المتين ، وذكره الحكيم ، وصراطه المستقيم ، والمخرج من الظلمات إلى النور ، والفاصل بين الحق والباطل ، فيه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ! . . .

فخبرونى أيها الناس . . . كتاب هذا شأنه وهذا سلطانه ، وهذا قدره وهذا مكانه ، كيف ينساه أبناء الإسلام هذا النسيان فى دينهم ودنياهم وهم فى أشد الاحتياج إليه « وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر » ؟ وكيف تخلو منه صدور شبابنا ومحمد صلوات الله عليه يخبرنا بأن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب ؟ وكيف تتقلص ظلال تحفيظه ويتناقص عدد حفاظه يوماً بعد يوم ؟ . وكيف يكون مبلغ أمرنا معه أن نقتحم محرابه وحماه فنخرج على الناس ببدعة تلحينه وغنائه على الآلات الموسيقية كأنه قصيدة شعرية أو قطعة غزلية صاغها شاعر مخمور أو متغزل متبطل ، تعالى كلام ربنا وخالقنا عن ذلك علواً كبيراً ؛ وكأننا قد نفذنا كل شىء يجب علينا نحو القرآن من إجلاله ونشره وتحفيظه وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، والاهتداء بنوره ، والخضوع لدستوره ، ولم يبق إلا أن نلحنه موسيقياً ونغنيه للناس كما تغنى القصائد والمواويل ! . . الكتاب الذى فجر الماء من الصخر الأصم ، وخلق قادة الناس من رعاة الغنم ، وهدى للتى هى أقوم ، ونزله روح القدس ، وجاء تذكرة لمن يخشى ، ولو نزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ؛ هذا الكتاب يراد له ياقوم أن يهون جلاله يوماً بعد يوم ، وتذهب هيبته مرحلة بعد مرحلة ، حتى يصير مجموعة من الأغنيات ، ولو أردنا خدمته حقاً لملأنا به القلوب والعقول ، ولجعلناه المرشد والدليل ، ولقلنا : رضينا بكتاب ربنا قائداً ومقيداً ، ورائداً ومسعداً . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الحرب أولها كلام ، معظم النار من مستصغر الشرر ، والذين لا يرجون لله وقاراً من دعاة الإلحاد والتحلل يكيدون للاسلام وكتابه كيدا من وراء كيد ، وليس لهم من علاج إلا الحزم والعزم ، والحمل على طريق الحق طوعاً أو كرها ، فليتذكر ولاة المسلمين واجبهم نحو القرآن ، وليتذكر كل مسلم حق القرآن عليه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

واجبنا نحو القرآن

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، حدد معالم الطريق ويسر أسباب التوفيق ، وكان لأهل القرآن خير رفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اتخذ من كتاب ربه بصائر للحس والنفس ، والقلب والعقل ، فهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من آله ، والصادقين من صحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

معذرة إليكم أيها الإخوة الأحباب . لاتضيقوا بى ولا تعرضوا عنى ، إذا عدت بكم مرة بعد أخرى إلى الحديث عن القرآن الحكيم ، وعن غربته بين أهله وفى داره : كنانة الله فى أرضه : مصر القرآن ، فإنه الأساس ، وإنه النبراس ، وإنه المقياس ، وإن كناية الله بعزة القرآن تساوى كل شىء ، وهى بدون القرآن لا تساوى شيئاً ، ولقد كل اللسان وما مل من ترداد ذلك ، وسيظل يردده حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . والواقع أن الإنسان كلما أحسن بالإفلاس فى حسه ونفسه ، عاد إلى القرآن فتعلق بأسبابه ، ووقف لدى بابه ، يملأ من نوره قلبه ، ويطمئن بسكينته جنبه ، ويصلح بدوائه عيبه ، ذلك لأن القرآن هو الدواء والشفاء ، وهو الفداء والضياء : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وكلما ضاقت أمام الإنسان مسالك الحياة وشعاب الكون ، وافتقد الرائد عند الحيرة والنور عند الظلمة ، وجد فى القرآن الملجأ والمعتصم : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وواجبنا نحو القرآن الغريب بيننا واجب كبير خطير ، يستوجب المسارعة بالتقاء الهمم والتحام العزائم لإعادة هذا الغريب الكريم المجيد إلى داره وأهله ، بعد تلك الغربة الطويلة القاسية التى جنينا من ورائها الصاب والعلقم، وواجبنا نحو كتاب ربنا هو أن نقبل جميعاً عليه ، حفظاً وتحفيظاً ، وفهما وتفهيماً ، ونشراً وتبليغاً ، ودراسة وتطبيقاً ، لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدنا على ذلك واسع الأجر ورفيع الذكر وسامى القدر ، فيقول : « الماهر بالقرآن (المتقن لحفظه) مع السفرة الكرام البررة » أى فى منزلة الملائكة المطيعين المتولين القرآن المجيد فى عالم الملكوت .

والرسول يريد لنا أن يشغلنا بالقرآن كله ، حتى لا تفتر عنه ولا ننقطع منه ، فقد قيل له : يا رسول الله ، أىالعمل أحب إلى الله ؟ . فقال : الحال المرتحل . قيل : وما الحال المرتحل يا رسول الله ؟ . قال : الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره ، كلما حل ارتحل . أى كلما أتم ختمة القرآن عند سورة « الناس » عاد ليبدأ قراءة القرآن من أول سورة الفاتحة ، وهكذا يظل القرآن سميره وأميره حتى يأتى المؤمن صاحب القرآن يوم القيامة ، فيلبس فى الجنة بفضل القرآن تاج الكرامة وحلة الكرامة ، كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

والرسول يعلمنا أن القرآن كلام الله ، وأنه فوق كلام الناس جميعاً ، وأن من يريد حفظه وإتقانه يحتاج إلى همة ومجهود . ولذلك يشجع الرسول المؤمن على احتمال مالا يلاقيه من مشقة وتعب فى سبيل حفظه القرآن ، ويبشره بالأجر والثواب على ذلك . حتى لايعده جهداً ضائعاً ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الذى يقرأ القرآن وهو يشتد عليه له أجران » أىمن يتعب فى تلاوة القرآن وحفظه له ثوابان : ثواب القراءة ، وثواب التعب فيها ، ويالها من بشرى كريمة من نبى كريم أرسله رب كريم . وهذه البشرى تتلاقى

مع قول الحق جل جلاله : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .
والرسول يرشدنا إلى أن هذا المجهود لا ينبغي أن يكون مجهوداً فردياً ، أو مقصوراً على طائفة دون طائفة ، بل ينبغي أن يكون مجهوداً جماعياً تتلاقى عليه الهمم ، وتتناصر فى تحقيقه العزائم ، وهذا إمام المرسلين يقول : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله عز وجل ، يتلون كتاب الله تعالى ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وهناك فريق من الناس يشغلهم الكم أكثر من الكيف ، والحجم أكثر من النوع ، فنراهم يقبلون على القرآن وأكبر همهم أن يقرأوا أكبر قدر منه فى أقل وقت ممكن ، ويتفاخرون بعدد المرات التى ختموا فيها القرآن خلال وقت قصير . وهذه طريقة تعرض صاحبها غالباً للاخلال بحق القرآن من ناحية التدبر والهيبة والإجلال ، ولأن يقرأ المؤمن قليلا مع الترتيل والتأمل والتأثر ، خير من أن يقرأ كثيراً بلا وعى ولا تدبر ، والحق جل جلاله يقول : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ويقول لصفيه ورسوله : « ورتل القرآن ترتيلا » ويقول له : « لا تحرك به لسانك لتعجيل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » .

ولقد كان عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ولوعاً بقراءة القرآن ، فقال له الرسول : اقرأ القرآن فى شهر . فقال عبد الله ، إنى أجد قوة ، حتى قال له : اقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك. وفى رواية أن الرسول قال له : اختمه فى شهر ، فذكر عبد الله أنه يطيق أكثر من ذلك. فجعل الرسول يقول له فى حواره معه : اختمه فى عشرين . اختمه فى خمس عشرة . اختمه فى عشر . ثم قال له : اختمه فى سبع (وقيل فى خمس) ولم يرخص له بأكثر من ذلك .

وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يدفعنا إلى حفظ القرآن وإتقانه بهذه الصورة ، فإنه يحذرنا أشد التحذير ، أن نحفظ شيئاً من القرآن ، ثم نعرضه للضياع والنسيان بسبب الغفلة ، أو الإهمال ، فهو يقول : « تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصياً من الإبل فى عقلها »أى أشد تفلتاً من الجمال المربوطة تحاول أن تشرد إذا لم يحرص عليها صاحبها ، ومعنى هذا أن القرآن يجب أن يكون شاغلا لنا على الدوام ، لنعيش معه فى روضة الخالق العظيم : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد جرت عادة المجتمع الإسلامى خلال مسيرته الطويلة ، على تشجيع حفظ القرآن بمختلف الوسائل ومتنوع الأسباب ، ومنها تخصيص الجوائز الحافزة الدافعة إلى حفظ الكتاب المجيد ، فالخلفاء والأمراء والملوك والسلاطين والأغنياء وأهل الخير كانوا يتبارون فى هذا المجال : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ، وواجبنا فى مصر القرآن اليوم أن نتأسى بهم ونسير على نهجهم ، حتى نقطع تلك الغربة القاتلة التى يتعرض لها القرآن المجيد ، وحتى نعيد ذلك الغريب الكريم العظيم إلى داره وأنصاره ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

غربة القرآن

الحمد لله جل جلاله « تبارك الذى نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى التوفيق ، والهادى إلى خير طريق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبى القرآن ورائد الإيمان فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه المؤمنين السابقين ، وأتباعه المعتصمين بحبل الله المتين ، « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من الحقائق التى يجب أن تستقر فى أذهاننا ، وأن تسيطر على إدراكنا ، أن أعظم مفخرة هى لمصر أنها مصر القرآن ، وأنها بعزة القرآن تساوى كل شىء ، وأنها بدون القرآن لا تساوى شيئاً ، ومنذ سنوات أقيم احتفال ضخم فى ساحة الأزهر الشريف ، بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم ، حضره رئيس الدولة وكبار رجالها ، وأذيع فى حينه بالإذاعة والتلفزيون معاً ، وقد شاركت فى هذا الاحتفال ، ومن فوق منبر الأزهر هتفت بأعلى صوتى ثلاث مرات قائلا : يا قوم ، إنها مصر القرآن ، إنها مصر القرآن ، إنها مصر القرآن . . . وشهرة مصر القرآن هى أن أبناءها يحفظون القرآن ويتلونه عن « ظهر القلب » ، ويتطلع إليهم أبناء البلاد الإسلامية الأخرى فيعجبون لهم كيف يستطيع هؤلاء الأذكياء الموفقون من أهل مصر أن يرتلوا القرآن حفظاً بهذا الأسلوب الكريم ؟ . .

ولكن القرآن المجيد صار — مع شديد الأسى والأسف — غريباً فى داره وبين أهله ، منذ عشرات من السنين ، فقد كانت كتاتيب تحفيظ القرآن تملأ جنبات الوادى المبارك فى ريفه وحضره ، فى قراه ومدنه ، وكان الطفل أول ما يخرج من داره يتجه إلى « الكتاب » ليحفظ على يد « العريف »

سور القرآن ، فيبدأ بسورة « الفاتحة » منتقلا إلى قصار السور فى « جزء عم يتساءلون » وكلما حفظ الصبى جانباً من القرآن ازداد فرح أبويه وأسرته به ، فقضى أعداء القرآن على هذه الكتاتيب وحالوا بين صبية المسلمين وهذه الصلة المبكرة المباركة بينهم وبين كتاب الله عز وجل . وكان الشرط الأساسى لقبول الطالب فى المعاهد الدينية الأزهرية أن يكون حافظاً للقرآن كله ، بلا تساهل ولا تسيب ، ثم دارت الدوائر السود على الأزهر ، فضاع هذا الشرط الأساسى فأسهم ذلك فى إضعاف الأزهر وإبعاده عن جوهر رسالته .. وكانت قراءة القرآن عند الصباح وقبل النوم ظاهرة طيبة شائعة بين المسلمين رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، يفتتحون نهارهم بكتاب الله ، ويختمون يومهم بكتاب الله، فيكون ذلك مذكراً لهم بما أحل الله سبحانه وبما حرم ، ويجعلهم على قرب من كلمات الله البالغة ، تتحرك بها ألسنتهم ، وتدوى بها آذانهم ، وتخشع أمامها قلوبهم : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . وكان من العادات الشائعة بين المسلمين فى رمضان أن يحضر كل قادر فى بيته قارئاً يرتل القرآن طول ليالى رمضان من بعد صلاة القيام حتى موعد السحور ، ويجتمع الناس للاستماع إلى القرآن ، وكانت هذه الاجتماعات تسمى « بالمساهرة » ، ولكن الزمان حاف بهذه العادة الكريمة فطواها النسيان إلا فى القليل النادر . . . وكانت العادة جارية بين شباب الإسلام بأن يحملوا فى جيوبهم مصاحف القرآن ، لا لمجرد التبرك بحملها ، بل للقراءة فيها كلما تهيأت أمامهم فرصة للقراءة أو الحفظ ، فضاعت هذه الظاهرة مع الأسف ، واختفت هذه العادة ، فأصبح الفتى ربما يتخرج من الجامعة ، وهو لم يمس مصحفاً فضلا عن أن يطالع فيه أو يحفظ سوراً منه . وأصبح المصحف غريباً فى بيوت المسلمين . فإذا عرف الطريق إليها اتخذه أهلها مجرد تميمة ، توضع تحت الوسائد أو تحت الثياب لدفع مرض أو جلب زواج أو ماشاء به ذلك .

وا أسفا على غربة القرآن فى دار القرآن . واحزناً على ضياع صوت القرآن بين أهل القرآن ! . .

إن هذا القرآن هو الذى يقول فيه الحق عز شأنه : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات والأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » . إنه القرآن العظيم واسطة العقد ومركز الدائرة وأساس الدعوة ، إنه القرآن الذى يقول فيه رائدنا وقائدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه ». ويقول « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . إنه القرآن المجيد الذى يقول عنه رب العزة فى حديثه القدسى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . إنه القرآن الجليل الذى يهدد الرسول على تجاهله وتضييعه ، فيقول : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » . وذلك الوعيد يأتى بعد ذلك التحبيب الرائع فى الإقبال على القرآن والعناية به . حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « القرآن مأدبة الله فخذوا من مأدبته ما استطعتم » .

ولا عجب فى ذلك ولا غرابة . فالقرآن صوت الله وكتاب الأبد ومعلمة الدهر ، فهو مثابة الملة والدين ، وهو مصدر التقنين والتشريع ، وهو حافظ اللغة ومحيي البيان ، وهو المذكر بالعقائد والعبادات والمعاملات والعبر والعظات ورائد السلوك ومكارم الأخلاق ، فمن حق القرآن أن يكون له الصدر والقدر وحسن الذكر عند الذين يعقلون ويؤمنون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد طالت غربة القرآن بين أهله ، وقد آن ياقوم أن تعيدوا ذلك الغريب الجليل الكريم العظيم إل داره وأنصاره ، فمتى ينفخ الله فى صدورنا هماً وعزائم تدفعنا إلى الإقبال على كتاب الله حفظاً وتحفيظاً ، وفهماً وتفهيماً ، ونشراً وتبليغاً ، ودراسة وتطبيقاً . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

من بيان القرآن

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله جعل القرآن نوراً لأوليائه وناراً على أعدائه : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل القرآن عماد ذكره وضياء صدره ، فكان خير المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأهل صحبته ، وأتباعه وأنصاره دعوته ، « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من عيوبنا أننا لاننال القسط الكافى من الثقافة الإسلامية ، ولذلك يظل أكثرنا فى جهل بأمور الدين ، أو بمعظمها على الأقل ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، مع أنه العماد والسناد ومشعل الرشاد ، ومع أنه الكتاب الذى قال فيه رب العالمين : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرشد فآمنابه ولن نشرك بربنا أحدا » ، وقال فيه سيد المرسلين : « هو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، ولايشبع منه العلماء ، ولا يخلق (لا يبلى) على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » .

أقول هذا بمناسبة أن شاباً مسلماً جاءنى يقول : « إن القرآن يتناقض مع نفسه » هكذا عبر ، فسألته : ولم يابنى ؟ . فقال : إنه فى سورة يقول « رب المشرق والمغرب » وفى أخرى يقول : « رب المشرقين ورب المغربين » فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ . فقلت له : هوّن عليك يابنى فالعيب منا لا من

القرآن ، لأننا لم نقرأه ، وحين قرآناه لم نتدبره ، ولو فعلنا لما سألنا مثل هذا السؤال ، والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ». ثم قلت له : إن القرآن لم يذكر المشرق والمشرقين ، ولا المغرب والمغربين فحسب ، بل فيه مشرق ومشرقان ومشارق ، وفيه مغرب ومغربان ومغارب ، ولا تعارض ولا تناقض ولا اختلاف .

لقد قال القرآن الكريم : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » . وقال : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » . وقال : « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» والمشرق حيث تطلع الشمس ، والمغرب حيث تغيب ، ويكنى بذلك عن الدنيا كلها ، والمراد بهذه الآيات وأمثالها تقرير أن الجهات كلها لله ، وكلها مخلوقة لله ، وكلها خاضعة لجلال الله : هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين دونه » . والله وحده — لذلك — هو المعبود الحق ، وحيثما اتجه الإنسان وجد عظمة الله وجلاله ، ووجد خلقه ورزقه ، وهو سبحانه الذى يهدى إلى صراط التوحيد والإخلاص ، وعقيدة التنزيه واليقين . والإشارة إلى المشرق والمغرب فيها تذكير بالشروق والغروب ، وفيها تذكير بتوالى الليل والنهار ، ولاشك أن تواليهما فى نظام مطرد واتساق محكم دليل أى دليل على قدرة الله عز شأنه : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون».

والقرآن المجيد يقول أيضاً : « رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان » . والمراد بالمشرقين مشرق الشمس ، ومشرق القمر ، وبالمغربين مغرب الشمس ومغرب القمر ، أو المراد هو مشرق الشمس فى

الشتاء ومشرقها فى الصيف ، وكذلك مغربها فى الشتاء ومغربها فى الصيف .
جاء فى الجزء الأول من كتاب « يسألونك » يقول الألوسى ص ٤٠٣

وكذلك قال القرآن : « إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق » وقال : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون » . والمراد بالمشارق هنا هو مطلع الشمس كل يوم ، لأن للشمس مشرقا كل صباح كما يرى كل مبصر ، والمراد بالمغارب هو مغرب الشمس كل يوم ، ففى كلٍ مساء تغرب الشمس وتغيب ، وكذلك يقال عن القمر المتكرر المشارق والمغارب ، وقيل إن المراد هو مشارق الشمس ومغاربها فى الفصول المتعددة المتوالية ، فإنها تختلف ما بين شتاء وربيع ، وصيف وخريف ، وقيل إن المراد مشارق النجوم والكواكب ومغاربها ، فكل نجم يشرق فيظهر وينجلى ، ويغرب فيغيب ويحتجب ، وكل هذه الأقوال لا يتعارض واحد منها مع الآخر ، فإن كلمتى المشارق والمغارب تشملها وتضمها : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . قصاصة ٣٣٣ .

والحديث عن المشارق والمغارب يذكر بأن الله جل جلاله هو المالك لمشرق كل نجم ومغربه ، فهو المتصرف فيه إيجاداً وإعداماً ، وإبرازاً وإخفاء . وهو القيم المهيمن على مابين المشارق والمغارب ، أى على أرجاء هذا الكون العريض الوسيع الذى يشمل الأرض والسموات ، وما وراء الأرض والسموات ، بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير . ولو أننا تعمقنا فى تصورنا لحركة الأرض أمام الشمس لأدركنا أنه فى كل لحظة يحدث شروق وغروب على بقاع الأرض الممتدة المستديرة ، وذلك أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، فيطلع مشرق ويختفى مغرب ، وهكذا دواليك دون انقطاع (رأى الخبراء ص ٤٠٥ يسألونك)وكأن هذا تذكير أيضاً

بأن الله جل جلاله هو المسير وهو المسيطر ، فى كل زمان وفى كل مكان وأمام كل إنسان تبدو يد الله المبدعة المحركة الحافظة .

وفى كل شيء له آية　　تدل على أنه الواحـــد

والشروق والغروب ظاهرتان تحدثان كل يوم أمام الإنسان ، بإحداهما يبدأ النهار ، وبالأخرى يختتم ، وبين الشروق والغروب ساعات تقبل ثم تمضى ، وفرص تتهيأ ثم تضيع ، والمؤمن ابن وقته ، وخير الناس من أخذ من شبابه لهرمه ومن قوته لضعفه ، ومن غناه لفقره ، ومن يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته ، فقد قال سيد الخلق : نعمتان مغبون فيها كثير من الناس الصحة والفراغ

ولعل الله جل جلاله لم يحدد المراد بكل لفظ فى كل موطن ، ليثير الأذهان ويحرك العقول إلى البحث والنظر ، والتأمل والتفكر ، وبذلك يشعر الإنسان بقيمته وكرامته ، ويصدق عليه قول ربه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . والقرآن بعد هذا ومعه هو الذى يحرض الناس أشد التحريض على استعراض ملكوت السموات والأرض لمعرفة الحقائق وكشف الدقائق واستخدام القوى والطاقات ، ولذلك يقول التنزيل المجيد : « وفى الأرض آيات للمؤمنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إذا كان القرآن هو كتاب العقيدة الصادقة ، والشريعة العادلة ، والأخلاق الفاضلة ، والعبر الماثلة ، والجهاد الموصول ، والكفاح الدائم فإنه أيضاً كتاب العلم والمعرفة ، كتاب الإعجاز والبيان ، فلنعد إليه ولنعكف عليه نكن من الفائزين أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

لغة القرآن

الحمد لله عز وجل ، جعل القرآن ضياء وشفاء ، وهداية وبياناً « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله : حكمه خير الأحكام ، وكلامه أفضل الكلام : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتى جوامع الكلم ، ورزق فيض الحكم ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

منذ يوم وبعض يوم رددت الصحف السيارة شكوى أساتذة الجامعة وأخذوا يشكون من ضعف أكثر طلابها فى اللغة العربية ، فهذا رئيس قسم فى كلية يقول إنه لا يوجد طالب من طلبته يستحق النجاح وذلك ، لانعدام شخصيتهم ، وضعف اطلاعهم ، ولأنهم يجيبون على الأسئلة بلغة سقيمة تدل على جهلهم التام باللغة العربية الصحيحة ، وهذا أستاذ ثان يقول إننا نحاول أن نعلم الطلاب الثقافة واللغة ، ولكن يبدو أنهم لا يريدون ، وهذا ثالث يقول إن الطلاب يخطئون أخطاء لغوية وإملائية فاضحة ، وكثير منهم لا يفرق بين الفاعل والمفعول ، ولا بين المثنى والجمع ويقول رابع إن ضعف مستوى الطلبة فى اللغة العربية أمر واضح ، وهو موضع شكوى من جميع الأساتذة ، وهذا مظهر خطير لتدهور اللغة العربية ، ومن الواجب معالجة هذه الحال بالعلاج الحاسم .

هذه نماذج مختصرة من ألوان الشكوى التى أبداها الأساتذة ، ومن الواضح أن مستوى التعليم بين شبابنا قد هبط ونزل بصفة عامة ، وهبط ونزل فى علوم اللغة بالعربية بصفة خاصة ، وأصبح لا يقام كبير ميزان لهذه العلوم من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، وهذا من غير شك خطأ كبير ، وتفريط واضح لا يليق أبداً بما نحن فيه من اعتزاز بالقومية العربية وجهاد لها : بل إن التهاون فى أمر اللغة العربية تهاون فى العقيدة والقومية معاً ، لأن اللغة العربية تمثل العقيدة والقومية معاً ، فهى قومية لأنها لغتنا الوطنية ، وشعار قوميتنا العربية ، وباب إدراكنا لمفاخرنا الموروثة وأمجادنا المأثورة ، ووسيلة لمطالعة الصفحات الزاهرة من تاريخ العروبة المؤمن ، ولها صلتها الوثيقة بالعقيدة ، لأنها لغة القرآن : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » . ولقد أشار القرآن الكريم إلى عربية القرآن فى أكثر من عشرة مواضع ، ففى سورة الشعراء يقول : « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » ، وفى سورة الأحقاف : « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » وفى سورة طه : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » . وفى سورة الزمر يقول : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون» وفى سورة فصلت يقول : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون »،وفى سورة الزخرف يقول : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » وفى سورة الشورى يقول : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . وفى سورة الرعد يقول : « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم

بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولاواق » وفى سورة النحل : « وهذا لسان عربى مبين » . وفى سورة فصلت : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . وهذا من غير شك تنبيه للأبصار والبصائر إلى أن فهم القرآن على وجهه يتوقف على معرفة اللغة العربية وفقهها ، ولذلك ، كان من واجب رجل الدين الإسلامى يحث على تعلم هذه اللغة ، وأن يغضب إذا رأى تهاوناً بها أو إجحافاً لحقها .

والعجيب أن الرسول صلوات الله عليه سبق المتحدثين عن العروبة منذ قرون وقرون ، فقرر أن عماد العروبة هو اللغة العربية واللسان العربى ، فلقد خطب النبى ذات يوم فقال « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » : ولقد كان محمد خير داع للعربية ومحرض عليها ، ببيانه العربى المشرق ، وترديده لآيات ربه البينات ، وحثه على تعلم العربية وتجنب الخطأ فيها ، ولقد روى عنه أنه سمع رجلا يلحن أمامه فى لغته ، فقال لمن حوله : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » فجعل الخطأ فى اللغة ضلالا يحتاج إلى الإرشاد والتقويم ، ومعنى هذا أن الذين يعلمون العربية ويحضون عليها يقومون عوجاً ، ويحاربون ضلالا ، ويحققون للناس رشادا ، ولقد صرح الإمام الشافعى فى كتابه المشهور « الأم » بوجوب تعلم اللغة العربية على المسلم ، فقال : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده » وذكر أنه كلما ازداد الإنسان علماً باللسان العربى كان خيراً له ، وقال بعض العلماء إنه لم يخالف الشافعى أحد فى هذا الحكم ، فكان ذلك كالإجماع [١] .

---

(١) أنظر تفسير المنار ج ٩ ص ٣١٠ وكتاب الوحى المحمدى لرشيد رضا .

وهذا هو الإمام الثعالبى يقول فى مقدمة كتابه (فقه اللغة) : كلمة نحفظها منذ الحداثة : « من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التى نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها ، وصرف همته إليها » .

ونحن نراجع تاريخ هذه الأمة العربية المسلمة فنجد لها عناية عجيبة غريبة بلغتها ، وحرصاً بليغاً منها على تقويم ألسنتها ، فنجد فيها البيان المشرق والنطق السليم عند الكبار والصغار ، والرجال والنساء ، والمخدومين والخدم ، ولقد كان من أكبر العيوب عندهم فى الإنسان ألا يحسن لغته أو لا يضبط منطقه ، وكانوا يعيرون من يصاب بذلك أوجع التعبير ، وكانوا من حرصهم على لغتهم يجعلون إتقانها هدفاً من أهدافهم وأمنية لهم فى حياتهم ، ولقد كان للحاكم العادل والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه نفس تواقة ، وكان من أوائل الأشياء التى تاقت إليها نفسه العلم بالعربية والفقه لها ، حتى نال من ذلك حاجته وبغيته كما أخبر هو عن نفسه ، ثم إتجه إلى غير ذلك من الشئون . يقول فيما يقول : « إن لى نفسا تواقة ، ولقد تاقت نفسى إلى العلم بالعربية فأصبت منه حاجتى ... » . وهذا هو الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يقول : « تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض » ويقول « الإعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة للشريف » ، وهو أيضاً القائل يعبر عن حرصه على البيان السليم : « شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ! ! ..

هكذا كانت أمتنا فى عصور نهضتها وعهود قوتها ، وأيام اعتزازها الصحيح السليم بعقيدتها وقوميتها ، وأدبها ولغتها ، ثم صار كثير من الأخلاف إلى غير خطة الأسلاف ، فجاءت العجمة بدل البيان ، واحتلت العامية مكان الفصحى ، وشاع اللحن حتى صار الإعراب أمراً يستثير الضحك

والسخرية ، وبينهما توجد هذه الحالة السيئة لشبابنا فى جهلهم بلغة قرآنهم ووطنهم نجد من بعض وسائل الأعلام تندرا على اللغة العربية ومدرسيها ، وعلى النحو وقواعده ، وعلى العمامة والمعممين الذين يمثلون الغيرة والحرص على هذه اللغة ... نعم يتندرون على مدرس اللغة العربية الجندى المجهول المظلوم المهضوم ، وعلى اللغة الفصحى معقد فخر العرب ومجمع عزهم ، وعلى العمامة التى كانت تاج المسلمين فى كثير من العهود ، وشارة الوقار فى كثير من الديار ؛ والتندر بالعمامة فى الواقع تندر بصاحبها ، وهو فى الغالب رجل دين ، والتندر به وسيلة للاستخفاف بالدين ، وهذا هو المقصود الخبيث اللئيم لهؤلاء ، والتندر بمدرس اللغة العربية سابقاً أو لاحقاً ولو بسبب بعض الغلو منه أو الاعتساف فى طريقة التدريس لا يتناسب مع ما يجب علينا من تكريم للغتنا ، وتثبيت لدعائمها بكل وسيلة ، وإذا كان هناك فى تدريس اللغة العربية ما يحتاج إلى تهذيب أو إصلاح ، فليتم ذلك دون تندر أو سخرية ، وإلا ساءت الظنون والتأويلات والتفسيرات لهذا التندر المتكرر على رجال اللغة العربية الذين هم فى الوقت نفسه علماء الإسلام . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد اشتغلت بالتدريس فى بيئات دينية وبيئات مدنية ، فرأيت اللغة تقوى وتستقيم فى البيئة الدينية ، وتضعف وتسقم فى البيئة المدنية ، والسر فى ذلك شىء واحد ، هو أن البيئة الدينية تعتمد فى تقويم ألسنتها وتصحيح لغتها على القاموس الأكبر والمنبع الأعظم والمثقف الأقوم للسان والجنان ، وهو كتاب الله العظيم القرآن الكريم القرآن الذى كاد ينسى من الإغفال والإهمال فضعوا المصاحف بين أيدى الشباب . ليطالعوا فيها قرآناً عربياً غير ذى عوج

وبياناً إلهياً سامياً لا يعتوره نقص . واحملوهم على تقويم لغتهم وتصحيح بيانهم ، ليجمعوا بين فقه العقيدة وعزة القومية : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حفظ الامانة

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والمؤاخذ لكل يد بما اجترحت ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كاشف الغمة وهادى الأمة إلى أقوم طريق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون » .

إن الشخصية المؤمنة لها صفاتها ومقوماتها ، التى ترشد بها وتعز ، والتى تركن إليها وتحرص عليها ، متخذة منها درع مقاومة فى حياتها التى تقيمها على الإيمان والعمل والكفاح والاستقامة ، ومن هذه الصفات صفة الأمانة والأمانة فى مفهومها العام ومضمونها السليم هى حفظ كل ما بين يدى الإنسان من أشياء أو حقوق أو تبعات ، وهى صفة تفيد إحساس صاحبها العميق بالتبعات الملقاة على عاتقه فى كل شأن يقوم به ، سواء أكان وظيفة يباشرها ، أم موضوعاً يدرسه ، أم رأياً يعرضه ، أم مشروعاً ينفذه ، أم شيئاً مادياً أومعنوياً أودع لديه واؤتمن عليه ، فهو يصونه ولايخونه ، وهو يقوم بحقه فى كل حال من الأحوال ، وعلى أى وضع من الأوضاع ، حتى ولوكان بعيداً عن عيون الرقباء والمتابعين ، لأنه يؤمن فى أعماقه وطواياه بأن معه دائماً ذلك الرقيب الأعلى ، وهو الله جل جلاله ، الذى يعلم السر والنجوى : « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

وإذا كان عرف العامة قد جرى على إطلاق كلمة « الأمانة » على حفظ

الودائع المادية التى توضع عند الإنسان لحين من الزمان، فقد ضيق هذا العرف واسعاً ، لأن هذا الحفظ المادى ليس إلا لوناً من ألوان الأمانة التى تتعدد وتتجدد، فتشمل المحسوس والمعقول، والظاهر والباطن ، وما يتصل بالماديات والمعنويات ، ولعل هذا هو ما تفيده عبارة التوديع التى علم النبى صلى الله عليه وسلم أتباعه أن يقولوها لأخيهم المرتحل عنهم : « نستودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك » .

ولقد زكى القرآن الكريم مكانة « الأمانة » حين تحدث عنها حديثه الجميل الرائع ، فجعلها سمة واضحة من سمات المؤمنين ، فقال عنهم : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، وجعلها صفة لسفير الرحمن جبريل عليه السلام فقال : « نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين » : وجعلها صفة لأنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال على لسان أحدهم : « إنى لكم رسول أمين » قال أيضاً : « أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » أى أمين على دعوة ربى، وأمين على ما أبلغه، لا أكذب فيه ولا أخون ، وهذه بنت شعيب عليه السلام تجعل الأمانة — كما أخبرنا القرآن الكريم — مصدراً لإعجاب المرأة الحرة النجيبة بالرجل الأصيل النبيل ، فتقول لأبيها عن موسى عليه السلام : « إن خير من استأجرت القوى الأمين ».

ولقد حث القرآن الكريم المؤمنين — وهم أصحاب الشخصية السليمة القويمة على حفظ الأمانة ، والحذر من الخيانة ، فقالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ،وأعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ، والمراد بالأمانات هنا جميع الأعمال والفرائض والواجبات وكل أمر يؤتمن عليه من قول أو عمل . والخيانة هنا قد تكون بالإهمال أو التقصير أو المخادعة أو إفشاء ما يجب أن يطوى أو تحريف ما يلزم أن يروى فى صدق ونزاهة ، ولما كان الكثير من أعمال

الإنسان فى هذه الحياة له ارتباط مباشر أو غير مباشر بالأولاد والأموال حذر القرآن من فتنة الولد والمال التى قد تدعو إلى الإقدام على شىء من خيانة الأمانة ، وحينئذ يضل الإنسان ضلالا بعيداً ، وبئس المصير . ونجد المفسرين قد تكلموا كثيراً عن قول الله جل جلاله : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » . فنهم من قال إن الأمانة هى شهادة التوحيد ، ومنهم من قال إنها ، العقل ، ومنهم من قال إنها العدل ، ومنهم من قال غير ذلك ، ولكن كلمة الأمانة فى الآية الكريمة كما أبان المحققون من العلماء تشمل جميع التكاليف التى وجهها الله تبارك وتعالى إلى الإنسان ، وهى تقتضى أول ما تقتضى أن يكون الإنسان مخلصاً فى أداء واجبه ، أميناً على أسراره ، مراقباً ربه فى حركاته ، وسكناته ، متقيداً فى أعماله وأقواله بصفة الأمانة التى تجعله على الدوام مستمسكاً بالصراط المستقيم ، لا يحيد عنه ولا يميل عنه ، بل يمضى فى طريق واجبه ، عارفاً له متمكناً منه مقتدراً عليه ، فإن كان جاهلا به أو عاجزاً عنه أو غير صالح له ، فليس من الأمانة أن يتقحم فيه ، وهذا أحد المسلمين يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوليه ولاية وهو لا يصلح لها ولا يقتدر عليها ، فيجيبه المصطفى قائلا له : « إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة (أى عاقبة من يفرط فيها) إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » . وكذلك قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » . قيل : وكيف إضاعتها ؟ . فقال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة ». وتضييع الأمانة قد يحدث فى أمور يحسبها كثير من الناس هينة وهى عند الله عظيمة ، فالخبر الذى يلقيه صاحبه كاذباً غير صحيح فيه عدوان على

الأمانة ، والحديث الذى يفشيه من سمعه فى مجلس ائتمنة عليه فيه عدوان على الأمانة ، ولقد ورد فى السنة المطهرة : « المجالس بأمانة » وهذا تنبيه إلى ترك الكلام عما دار فى مجلس الحديث الخاص من قول أو عمل ، ولعل أخطر مواطن الأمانة شأناً ، وأجلها حرمة ، المواطن التى يدور فيها حديث أو بحث أو عمل يتعلق بسلامة الأمة أو كيان الدولة ، وأسرار قواتها ومعداتها ، والأفراد الذين تهيء لهم الأقدار أن يطلعوا على شيء من هذه الجوانب الدقيقة الجليلة يصبحون حراساً للأمانة يطوون الأسرار ، ويكتمون مالا يذاع من الأخبار ، والإسلام يعد كل من حمل تبعة من تبعات الأمة أحد رعاتها وهداتها ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » فالتبعة الملقاه بين يديه أمانة يسأل الله عنها وعن صيانتها ، ويطالبه بحفظها وأدائها ، والله تعالى يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . والحديث يقول : « أد الأمانة إلى من ائتمنك » ويقول : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

فلنتذكر أن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يدعو ربه فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة » وليتذكر كل منا أن بين يديه أمانة أو أكثر من أمانة ، فليتق الله ربه فيها ، وليحسن رعايتها وصيانتها ، وإلا تعرض لغضب الجبار الذى يقول : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

سماحة تعلو على الاحقا د

لك الحمد يامن تختار لرحمتك من عبادك من تشاء ، فتكسوهم بالحكمة وتزينهم بأخلاق السماء،وقد يستخف بهم الطغام اللئام بينما تصلى من أجلهم الملائكة الكرام ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الغالبون ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، منبع الإلهام ومصدر الإنعام ، وأنت ذو القوة المتين ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من ترفع عن وضيع الخصومات ، وأفضل من تنزه عن رخيص الانتقام والشمات ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه المحسنين الصادقين ، وأتباعه المؤمنين الموقنين ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

النفوس البشرية أصناف وأشكال ، منها الطيب الأصيل ، ومنها الخسيس الوبيل ، فالنفس الأصيلة هى التى تتعالى دائما عن دنس التراب إلى طهر السحاب ، وتتذكر باستمرار نزعتها الإنسانية الصافية ، وتترفع عن الأحقاد والأضغان ، وإسراف البغى والطغيان ، وهى تحفظ للجميل حرمته وقيمته ، وتقذف بالسيئة إلى هاوية النسيان ؛ وأصحاب النفوس الأصيلة قد يقدرون على أعدائهم ولكنهم يعفون ، أو إذا أخذوا حقهم وأنصفوا أنفسهم لا يسرفون ولا يعتدون ، بل يقتصرون على محاسبة من باء بكبر الإثم أو أوقد نار الظلم ، وأما النفس الخبيثة الضعيفة فهى لا تتماسك أو تتنزه ، بل تهوى فى خصومتها إلى قرار سحيق ، ولا تفرق فى عداوتها بين القائم والقاعد ، أو بين المسيطر والمسخر ؛ ولذلك نرى شهوة الانتقام والتشفى عندها تعميها وتصمها ، فتنطلق

على وجهها عمياء وصماء رعناء ، تنشى ممن يستحق المؤاخذة ومن لا يستحقها وتأخذ البرئ بذنب الأثيم ، والآمن الهادئ بتبعة المستعصى الهارب ، وكأنما هى فى حالة تشفيها وشماتها كلب مسعور أطلق له السراح بلا أى حساب فولغ فى الدماء بلا ارعواء ، وماذلك بجائز فى شرعة الأحرار من الرجال . والإسلام الذى جاء ليعلم الناس مكارم الأخلاق وفضائل الشيم يحبب المسلم فى العفو عند المقدرة ، والتعفف عن الولوغ فى جسم الخصم عند وقوعه ، وإذا كان هو حقيقة يأمره بأن ينتصر لنفسه ممن بغى عليه ، وأن يجاهد من يسلبه حقه ، فإنه أيضاً يحرضه على الإحسان حتى مع المسيئين ، رجاء الإصلاح والتقويم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . والإسلام أيضاً يأمر أهله بأن يفرقوا بين الظالمين الباغين المقتدرين المختارين وبين الأدوات المسكينة التى كانت مسخرة فى أيدى أولئك الباغين من المحكومين أو المرءوسين ؛ ولذلك رفع الإسلام التبعة والمؤاخذة الكاملة عن المكره المضطر الذى ليس له اختيار أو اقتداء فيما سبق من تصرف ذميم أو عمل أثيم ! ! ... والله الذى أنزل الإسلام شرعة ومنهاجاً ، ووعد بحفظه إلى يوم الدين لا يزال يعز ملته بفئات من أهل الحق وطوائف من هداة الأخلاق ! . .

حدث أخيراً أن قاد جندى طائش عربة كبيرة من عربات الجيش ، ومر بها على معتقل « هاكستب » وهو البقعة النائية التى تضم الكثيرين ممن حوربوا فى أرزاقهم وحرياتهم ، فصدمت العربة جندياً من حراس المعتقل صدمة قاتلة قضت عليه فى الحال ، تاركاً خلفه زوجته المسكينة وأطفاله الأربعة ... مات الجندى الحارس من صدمة مفاجئة لم تمهله ، وهو مدجج بسلاحه الكامل الصالح للاستعمال والقتال ، فلم يعصمه السلاح من ريب المنون ؛ مات الجندى الحارس وهو فى مظهر من يهدد ويرهب قوماً من كرام الأمة

معزولين مجردين من الحرية والمال والارتزاق ، ومن يدرى ، لعل ذلك الجندى المسكين اشترك مع غيره راضياً أو كارها عدة مرات فى حملات الإرهاب والتعذيب والتنكيل بأولئك المعزولين أو أشباههم ممن يمثلون الصفوة المختارة من شباب الأمة ورجالها ، يوم كانت الظلمات الكثيفة الأثيمة تحيط بالبلاد ! ... فماذا كان ياترى موقف أولئك المعذبين من مصرع الجندى الذى كان يرهبهم بسلاحه المخيف ؟ . . . إنهم لم يفرحوا لموته كما يفعل السفهاء ، ولم يروا فى سقطته المثيرة لمشاعر الإنسان النبيل انتقاماً من الله لهم ؛ وكيف وهم العلماء الحكماء المدركون حق الإدراك أنه لا ذنب فى الحقيقة لذلك الجندى ، الذى كان يسخر فى مهمته القاسية الشاذة تسخير المرغم المقهور ؟ ... وكيف وقد علموا أن وراءه أطفالا وأولاداً من الإجرام والكفران أن يؤاخذوا بجريره غيرهم أو تفريط سواهم ؟ ... وإذن فعليهم أن يتصرفوا حيال هذا الموقف تصرفاً حكيما يستوحون فيه دينهم الذى يغارون عليه ويعتصمون به ، فما كان منهم وهم الفقراء العاطلون المعزولون خلف الأسوار إلا أن جمعوا من أنفسهم عشرين جنيهاً ، وقدموها كمساعدة متواضعة لأسرة الجندى الصريع ! . . . نعم إنه مبلغ صغير لا يقاس بما نسمع ونقرأ عن تبرعات الأثرياء الأغنياء المحفوفة بالزهو والاحتيال والرياء ، ولكن هذا المبلغ القليل خير من الآلاف ، لأنه مقدم من مسجونين إلى سجان ، ومن مقطوعين محرومين معدمين ، طال عليهم الأسى واستبدت بهم الأزمات ، وكل منهم فى حاجة إلى قرش لقطعة صابون ينظف بها جسمه ، أو وجبة طعام مناسبة يقيم بها أوده بعد أن ضنت عليه العزلة بهذه الأشياء ! ...

وهذا أستاذ كبير يحمل شهادة علمية فريدة ، وهو مدرس جامعى ، يقضى عاماً أسود أغبر فى عزلة نكراء خلف الأسوار بلا تهمة أو إدانة ، ثم يرفع عنه ذل الإسار يوم صرع ذلك الجندى ، فلا يفكر الأستاذ الجامعى

الممتاز وقد عاد إلى حياة الحرية والانطلاق فى المطالبة بتعويض لنفسه ، أو استرداد لما فاته من حقوقه ، أو تطهير لما افترى عليه فى سمعته ، بل يكون أول همه أن يناشد ولاة الأمور فى جهارة وإخلاص ، بأن يسارعوا بالتبرع لأسرة ذلك الجندى الصريع ، الذى ترك من خلفه ذرية ضعافاً لا يملكون سبداً ولا لبداً ، فأين الذين شردوا وبددوا ، وأخذوا البرئ المنعزل بتبعة البرئ المفترى عليه ؟ .. أين هؤلاء ليتعلموا كيف ترقى العواطف الإنسانية ، وكيف تتهذب المشاعر البشرية ، فتسمو وتسمو حتى تدنو من أخلاق الملائك فى أرجاء السماء ؟ ... أين أولئك الذين أسرفوا فى التشفى الوضيع والانتقام الشنيع ، ليروا مسلماً فقيراً لا يملك داخل الأسلاك الشائكة من حطام الدنيا شيئاً ، ولكنه يجمع من جيبه وجيوب أمثاله ممن حوله جنيهاً واحداً وعشرة قروش ، ويبعث بهذا المبلغ القليل الذى لا يقدرون على أكثر منه إلى صحيفة يومية مشهورة ، لتجعل منه أساساً لتبرعات أكثر وأكبر تخصص لأسرة ذلك الجندى القتيل ؟ ! .

هذه هى الأخلاق أيها الناس ، وهذا مثل رفيع للشعور الإنسانى يأتينا من الذين قيل عنهم إنهم أرباب الفتنة وأسباب المحنة ، نراهم وقد نسوا أحقادهم وذكروا أوطانهم ، وتغافلوا عن حسابهم مع جلاديهم وذكروا حق الإنسان على أخيه الإنسان .. وهكذا يجب أن لا تشغلنا الخصومات عن المثل العليا والمبادئ الرفيعة والأخوة الإنسانية ، ويجب أن نتذكر على الدوام أن الزبد — كما قال الحق — يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ؛ وليت كل مسلم فى العالم يهتدى بمثل هذا الضياء فى الأخلاق والمعاملات ؛ إذن لسادت المحبة بين الجميع ، ولحل الصفاء والإخاء ، محل الخصام والشحناء ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . :

ولوا وجوهكم مرة أخرى إلى ربكم ، وأقيلوا أقدامكم من عثراتها ، وأزيلوا عن نفوسكم سيئاتها ، وأصلحوا ما فرط من أخطائها وزلاتها ؛ ولا تسرفوا فى الخصومة والشقاق ، وأعيدوا تشييد المهدوم من البناء الطويل العريض ، وسووا صفوفكم جنوداً أطهاراً أبراراً ، سمحاء أبرياء ، لا تعملون إلا لوجه الله والوطن ، ومصلحة البلاد والعباد ، والله معكم ما دمتم معه ، وهو ناصركم ما دمتم مخلصين فى التوجه إليه والاعتماد عليه ، والثقة به والرجاء فيه ، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، كما قال محمد العظيم عليه الصلاة والتسليم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

الحرية ضمان الأمان

الحمد لله ، كرم الإنسان فجعله سيد نفسه ، لا يحنى قامته ، ولا يذل هامته ، إلا لبارئه ومولاه ، « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الكبرياء رداؤك ، والجلال صفتك ، والكل عندك أنداد وأكفاء « وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كرم صحابته فاسترق منهم القلوب ، وخفض لهم جناحه ففدوه بالأمهات والآباء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، وأتباعه هداة الأنام ، « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

نشرت إحدى المجلات حواراً هزليا بين تلميذ وأمه ، وفى هذا الحوار يقول التلميذ : إننا لم نضرب اليوم يا أماه لأننا لم نشاهد العساكر . . . وهذه العبارة المازحة تطوى بين ألفاظها معنى دقيقاً يجب أن نتدبره ، لأنه يفيدنا أفراداً وجماعات ؛ هذا المعنى هو أن الإنسان مصاب بداء العناد ، ويحتاج إلى حكمة وخبرة فى علاجه ووقايته من ذلك الداء ، فإن رؤية التحكم والتسلط تثير الرغبه عنده فى إثبات الذات والخروج على التسيطر ، وتحرض على الاضطراب والقلق ؛ والأمة إذا نالت حريتها فى قسط ووفاء ، وتمتعت بحقوقها فى أمن واستواء ، وشعرت بكرامتها عن صدق لا عن رياء ، سهلت قيادتها ، وارتفعت معنويتها ، واطمأن رعاتها ؛ وأما إذا أخذت بالقهر والغلب : وأرغمت على الشىء لا تريده ، أو الوجهة لا تؤمن بها ولا تطمئن إليها ، فإنها تغضب وتخالف ، وتخدع وتلؤم ، وقد تتظاهر بالطاعة والصفاء

تقية وخشية ، ولكنها فى باطنها تتربص بأعدائها الدوائر ، وترقب يوم الخلاص ولو كان بعيداً ؛ ومن هنا يتولد التزلزل والتبلبل ، وتفرخ أعشاش الفتن والمحن ؛ وأنت قد تمتلك قوة الإغراء أو الإكراه فتستذل الجماعة ، أوترغمها على وضع من الأوضاع ، وقد تخضع لك أو تخنع ، وقد يطول على ذلك الزمان ويمتد ، ولكنك لن تستطيع أن تأمن هذه الجماعة أبداً ، مهما كنت قوياً ومهما كانت ضعيفة ، لأن العلاقة بين الطرفين قائمة على التنافر والتخون والعداء ، بعد أن تقوضت دعائم الثقة والصفاء ، وكيف يطمئن مسلط على قوم يرى أنهم لا يحبونه ولا يألفونه ، وكيف يخلص القوم لباغ يتحيفهم ويهضمهم ؟ . . . وأما يوم تستخدم قوة إغرائك فى تحريض الجماعة على التنافس فى ميادين الخير والبر ، ويوم تسخر قوة إكراهك فى حمل مريضها على تناول الدواء ، وحمل فاسقها على الفضيلة ، وحمل مجرمها على الصلاح ، ويوم تشعر الجماعة أنك لها خادم ، وإن كنت منها فى الذؤابة حسباً ونسباً ، فإنك ستستعبد بذلك أفئدتها ، وتؤلف حولك كتائبها ، ولا تزيدك هى إلا توقيراً فوق توقير ، وتعظيماً بعد تعظيم ، وصدق رب الجميع : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ . . .

وليس هذا كلاما نصطنعه ، أو خيالا نتوهمه ، ولكنه طبيعة النفوس وتجربة التاريخ ومنطق الحوادث ، وهو فوق هذا أدب الإسلام ، وقبس من تاريخ المسلمين ، فالله قد علم صفوة خلقه وخيرة عباده محمداً صلوات الله عليه إن يكرم أمته ، وأن يلين لها وأن يحفظ قدرها حتى تشعر بعزتها فى نفسها ، فلا تذل فى عاطفتها ولا تتمرد فى حركاتها ، وأن يبدأ بأقربائه فيأخذهم بلون منالشدة يجعلهم مثلا لغيرهم ، وابعد الناس عن فكرة الاستبداد أو الاستغلال : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون » ... ولقد

استجاب الرسول لربه ،فلم يعل بين الناس ، ولم يتكبر عليهم ، ووفَّى إليهم حقوقهم غير منقوصة ، وأدب أهله وحجزهم عن العدوان ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن ازداد محمد باللين عظمة وجلالا ، حتى كان كل فرد فى أمته يفديه بأبيه وأمه ، وما كان أحد يستطيع أن يحدق فى وجه الرسول ، تعظيماً له وتوقيراً ، مع أنه عاش عيشة العبد ، ومات ميتة العبد ، وكان يهتف : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين ، وصدق الحق تبارك وتعالى : « فبما رحمة من الله لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

وهذا عمر يصل من تكريمه للأمة ، وعرفانه بكرامتها ، وحرصه على سيادتها ، أن يخطب فيها قائلا : إذا رأيتم فى اعوجاجاً فقومونى . فيقوم إليه أعرابى قائلا : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . ويرحب عمر بهذه الجرأة الصريحة ، ويحمد الله عليها ؛ ولكن هل أدى هذا التكريم من عمر وهذه الجرأة من الأعرابى إلى الإجحاف بمنزلة عمر ؟ . . . لا والله ، بل زاد عمر فى اعتبار قومه مراتب ومنازل ، وحسبك أن يكون عمر البدوى المسلم المقطع القميص مزلزلا للقياصرة والأكاسرة ، وأن يسلس له قياد الأمة عن طواعية وإيمان ، لا عن إرهاق وطغيان ؛ وهكذا يكون الأمر دائماً كلما تبادلت الرعاية ورعايتها عواطف التقدير والتكريم ...

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الهم المقيم المقعد هو أن تتبدل الأحوال بأمة محمد ، فتصبح كتيم فى نظر الشاعر الذى رآها لاوزن لها عند الناس ولا اعتبار فقال :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهـــود !

وليس الضرر الناتج من هذا الهوان والتضييع مقصوراً على المصطلين به ، ولكنه يتناول أيضاً العاملين له ، وما يرتجى للأمة المحمدية صلاح حتى تعز رعيتها فى غير إسراف ، وتلين رعاتها فى غير ضعف وبين تواضع الرعاة المقتدرين ، واعتزاز الرعايا المستضعفين ، يتلاقى الجميع على شرعرب العالمين ، وصدق الرسول : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم[٩]» ... واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم :

كظم الغيظ

الحمد لله تبارك وتعالى ، أمر بالمسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة إلى الاستقرار والثبات ، « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ،أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله احتمل فى سبيل ربه ما تنوء به الجبال ،فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الراسخين، وأصحابه الثابتين ، وأتباعه المستقيمين : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن وظيفة الشيطان مع الإنسان هى أن يلاحق خطواته على الطريق ، يتابعه بالوسوسة والبهتان ، ويثير فيه نزعات الهوى وحب الذات ، ويعميه عن الحق بالضلال والغضب للنفس ، حتى يخرج الإنسان عن صراط الحكمة والتعقل والاتزان إلى ظلمات الغضب والتهور والسفه والانحراف ، ولذلك جعل الدين « كظم الغيظ » خلقاً من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم ، وجانباً من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، وكظم الغيظ هو تجرع الغضب واحتمال سببه والصبر عليه ، حتى لا يجمع الإنسان عن طريق التوسط والاعتدال ، والغيظ هو الألم الشديد الذى يعرض للانسان إذا أصابه ظلم أو هضم فى حق من حقوقه المادية أو المعنوية ، فيدفعه ذلك — فى العادة — إلى الانتقام والانتصاف ، وإذا أطلق الإنسان لنفسه العنان فى هذا المجال لم يقف عند الحد المعقول أو المحتمل ، بل تجاوز ذلك إلى التوسع والإسراف ، فيكون من وراء ذلك سيئات وآفات ، ومتى أطلق الإنسان ساقيه هنا جمح به الهوى وقاده إلى شر المعاطب ، ولذلك عد الله

سبحانه إذ هاب الغيظ عن المؤمنين نعمة كبرى سجلها القرآن الكريم بقوله :
« ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء »

وكظم الغيظ صفة أساسية من صفات السعداء المتقين المسارعين إلى رضوان رب العالمين : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . والكاظمين الغيظ هم الذين إذاثار بهم الغيظ كتموه وتحكموا فيه ، وسيطروا على أنفسهم ولم يستجيبوا لدواعى الانفعال والثوران ، بل يكفون شرهم عن الناس ، ويحتسبون عند الله ما احتملوا ، ولذلك يجمل كظم الغيظ حقاً حين يكون من الأعلى بالنسبة إلى الأدنى ، ومن القوى بالنسبة إلى الضعيف ، ومن القادر بالنسبة إلى العاجز ، ولذلك يحلو كظم الغيظ من الحاكم مع المحكوم ، ومن المخدوم مع الخادم ، ومن المنتصر مع المهزوم ، ولذلك كان أحق الناس بفضيلة كظم الغيظ الحكام والرؤساء والقادة والمعلمون والكبار ، ومن على شاكلتهم ، وهنا نتذكر قصة الجارية التى كانت تصب الماء على يدى الأمير ، فسقط الإناء من يدها فنظر إليها مغيظاً ، فقالت له : إن الله تعالى يقول : والكاظمين الغيظ ، فقال : قد كظمت غيظى . قالت : والعافين عن الناس . فقال : قد عفوت عنك . قالت : والله يحب المحسنين . فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

ولا شك أن كظم الغيظ يحتاج إلى إرادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وشخصية تتحكم فى عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها ، فلا يستبد بها الغضب . ولا يسيطر عليها الهوى الجامح ، فيدفعها إلى التزيد فى الانتقام والتشفى ، أو إلى ارتكاب مالا يحسن بالرجل الحكيم الوقور . ولذلك قال سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »

وفى رواية أنه قال : ماتعدون الصرعة فيكم ؟ قالوا : الذى لا يصرعه الرجال. قال : ليس بذاك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

ولقد عنيت السنة المطهرة عناية واضحة بفضيلة كظم الغيظ ، فجاءت فيها مجموعة من الأحاديث الشريفة التى تنوه بمكانة هذا الخلق الإسلامى القرآنى ، فجاء فى الحديث : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، حتى يخيره من أى الحور العين شاء » وجاء فيه : « من كظم غيظاً — ولو شاء أن يمضيه لأمضاه — ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » . وتشير السنة إلى ما تتطلبه فضيلة كظم الغيظ من جهد ومعاناة ، ومغالبة للهوى والنفس ، فيقول الحديث الشريف : « ما جرع عبد من جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » . ولقد جاء جارية بن قدامة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال له : يا رسول الله ، أوصنى ولا تكثر فى الوصية لعلى أحفظها ، فقال له : لا تغضب فكرر جارية السؤال فكرر النبي له الجواب : لا تغضب .

والعلماء يقولون إن الغضب هو فوران دم القلب لإرادة الانتقام ، وهذا شىء كأن الإنسان مجبول عليه ، ولا يستطيع التخلص منه نهائياً ، ولكن المنتظر من المسلم صاحب الأخلاق الفاضلة أن يتجنب أولا أسباب الغضب ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن لا يطيع الشيطان فيما يوسوس له من الاستجابة لداعى الغضب ، فلا يتهور ولا يتجبر ولا يندفع ، وإلا تشعب به الأذى ، قال الأحنف بن قيس : « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات » .

وقد أرشدنا سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى وسائل نتقى بها الغضب وتؤدى بنا إلى التحلى بحلية كظم الغيظ ، والوسيلة الأولى تتمثل فى قوله : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع »

والوسيلة الثانية تتمثل فى قوله : « إن الغضب من الشيطان — أى من أثر وسوسته — وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب فليتوضأ » ، والوسيلة الثالثة ، تتمثل فى الحديث الذى يقول إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رأى رجلا غاضباً ثائراً فقال : « إنى لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه الذى يجد ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وليس معنى هذا أن الغضب مذموم على الدوام . فهناك غضب محمود إذا كان لوجه الله والدين ، وخير الأمور أوساطها ، والقرآن يقول عن عباد الله الأحرار : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : . :

إنا نعيش فى زمن تعقدت فيه الحياة ، وتكاثرت المشكلات ، وتنوعت الاتجاهات ، فإذا لم ينجح الإنسان فى كظم غيظه ، والسيطرة على مشاعره ، أفلت منه الزمام وسط هذا الزحام ، فلنسأله سبحانه ، أن يجعلنا من الكاظمين الغيظ ، حتى ننال منه نعم الثواب :

غض البصر والصوت

الحمد لله عز حكمه ،وأحاط علمه ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، أعطى الإنسان من نعمه ما أعطى ، وطالبه بحسن الاستعمال وطيب الفعال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى قال له ربه : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته ، أولئك هم الفائزون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

غض البصر والصوت خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من الإسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، ومادة « الغض » تدل على التقليل والخفض ، يقال : غض صوته أو بصره أى خفظه ، وإذا كان غض الصوت يدل على استقرار الشخصية وهدوء النفس ، فإن غض البصر فضيلة أخلاقية تدل على الوقار والحياء ، ولقد ذكر القرآن المجيد غض البصر فى سورة النور ، سورة الآداب الاجتماعية الجليلة — وأمر به الرجال والنساء معاً ، فقال : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» ثم قال « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن» ومعنى هذا أنه يأمر المسلمين والمسلمات بأن يكفوا عن فتح أبصارهم فى بجاحة ووقاحة إلى عورات غيرهم أو أشياء سواهم ، والرجل الكريم على نفسه وعلى الناس لا يستطيب ذلك ولا يتوغل فيه ، والمرأة الأصيلة النبيلة لا تتوقح فى نظراتها ، إلى الأجانب ولا ترحب بمن يتوقح فى نظراته إليها بقصد خبيث ونية سيئة ، ولذلك روى أن امرأة عربية رأت جماعة من قبيلة نمير يتوقحون فى نظراتهم

إليها ، فقالت : يا بنى نمير ، والله ما أخذتم بواحدة من اثنين : لا بقول الله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » ولا بقول القائل :

فغض الطرف إنك من نمير فــلا كعبا بلغت ولا كلابا

والمرأة مطالبة مثل الرجل بأن تغض بصرها ، وألا تتوقح فى نظراتها ، فهذا أنسب لها وأليق بها ، ولو لم تفعله ديناً وخلقاً ، لفعلته حياء وخفرا ، وهذه هى السيدة أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها تقول : « حماديات النساء غض الأطراف » أى خير ما يحمد من المرأة غض الأبصار عن التحديق فى الرجال الأجانب بلا داع أو موجب .

وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يسيطر على بصره فى كل الأحوال ، لأن البصر سباق هجام ، فلعل الآية الكريمة قد لاحظت هذا حين قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » لأن لفظة « من » تفيد معنى التبعيض الذى أشار إليه بعض المفسرين بقوله : « لايستطيع أحد أن يغض بصره كله ، إنما قال الله : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » . ولعل هذا هو السر الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى : « لا تتبع النظرة النظرة ، لأن لك الأولى وليست لك الآخرة » ولقد ذكر جابر للنبى أنه يقع فى نظر الفجاءة ، فقال له : « اصرف نظرك » . وما أدق قول الحق جل جلاله : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » والعين الخائنة هى العين الخبيثة القصد السيئة النية التى تنظر إلى حرمات سواها وأسرار غيرها فى تلصص واستخفاء بلا ارتداع أو حياء .

على أن هناك مواطن يتسامح فيها الدين إذا لم يتوافر عندها غض البصر ، لوجود أغراض مشروعة تبيح النظر ، ومنها أن يريد الإنسان زواج امرأة فينظر إلى وجهها وكفيها وهيأتها العامة ، ومنها أن ينظر إلى المرأة عند تحمل

الشهادة ، ومنها أنه يجوز للطبيب الأمين أن ينظر إلى بدن المرأة الأجنبية عنه للعلاج ، كما يجوز للخاتن أن ينظر إلى عورة المختون ، لأن ذلك موقف ضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات كما يقول العلماء .

وفى غض الصوت يقول الله تبارك وتعالى فى وصية لقمان لابنه : « واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . أى كن وسطاً فى مشيك، وتواضع فيه، ولا تستكبر ولا تستعجل، واخفض من صوتك ، واجعله مناسباً معتدلا ، فإن أقبح الأصوات ما كان مرتفعاً عالياً دون موجب ، فيكون شبيها بصوت الحمير . وخفض الصوت عنوان على ثقة الإنسان بما يقوله ، فهو مطمئن إلى صدق كلامه ، لا يحتاج إلى رفع الصوت به كأنه يصارع أو يشاجر ؛ وهذا الخفض يدل أيضاً على على احترام المتكلم لمن يخاطبه ، ومن هنا كان خفض الصوت لا ئقاً بمواقف العبادة كالصلاة ، يقول القرآن : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » . وكذلك موقف الدعاء ، لأن خفض الصوت به يكون معواناً على الخشوع والصفاء ، ولذلك قال القرآن : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » وقال عن نبي الله زكرياً : « إذ نادى ربه نداء خفياً » ، وخفض الصوت بالدعاء دليل على الإيمان ، إذ يفهم الداعى حينئذ أن الله سميع لدعائه مهما كان خفيا ، ويكون معواناً على جمع القلب أمام الله جل جلاله ، ولقد سمع رسول اللهصلى اللهعليه وسلم أناسا يرفعون أصواتهم بالدعاء فقال لهم : « أربعوا على أنفسكم — أى ترفقوا بها — فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

ولقد أدب الله تعالى عباده مع نبيه فى غض الصوت فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون

أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » ولقد حافظ صحابة رسول الله على هذا الأدب حتى بعد وفاته ، فكانوا يستنكرون رفع الصوت عند حدثه الطاهر ، ولقد سمع عمر رجلين يرفعان صوتهما عند قبر الرسول ، فأقبل عليهما غاضباً وقال : أتدريان أين أنتما ؟ من أين أنتما ! . قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

على أن هناك مواضع يتسامح الدين فى رفع الصوت عندها ، كما فى حالات التحذير أو الإنذار ، أو مقاومة منكر من المنكرات المستحكمة ، أو بين الجمع الكبير الذى يحتاج إلى الجهر بالصوت ليكون مسموعاً وذوق الإنسان هنا هو المقياس .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن كتاب ربكم لم يدع شيئاً يتعلق بتوجيه الإنسان نحو الخير إلا جاء به ودعا إليه ، ولو كان أمراً يتعلق بحدود البصر أو مستوى الحديث : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » والله الهادى إلى سواء السبيل .

القنوات من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو قيوم السموات والأرض ، وهو رحمن الدنيا والآخرة ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، لا معبود بحق سواه ، قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من عبد مولاه ، واحتمى بحماه ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، وأتباعه جنود الإسلام : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

« القنوت » خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، ونحن إذا سمعنا كلمة «القنوت» كاد أكثرنا لا يفهم منها إلا صلاة القنوت التى نختتم بها الصلوات عند الليل ، مع أن الكلمة تعطينا مفهوماً شرعياً فقهياً ، ومفهوماً أخلاقيا روحياً ، ومعنى القنوت اللغوى فى الأصل هو الطاعة ، تقول العرب : قنتت المرآة لزوجها ، أى أطاعته ، وعلى هذا فسروا قول الله تعالى : « وقومو لله قانتين » أى مطيعين لله فى كل شىء . والقنوت الشرعى هو تلك الركعات الثلاث التى يؤديها المسلم بعد صلاة العشاء ، ويضمنها ثناءه على الله بتلك الكلمات المأثورة : « اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم أياك نعبد ، ولك نسعى ونحفد (ونسرع فى العبادة) نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق » . وعند بعض الأئمة يكون القنوت فى صلاة الصبح ، وعبارة الثناء المأثورة

فيه هو : « اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا شر ما قضيت ، إنك سبحانك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لايذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت ... » إلخ .

وأما القنوت بالمعنى الأخلاقي الروحي القرآني ، ففيه معنى التزام الخشوع والضراعة والخشية ، واستشعار الهيبة من الله عز وجل ،وكذلك قال بعض المفسرين إن القنوت هو الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله تعالى ، والتوجه إليه لدعائه وذكره ، وتحقق هذا الخشوع فى الصلاة هو الذى يجعلها تحقق ثمرتها التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله العظيم : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . ويجعلها تحقق لصاحبها الفلاح عند ربه ، كما يقول الكتاب العزيز : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . وهذا أحد السلف — وهو حاتم الأصم — يقول : « إذا حانت الصلاة ، أسبغت الوضوء ، وأتيت المكان الذى أريد الصلاة فيه ، فأقعد حتى تجتمع جوارحى ، ثم أقوم إلى صلاتى ، وأجعل الكعبة أمام حاجبي ، والصراط تحت قدمى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، وملك الموت من ورائى ، أظنها آخر صلاتى ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيراً بتحقيق ، واقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع ، وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها ، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام ، واتبعها الإخلاص ، ثم لا أدرى أقبلت منى أم لا » .

ومن جلال فضيلة القنوت أن القرآن حلى بها جيد أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » . ووصف القرآن الكريم طائفة من فضليات النساء بفضيلة القنوت ، وكأن

سبب هذا فيما أفهم أن المرأة أشد احتياجاً إلى القنوت من سواها ، لأنها لب المجتمع ، والمعلمة الأولى فى الحياة ، والقرآن يخاطب نساء النبي قائلا : « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً » ، وحينما يأتى موقف عتاب من الله لنساء النبي يقول لهن : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » . ويتحدث القرآن عن مريم البتول العذراء فيوصيها بالقنوت ويقول لها : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » . وتستجيب مريم لهذا التوجيه ، وتعتصم بالله ربها ثم بقنوتها حتى يجعلها القرآن مثلا من أمثلة الإيمان فيقول : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » أى كانت من المواظبات على الطاعة ، ولم تقصر فى طاعتها عن طاعة الرجال الكاملين ، ولذلك عدها القرآن من جملتهم ، وعبر عنها كتعبيره عنهم : « وكانت من القانتين » .

ويتحدث القرآن عن القنوت — بمعنى الخضوع — فيقرر أن كل من السموات والأرض خاضع لجلال ربه ، فيقول : « وله من فى السموات والأرض كل له قانتون » أى مقرون بعبوديتهم له ، بلسان الحال أو بلسان المقال ، وهو خاضعون لإرادته ، منقادون لمشيئته . وهنا يقف الإنسان المتدبر متأملا : إذا كان كل من فى الكون مسخراً لأمر الله ، خاضعاً لجلاله ، فأيهما أجدر بالإنسان العاقل وأليق ؟ أن يساق على الرغم منه بالقهر والقوة إلى ساحة الخضوع والخشوع ، أم يشكر نعمة الله وفضله ، ويستشعر هيبته وجلاله ، فيتحلى بفضيلة القنوت — الذى هو خضوع وخشوع — عن طريق الاقتناع والإيمان ؟ . أيهما أفضل لهذا الإنسان العاقل الذى كرمه ربه أن يساق إلى الخضوع سوق العبيد ، أم يستجيب للخشوع استجابة العابدين؟.

إنهما فريقان : فريق عبيد شأنهم أن يساقوا سوق العبيد ، وفريق عابدين يدعوهم ربهم إلى مواطن الطاعة والعبادة ، ومسالك السعادة والكرامة ، فمن أى الفريقين تريد أن تكون أيها الإنسان ؟ . يستطيع أن يحسن الإجابة على هذا من يحسن تدبر قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن فضائل الأخلاق التى حدثنا عنها القرآن الكريم ، أصبحت غريبة فى دنيا الشهوات والملذات ،ولا يصلح للاستمساك بهذه الفضائل واستعادة مكانتها وعزتها ، إلا أمثالكم ، لأنكم بقايا الخير فى حنايا المجتمع الصاخب اللاغب . والرسول يقول : « إن لله فى أيام دهركم نفحات ألا فتنهضوا لها » . فهل من مستجيب لدعاء الخير ونداء البر : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

المحبة من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ولى الأرواح والقلوب ، وغاية كل مطلوب ومحبوب « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . أحمده سبحانه وأشهدأن أن لا إله إلا الله ، اختار من عباده صفوة يحبهم ويحبونه ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى قال له ربه « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله» فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه الطاهرين ، وأتباعه السالكين : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول الإمام الرفاعى وهو يتحدث عن المحبة : أصعب الأشياء مفارقة الأحباء ومقارنة الأعداء ، وأحلى الأشياء مقارنة الأحباء ومفارقة الأعداء » . والمحبة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، وما أشد حاجتنا إلى نسمات المحبة فى هذه الحياة اللاغبة الصاخبة ، المتصارعة المتصادعة ، التى تبدو وكأن الكثير من أهلها هم الذين قيل فيهم : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » . وعندما تتردد كلمة « المحبة » يفهم كثير من الناس أنها تعني التجاذب الحسى والميل الجنسى الذى يقع بين الرجل والمرأة ، مع أن هذا من تزيين الشيطان وضلال الإنسان : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . وإذا كانت المحبة ذات ألوان وأنواع ، فهناك محبة الشهوة ومحبة اللذة ومحبة المنفعة ، فإن قمة القسم هى محبة الله الخالق البارئ المصور ، لأنها مفتاح الباب لكل حب

نبيل ، ولذلك يقول الإمام الرفاعى : « المرء مع من أحب ، من أحب الله أحب رسول الله ، ومن أحب رسول الله أحب آل رسول الله ، ومن أحبهم كان معهم ، وهم مع أبيهم عليه الصلاة والسلام » ، ويقول الحديث الشريف : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » . وإنما تستقيم هذه المحبة إذا كانت بغير غرض ولا مرض ، وكانت خالصة لوجه الله عز وجل ، لأن ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل ، ومن هنا جاء قول الرسول : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

والتحلى بصفة المحبة الصادقة لا يتحقق للانسان إلا بتوفيق من الله وعون ، ولذلك قال بعض الأئمة : « المحبة ليست من تعليم الخلق . إنما هى من مواهب الحق » . ولعلنا نزداد بذلك إيماناً حين نتذكر الحديث القائل : « الأرواح جنود مجندة ، ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . كما أن نيل الإنسان محبة الناس على وجهها السليم يحتاج إلى مثل هذا العون ، فإن الله تعالى يقول لموسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى » فالله هو الذى ألقى المحبة على نبيه عليه السلام .

ومحبة الله جل جلاله لعبده إنما طريقها الطاعة والاستقامة ، والتقرب إلى الله بأداء أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولذلك جاء فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وأذنه التى يسمع بها ، ورجله التى يمشى بها ، وفؤاده الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به ، إن سألنى أعطيته ، وإن دعانى أجبته ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى

عن وفاته ، لأنه يكره الموت وأنا أكره مساءته » . ومن هنا يقول بعض الصوفية الصادقين « من ادعى حب الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب » .

وإذا أحب الله تبارك وتعالى عبداً من عباده ، أتاه من ثمرات هذه المحبة ما يعظم شأنه ويجل قدره ، والحديث الصحيح يقول : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض الله عبداً ، دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلاناً فابغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فابغضوه ، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض » . والمفهوم من روح الإسلام العظيم أن رسوله الكريم يريد لأتباعه أن يتحابوا وأن يتآلفوا وكذلك يقول : « أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الذين يألفون ويؤلفون » ويقول : « المؤمن ألف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

وهناك نوع من المحبة عظيم الشأن جليل المقدار ، هو المحبة التى تنشأ بين الراعى والرعية ، أو بين الحاكم والمحكوم ، أو بين الرئيس والمرءوس . وفى هذا يقول سيدنا رسول الله : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم » ولا شك أن المجتمع السعيد هو الذى يوجد فيه راع أمين مخلص ، يخاف على شعبه ، ويسهر من أجله ، ويحب الخير له ، ويحرص على منفعته ، ويوجد فيه شعب يحب حاكمه ، ويتعاون معه ، ويخلص له ، ويدعو الله من أعماقه أن يؤيده ويصاحبه بالتوفيق .

وينبغى أن نتذكر أن أتباع بعض الأديان ينسبون إلى دينهم أنه الوحيد

الذى ينشر المحبة ويبشر بها ويوطد دعائمها ، ويرددون قولهم « الله محبة » .
والواقع أن شريعة الله الخاتمة أحق الشرائع بأن تسمى « شريعة المحبة » فالقرآن الكريم هو كتاب المحبة ، والإسلام الحنيف هو دين المحبة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام هو رسول المحبة ، وأتباعه هم أنصار المحبة ، والحديث يقول : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم بظلى ، يوم لا ظل إلا ظلى » . ويقول الحديث الآخر : « إن عن عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى : قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ . قال : هم قوم تحابوا روح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ، إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

المحبة ، المحبة ، المحبة ، فلنبشر بها فنحن جياع عطاش إليها ، ولنجعل منبعها من الله ، ومرجعها إلى الله ، فقد قال رسول الله : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الأعراض عن اللغو من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، جعل الخير شعار الموحدين ، والمعروف طلبة المصلحين ، والمنكر عدو المؤمنين : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أزكى من نطق ، وأعلى من صدق ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه العظام ، وأتباعه الثابتين على دعوة الإسلام : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

« أخلاق القرآن » موضوع جليل واسع ، شغلني بالتفكير فيه والكتابة عنه بضع سنوات ومازال يشغلني ، ومن الواجب علينا أن تشغلنا أخلاق القرآن على الدوام ، لأنها أخلاق الإسلام ، وما قيمة المسلم إذا لم يتحصن بأخلاق القرآن ؟ . . ومن هذه الأخلاق القرآنية الإسلامية فضيلة « الإعراض عن اللغو » . واللغو هو مالا فائدة فيه من الكلام ، حيث يصدر بلا فكر ولا روية ، ولا توجد فيه فائدة أو ثمرة ، ولقد أكد القرآن المجيد أن الإعراض عن اللغو دعامة من دعائم الشخصية المؤمنة ، وصفة أساسية من صفات الذين آمنوا بربهم فأفلحوا : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » . وحينما تحدث القرآن عن عباد الرحمن جعل الإعراض عن اللغو سمة بارزة من سماتهم فقال عنهم فيما قال : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » . أى لم يلتفتوا إلى اللغو ولم يتوقفوا عنده ، ولم يلقوا نحوه بالا ، ولم يشاركوا

أهله فيه ، بل صانوا أنفسهم وأكرموها عن أن يلحق بها شيء من غبار هذا الدنس ، وذلك كما فى قوله أيضاً : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . وكأن أصحاب اللغو قوم صغار لئام لا يليق بالمؤمنين أن يقتربوا منهم أو يدنسوا طهارتهم بلؤمهم ، لأن المؤمنين قوم كبار كرام ينزههم ربهم عن الدنو أو الاقتراب من أولئك اللئام أصحاب اللغو والباطل .

وإذا كان أهل التفسير قد ذهبوا فى معنى اللغو مذاهب ، فقالوا إنه المعصية أو الباطل أو ذكر العورات أو الأذى أو السب ، فالحق أن اللغو هو كل كلام أو عمل باطل لا يليق ولا ينفع ، فسب الإنسان لغيره لغو من الحديث ، والسخرية به لغو من الحديث ، وإفشاء الأسرار لغو من الحديث ، كما يشمل كل مالا يليق أن يتعلق به أو يحرص عليه المؤمن صاحب الهمة والعزيمة والجد ، والرسول يقول : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ويقول أيضاً : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً فى الباطل » . ويقول عطاء بن رباح : « أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه» ؟

ولتشريف القرآن الكريم فضيلة الإعراض عن اللغو أخبرنا بأن الجنة — وهى دار النعيم الإلهى — منزهة عن اللغو ، فقال عن أهلها : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاما » أى لا يسمعون فى الجنة باطلا ولا نسبة إلى الإثم ، بل يقول بعضهم لبعض : سلاماً سلاما ، أى نسلم سلاماً بعد سلام ، ويقول : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » أى يتجاذبون فى الجنة كأساً تجاذب المداعبة لشدة سرورهم ، وهذه الكأس لا لغو مع شربها ،لأنها ليست ككأس الدنيا ، فهم لا يتكلمون أثناء الشراب بلغو الحديث ولا بسقط الكلام ، ولا يفعلون ما ينسب إلى الإثم وإنما

يتكلمون بالحكمة وفصل الخطاب ، ويفعلون ما يفعله الكرام . وإذا كانت الجنة هى دار النعيم الواسع والتمتع العريض ، ومع ذلك نزهها الله جل جلاله عن اللغو والباطل ، وأكد هذا فى آيات كثيرة فكأنه سبحانه يريد لعباده المؤمنين – وهو أعلم بمراده – أن يكونوا حتى فى تنعمهم وتمتعهم بعيدين عن اللغو مجانبين للباطل ، لأنهم على الدوام كرام غير لئام ، يترفعون عن الصغائر والسفاسف حتى فى أوقات السرور ولحظات النعيم .

ويجب علينا أن نعرف بأن أغلب أقوالنا يسيطر عليها اللغو ، وخصوصاً بين الذين لم يتربوا تربية إسلامية ، ولم يتحصنوا بشىء من المثل الأخلاقية ، وكأنهم غفلوا عن قول الحق فى بعض الناس : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وللنساء شهوة معروفة فى الإقبال على مائدة اللغو بنهم وشره ، والاغتراف منها بمكاييل كثيرة ، فالمرأة إذا ضلت طريق دينها وإسلامها استباحت لنفسها أن تقرض فى أعراض غيرها ، وأن تأكل بسرف من لحوم سواها ، وما أكثر اللغو الذى يجب أن تحاربه المرأة وأن تبتعد عنه . وإذا كان الناس يضربون المثل بالكلمات السبع (السبع كلمات) التى تحرص المرأة اللاهية على قولها ولوكها فى مختلف المناسبات – ولو على السلم – فإن المؤسف أن أغلب هذه الكلمات تكون عديمة الفائدة أو قليلة الجدوى ، بل ربما كانت ضارة مفسدة ، فليت المرأة المسلمة تتعلم كيف تطوى لسانها تحت سلطان عقلها وفضلها ، فتقتصد فى كلامها ، وتجعله من قبيل الكلام الصالح الطيب ، فإن الله جل جلاله يقول : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ويقول عن عباده المؤمنين : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » ، وليت الجميع : نساءً ورجالا يتذكرون قول القائل :

ما إن ندمت على سكوتى مرة ولقد ندمت على الكلام مراراً

وهناك كثير من السفهاء لا يكتفون بالتقصير فى مجال الخير ، ولا بالإهمال للكلمة الحلوة الطيبة ، بل يتفكرون لأهل الخير والاستقامة ، فيحاولون أن يشوشوا على دعوات الحق وأصوات الصدق ، بضجيج الباطل أو عجيج التحريف والافتراء ، وهذا صنيع أهل الكفر والعناد الذين صورهم القرآن المجيد بقوله : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » أى لا تسمعوه وعارضوه باللغو والكلام الباطل للتشويش عليه ، وقد كان المشركون المجرمون يتواصون فيما بينهم بأن يرفعوا أصواتهم إذا سمعوا القرآن حتى لا يهيئوا الفرصة للمتدبرين كى يسمعوا ويعتبروا .

على أن هناك لوناً من اللغو يخبرنا القرآن أن الإنسان لا يؤاخذ عليه ، وإن كان البعد عنه أولى وأليق بالمسلم ، وذلك هو لغو اليمين ، كما فى قول الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» واليمين اللغو هو قول الرجل فى حواره وفى درج كلامه عند العجلة : لا والله وبلى والله ، دون قصد للحلف ، أو يحلف ظاناً أن الأمر كما قال ، وإذا هو بخلاف ذلك ، أو يحلف ساهياً أو ناسياً . والأجدر بالمسلم أن يتجنب الحلف مهما كان بقدر الإمكان ، والله جل جلاله يقول : «ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من استطاع الكثير من الخير قولا أو عملا ، فلا يليق به أن يتقصر أو يتوانى ، ومن عجز عن الكثير قولا وعملا ، فلا ينبغى أن يحرم نفسه تقديم القليل ، ومن عجز عن تقديم الكثير والقليل ، فليتجنب الوقوع فى الإثم واللغو والباطل ، ومن جره الشيطان إلى السوء ، فليسارع بالإقلاع والامتناع ،

وليتذكر دائماً أن ربه يناديه مع المؤمنين قائلا لهم : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

البر

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة « إن رحمة الله قريب من المحسنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبى المرحمة وقائد الملحمة ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذىْ هو خير ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك كلمات إسلامية مظلومة القدر مهضومة الحق ، لأننا حرفناها عن جليل معناها ، أو بعدنا بها عن نبيل مغزاها ، أو جعلنا نكررها بألسنتنا دون تمعن فيها أو تدبر لمراميها ، ومن هذه الكلمات كلمة « البر » ، فغاية ما يهضمه كثير من عامة الناس عن كلمة « البر » هو المعنى المادى الحسى المحدود ، وهو معاونة المحتاجين بشىء من المال أو الصدقة ، ونحن مثلا نقول فى كثير من الأحيان إن رمضان هو شهر البر والإحسان ، ثم نحسب أن البر فى رمضان هو أن نتصدق على هذا الفقير ببضعة قروش ، أو نقدم لذاك المسكين قدراً من الطعام ، مع أن البر فى منطق الإسلام اسم جامع لأنواع الخير والتوسع فى الطاعة ، فهو كما يقول بصراء العلماء : « البر فعل الواجبات ، والبعد عن المحرمات ، والبشاشة مع الناس ، والعطف عليهم ، والإحسان إليهم ، وتحمل الأذى منهم » والبر فى تعبير القرآن المجيد يفيد معنى الإيمان وما يتبعه من الأعمال ، فهو يشمل صحة الاعتقاد واستقامة

التطبيق ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، ويقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك (أى تردد فى الصدر ولم يطمئن إليه القلب) وكرهت أن يطلع عليه الناس » . وفى رواية أخرى يقول : « البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومن جلال مكانة « البر » أن الله تبارك وتعالى جعل لذاته القدسية اسماً مشتقاً من مادته ، وهو اسم البر ، فقال القرآن عنه « إنه هو البر الرحيم » أى العطوف على عباده ، الشامل لهم ببره ولطفه ورعايته ، وجعل القرآن البر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين ، فقال عن زكريا : « وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا» ، وقال على لسان عيسى عليه السلام : « وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا » . ووصفت السنة المطهرة ملائكة الرحمن وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بأنهم بررة ، فقال الرسول : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » يعنى الملائكة .

ومن دقائق التعبير فى القرآن الكريم أنه بعد أن عدد أعمال البر الكثيرة الكبيرة فى آية البر : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » وختم الآية بقوله عن أولئك الأخيار الأبرار : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وعاد فى موطن آخر من سورة البقرة (١٨٩) فقال : « ولكن البر من اتقى » ، فكأن البر هو التقوى ، وإذا رجعنا إلى الآية

الكريمة التى فرض بها الحق فريضة الصوم على عباده وجدناها تقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فكأن الصيام طريق يؤدى إلى تحقيق البر ، لأن البر هو التقوى ، والتقوى معنى كبير واسع ، فالتقوى وقاية وصيانة من جهة ، بالابتعاد عن كل سوء ورذيلة ، والتقوى قوة وحصانة من جهة أخرى بإتيان كل عمل طيب وسعى حميد .

والبر يتفرع إلى ألوان وأنواع ، فهناك البر بالإنفاق ، وفيه يقول رب العزة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » . ولقد ضرب أسلافنا أروع الأمثال فى برهم بإنفاق أموالهم فى سبيل الله ، حتى استحقوا أن يقال فيهم : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا » وأن يقال فيهم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كانوا بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . فكان هناك أبو بكر (أبقيت لهم الله ورسوله) وكان هناك عثمان (جيش العسرة)وكان هناك عبد الرحمن بن عوف (موضوعه) وعلى قمة الأبرار الأجواد يأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى كان أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان ، فهو فى جوده حينئذ كالريح المرسلة ، ولذلك استحق عن جدارة أن يوصف بأنه « نبى البر » صلوات الله وسلامه عليه ، وهناك بر الوالدين ، بعدم عقوقهما أو الإساءة إليهما ، وبالإحسان إليهما كل الإحسان ولذلك يقول الرحمن : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » . ولقد قال أحد الصحابة : كما روى أبو داود والترمذى : يا رسول الله ، من أبر ؟

فقال : أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب . وروى مسلم أن الرسول قال : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » . وهناك بر الأقارب والأتباع وهناك البر حتى فى الكلام والحديث كما روى أبو داود والترمذى وآيات الكلمة الطيبة (ضرب الله مثلا)(وهدوا إلى الطيب) (الذين يستمعون القول . . .) . الخ فإن الكلمة الطيبة الكريمة نوع من البر ،« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون » . وكما يكون البر من المسلم مع المسلمين ، يكون منه مع غير المسلمين ماداموا عادلين : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليه إن الله يحب المقسطين »، ولقد جاء فى الحديث : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » . ويعمم القرآن دعوة المؤمنين إلى البر فيقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

ومن دقائق البر فى منطق الإسلام أن الإنسان لا يكون باراً إلا إذا كان صادقاً ، ولذلك فسروا البر بالصدق . وتقول لغة العرب : بر فى يمينه ، أى صدق فيها ، وبر بوعده إذا وفاه ، وبر بكلامه إذا صدقة بالعمل ، وحجة مبرورة أى مقبولة قبول العمل الصادق ، ولقد قال القرآن مبكتا بنى إسرائيل ومعرضاً بهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم . . . » . وقصت علينا قصة الإسراء والمعراج أن الرسول مر فى طريقه على قوم تقطع شفاههم بمقاريض من النار ، فسأل النبى : من هؤلاء ياجبريل؟

فأجاب : « هؤلاء خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » فواجب المسلم أن يحقق البر فى نفسه قبل أن يطالب غيره بأن يكون باراً ، وإلا قيل له : يا أيها الرجل المعلم غيره ... إلخ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أرأيتم أيها الإخوة الأحباب كيف اتسعت كلمة « البر » فى لغة القرآن ومنطق الإسلام حتى شملت الكثير الغزّير من المعانى ، وكيف علت وسمت حتى كانت مجمعاً لفضائل ومكارم ؟ فلنتذكر على الدوام أن البر صفاء وعطاء وصدق ووفاء ، وأن البر مفتاح التقوى كما يقول القرآن : « ولكن البر من اتقى » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الستر

الحمد لله مستحق الحمد ، ومصدر العزة والمجد « له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، تفضل فأنعم ويسر ، ورحم فغفر وستر « « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعلن الخير والبر ، وقاوم المنكر والشر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطيبين من آله ، والسابقين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سأحدثكم اليوم عن « الستر » ، والستر كلمة خفيفة على اللسان ، شائعة الاستعمال بين الناس ، ويظنها بعضهم كلمة عامية أو متبذلة ، مع أنها كلمة قرآنية لها معانيها الدقيقة العميقة التى يعمل الإسلام على توطيدها فى نفوس الخلائق ، والستر فى لغة القرآن معناه التغطية والإخفاء ، وقد يستعمل بمعنى الخوف والحياء ، وما أحوجنا إلى نعمة الستر فى كثير من الأشياء ، حتى نكون مستجيبين لربنا ، آخذين بما يحبه لنا ، فقد قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن الله حى ستير ، يحب الحياء والستر » ، ولعل أول ما يطالبنا به خالقنا من ألوان الستر ، هو أن يحاول المسلم قدر طاقته أن يستر ما يعرض له بين الحين والحين من خواطر السوء ووساوس الشيطان ، فإن استطاع منذ البداية أن يباعد بينه وبين هذه الخواطر والوساوس ، فقد فاز فوزاً عظيما ، ونال خيراً كبيراً ، وإن عرض له شىء من ذلك فقاومه حتى هزمه وأبعده عن حسه ونفسه ، فله أجر المجاهد فى الله ، المدافع لقوى الشر ، فإن بقى

شيء من هذه الخواطر يراوده أو يعاوده ، فلا أقل من أن يكتم الإنسان ذلك فى أعماقه ، ولا يتحدث به مع غيره ، وليتذكر أن الله الرحمن الرحيم يعفو عنه حينئذ ، ولا يؤاخذه بما تحدثت به نفسه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل » .

ومن ألوان الستر الذى يدعوا إليه الإسـلام ويحث عليه أن يحفظ الزوجان أسرار بيتهما وأخبار علاقتهما ،وبخاصة ما يتعلق بمعاشرتهما الجنسية ، فإن السنة المطهرة تقول : « إن أشر الناس منزلة يوم القيامة : الرجل يفضى إلى امرأته ، وتفضى إليه ، ثم ينشر سرها ، إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً فى السكة ، فقضى معها حاجته والناس ينظرون إليه » . والمرأة المسلمة مطالبة بأن تستر جسمها وزينتها عن الأجانب عنها ، والقرآن المجيد يقول : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ثم يقول : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » ويقول : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما » . ولقد أمر الإسلام بستر العورة عند أمور قد يراها الناس داعية إلى كشف العورة كالتبول والغائط والاغتسال ونحوه ، وهذا يشمل الرجال والنساء ، فالحديث يقول : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة » .

ومن ألوان الستر التى يدعو إليها الإسلام ويأمر بها هو أن يستر المسلم عيب أخيه ، ولا يشهر به عند غيره ، لأن هذا التشهير الدنىء من أحط الطباع عند أخساء الناس ،وخاصة إذا كان هذا التشهير متعلقاً بآثام وفواحش ليس من مصلحة الأفراد ولا من مصلحة الجماعات أن يشيع أمرها ، أو يتردد ذكرها ، ولقد هدد القرآن الكريم أولئك الذين يعملون على نشر

الفضائح وهتك الأسرار وإشاعة الفواحش بين الناس ، فقال : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ولقد يشهد اللئيم من الناس أخاً له فى الإنسانية والدين ، قد أزله الشيطان عن عقله ورشاده ، فارتكب إثما أو خطأ ، فإذا هذا اللئيم ينتهزها فرصة خبيثة خسيسة ، وكأنه موكل بهتك الأستار وإذاعة الأخبار ، فيتحدث بهذا الزلل إلى من يريد ومن لايريد ، مع أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . ويحذر الرسول المسلمين أن يتتبعوا العورات أو يتلمسوا الهفوات والزلات ، فيقول : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس لتفضحوهم ، فإن من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى عقر بيته » .

وهناك من هم أوقح وأفجر ، هناك أناس لا يسترون على غيرهم ، ولا على أنفسهم ، فقد خلعوا برقع الحياء والاستحياء ، « وقد عرفت المدنية الفاجرة كثيرين من أبنائها يأتون أفحش المنكرات ليلا أو نهاراً ، على أعين المشاهدين والمشاهدات ، بل روى الرواة أن منهم من يأتى الفاحشة الكبرى على مشهد من غيرهم ، كأنهم تيوس يتلذذون بتلك المجاهرة الفاجرة الداعرة ، وهناك كثيرون لا يبالون أن يجاهروا باحتساء الخمر ولعب الميسر والرقص المختلط الخليع وغير ذلك من الفواحش والمنكرات »[1] مع أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة (قلة المبالاة) أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » . وهؤلاء يلقاهم الله جل جلاله يوم القيامة أسوأ لقاء ،

---

(١) من أدب النبوة ص ٢٢١ .

لأنه يقول لهم : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أنَ الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون » .

وهناك حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ، وهو أن كل إنسان له أخطاؤه وعيوبه ، ولو أن كل ذى عيب أبدى عيبه لما كان هناك استقرار ، ولما استطاع الأحياء أن يتقاربوا أو أن يتعاشروا ، ولذلك قال سيد الإنسانية محمد : « لو تكاشفتم ،ما تعايشتم » أى لو اطلع كل واحد على خفايا غيره وأسرار سواه ، لما عاش الناس بعضهم مع بعض ، وفى رواية أخرى يقول الحديث : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » أى لرفض أحدكم أن يدفن أخاه إذا مات .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أحوجنا إلى الستر ، ما أحوجنا إلى أن نستر أحاديث النفوس فى صدورنا ، لانبديها ولا نعمل بها ، وإلى أن نستر عيوبنا قدر طاقتنا محاولين تركها والإقلاع عنها بعزيمتنا وتوبتنا ، وإلى أن نستر عيوب سوانا ، وطوبى لمن يشغله عيبه عن عيوب الناس ، ولنتذكر على الدوام قول رسول الله : « إن الله حى ستير يحب الحياء والستر » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الرضا من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو مصدر النعم وواسع الكرم : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، لارب غيره ولا معبود سواه : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لله وجهه وقلبه ، فأوسع له رضاه وحبه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته ، وأهل صحبته ، وأتباع ملته : « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أمام طوفان السخط الذى يعم الدنيا ، وسرطان القلق الذى يسود العالم ، ينبغى لنا أن نتذكر فضيلة « الرضى » ففى الرضى دواء وشفاء . وغذاء وضياء . وسلوى وعزاء ، والرضى خلق من أخلاق القرآن ، وفضيلة من فضائل الإسلام ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والرضى فى لغة الدين والأخلاق هو تقبل مايسوقه الله جل جلاله من أمر ، ومايدعو إليه من توجيه ، وهذا الرضى هو — كما يقول ابن القيم — باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا . ونعيم العابدين . ولقد ذكر القرآن الكريم الرضى فى عدة آيات ، كقوله فى أهل التوفيق والنعيم : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » . ويقول عنهم فى آية ثانية : « رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » . ويقول عنهم فى آية ثالثة : رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » . ونلاحظ معا أن كل آية من الآيات السابقة قدجاء فيها قوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فرضى الله أولا ،

ورضاهم عنه ثانياً ،وكأنهما متلازمان ، فرضى الله يدفع بالعبد إلى إرضاء ربه ، ورضى العبد عن كل ما يقضى به الله يؤدى إلى رضى الله عنه ، وهذه الآيات المضيئة المشرقة جاءت فى شأن أصحاب الجنة ، وهم المؤمنون الصادقون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ، ومن المؤمنين بالله واليوم الآخر الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه،وإنما رضى الله عنهم لأنهم تقبلوا دينه ، وتقيدوا بأحكامه ، وأطاعوا أوامره ، فتفضل عليهم بإحسانه وبره ، ورضوا عنه ، أى حمدوا فضله وإحسانه ، فهم يستريحون ويستعدون حين ينفذون أحكامه ويمتثلون أوامره ، فإذا كانوا يوم القيامة رضوا كل الرضى بما يرونه من نعيم الله وإكرامه ، ولا شك أن رضى الله عن الإنسان هو غاية الغايات وأقصى الأمانى ، ولذلك جاء فى الحديث الشريف ، « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل إكرامى ، فماذا تريدون ؟ . فيقولون :«رضاك » ولذلك يقول القرآن المجيد : « ورضوان من الله أكبر » .

وإنما يستحق العبد رضوان ربه إذا رضى هذا العبد عن كل ما قدر الله ، وكل ما أمر به الله ، ولذلك جاء فى التنزيل الحكيم : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . وقال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » . ومعنى هذا أن الإيمان الذى هو سبب لرضى الله لا يتحقق إلا برضا العبد بكل ما يجيئه من الله تعالى ، ولذلك يقول سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » . وفى رواية : « من قال كل يوم : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ،

وبمحمد رسولا ، كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة » .

ولقد جاءت فى القرآن الكريم آيات تشير إلى أن رضى العبد إذا كان موصول الأسباب بحمى الله كان رضا كريماً محموداً ، كقوله : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . وقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » وقوله : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » . والخطاب فى هذه الآيات موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خير من حقق فى نفسه فضيلة الرضى ، وخير من أنعم عليه ربه برضا ، ورضوانه ، ولا عجب فقد كان من الدعاء المألوف لرسول الله قوله : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .وكذلك أوسع الله له الفضل والعطاء فقال له : « والضحى والليل إذا سجا ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

على أن هناك نوعاً من الرضى البشرى الأرضى يعد رذيلة لافضيلة ، لأن الرضى إنما يكون فضيلة إذا كان العبد راضياً بما يأتى به الله ، راضياً بما يأمر به الله ، وراضياً بما عند الله ، وأما ارتضاء ما يخالف أمره وحكمه فهو رضى شؤوم مذموم ، ولذلك جاء فى القرآن الحكيم على طريقة التعريض والمؤاخذة : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتكم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » . وجاء فيه أيضاً : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » وجاء قوله : « إنما السبيل

على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » ويوجه الله المنحرفين إلى طريق الرضى بالله فيقول : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون » . ولا عجب فى ذلك ، فالرضى بالله هو الغنى كل الغنى . ولذلك سئل أبو حازم : ما مالك ؟ فقال : مالى الرضى بالله ، والغنى عن الناس ، والرضى فى الواقع يكون ثمرة لمحبة العبد لربه » ولذلك يقول الإمام الغزالى : « الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

قد يكون من المؤسف أن الإنسان يستطيع أن ينال رضا ربه بالإيمان والحب والطاعة ، ولكنه لا يستطيع مهما بذل أن ينال رضا الناس جميعاً ، ولذلك قيل: رضا الناس غاية لا تدرك ،مع أن الله أقوى الناس ، ومن التمس رضا الله بغضب الناس أغناه الله عن الناس ، ومن التمس غضب الله برضا الناس وكله الله إلى الناس ، فأين المفر ؟ ألا إلى الله تصير الأمور ؟

أقول قولى هذا واستغفرالله لى ولكم .

الامانة فى الاسلام

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، المحاسب لها بما اجترحت « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ». أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا هو ولى الأبرار ومؤيد الأخيار وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل له«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من آله ، والصادقين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الأمانة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، والأمانة كلمة فيها معنى الأمان والاطمئنان ، والأمانة بمعناها الأخلاقى شعور عميق بالتبعة والمسئولية ، واحتكام إلى الضمير اليقظ الحى ، ورعاية لكل مافى عهدة الإنسان من شىء حسى أو معنوى ، وكأن الحديث النبوى قد أشار إلى هذا حين قال : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » . ولقد تحدث القرآن الكريم عن الأمانة فى أكثر من موضع وقال فيما قال : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » . وقد وردت أقوال كثيرة فى المراد بالأمانة هنا ، ولكن الأقرب إلى القبول هو أنه يراد بها مختلف التكاليف والحقوق والتبعات التى وكلها الله إلى العباد لرعايتها وصيانتها ، سواء أكانت متعلقة بالنفس أو بالأهل أو بالوطن أو بالناس ، وقد جعل القرآن المجيد الأمانة

من صفات الملائكة الأطهار الذين هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فقال الله تعالى فى حق جبريل عليه السلام : نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

وكذلك جعل القرآن الأمانة من صفات المرسلين ، فهؤلاء هم رسل الله عليهم صلاة الله وسلامه يتوالون ويتتابعون إلى الناس يحملون رسالات ربهم ، وكلما جاء رسول عرض على قومه رسالة ربه وقال لهم « إنى لكم رسول أمين » . وأشار القرآن إلى أمانة موسى منذ شبابه فقال عنه على لسان بنت شعيب : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . وكانت الصفة المشهودة لنبينا محمد — حتى قبل الرسالة — هى صفة « الصادق الأمين » . وكان يدعو ربه فيقول : « أعوذ بك من الخيانة ، فإنها بئس البطانة » . وكذلك جعل القرآن الأمانة صفة عباده المؤمنين ، فقال عنهم فى سورتهم : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهناك كثير من الناس يحسبون أن الأمانة لا تكون إلا بحفظ الودائع » من مال أو حلى ، مع أن مفهوم الأمانة يشمل مظاهر عديدة من سلوك الإنسان وتصرفه فى الحياة ، فإتقان القيام بالواجب أمانة ، وحفظ الأسرار أمانة ، وصيانة الأعراض أمانة ، وإخلاص النصيحة أمانة ، وأمانة العبد مع ربه تتحقق بحفظ ما أمر الله بحفظه ، وبأداء واجباته ، والانتهاء عن منهياته ، وأمانة العلم تتحقق بنشره وتفهيمه للناس ، وأمانة الحكام مع المحكومين تكون بالعدل والمساواة بينهم ، وأمانة الإنسان مع نفسه تتحقق باختياره الأصلح له فى الدين والدنيا ، والأمانة فى المعاملة تكون بالصدق وترك الغش والخداع ، والأمانة فى الكيل والميزان تكون بالضبط وعدم

التطفيف ، حتى لا تتعرض الناس لغضب الله وانتقامه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

وإذا كان القرآن قد رفع شأن الأمانة ، فإنه قد حمل حملة شديدة على الخيانة ، فقال : « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » . وحسب الخيانة شراً وسوءاً أنها كانت السبب فى أن قذف الله إلى النار – وبئس المصير – بامرأتين من نساء الأنبياء والرسل : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

ولقد حذرت السنة المطهرة كل مسلم أن يضيع الأمانة أو يتنكر لها ، فقال الحديث الشريف : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . ولقد مر النبى صلوات الله وسلامه عليه برجل يبيع قمحاً ، فوضع النبى يده داخل القمح فوجد فيه بللا ، فقال للرجل مستنكراً : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فأجاب : أصابته السماء يا رسول الله (يعنى المطر) فقال له النبى : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

وجاء الحديث القائل : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها يارسول الله ؟ . قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». فى هذا تحذير وتخويف من ضياع الأمانة ، وإشعار بأنها حين تضيع يكون سبباً فى فساد الناس واختلال الأمور .

التحنف من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، الداعى إلى الحق ، الآمر بالصدق « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، القائم على كل نفس بما كسبت . ألا إلى الله تصير الأمور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أقام وجهه لمولاه ، فما انصرف عنه إلى أحد سواه ، .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

« التحنف » خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتحنف كلمة غريبة على آذان الكثير منا ، مع أن مادتها قرآنية ، ونحن نفهم من لغة القرآن الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق المستقيم ، وهو الإسلام العظيم ، وبعض الناس يسمون البنت « حنيفة » راجين أن يكون ذلك بشيراً بطهارتها واستقامتها ، والمتحنف شرعاً هو الرجل الذى يرى الناس أو كثرتهم تسير على طريقة باطلة ، أو معتقد فاسد ، فلا يتابعهم ولا ينساق وراءهم ، بل يخالفهم ما دام هو على الحق المبين ، ويمضى على طريقته ، ذاكراً قول الحق جل جلاله : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . وذاكراً أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » . فليس التحنف مجرد مخالفة أو معارضة ، للتظاهر أو التعنت ،

وإنما هو إدراك للحق واعتزاز به وإصرار عليه ، وإن خالف المخالفون ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ .

ولقد نوه القرآن المجيد بفضيلة التحنف فقال : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » أى أخلص نفسك وقلبك للدين ، وكن مائلا عن الزيغ والبدع ، داخلا فى حملة من أخلص لله ، ولا تلتفت إلى هؤلاء الضالين المنحرفين ، فإنك على الحق المبين ، ثم يقول القرآن أيضاً : فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وجاءت السنة المطهرة تؤكد ذلك ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » . وفى رواية : « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » . والحنيفية هى الإخلاص لله وحده فى الإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية ، وهى الاستقامة على دين إبراهيم عليه السلام الذى يقول فيه كتاب الله : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

وكأن التحنف هو إبقاء الإنسان ذاته على فطرتها الأولى التى برأه الله عليها ، قبل أن تعلق بها علائق الشهوات والانحرافات ، فإذا طرأ عليها شىء من ذلك كان جهده الأخلاقى دائراً حول دفع هذا الطارئ ، والعودة إلى حالة الطهارة والصفاء التى تزدان بها نفسه وتقوى ، والتى تجعل أمره سهلا ليناً ، وسطاً عادلا ، سمحاً لطيفاً ، لا إفراط فيه ولا تفريط . وفى الحديث القدسى : « خلقت عبادى حنفاء » أى طاهرى الأعضاء من الآثام ، أو خلقهم حنفاً مؤمنين حينما أخذ عليهم الميثاق وهم فى عالم الذر ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . فلا يوجد أحداً إلا وهو معترف مقر بأن له رباً ، وإن أشرك به فيما بعد ، وقد جاء وصف ابراهيم بالحنيفية ثمان

مرات فى القرآن الكريم ولعل السر فى تكرار القرآن نسبة الحنيفية إليه — والله أعلم بمراده — هو أن ابراهيم قد ضرب مثلا كريماً فى مقاومة الإشراك بالله جل جلاله ، والاحتفاظ بنفسه صافية ، وبقلبه سليماً ، ودعا ربه أن يطهره ويطهر أبناءه من الوثنية والضلال : « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » ولا عجب فهو داعى التوحيد ، وهو محطم الأصنام .

ولنلاحظ معاً أن كلمة « حنيفاً » لا تكاد تذكر فى القرآن حتى يذكر معها نفى الشرك عن الله ، وكأن القرآن يريد أن يذكرنا مرة بعد مرة ، أن التحنف والإشراك لا يجتمعان ، ومن هنا تكرر قوله تعالى : « حنيفاً وما كان من المشركين » فى شأن ابراهيم جد نبينا عليهما الصلاة والسلام ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يقول التنزيل الحكيم : « قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » ، لأن معنى ذلك هو : إذا تجاذبتك الفرق والأهواء ، فأعرض عن هؤلاء ، وأقبل على الله مولاك ، وزد فى توجهك إليه ، وكن على منهج إبراهيم الخليل ، الذى هجر قومه وأباه ، وأقبل على خالقه ومولاه ، غير حريص على شىء فيه للنفس نصيب ، فقد سلم ماله ونفسه إلى حكم الله العلى الكبير .

ومما يدل على أن « التحنف » وثيق الارتباط بالفطرة أننا نجد فى ظلمات الجاهلية أفراداً تحنفوا وتطهروا ، واعتزلوا مسالك الانحراف ومواطن الاعتساف ؛ ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذى ترك عبادة الأصنام قبيل إشراق الإسلام ، وحاول أن يكون حنيفاً على طريقة ابراهيم عليه السلام ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة قبل بعثة النبى ويقول : « يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ، ما أصبح منكم على دين ابراهيم أحد غيرى » ثم يرفع بصره إلى السماء ويقول : « اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه

إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم » ثم يقول : « إلهى إله ابراهيم ، وديني دين إبراهيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا هو طريق التحنف ، طريق الاستقامة والأمانة ، فليكن كل منا حنيفاً مسلماً ، فإبراهيم جد نبينا محمد كان حنيفاً مسلماً ، ومحمد خاتم النبيين يقول : « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » ، والله جل جلاله هو الذى يقول : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » : وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الحذر من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، وهب العقل وطالب بالاحتكام إليه ، وقال : « إنما يتذكر أولوا الألباب » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، آتى الإنسان بصائره ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل العقل زينته ، والحق طريقته ؛ فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين الشرفاء ، وأصحابه المتقين النبلاء ، وأتباعه أهل الاستقامة والوفاء « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى نشوة الفوز وموجة الفرح يخشى الغيور على بيئته وعشيرته أن يطوف طائف من الغفلة أو التهاون ، فإذا فجاءة الأقدار يبدو معها ما لم يكن فى الحسبان ، ولذلك تحتاج أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى من لا يسأم تذكيرها وتحذيرها ، والحذر خلق من أخلاق القرآن ، وفضيلة من فضائل الإسلام ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكلمة « الحذر » تدل على التيقظ والانتباه ،والحذر هو الاحتراز من الشىء المخيف ،والذى يتحلى بفضيلة الحذر يكون صاحب خشية ، فهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، وهو لا يتكلم إلا عن تفكير وتبصر ، ولا يتصرف إلا عن حكمة وتدبر ، وهو يحسب لكل أمر حسابه ، حتى لا يؤخذ على غرة . ولذلك يقول الرسول : « المؤمن كيس فطن » . ويقول : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ولقد تحدث القرآن المجيد عن فضيلة الحذر فى جملة مواضع ، وإذا كان للحذر أنواع وألوان ، فإن الحذر من عقاب الله ومؤاخذته أولى ألوان

الحذر باهتمام المؤمن وعنايته ، ولذلك يقول عز من قائل : « وا علموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم » أى إن الله تعالى يعلم مافى أنفسكم من العزم على فعل مالا يجوز فعله ، فاحذروا حسابه وعقابه ، ولا تصمموا على ارتكاب مالا يليق فترتكبوا الخطأ ، واعلموا أن الله غفور لمن عزم على الشر ثم أحجم ، فلم يفعله خشية وخوفاً من الله سبحانه ، وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة .

ويعود القرآن المجيد إلى التحذير من ارتكاب السيئات ، فيقول : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » وقد ذكرت الآية رأفة الله بعباده للاشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ، ومراعاة لصالحهم ، وإذا كان الإنسان بطبيعته يرجو الخير والرحمة ، ويطمع فى الفضل والثواب ، فإن واجبه الدينى يقتضيه ألا يغره الرجاء ، عن التحلى بالحذر والخوف من عقاب الله « إن عذاب ربك كان محذورا » .

ويؤكد القرآن الحكيم الأمر بالحذر والدعوة إليه ، فيقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . ونفهم من هذا النص الجليل أن الحذر يقتضى الطاعة ، وأن الطاعة تعود صاحبها الحذر والبعد عن المخالفة ، فيحذر المطيع أن يصيب شيئاً مما نهى الله عنه ، أو نهى عنه الرسول ، لأن طاعة الرسول من طاعة الله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » كما نفهم أن انعدام روح الحذر فى نفس الإنسان يؤدى به إلى الإعراض عن سبيل الله ، والتولى بعيداً عن صراطه المستقيم .

ويأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر المنافقين المخادعين المتظاهرين

بالإسلام المبطنين للكفر فيقول : « هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » وما أجدر رسول الله — ومن ورائه كل مسلم — بأن يحذر هؤلاء المنافقين المخادعين الذين يقول عنهم القرآن : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .

ثم ينتقل القرآن من تحذير الرسول إلى تحذير المسلمين ودعوتهم إلى الخوف من العدو غير الظاهر ، أو ممن يظنهم الإنسان عوناً له وسنداً ، فإذاهم أحياناً يكونون سبباً فى خساره وبواره فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » ، فهو عدو لكم يشغلكم عن طاعة الله تعالى ، أو يخاصمكم فى أمر الدين والدنيا ، والعدو هنا ليس عدواً لذاته ، لأن الأصل فى الزوجة والأولاد أن يكونوا محبين محبوبين بالنسبة إلى الزوج والأب ، وإنما هم عدو يشغل عن طاعة الله فيفضل الإنسان رغبات الأهل والولد على حساب دينه فيتعرض للخبال والوبال .

ويأمر القرآن بالحذر من العدو الماكر الباغى فيقول : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » . أى استعدوا للأعداء بالحذر والانتباه واليقظة ، وإلا عصفوا بكم على حين غرة منكم: « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . فكونوا يا أهل الإيمان متيقظين دائماً ، وضعتم السلاح أم لم تضعوه ، ولا شك أن هذا يدل على تأكيد الوصية بالحذر والتأهب للعدو فى كل الأحوال ، وترك الاستسلام والاغترار ، فإن الجيش ماجاءه مصاب قط إلا من تفريط فى حذر .

والحذر مطلوب حتى فى صلاة المجاهدين ، فالقرآن يقول عن صلاة الحرب : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » . وهذه وصاية بالغة بالحذر وأخذ السلاح ، لئلا ينال العدو مأربه ، ويحقق مطلبه .

قد يقول قائل : وما جدوى الحذر وهناك حديث يقول : « لا يغنى حذر من قدر » . وقد طعن بعض العلماء فى صحة هذا الحديث ، وقالوا : كيف يقول الله جل جلاله « خذوا حذركم » ثم يقول الحديث إن الحذر لا ينفع ؟ . ولو ثبت الحديث فعلا لما كان مناقضاً للآية ، فإن الله يأمر بالحذر لندفع عنا شر الأعداء ، وهذا جزء من القدر ، والقدر عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتى فيه لأسباب على قدر المسببات ، والحذر من جملة الأسباب ، فهو عمل بمقتضى القدر ، لا خروج عليه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول القائل الحكيم :

والليـــالى من الزمان حبـالى مثقلات بلـون كل عجيب

فلنحذر ما استطعنا إلى الحذر سبيلا ، فذلك أمر ربنا ، وتوجيه قرآننا ؛ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

الاعتبار

الحمد لله تبارك وتعالى ، وهب عباده البصائر والأبصار ، ودلهم على مواطن التفكر والاعتبار : ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، بسط الآيات وأقام الدلالات ، وهو العليم الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من نظر فاعتبر ، وقاد فانتصر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأصحابه وأهل نصرته ، وأتباعه وجنود دعوته : ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الاعتبار خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم وجانب هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، وكلمة الاعتبار فى الاستعمال الإسلامى فيها معنى التأمل والتفكر ، والتأثر بالعظمة ، والتقبل للتوجيه ، والإفادة من سابق التجارب ، والعبرة هى الدلالة الموصلة إلى اليقين والعلم ، فكأنها من العبور ، وكأنها طريق يعبر به الإنسان إلى مايريد ، وحينما يقول الحق جل جلاله مثلا : « فاعتبروا ياأولى الأبصار »كأنه يريد أن يقول : انظروا إلى السابقين وما ألم بهم حينما جنحوا إلى الشر فأصابهم العقاب والعذاب فاحذروا أن تكونوا مثلهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

والقرآن الكريم يربط بين الدعوة إلى الاعتبار ، وما خلق الله فى الكون من نعم ومن أشياء دالة على قدرته داعية إلى خشيته ، حتى لا ينسى الإنسان

الشكر من جهة والحذر من جهة أخرى ، فيقول مثلا : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث (فضلات الكرش) ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » . ويقول : « يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

وإذا كان كتاب الله المجيد يخبرنا بأنه يحدثنا خير الحديث ، ويسوق إلينا أصدق الخبر ، فيقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ويقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » فإنه فى الوقت نفسه يربط بين القصة والعبرة ، فيقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » تنبيهاً على أن الهدف من وراء القصة فى القرآن هو أن يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة ، ولذلك قرر أن فضيلة الاعتبار بالوقائع والأحداث والأخبار الماضية أو اللاحقة إنما هى من شأن العقلاء البصراء الذين ينظرون ويتفكرون ويتدبرون ، فتتأثر قلوبهم وألبابهم بما علموا أو شاهدوا ، وتستجيب أرواحهم لدواعى الخير والبر ، وتنصرف نفوسهم عن وساوس الشر ودواعى الإثم . ونفهم كذلك أن من يمر على مواطن العظة أو العبرة ، دون أن يدركها أو يتأثر بها أو يعتبر عندها ، يكون كمن فقد العقل أو فقد البصر ، ويكون قد تبلد شعوره وإحساسه ، وتجمد تفكيره وإدراكه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

وهذا هو القرآن يقص علينا قصة موسى مع فرعون باختصار فى سورة النازعات ، ثم يعقب عليها بقوله : « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » أى إن فيما قصه الله من قصة موسى وفرعون لعبرة وموعظة لمن يخاف الله ويخشى عقابه ، ولمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر فى حوادث

الماضين وأحوال الحاضرين ، ويتعظ بها ؛ ثم يعقب القرآن على ذلك بعرض صور من كتاب الله المنظور — وهو الكون — ليفجر فى نفس المؤمن الواعى ينابيع هذا الخلق الكريم : خلق الاعتبار ، فيقول عقب ذلك مباشرة ، أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم » . ثم يتبع ذلك بذكر العاقبة التى ستختلف باختلاف الناس ما بين بر وفاجر ، أو صالح وطالح ، أو معتبر وغافل ، فيقول : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن فضيلة الاعتبار هذا الحديث الواعظ الناصح ، فإن رسول الله ﷺ قد أشار إلى العبرة والاعتبار فى نهاية الحديث الذى يقول : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبراً » . وإذا كان الحديث هنا قد ذكر مادة الاعتبار الذى ينشأ عن التأمل والنظر والتفكر ، فإنه فى مقام آخر قد أشار إلى هذا الاعتبار وإن لم يصرح بمادته أواسمه ، وذلك فى قوله : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبداً ، أو النار أبداً » .

والاعتبار له شأن أى شأن عند أئمة الصوفية ، لأن الصوفى الصادق هو من ينظر ويفكر ويتذكر على الدوام قول القائل :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحـــد

وهذا أبو عبد الله السجزى الصوفى يقول : « العبرة أن تجعل كل حاضر غائباً ، والفكرة أن تجعل كل غائب حاضراً » ويالها من طاقة روحية أخلاقية لا يقتدر عليها إلا السابقون فى ميدان التحلى بمكارم الأخلاق . ويقول حاتم الأصم الصوفى : « الشهوة ثلاثة : شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام ، وشهوة فى النظر ، فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد شغلتنا الحياة الصاخبة اللاغبة عن نعمة الاعتبار . لقد قست علينا الحياة المعقدة الملتوية الثقيلة عن وقفات لنا أمام قرآن ربنا المشاهد ، وهو هذا الكون الواسع العريض ، بما فيه من آيات ودلالات : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . فهل من عودة إلى فضيلة الاعتبار ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الثبات من أخلاق القرآن

الحمد لله جل جلاله ، هو الباقى الذى لا يزول ، الدائم الذى لا يحول ، « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « وأن هذا صراطاً مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عرف طريق الحق فسلكه ودام عليه وثبت فيه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعشيرته ، والسابقين إلى صحبته ونصرته ، والثابتين على دعوته وسنته ، « أولئك لهم عقبى الدار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

الثبات كلمة تدل على القوة والتأنى ، وعلى الاستقرار والدوام ، والثبات خلق من أخلاق القرآن ، وفضيلة من فضائل الإسلام ، ومكرمة من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والإنسان المسلم فى أشد الاحتياج إلى خلق الثبات ، لأن طريق العبادة والعمل والأمل طريق طويل ممتد ، لابد له من ثبات واستقرار ، ولذلك جعل الحق جل جلاله ثمرة القرآن فى الأفئدة والنفوس هى تثبيت الإيمان فقال : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » . وقد امتن الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بنعمة الثبات ، وأهدى إليه هذا الثبات فيما نزل عليه من آيات كتابه درساً بعد درس ، ومرحلة بعد مرحلة : « وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . وأخبره بأن فضيلة الثبات هى التى صانته من الضلال والبهتان ومن الميل إلى أهل الكفران ، فقال : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن

إليهم شيئاً قليلا ، إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ».

وإذا كان الجهاد عماد الحياة العزيزة الكريمة ، فإن الجهاد لا يستقيم أمره بغير ثبات ، لأن الثبات فى الجهاد قوة معنوية روحية لها قيمتها ، فلقد يكون السلاح والعتاد فى أيدى الجنود ، وفيهم الكثرة والقوة الحسية ، ولكنهم يظلون بحاجة إلى ما هو أهم أعظم ، وهو ثبات القلوب واستقرار النفوس وتوطد العزائم ،ولذلك قال القرآن: « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . وهدد القرآن المجيد أولئك الذين يتنكرون فى الجهاد لفضيلة الثبات ، فقال « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . جعل الله تعالى غرس الثبات فى نفوس المجاهدين المؤمنين عند الهول عمل الملائكة الأبرار فقال عن غزوة بدر : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . وجعل القرآن دعاء المناضلين الموقنين قولهم : « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . وثبات القلوب أمر معنوى روحى ، ينشأ عنه ثبات الأقدام وهو أمر حسى مادى ولذلك جمع بينهما كتاب الله الحكيم ، فقال : « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

ولقد ضرب الأوائل فى صدر الإسلام أروع الأمثال فى الثبات على الشدة والابتلاء ، حتى قال الحق يصور ذلك منهم أجمل تصوير : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان

الله والله ذو فضل عظيم » . وفى غزوة أحد العصيبة أشيع أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد قتل ، ويالها من إشاعة مزلزلة مبلبلة ، فتسرب الألم العاصف إلى النفوس حتى كادت تتضعضع ، ولكن أنس بن النضير عليه الرضوان يهتف بأعلى صوته قائلا : « يا قوم ، إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم » . فثابت النفوس وتجمعت القلوب ، وجاء التنزيل عقب ذلك يزكى الثبات ويمجد الاستقرار ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . ولم لا يثيب الله تعالى بأفضل الثواب أولئك الثابتين الشاكرين وقد أسلموا وجوههم لله ، وآمنوا بقدر الله ، ولم يخافوا شيئاً فى جنب الله ، ووقفوا فى وجوه الكافرين ينذرونهم بالثبات حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فإما نصر وإما شهادة ، وهما الحسنيان اللتان يرتضيهما رب العالمين لعباده المؤمنين ، فلينظر أهل الكفر ما تنظرون ، فإن ثبات المؤمنين أبقى وأقوى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .

وإذا كان القرآن المجيد قد دعا إلى ثبات العقيدة ، وإلى ثبات النضال ، فقد دعا إلى ثبات العبادة ، فقال : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وقال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» وقال : « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» ودعا إلى ثبات الكلمة ، فقال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . ولقد كان

المؤمن يعطى الوعد بكلمته على الوفاء والفداء ، فإذا هو ثابت عليها حتى يلقى الله وفياً نقياً . وهذا أحد الشعراء يصف مجاهداً ثبت حميداً حتى مات شهيداً فيقول :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها : من تحت إخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فانثبت على عقيدتنا ، فإن التذبذب فى الاعتقاد خور ونفاق : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ولنثبت على عبادتنا فإن تضيعها لا يليق بأهل الإيمان وعباد الرحمن : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » . ولنثبت على عملنا الطيب ، فإن من ورائنا من يحصى ويحاسب ويثيب أو يعاقب : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

المراقبة من أخلاق القرآن

الحمد لله جل جلاله ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله : « إن إلى ربك الرجعى » « وأن إلى ربك المنتهى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عاش لله ، وراقب الله فكان خير الهداه ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى من اصطفيتهم من آله وذريته ، ومن حليتهم بشرف رفقته وصحبته ، ومن وفقتهم لطريقه وسنته : «ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

المراقبة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلته من فضائل الإسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم ، والمراقبة فيها معنى الملاحظة والمراعاة ، كما أن فيها معنى التوقع والانتظار ، ومن ذلك قول الحق جل جلاله : « فارتقبهم واصطبر » أى انتظر وتوقع ما يحدث لهم ، والله عز شأنه من أسمائه — وله الأسماء الحسنى — اسم « الرقيب » لأنه مراقب لعباده ، حفيظ عليهم ، يعلم أحوالهم وأعمالهم ، ويعد أنفاسهم ويحصى أقوالهم : « إن الله كان عليكم رقيبا » « وكان الله على كل شىء رقيبا » ؛ والمراقبة بالمعنى الأخلاقى هى ملاحظة الإنسان نفسه وحسه ، وأقواله وأعماله ، وتحركاته وخطراته ، ليقيمها على الصراط السوى ، ولتكون على وفق ما أمر الله به ورضى عنه ، فهو يحب ما أحبه الله ومن أحبه الله ، وهو يبغض ما أبغضه الله ومن أبغضه الله ، وهو يلزم بابه ويسلك إليه أسبابه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » ، أن يكون

الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

وفضيلة « المراقبة » صفة تنبع فى جذورها من أعماق القلب ، وتنبثق من طوايا النفس ، وترتبط بالباطن أكثر مما ترتبط بالظاهر ، فهى قائمة على الشعور الحى العميق بجلال الله وسلطانه . ولقد قال بعض السلف لمن ينصحه : راقب الله تعالى ، فسأله عن معنى ذلك فقال له : كن أبداً كأنك ترى الله . وهو قد استمد هذا المعنى من قول سيدنا ورائدنا رسول الله عليه صلوت الله وسلامه : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فإنه يراك » والإنسان لا يرى ربه — تقدست صفاته — بباصرة ولا بجارحة ولا بحاسة ، وإنما يرى جلال ربه بقلبه وشعوره ووجدانه ، ثم يرى آثار قدرته فى نواحى كونه :

وفى كل شىء لـه آية　　تدل على أنه الواحـــد

وفى كتاب الله تعالى آيات تدعوا إلى هذه المراقبة وإن لم تصرح باسمها ، فالقرآن يقول : « واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه » ويقول : « وهو معكم أينما كنتم » ويقول : « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . والمراقبة هى التى تثمر خشية الله ، وخشية الله هى المفتاح إلى رضوان الله . ولقد سئل بعض العارفين عن قوله تعالى : « رضى الله عنه ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » فقال : « معناه : ذلك لمن راقب ربه عز وجل ، وحاسب نفسه ، وتزود لمعاده » . كما قال الترمذى الحكيم : « اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه » . ولذلك ذكر أئمة التربية والأخلاق أن مما يقوى جانب المراقبة فى صدر الإنسان ويدعم كيانها عنده أن يترتب

لسانه على قدر طاقته بذكر أسماء الله الحسنى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وبخاصة الأسماء التى تحيي عناصر المراقبة فى نفس الإنسان بمعانيها الخاصة ، مثل « الرقيب ، الحسيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع البصير » وأن يطيل التفكير فيها والتدبر لها والتأثر بها ، والاستجابة لموحياتها وتوجيهاتها ، فمن عقل معانى هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها كان من الله على صراط مستقيم .

وما أشد حاجة مجتمعاتنا إلى فضيلة « المراقبة » لأن انعدام وازع المراقبة فى نفس الإنسان يجعله شبيهاً بالحيوان ، يرتع ليتمتع ، ويجمع لينتفع ، ويسطو على حقوق غيره ، وينتهك حرمات سواه ، ويسيء استخدام حقوق نفسه ، وبذلك تفشو الرذائل وتضمر الفضائل ، ويتعامل الناس بشريعة الغاب ، دون ارعواء أو حساب ، ولو وجدت فضيلة المراقبة عند الإنسان لجعلته أميناً على الأعراض لايعدو عليها ، بل يعتصم بنور إيمانه ، وبرهان ربه ، ووازع دينه ، ويقول : « إن معى ربى سيهدين » ويقول : « معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون » . والمراقبة هى التى تجعل الإنسان أميناً على الأموال بين يديه ، فقد يستطيع أن يسرق منها أو يختلس ، ولكن صوتاً من الأعماق ينهاه ، لأنه يرى على الدوام نور الله ، والمراقبة هى التى تجعل صاحبها يؤدى عمله على خير وجه مستطاع ، لأنه لا يرائى فى عمله كبيراً أو رئيساً ، بل يراقب ربه ، ويتذكر قول رسوله : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » .

ومن فضل الله العميم على المتحلى بفضيلة المراقبة أنه إذا صدق فى مراقبة الله جلا جلاله ، فى باطنه وخواطره ، عصمه الله من الإثم والانحراف فى جوارحه وظاهره ، ولذلك قال الأئمة إن مراقبة الله تعالى فى الخواطر سبب لحفظها فى حركات الظواهر ، فمن راقب الله فى سره حفظه فى حركاته وعلانيته ، وهذا الحفظ الإلهى يجعل العبد المؤمن فى حال الرضى والأمن

والاطمئنان ، فالمراقبة إذن لا تستلزم الخوف الفازع ، والرعب الهالع ، بل إن المراقب الصادق يجد لذة روحية ونفسية فى بلوغه هذه المرتبة السامية التى تجعله مستغنياً بالله عن سواه ، راضياً به عما عداه ، ولذلك قال أحد الصوفية على طريقته : « إذا كان سيدى قريباً منى فلا أبالى بغيره » ، وهذه رابعة العدوية ينسب إليها أنها قالت :

فليت الذى بينى وبينـــك عامـــر وبينى وبـــين العـــالمين خراب

وليتـــك تحلـــــو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضـــــاب

إذا صح منـــــك الود فالكل هين وكل الذى فـــــوق التراب تراب

ومن أعظم ثمرات المراقبة أنها تجعل المؤمن مشتغلا بحاضره يملأه بأفضل ما تملأ به الأوقات ، ولقد جاء فى الأثر : « المؤمن ابن وقته » أى يشغل نفسه بحاضره يملأه بالطاعة والعمل الصالح ، لا يتحسر على مافات ، ولا يشتغل بمستقبل لم يوجد بعد ، فهو ينتهز يومه ، فإذا قدر الله له مزيدا من الوقت تابع خطواته على طريق الهدى والنور .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنفتح قلوبنا لنور الله ، ولنعمر صدورنا بذكر الله ، ولنراقب المحاسب الذى سنلقاه : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . .

العزيمة من أخلاق القرآن

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الذى آتى الإنسان عقله وهداه : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، رسم معالم الطريق ،وأنذر بالعقاب من جانب الرشاد والتوفيق: «ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قرن العمل بالعمل ، والجهد بالأمل ، فكان خير من وصل فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى عترته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمستنين بهديه وحاله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . :

العزم كلمة تدل على القوة والسرعة والإقدام ، ومن كلمات أهل الحكمة : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » . والعزيمة هى عقد القلب على شىء يريد الإنسان أن يفعله ، وتوطيد النفس على القيام بهذا العمل لاعتقاد أن الواجب يقضى بأدائه مهما كلف من جهد أو تعب . والعزيمة خلق قرآنى وفضيلة إسلامية أشار إليها التنزيل المجيد أكثر من مرة . ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . فهنا يأمر الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشاور قومه فيما يعرض من أمور تستحق المشاورة . لأن الشورى فيها استعراض لوجهات النظر ، لاختيار اتجاه محدد موحد يتبع ، فإذا أدت الشورى وظيفتها وجب أن تأتى عقبها العزيمة والمضاء فى التنفيذ ، مع التوكل على الله سبحانه ، دون تردد أو تأرجح ، فالخطة واضحة : رأى ومشاورة ، ثم

حسم وعزم ، ثم مضى على الطريق بلا تعويق ، مع توكل على واهب الأسباب والقدر : « إن الله يحب المتوكلين » ، وهذا هو بعض ما نفهمه من قول الحق : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

والإنسان الذى يفكر ويدبر ، ثم يشاور ويستبصر ، ثم يعقد النية الطيبة على تنفيذ ما آمن به واستقر عليه ، ثم يستنفد كل جهد وطاقة ، مع التوكل الصادق على ربه ، يكون أقوى الأقوياء ، مصداقاً للحديث القدسى القائل : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ورجله التى يمشى بها ، ويده التى يضرب بها » . كما أن المتحلى بفضيلة العزيمة لا يتراجع ولا يتردد ، ولنا فى موقف الرسول يوم أحد أسوة وقدوة ، فلقد شاور قومه فى أمر الحرب ، وكان بهم شوق إليها ورغبة فيها ، فنزل الرسول على رأى الجماعة ، ودخل فلبس ثياب المعركة ، ولكن فريقاً جاءوا إليه يقولون : يا رسول الله، نخشى أن نكون قد استكرهناك على الخروج ، فإن شئت لم نخرج ، فقال : ما كان لنبى لبس لأمة الحرب أن يخلعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . وهذا ما يتطلبه الحزم والعزم فى مثل ذلك الموقف ؛ والله عز شأنه قد طالب رسوله بأن يستشعر العزم والعزيمة فقال له : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، أى أصحاب الجد والثبات ، والصبر والعزيمة ، كنوح الذى صبر على أذى قومه ، وإبراهيم الذى تعرض للاحراق بالنار ، وقدم ابنه للفداء والذبح ، وأيوب الذى صبر على المرض والعز ، وموسى الذى احتمل أذى قومه اللئام السفهاء ، وإذا كان محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، فإن مقامه فى الطليعة يأتى على الدوام أولا : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ونحن نفهم من منطق القرآن الكريم أن فضيلة العزيمة تصحب فضيلتى

التقوى والصبر ، لأن العزيمة حمل للنفس على تجنب أشياء لا تليق بها ، وأداء أشياء تجب عليها ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : « وإن تتقوا وتصبروا فإن ذلك من عزم الأمور » أى تتحملوا الواجب بعزم وثبات ، وتتجنبوا المعصية والضعف والتردد ، فإن ذلك من صميم الفضائل التى يدعو إليها القرآن الحكيم ، كما أنه ليس من العسير علينا أن نفهم أن فضيلة العزيمة تطوى بين جناحيها مجموعة فضائل ، ولعل مما يشير إلى ذلك قول القرآن فى سورة لقمان : « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . فالآية هنا قد ذكرت الصلاة ، وفى الصلاة عبادة لله بإخلاص ، والمحافظة عليها تحتاج إلى عزيمة ، وذكرت الأمر بالمعروف ، ولابد للآمر بالمعروف الصادق فى أمره أن يكون ملتزماً لهذا المعروف ، وهذا يحتاج إلى عزيمة وأى عزيمة ، كما أن القيام بالأمر بالمعروف يحتاج إلى عزيمة ، وذكرت الآية النهى عن المنكر ، وهذا يقتضى انتهاء الناهى عن المنكر أولا ، كما أن القيام بالنهى عن المنكر يحتاج إلى صبر واحتمال وعزيمة ، وذكرت الآية الصبر على ما يصيب الإنسان وهذا الصبر يحتاج إلى عزيمة .

ولما كانت هذه الفضائل الأربع تتجلى فيها العزيمة الراشدة ناسب أن تختم الآية بقوله عز من قائل : « إن ذلك من عزم الأمور » والله تعالى قد آخذ آدم حين وسوس الشيطان إليه فحال بينه وبين العزيمة ، فقال القرآن : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » .

ثم يأتى حديث العزيمة فى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم حيث نجد أنه كان يدعو ربه فيقول : « اللهم إنى أسألك العزيمة فى الرشد » ، والذى قال لنا : « خير الأمور عوازمها » أى فرائضها التى عزم الله علينا بفعلها . كما نقرأ فى سنته أنه قال لأبى بكر : متى توتر ؟ . فأجابه : أول الليل .

ثم قال لعمر : متى توتر ؟ فأجاب : فى آخر الليل . فقال الرسول لأبى بكر : أخذت بالحزم . وقال لعمر : أخذت بالعزم . وقد أراد أن أبا بكر حاذر فوات الوتر بالنوم فقدمه احتياطاً ، وأن عمر وثق بالقوة على قيام الليل فأخر الوتر ، وإذا كان أبو بكر قد أحسن لأنه قدم الحزم على العزم ، فإن عمر قد أحسن كذلك ، لأن عزيمته وجهته إلى طريق الثقة والقوة ، ورضوان الله على أبى بكر وعمر .

وهدى الرسول يرشدنا إلى أن العزيمة لا تعنى التنطع أو التشدد فى مواطن التيسير ، ولذلك يقول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » والعزائم هنا هى الفروض الواجبة ، فإذا كان صاحب العزيمة يمضى فى أداء الواجبات والفرائض بجد واجتهاد ، فإنه ينبغى له أن يتقبل بقبول حسن ما يسوقه إليه من تيسير فى المواطن التى يناسبها التيسير .

وللرسول عليه الصلاة والسلام موقف تجلت فيه القدرة العليا للعزيمة الصادقة ، فذلك حيث تحدى قوى الشرك والكفران مجتمعة ، وقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أشد حاجتنا إلى العزيمة فى حياتنا : العزيمة فى العبادة والتقوى ، العزيمة فى البناء والتعمير ، العزيمة فى الإعداد والاستعداد ، العزيمة فى الكفاح والنضال ، العزيمة فى الرشاد والصواب ، وما من أمة تجاهد إلا وهى محتاجة أشد الاحتياج إلى فضيلة العزيمة ، وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

وجهة الخير

لله الحمد ، حمداً ملء السموات والأرض ، فهو الذى أباح لعباده الطيبات ، وضاعف لهم النعم والخيرات ، وآخذهم بمقاصد العزائم والنيات ، فنظر إلى القلوب والأرواح ، لا إلى المظاهر والأشباح ، وهو العليم بذات الصدور ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت المتفضل الكريم ، الغفور الرحيم ، تبغض الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتحب الطيب من الأمور ما استعلن منها وما سكن ، « إن الله عليم بما يصنعون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما قصد إلا وجهك ، ولا ابتغى إلا حبك ، ولا آثر إلا بابك ؛ فصلواتك اللهم وتحياتك ، وسلامك وبركاتك عليه ، وعلى الخلاصة الخالصة من آله وأحبابه ، والصفوة المصطفاة من عشيرته وأصحابه ، والنخبة المنتقاة من أتباعه المغترفين من عبابه ، أولئك جند الرحمن وأبناء القرآن ، « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نية المرء خير من عمله ، وغايته أهم من وسيلته ، وكم من مظاهر تغر ببريقها وتخدع ببهرجها ، ومن خلفها أشياء مفجعة وحقائق مروعة ، وكم فى الحياة من أمور تسير بلا ضجة أو إعلان ، ولكنها تضم الخير الوفير والنفع الكثير ، ونواحى العيش فى الدنيا مزيج عجيب من الخير والشر ، والصلاح والفساد ، وأغلب الأشياء لها وجهان ، أو لها حدان ، يؤخذ الأول فيكون آلة تطهير وتعمير ، ويؤخذ الثانى فيكون معول هدم وتدمير ؛ والمسلم الصحيح الإسلام يستطيع بإخلاصه فى نيته ، ونبله فى غايته ، واتجاهه دائماً إلى ربه ، أن يستخلص على الدوام عصارة الخير من مواقف الدنيا

وأعراض الحياة ، كما يعتصرها من مواقف الدين وظروف العبادة ، فإذا ما أكل الغافلون كما تأكل الأنعام ، ورعوا فى حقول اللذات كما ترعى الأغنام ، وضلوا فى شعاب الإسراف بلا انتظام ، أقبل المسلم على الحياة إقبال الربيع ، يحيل الجدب خصباً ، والترب ذهباً ، والملح الأجاج ماء عذباً ، فهو يأخذ من الدنيا ويعطيها ، ويتمتع بطيبها دون أن يذل لدواعيها ، ويلمح النور حتى بين الظلمات ، ويحس الغبطة حتى فى الأزمات ، ويستخرج وجهاً للإحسان والحكمة ، حتى فى تعارف الناس على أنه من السيئات ؛ ومثل المسلم حينئذ كمثل ذلك الصوفى الخالص الواصل الذى سمع أحد الناس ينشد :

إذا العشرون من شعبـــــان ولت   فواصل شرب ليلك بالنهــــــار

ولا تشرب بأقــــداح صغار . . .   فإن الوقت ضــاق عن الصغار !

فزلزل زلزالا كبيراً ، وأحس كأنها نفخة الصور ، وكأنه مأخوذ محصور ، فلا فوت ولا فرار ، ولا فرصة للتعويض أو الاستدراك ، بل ضيق فى الآجال ، وتراكم فى الواجبات والأعمال ، فما ذكر حين سمع ذلك إلا خمرة ربه ، التى تنسيه الدنيا بما فيها ومن فيها ، وتغمره فى رحاب خالقه الأعلى ، وتصهره بأنوار بديع السموات والأرض ؛ ولعل صاحب الشعر قصد حين أنشده خمراً دنيوية مسكرة ، وأكواباً حسية قذرة ، وأقداحاً أرضية نجسة ، ولكن الصوفى يطوى قلبه على الخير ، ولا يرى فى الأمور إلا وجهات النور ، أخذ المعنى على أن العمل القليل فى حق الله لا يكفى ، وأن الاغتراف من ينابيع الطاعة وبحار القربات ، بأكواب صغار وأقداح دقاق ، لا يليق بالعمر القصير والسفر الطويل والحساب العسير ؛ وإذن فلابد من الاجتهاد فى الطاعات ، ومضاعفة الحسنات ، والإسراف فى تعاطى

خمرة الصلاح والتقى ، وسلاف الرشاد والهدى وهكذا لله فى خلقه شئون ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، كما يقول القرآن ! .

وهذا الإمام ابن الفارض — رضى الله عنه ، يحترق بنار الوجد ولذعة النجوى ومع ذلك يأبى أن يتأى ، فيهتف راجيا :

زدنى بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ، ولا تجعل جوابى : لن ترى !

وهذا شاعر خبيث ، يريد أن يتفلسف فيسقط ، ويريد أن يبتدع فيهلك ، ويريد أن يبهج الناس ويوبق نفسه . . . لقد رفع عقيرته بالمنكر الباطل من الحديث فقال :

أتترك لذة الصهباء عمـــداً بما وعـــدوك من لبن وخمر

أموت ، ثم بعث ، ثم حشر حديث خرافة يا أم عمـــرو

فجاء شاعر آخر بارع ، فأفسد على ذلك الخبيث كيده ، وأزال نكره... لقد أحال هذا الشاعر البارع كلمات ذلك الشاعر إلى لبنات فى كلمات أخرى صارت هداية وإيماناً ، بعد أن كانت كلمات الشاعر الخبيث السابقة ضلالا وبهتاناً . . . جاء الشاعر الآخر فأخذ تلك الكلمات وجعلها ضمن أبيات فقال :

« أتترك لـــذة الصهباء عمداً » أصبت فإنها بالعقـــل تزرى

أتقـــدر أن تسوى كأس راح « بما وعدوك من لبن وخمر »؟

« أموت ثم بعث ثـــم حشر » حقائق سوف تعلمهـــا وتدرى

وأمـــا ما رواه لنـــا المعرى « حديث خرافة يا أم عمرو »

ألا شلت يد المفسد المبطل ، إنها تقوض وتهدم ، وبوركت يد المصلح المقوم ، إنها تقيم من الأنقاض بنياناً ! . . .

وقد يسمح هذا القول فرد من غوغاء الناس ورعاع الأحياء ، فيحسب الأمر صبابة وغراما ، وحباً وهياما ، وصلة بين عاشق ومحبوب ، وعاطفة ينطفئ لهبها بتلاقى الأجساد وتدانى الأبدان ، وقد يحلو لذلك البشرى السادر أن يتمثل بما قال الإمام فى مقصد من مقاصد البدن وعاطفته التى تعارف عليها عامة الناس ، وقد تصاح ظواهر الألفاظ لما أراد ، ولكن ابن الفارض حينما صرخ صرخته العميقة السالفة لم يقصد هوى التراب ولا ذات الرضاب ، بل صرخها وهو يتمثل موسى عليه السلام وقد استبدت به الرغبة فى رؤية ربه قبل ميقاتها ، ورؤيته نهاية النهايات فى الجمال والكمال والجلال ، فاتجه إليه يسأله ذلك : « قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى »... وصرخها وهو يتمثل وعيد ربه للمجرمين من عباده حين يقول : « كلا إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون » ووعده الكريم العظيم للطيبين من عباده حين يقول : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ... فابن الفارض يريد أن يحترق بنيران حبه لمولاه ، وأن يزيده محنة فى هواه ، على أن يضمن له ، وهو الكريم الحليم ، رؤيته يوم تكون رؤيته أفضل النعيم فى الفردوس المقيم ، مصدقاً لقول الرسول : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ . قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » ... وهكذا كل يغنى على ليلاه فمنهم من ليلاه لحم وعظم ، ومنهم من استأثر مولاه بهواه ، ولا يزالون مختلفين ! .

وهذا مسلم متبصر آخر ، يدخل على قوم يسمعون لحناً عذب النبرات ، فهم يطربون لنغماته ، ويهيجون عند وقفاته ، فجلس بينهم ، ولكنه جعل يسمع بأذن غير آذانهم ، ويهيم فى واد غير واديهم ، فهو مع المعانى يدور

وباللمحات ورموز الألفاظ يضىء قلبه، وما كاد يسمع اللحن يقول عن شرعة الرسول :

والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى ، والحقوق قضاء!

حتى فاض به حاله ، وأخذ يقرع أسماع من حوله ، بما تنطوى عليه هذه الألفاظ القلائل ، من تصوير بديع رائع ، للأصول الأساسية والدعائم الأولية التى نهضت عليها شرعة القرآن ودعوة السماء ، وملة الإسلام وهدى محمد ؛ فدينه لين لا شدة ، وتيسير لا تعسير ، « لا تكلف نفس إلا وسعها » « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، « ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا وقاربوا » ، و « وإن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » ، إلى غير ذلك من النصوص والآثار ... وولاية المسلمين خلافة رشيدة حميدة ، تقوم على البيعة الطيعة الخالصة ، وتنهض على الجدارة والاستحقاق من جهة صاحبها ، والرضا والاتفاق من جهة معطيها ، وبذلك يتوافر فيها تبادل الثقة وتعاون الجميع ... وأمر المسلمين شورى بينهم ، أمر بذلك نبيهم من ربهم حين قال له : « وشاورهم فى الأمر » ، وغيره أولى بالخضوع لمفهوم ذلك التنزيل ، فلا إطلاق للهوى أو الرأى أو الاختصاص فى الإسلام ، بل الأمر كما قال سيد الأمة ونبى الملة محمد عليه السلام : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ! .. والحقوق كأنها قضاء مقدس لاينال ولا يبدل ، فحقوق كل فرد فى الإسلام يجب أن تصان له ، بل أن تحمل إليه ، لا أن يتعب هو فى سبيل الحصول عليها ، وليس من شرعة الإسلام فى شىء أن يطالب مسلم بالواجبات قبل أن تؤدى إليه الحقوق ! ... وهكذا استطاع ذلك المسلم البصير باتجاهه وجهة الخير أن يقلب المكان من حلقة صغير

وتصفيق ، وإعجاب بالأنغام والنبرات ، إلى رحبة ادكار واعتبار ، والمقام هو المقام ، والكلام هو نفس الكلام ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

المهم هو أن يقصد المسلم وجهة ربه ، وأن ينوى الخير فى قلبه ، وأن يسمو فى مقاصده وأهدافه ، وأن يلتمس من كل موقف ثمرة ، ومن كل مقام ناحية خير وإحسان ، ويومئذ سيكون عابداً لله قانتاً ، متقرباً إليه متحنثاً ، حتى فى طعامه وشرابه ، وزينته وثيابه ، ونومه وراحته ، وسمره ودعابته ، بل وفى لذة فراشه وأهواء نفسه ؛ فالنية الطيبة هدية الرحمن إلى عباده ، بها يحيلون كل شىء فى الكون يستخدمونه إلى ركاب حثيث الخطا يدنيهم من رضا الرحمن ؛ فسائلوا أنفسكم : أين هذه النية من قلوبنا وعزائمنا؟ . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ...

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

شكر الأمين

الحمد لله عز وجل ، شرع الثواب كما وضع العقاب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحب الصنع الجميل يثيب عليه العطاء الجزيل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة صان الحق ، وكان خير الشاكرين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم واعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى الحديث النبوى الشريف : « لم يشكر الله من لم يشكر الناس » ، وفيه أيضاً : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » . ونحن فى عالم يتضاءل فيه جانب الخير أمام طغيان الشر ، ولذلك كان من الواجب أن نتواصى بتقدير العاملين وشكر المحسنين وإثابة المجيدين ، لنزداد من حوافز الإتقان والإحسان ، بل نحن فى عالم يحسن فيه أن نشكر الذى يتوقى العيب ويتجنب الخطأ ولو لم يحسن ، لأن الأمر كما قال القائل :

إنا لفى زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإفضال

والسائر فى طريق الخير والبر يكون فى العادة كالغريب المخذول ، فهو بحاجة إلى تقوية وتأييد ، بخلاف المنحرف المسرف فإنه على باطله جرىء ،

ومن حوله مشجعات ومحرضات ، والرسول يقول : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . وقديماً كان عمر يناجى ربه فيقول : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن » . فكيف لو أدرك عمر عصوراً أقبلت بعد عصوره وفيها كثير من المفاسد والمآثم ؟ . إذن لأدرك أن الناس على عهده كانوا ورقاً بلا شوك ، ثم صاروا وكأنهم شوك بلا ورق ؟ ...

لقد وجد شخص حقيبة ضائعة وفيها مال كثير ، فحفظها برغم حاجته ، وردها إلى صاحبها سليمة كاملة ، ولكن صاحب المال أبى أن ينفذ القانون القاضى بإعطاء من وجد الحقيقة ما يساوى عشرة فى المئة هذه من النقود ، وبلغ الموضوع ساحة القضاء ، فحكمت المحكمة بدفع النسبة ، مع التنويه بأمانة من وجد الحقيبة وسلمها دون مساس بها ، ولا شك أن المقصود من قانون المكافأة هنا هو تقدير الأمانة وتشجيع الأفراد عليها ، وما دام القصد نبيلا جميلا فمن واجب الأفراد أن يعاونوا على تطبيقه ، بل من واجبهم أن يسارعوا باختيارهم وطواعية نفوسهم لتحقيق هذا المقصد النبيل الجميل ، دون رهبة من قانون أو إرغام من قضاء ؛ ولذلك كنا نتوقع أن يسارع صاحب الحقيبة باختياره ورضاه ، فيعطى للذى رد إليه حقيبته المفعمة بالمال المغرى حقه القانونى فيه ، بل كنا نفضل أن يزيد فى إكرامه تقديراً لأمانته ، إذ لو سول له الشيطان شيئاً آخر غير الأمانة لما رجعت الحقيقة إلى صاحبها ، ولطال منه التوجع والأنين على ما فقد من مال ثمين ، وما أندر الأشخاص الأمناء الذين يتقون الله ويخافون حسابه بين جموع الخونة الذين لا يقيمون وزناً للدين أو للضمير ! . . .

وقد يكون من الخير أن نعرف فى هذه المناسبة حكم الشريعة فى اللقطة ، وهى الشىء الضائع الذى يعثر عليه غير صاحبه ، فقد ذكر الفقهاء أن التقاط الشىء الضائع لرده إلى صاحبه أفضل من تركه ، وإن خاف ضياعه

وجب عليه أخذه ، ويكون أمانة عنده ، يعلن عنها ويعرفها حتى يجد صاحبها ، أو يغلب على ظنه أن صاحبها لا يطلبها بعد ذلك ، وقد جاء فى الحديث : « من آوى ضالة فهو ضال مالم يعرفها » أى من التقط ولم يعرفها فقد ضل عن الهدى ؛ وفى بعض الآثار ما يفيد المبالغة فى هذا التعريف ، فعن أبى ابن كعب قال : « وجدت مئة دينار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عنها ، فقال : عرفها حولا » أى سنة ، وتعريفها أن يخبر عنها فى المجامع بوسائل الإخبار المجدية ، فإن لم يأت صاحبها تصدق بها ، ويجوز له أن ينتفع بها ، وبخاصة إذا كان فقيراً ... وفى الفقه الإسلامى ما قد يستفاد منه تسويغ القانون القاضى بمكافأة من عثر على شىء ذى قيمة ورده إلى صاحبه ، فقد قال الفقهاء إن من رد عبداً هارباً على صاحبه استحق أربعين درهماً فى مقابل هذا الرد ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « جعل الآبق أربعون درهماً » .

وأجاز الفقهاء إذا كانت اللقطة تافهة كالنوى وقشور الرمان وقطعة الحبل — أن ينتفع بها ملتقطها من غير تعريف ، فعن جابر قال : رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العصا والسوط والحبل وأشباهها يلتقطها الرجل ينتفع بها . وإذا التقط مثل التمرة أكلها أو تصدق بها ، ولقد قابل عمر رجلا يحمل بين يديه تمرة وينادى عليها : يا من ضاعت له تمرة ؟ . . فأغلظ عمر لقاءه قائلا له : كلها ياصاحب الورع البارد ! ! . . .

إنها لفرصة يجب انتهازها للتذكير بالأمانة ، والدعوة إليها ، والحض عليها ، والتكريم للذين يتحلون بها ، فإن الأمانة عماد الأمان والاطمئنان فى المجتمع الكبير والمجتمع الصغير ، وبدون الأمانة تضيع الحقوق ، وتنتهك الحرمات ، وترتكب الفظائع ، وتتوقح المناكر والكبائر .

ومن لطائف الإشارات أن الأسان والأمانة والإيمان تجمعها مادة لغوية واحدة ، وبينها من وشائج القربى فى المعنى وروابط الرحم فى المفهوم ما يجعلها كفروع ثلاثة لشجرة واحدة تباركها يد الإسلام ، فإذا تحقق الإيمان جاءت معه الأمانة ، وإذا كانت الأمانة انتشر الأمان ، والأمان — أو الأمين — هو طمأنينة النفس وزوال الخوف ، والأمانة ما يؤتمن عليه الإنسان ليحفظ ويعونه فى أمن وأمان ، والإيمان هو إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بمقتضى ذلك بالجوارح .

والأمانة من سموها وعلوها كانت صفة الأنبياء ، ولذلك اشترط فى صفة النبي أيا كان أن يكون أميناً ، ومحمد صلوات الله عليه كان يلقب فى قومه قبل الرسالة بالأمين ، وموسى صلوات الله عليه وصفته ابنة شعيب بالأمانة : « قالت : يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » ! بل جعل الإسلام هذه الأمانة عماد الإيمان ، فقال الرسول : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهدله » ، وسن الإسلام أن يودع كل منا أخاه بقوله : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » لأن أمانة الإنسان إذا كانت وديعة فى يد الله صارت فى حرز حريز وحصين منيع . وقد كان الرسول صلوات الله عليه يستعيذ بربه من الخيانة وهى نقيض الأمانة ، فكان يدعو ربه قائلا : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة » .

والطمع هو أعدى أعداء الأمانة وأقوى أنصار الخيانة وهم يقولون : الطمع يضيع ما جمع . والرسول يعرض بالطمع أشدالتعريض حيث يقول : « لو كان لابن آدم واد من الذهب لتمنى معه الثانى ، ولو كان معه الثانى لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب»

ويقول الرسول — فيما روا الشيخان والترمذى — : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر » ! ... وما أكثر الذين طمعوا وجمعوا وضنوا على غيرهم بحقوقهم ، ثم فجعتهم الأقدار فى الضخم الكثير خلال طرفة عين أو أقل ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نحيي باسم الإسلام أولئك الذين يخافون ربهم ويخشون حسابه ، ويستجيبون لصوت ضمائرهم وداعى أماناتهم ، فلا يستحلون حراماً ، ولا يأكلون سحتاً ، بل يتمسكون بأسباب الأمانة والوفاء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . :

بين اللسان والأذنين

لله الحمد ، هو ربنا الأعلى ، « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » وهو الذى يحصى على العباد أعمالهم وأقوالهم « فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » سبحانه جلت عظمته وعمت قدرته وعزت كلمته « له مافى السموات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » . نشهد أن لا إله إلا أنت تسمع وترى ، وأنت رب الآيات الكبرى ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من اهتدى بطريقتك المثلى ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى دوحة بيته الطاهرة ، وعصبة صحابته القوية الظاهرة ، وشيعته العاملين للأولى والآخرة ، أولئك « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

نشأت اللغة أول ما نشأت ليستعملها الإنسان عند الضرورة والحاجة ، وليقتصر فيها على المقدار اللازم منها ؛ يجوع فيطلب الطعام ، ويعطش فيطلب الماء ، ويريد شخصاً فينادى عليه ، ويحس بخطر فيحذر منه ؛ وهكذا . ولكن الناس على مرور الأجيال والأعوام ، أساءوا استعمال النطق والكلام ، فصاروا « يلتون ويعجنون » ، ويلوون ألسنتهم فى أفواهم بسبب وبغير سبب ، ويصخبون ويثرثرون عند المناسبة وعند انعدامها ، ويصدعون الرءوس بحديثهم المملول ونطقهم المعلول ،حتى أصبحت أمنية الكثيرين الذين ضاقوا بالكلام والمتكلمين ، وبالثرثرة والثرثارين ، أن يجدوا لهم مهرباً نائياً بعيداً عن هؤلاء وهؤلاء ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك والمرء يقضى عليه أن يقبل

مالا يرتضيه ، وأن يصبر على ما يعانيه أو يعاديه ، وشتان بين ما يكون ، وبين ما يتمنى المرء أن يكون ! . . .

ولو تدبر أولئك الصاخبون الناطقون بلا سكوت أمر نفوسهم ، لأدركوا أن اللسان آلة تستخدم عند اللزوم ، لا فى سائر الأحوال أو على وجه العموم ، وأن اللغة وسيلة يتذرع بها صاحبها إلى قضاء أمر أو بلوغ غاية ؛ وكأن الله سبحانه خلق للانسان لساناً واحداً كما خلق له قلباً واحداً وعقلا واحداً ، ليشعره بأن اللسان يجب أن يكون من الضبط والإحكام ، وفى القيمة وسمو الرتبة ، كالعقل سواء بسواء ، لا أن يكون للاستعمال المستمر أو الحركة الدائبة ، أو التنقل الكثير كالقدمين واليدين والعينين ؛ وكأن الله سبحانه قد قد أعطى الإنسان رجلين ، لأن الرجل تحتاج إلى أخت معها ، ليوجد التوازن والتعاون ، ولأنه لو أعطاه رجلا واحد لكان سيره وثباً وقفزاً ، ولما استطاع الذهاب والإياب كالمعتاد ؛ وأعطاه يدين لأن اليد تستلزم أخرى لتستطيعا إمساك الأشياء والقبض عليها ، ولتكون اليمنى لرفيع الأمور وطاهر الأشياء ، وتكون اليسرى لخسيس من الحاجات ، ولأن اليد الواحدة لا تصفق وحدها كما يقولون ؛ وأعطاه عينين تبصران وتقرآن وتلمحان ، وتتجهان بسهولة ذات اليمين وذات الشمال ، وبذلك يمكنه إدامة النظر واستخدامه دون إجهاد . . وأعطاه أذنين ليطيل بهما الاستماع إلى ما ينفع ويفيد ، ولكى يلتقط بإحداهما ما يفوت الأخرى . . ولكنه مع هذا كله أعطاه لساناً واحداً ليكتفى بالقليل من الكلام ، ولا يسرف فى استخدامه كغيره من متعدد الأعضاء . أوبعبارة أخرى أعطاه الله لساناً واحداً مع أنه أعطاه أذنين ليوحى إليه من طرف خفى بأن الواجب عليه أن يسمع ضعف ما يقول ، فإذا تكلم ساعة سمع ساعتين ، وهكذا ، ولكن الكثير من الناس سدوا آذانهم فلا يسمعون ولا ينتصحون ،

وأطلقوا أعنة ألسنتهم بالسوء والفحشاء فغدت عقارب لا تكف عن اللديغ ، أو ثعابين لا تمل الحركة ، أو سياطاً لا تنقطع عن الفرقعة والطنين ، فتراهم يجيدون الكلام وتشقيقه ، ويفرضونه على الناس فى الغث والسمين ، وفى الحق والباطل وفى المشروع والممنوع ؛ ولكنهم لا يحسنون الاستماع ، بل لا يريدون أن يستمعوا ، وإذا سايرتهم أو لاينتهم أبوا أن يقتنعوا ، ولسنا ندرى والله ماذا كان يحدث لو أن الله سبحانه وضع فى فم كل واحد من هؤلاء لسانين ، مع أننا لم نطق بلايا لسان واحد ؟ ! . . . لو حدث هذا لكانت الداهية الدهياء ، ولكن الله لطيف بعباده الضعفاء ! . . .

ولو أن هؤلاء « اللتاتين » بثرثرتهم وحديثهم الذى لا ينقطع ، يتكلمون فى خير ، أو يشرحون فى دعوة ، أو يحرضون على معروف ، أو يبحثون فى مصلحة للدين أو للدنيا ، لحمدنا لهم أمرهم . مع أن خير الكلام ما قل ودل والبلاغة الإيجاز . ومن الإيجاز ما هو إعجاز ، ولكن هؤلاء فى الأعم الأغلب لا يتحدثون إلا فى فضول الكلام وباطل القول وفاسق الحديث ، من السباب والشتائم ، والجدال والمراء ، والسخرية والاستهزاء ، والشقاق والنفاق وطعن الأعراض وقرض اللحوم البشرية بلا استحياء . . .

وهل ابتليت يا أخى يوماً باستماع ما يدور من جدل سقيم ونقاش فارغ وحديث باطل وحوار أثيم منكر فى المحافل والندوات ، والمجالس والجماعات ، والأحزاب والهيئات ، وفى محيط الأسر والعائلات ؟ . . . لكأن هؤلاء لم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ». وكأنهم لم يسمعوا أن عقبة بن عامر سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك . وأن الرسول قال أيضاً : وهل يكب الناس فى النار على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم . . . كأنهم لم يسمعوا هذا فانطلقوا بلا حساب

يستخدمون تلك الآلة الصغيرة الخطيرة جداً التى تسمى اللسان ، يستخدمونها فيما يذهب المروءة ويخدش الشرف ، ويقطع أواصر الأخوة والصفاء بين بنى الإنسان ؟ . . .

نبئونى بربكم يا بنى الإسلام ماذا فى مجالسنا العامة والخاصة اليوم من علم ينتفع به ، أو توجيه كريم صادق نجتمع عليه ، أو حديث رفيع نبيل نتمعن فيه ؟ . . . وأين نظام الكلام وحسن الاستماع فى هذه المجالس ؟ . . . يتحدث المتحدث فيسارع الآخر بالاعتراض أو الإعراض وقد يسبق مسارعاً بحكم أو تعليق يتنبأ به قبل أن تتم جملة المتحدث الأولى ، وقد يتحدث ثلاثة أو أربعة دفعة واحدة ، وكل منهم يطمع ويلح فى أن يسمع له الآخرون . وقد تستبد شهوة الكلام بخفيف عقل أو ثقيل ظل أو سليط لسان أو وضيع أسلوب ، فلا يمكن سواه من عرض رأيه أو إبداء حجته ، وهكذا تمر الساعات دون أن تقضى الواجبات ، ويخرج الجمع من المجلس الطويل الثقيل بلا اتفاق على رأى ، أو اتحاد فى اتجاه ، أو تصاف فى القلوب ، ولو عرف كل منهم متى يحسن أن يتكلم ، ومتى يحسن أن يسكت ، ومتى يحسن أن يستمع ، لاستقامت الأحوال ، وتمت الأعمال ، واستراحت الرجال ! . . .

هلا عمرتم مجالسكم يا بنى آدم ويا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه السلام بتلاوة قرآن أو قراءة حديث أو مطالعة مقال كريم ، أو التباحث فيما يفيد ديناً ودنيا ، أو المذاكرة فى نافع العلوم والآداب والفنون ، أو التشاور فى أمور المسلمين ومصالح العباد والبلاد ، أو الاتفاق على مناهج التخلص من بلايا الذلة والخنوع ، والاتحاد على تحقيق العزة والسيادة للذين يريدهم ربهم مسلمين مؤمنين ، عمالقة فى الكون يهدون ، وينصفون — وينتصفون ، لا أقزاماً يذلون ويخضعون . . .

لو أنكم تحدثتم فى هذا لكان الحديث جميلا ، ولو طال منكم لكان مقبولا ،

لكان مطاقاً ومحمولا ، وإن كان لكل شيء غاية ونهاية ، وكل أمر عند الله بميقات وميعاد ، ولكل مقام مقال . ولكل وقت من الأوقات طائفة من الواجبات .

إن هذا اللسان يا هؤلاء هو الذى يورد المهالك ويوقع فى المعاطب ويحدث الجراحات التى لا تلتئم ، ويكشف العورات التى لا تستر ، ويفتح الثغرات التى لا تسد ، وهو فى الوقت نفسه لو أحكمنا قياده وسيلة الهداية وطريق التقويم ، فانظروا يا هؤلاء أين تكونون ، وانظروا إلى ألسنتكم فى أى طريق تسير ! . . .

لقد أوصى العليم الحكيم رسوله صلوات الله عليه أن يكون نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبراً ، فجعل له ثلاثة أحوال هى النطق والصمت والنظر، ولكل منها بطبيعة الحال نصيب ومكان وزمان ، فليكن للنطق مقدار الثلث فى هذا المجال ، لا أن يستبد بكل الأوقات والحالات ، فيجعل المرء كالثرثار المخبول ، أو الحاكى الذى لا يعقل ما يقول . . .

ولقد أدبنا القرآن الكريم فى كثير من آياته بأدب الاستماع ، وجعله شعار الخيار الأبرار ، فهو يقول عنهم : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ويقول : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله » ويقول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ويقول : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . والله قد وصف نفسه بوصف « السميع العليم » مرات تقارب العشرات ، وهو يقول عن ذاته فى هذا الباب : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما » ويقول : «قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » ويمتن الله على الإنسان بنعمة السمع ليلفته إلى شكره عليها بحسن استخدامها وجميل الانتفاع بها فيقول : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً »

ويقول : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ويأمر عباده بالاستماع فى أكثر من موضع لما يجب الاستماع إليه ، فيقول : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ضرب مثل فاستمعوا له » ويقول الله لأحد رسله : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى» ويصور عباد الرحمن تصويراً يستبين فيه الانتفاع بالاستماع ، فهو يقول عنهم مثلا : « وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ويقول : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » ويقول أيضاً على لسان الجن الذين اهتدوا عن طريق السماع : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به » . . . وحيثما ذكر القرآن أوصاف الخاسرين والكافرين بين أن من أسباب ذلك عدم الاستماع ، فهو يقول : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ويقول « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ويقول فى الميئوس من إيمانهم : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » .

والقرآن أيضاً يقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ويقول الرسول الكريم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) فهل من الخير أن ترائى شخصاً بمدحك مادام موجوداً فإذا غاب أنشبت مقاريضك الأثيمة فى لحمه وعرضه ؟ وهل من الخير أن تطلق لسانك العربيد فتقص ما تعرف وتنشر ما انطوى من أسرار البيوت والعائلات ؟ وهل من الخير أن تتطاول بالذم والقدح على الشرفاء وأنت من الأخساء ؟ وهل من الخير أن يتبجح المرء فيعد الوعود الكاذبة الطنانة ثم يكذب فيها ويخون ؟ وهل من الخير أن تعتاد الولوغ فى عورات النساء وأحاديث المجانة والرذيلة بلا خجل أو حياء ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أحسنوا أن تستمعوا كما تحسنون أن تنطقوا ، فرب مستمع خير من ناطق ، وأحكموا رباط هذا الثعبان المسمى باللسان ، فإنه قتال إذا أطلق بلا عقال ، وليكن حديثكم مما تحبون أن تروه غداً فى صحائف أعمالكم ، وتذكروا أن الحديث المرسل يقول : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم وقوعاً فى الباطل » . . . ورب كلمة سوء هوت بصاحبها فى نار جهنم ، فاحذروا ثم احذروا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاعتبار بالعظات

الحمد لله القاهر فوق عباده ، الباطش بمن عصاه ، الرحيم بمن أطاعه ، المؤيد لمن اتبعه ، الخاذل لمن أعرض عنه ، الذى ترجى رحمته وثوابه ، وتخشى نقمته وعقابه ، يحيط بما ظهر وما بطن ، وما عظم وما صغر ، وما بعد وما قرب « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علما » « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

أحمده سبحانه وعد وأوعد ونصح وحذر ، وبشر وأنذر ، وأشهد ألا إله إلا هو العليم الخبير ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبد الله ورسوله دعانا إلى الهدى وإلى كتاب منير ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وحزبه أصحاب الصراط القويم والهدى المبين .

أما بعد : فيا أيها الاخوان ، يذكر الله لنا فى كتابه الكريم قصة رجل اسمه سمعان آمن بسيدنا موسى عليه السلام سراً ، ولما رأى تعذيب فرعون وقومه لنبى الله ، صار يدافع عنه ويرد حجج أولئك الطغاة الجبابرة ، ويخلص لقومه النصيحة ويبالغ فى الارشاد ، فيقول : « يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين

هم أصحاب النار ، فتذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ! » .

واستناناً بسنة هذا الرجل الصالح أقول لقومى الذين هم بمرأى منى ومسمع : مالى أدعوكم إلى الرشاد فتأبون إلا الضلال ؟ ما لنا ندعوكم إلى حزب الرحمن فلا تميلون إلا لحزب الشيطان ، وحزب الرحمن هم المفلحون ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ؟ . . مالنا نريد أن نعرفكم ما يجب عليكم نحو دينكم ونحو ربكم ونبيكم ، ومع أننا نكرر القول ونعيد الكلام ونردد العظة فأنتم . . أنتم ، لأنكم مشغولون بالدنيا ، لاهون عن [الباقية ، لا تفقهون وعظاً ، ولا تسمعون نصحاً ، ولا تستجيبون لداع ؟ .. كم خطبة سمعتموها فاستفدتم منها ؟ وكم درس ألقى عليكم فعملتم بمقتضاه ؟ وكم عظة وجهت إليكم فاعتبرتم بها ؟ .

تسمعون حكم الله مراراً ، وتبين لكم التعاليم الدينية تكراراً ، ومع ذلك تغفلون عنها وتنسونها ولا تعقلونها فى عقال قلوبكم ، وما ذلكم ، إلا لأنكم حينما تحضرون مجالس الوعظ ودروس العلم لا تحضرونها إلا بآذانكم وأجسامكم ، وأما قلوبكم وأرواحكم وعقولكم فهى هناك بعيدة تسبح فى عوالم الدنيا الملوثة وآفاق الشهوات السافلة ، فمن الطبيعى والحالة هذه أن تضيع بينكم التعاليم ، وتقل فائدة الإرشاد ، ولو أن إنساناً سأل واحداً منكم عن أمور دنياه ، وشئون حياته ، وحوادث جيرانه وقصص الخرافيين من أبطاله ، لقص علينا من ذلك ما يعجز عن تقييده الكتاب ... قيل لكم مراراً إن الخشوع لله والاطمئنان فى العبادة واجب محتوم ، ومع ذلك أنتم لا تخشعون ولا تذلون والله يقول « ويحذركم الله نفسه » . . وقيل لكم مراراً إن العورة يحرم كشفها حتى ولو كان الانسان منفرداً ومع ذلك نرى الكثير منكم لايبالى أن يكشف جميع جسمه أمام الرجال وأمام النساء ، بل إن بعضكم ليتباهى بكشف عورته ، ويقول : إن الذى يخجل من كشف عورته هو

امرأة وليس برجل ، كأن الرجولة فى شرعكم أيها الجهلاء معناها الفوضى والتبجح والسفالة وقلة الأدب ، مع أن بعض الأئمة قال : إن الرجل إذا لم يستطع الاستنجاء إلا بكشف عورته أمام الناس جاز له الصلاة دون استنجاء . فأين أنتم من هذا الأدب النبيل والخلق الرفيع ؟ .

وقيل لكم إن التسامح والتعاطف والتواضع من أخلاق المسلمين ، وسمعتم قول نبيكم الكريم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ومع ذلك فنحن لا نرى منكم إلا تكبراً على عباد الله ، وتفاخراً بالأموال والأولاد ، وتقاتلا على أقل الأشياء وأتفه الأموال ، ونرى كلا منكم لاهم له إلا أن يقول : « يارب نفسى » مع أن هذه الكلمة هى كلمة الضلال والكفران ! .. وقيل لكم إن أكل أموال اليتامى ظلم وإجرام والله يقول : « ولا تقربوا مال اليتيم إلابالتى هى أحسن » ويقول : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » ومع ذلك نرى منكم رجالا يسمون أنفسهم بالمتعلمين والمهذبين لا يبالون أن يأكلوا أموال اليتامى والنساء الأرامل وضياعهن ودورهن ، فهل هذا من الدين وهل هذا من التعليم ؟ . . .

وقيل لكم إن الإنفاق على المساجد والجوامع من القربات والصالحات الباقيات ، وقال لكم ربكم « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » ومع ذلك فأنتم تنفقون على لذاتكم وشهواتكم الأموال الكثيرة والجنيهات العديدة ، فإذا طلب منكم قرش لعمارة مسجد أو إنارته بخلتم وأعرضتم وقلتم إننا فقراء . . فهل هذا من الإيمان ؟ . .

لعن قوم تحرم مساجدهم من العناية والاهتمام ، لعن قوم تهمل جوامعهم فلا تفرش بفاخر الفراش ، لعن قوم لا يحسنون إلى من يخدمون بيوت الله . .

وقيل لكم إن شهادة الزور ، والخوف من الأغنياء والحكام كل هذا حرام ، ومع ذلك تأتون كل هذا وأنتم لاهون غافلون ، ولا تشعرون أيان تبعثون .. ولكن ماذنبكم والكبراء منكم هم سبب هذا البلاء وهذا الضلال ، فهم يرون المنكر فلا يجاهدونه ، ويبصرون المفاسد فلا يحاربونها ، أستغفر الله بل هم الذين يقومون بأكثر هذه المفاسد وهذه المنكرات ، فهم الذين أشاعوا بالظلم وا لمحاباة ، وهم الذين شرعوا فيكم شرعة الرشوة والجور فى الفصل بين الناس ... لكنى أعجب من أولئك الكبراء والرؤساء والأغنياء كأنهم قد أمنوا مكر الله ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم المجرمون . . وكأنهم قد نسوا قول الجبار : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

لعلكم فى هذا الموقف تريدون أن تعرفوا ماكان من شأن أسلافكم عند سماع الموعظة أو الاطلاع على الذكر ، فاسمعوا اسمعوا ، وإذا سمعتم فانتفعوا واتعظوا .

يقول الله تبارك وتعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

قال الأصمعى ، وهو إمام جليل : لما نزلت هذه الآيات أقبلت من جامع البصرة ، فقابلنى رجل أعرابى فقال لى : من أين أقبلت يا أصمعى ، فقلت له : من موضع يتلى فيه كلام الله يا أعرابى . قال : فاتل على ماسمعته ، فتلوت عليه الآيات السابقة ، فلما بلغت قوله « وفى السماء رزقكم » قال حسبك

ثم قام إلى ناقته فنحرها ووزع لحمها على من مر عليه وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى . قال الأصمعى فلما حججت رأيت الرجل حول الكعبة وقد مرض وهزل ، فعرفنى وعرفته ، ثم قال لى اقرأ الآيات ، فقرأتها عليه فلما بلغت قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم » صاح الأعرابى وقال : قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً . ثم طلب إلى أن أقرأ فقرأت قوله تعالى : « فورب السماء والأرض إنه لحق » فصاح الأعرابى وقال : « يا سبحان الله ! من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف ! » ثم كرر هذه الجملة ثلاث مرات ومات ! !

بل واسمعوا الثانية : اسمعوا قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » .

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً ، فقال أبو بكر . « هكذا كنا حتى قست القلوب » ! . فكيف لو رأيتنا يا أبا بكر ؟ ! .

وكان المسور بن مخرمة رضى الله عنه لا يقوى على سماع القرآن لشدة خوفه ، ففى ذات يوم جاءه رجل فقرأ عليه قوله تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » فقال المسور وهو الزاهد التقى الورع : « أنا من المجرمين ولست من المتقين . أعد على القول أيها القارىء » فأعاده فشهق المسور شهقة مات فيها . فما حالك أنت أيها العبد ؟ . ماذا تقول وماذا تفعل ؟

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بهـــا وعند صفو الليالى يحدث الكدر !

إنكم عباد الله تسمعون العظة ولا تتعظون ، وتلقى إليكم العبرة فلا تعتبرون ، وتمرون بكلام الله وأنتم ساخرون ، وتسمعون الواعظ وأنتم لاهون غافلون ، وتقبلون على أحاديث اللهو وخرافات القصص وأنتم متيقظون متنبهون مع أن الله يقول : « فاعتبروا ياأولى الأبصار » . . ويقول : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أويحدث لهم ركزاً » .

فليت شعرى ، هل يبلغ هذا الكلام إلى قلوبكم ، وهل يخاطب هذا الصوت المخلص أرواحكم ؟ أم أنكم الآن تلهون وتلعبون وتتفكرون فى مشاغل الدنيا وشهواتها ؟ . اللهم إنى قد بلغت ، ومن أنذر فقد أعذر ، والله على ما نقول وكيل ، فاتقوا الله عباد الله ، واعملوا بماتسمعون ، تفوزوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، والله هو ولى الهداية والتوفيق . .

قال الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) .

مع الرسول

الحمد لله عز وجل ، الكل خاضع لعظمته ، والكل ضعيف أمام قدرته « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، علا بجلاله وربوبيته ، ودنا بفضله ورحمته « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، المنزل عليه قول ربه : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من أسطع الدلائل على أن هذا الإسلام هو دين الله القوى القادر ، أن يبتلى بكل هذه العدوات والافتراءات خلال عصور التاريخ ، ومع ذلك يبقى قائماً محدد المعالم ثابت الأركان تصديقاً لقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . ولقد حاول أعداء الله وأعداء دينه أن يهدموه بكل ما استطاعوا من حيلة ووسيلة ، فباءوا بالخيبة والخسران : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » . ومن أخبث المفتريات التى رددوها ومازالوا يرددونها إلى اليوم أن الإسلام حركة بشرية قام بها رجل عبقرى طموح إلى السيادة والقيادة والتملك ، فادعى النبوة والرسالة ، وسخر الذين من حوله لتحقيق مطامحه ورغباته ، وهم يقصدون بذلك سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . يزعمون هذا مع أن الناظر فى سيرة هذا النبي الكريم يجد كل الدلائل والشواهد على نقيض ما يفترون ، فهذا النبي العظيم لم يبدأ رسالته بأمر ربه إلا بعد أن

بلغ الأربعين من عمره ، والطموح الذى يتحدثون عنه يظهر عادة فى سن المراهقة أو عهد الشبيبة ، حيث يكون الإنسان قبل الثلاثين بسنوات ، أما بعد الأربعين ، وقد استوى عقل الإنسان ، وكمل رشده ، وتمت رجولته واعتدلت مطامحه ، فبعيد أن يجمح به الطموح فى هذه الحال ، وخاصة أن سيدنا محمداً ظل قبل الرسالة يعيش هادئاً متعبداً مستقيماً يوصف دائماً بأنه الصادق الأمين .

ثم أين هذا الطموح إلى الملك أو الزعامة الدنيوية فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام وقد عرض عليه قومه عدة مرات ما يغرى من المال والجاه والجمال والملك ، فأبى كل ذلك ، وآثر أن يعيش داعية . فقيراً ، وطالب قومه بأن يقولوها كلمة واحدة هى كلمة (لا إله إلا الله) ليعزوا بها فى الدنيا والآخرة ، وليقودوا بزمامها هذا العالم ، وفى كل مناسبة كان يقول لهم : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأركب كما يركب العبد وأمشى كما يمشى » ويروى أن الله تعالى خير نبيه بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ؛ وكلما أراد الناس له أن يتجاوز حده ردد ما علمه ربه أن يقوله : « سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » . وهذا أعرابى يقف بين يدى الرسول ، فتبهره أضواء النبوة يروعه جلال الرسالة ، فيضطرب الأعرابى ويرتجف فيهدئ النبى من روعه ، ويقول له : « هون عليك ، فإنى لست بملك ولا جبار ، وإنما ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » . ولقد واجه الله تعالى رسوله فى القرآن المجيد بما يتعارض كل التعارض مع الاتجاه إلى الاستبداد أو التسلط ، فقال له : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، وقال له : « ليس لك من الأمر شىء » وقال له : « ما على الرسول إلا البلاغ » . ولما رفع الله رسوله إلى أعلى مقام فى حادث الإسراء والمعراج خلع عليه الوصف الذى يبعده كل البعد عن الكبرياء والخيلاء ، وهو وصف

العبودية ، فقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .

والذى يطمح إلى الملك والسعادة يحرص على جمع المال وحيازة العقار ، لكى يحصن ملكه ويقوى سلطانه من جهة ، وليرضى مطامحه ومطامعه من جهة أخرى ، ولكن سيد الخلق محمداً يعيش فقيراً ويموت فقيراً ، فلا قصور ولا دور ، ولا خدم ولا حشم ، ولا متاع ولا ضياع ، بل يعرض عليه ربه بوساطة سفيره جبريل أن يهبه الفضة والذهب فى ضخامة الجبل ، فيكون جواب محمد العظيم : « بل أجوع يوماً فأسأل ربى ، وأشبع يوماً فأشكره » ويجعل من دعائه المكرر قوله : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » . وكأن رحمة الله للعالمين قد رجا هذا من ربه ليحصن نفسه الشريفة ضد التعالى والغرور ، وضد اللهو بالزينة والمتاع ، وكان من دعائه قوله : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » ولو كان محمد يريد بدعوته أن يحقق لنفسه ملكا أو سلطاناً لفعل كما يفعل الملوك والسلاطين ، وهو أن يعطى أهله وذريته امتيازات أو يفضلهم على غيرهم ، أو يخصهم بشىء من التمتع والجاه ، ولكنا نرى سيد الخلق يذكر أهله ويحذرهم وينذرهم ويقول : « يا آل محمد ، لا يأتينى الناس بالأعمال ، وتأتونى بالأنساب ، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » . وهذه فاطمة البتول الزهراء ، وهى بضعته الزكية وكريمته النقية ، لا يميزها بقليل ولا كثير ، بل يقول لها : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » ويعلن أنها تتساوى فى شرعة العقاب مع سواها ، فيقول : « وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . وحينما تتعب من العمل وتذهب إليه وتسأله أن يعينها بما ييسر لها الخدمة ، يرفض أن يعطيها ، ويذكر لها أن أهل « الصفة » الفقراء أولى بالمعونة .

ولكى يقطع الرسول الأسباب بينه وبين ادعاء السلطان أو استغلال المنصب منع أهله أن يأخذوا شيئاً من الزكاة ، ولقد حدث أن دخل الحسين وهو صغير مع جده بيت أموال الصدقات ، فتناول الصبى ببراءة الطفولة ثمرة وضعها فى فمه ، فأمره الرسول بتركها وقال له : « إنا أهل بيت لا تحل لنا الصدقة » . ولم يكتف الرسول بهذا ، بل صد أسرته عن التطلع إلى ميراث له أو مال يتركه من خلفه ، فقال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » . وبذلك أبعد عن مقام النبوة شبهة الاستغلال لها ، أو اتخاذها وسيلة لإغناء الأهل أو إثراء الأولاد ، وقد يتصل بهذا أن الله تعالى كأنه أراد ألا يبقى للنبى بعد وفاته غلام حتى لا يقال إنه قد ترك بعده من ذريته من يخلفه ، بل لقد انتقلت الخلافة إلى أبى بكر وعمر وعثمان ، وتأخر ابن عمه على بن أبى طالب فى بلوغ مرتبة الخلافة لأنه لو وليها عقب وفاة الرسول « لأوشك — كما ذكر الإمام ابن القيم — أن يقول المبطلون إنه ملك ورث ملكه أهل بيته ، فصان الله رسالته ونبوته عن هذه الشبهة » . ويضيف ابن القيم إلى هذا قوله :

« وتأمل قول هرقل لأبى سفيان : هل كان فى آبائه من ملك ؟ قال : لا . فقال له : لو كان فى آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك آبائه . فصان الله منصبه العلى من شبهة الملك فى آبائه وأهل بيته . وهذا والله أعلم هو السرفى كونه لم يورث هو والأنبياء ، قطعاً لهذه الشبهة ، لئلا يظن المبطل أن الأنبياء طلبوا جمع الدنيا لأولادهم وورثتهم ، كما يفعله الإنسان من زهده فى نفسه وتوريثه ماله لولده وذريته ، فصانهم الله عن ذلك ، ومنعهم من توريث ورثتهم شيئاً من المال ، لئلا تتطرق التهمة إلى حجج الله ورسله ، فلا يبقى فى نبوتهم ورسالتهم شبهة أصالا .

ولا يقال : فقد وليها على وأهل بيته ، لأن الأمر لما سبق أنها ليست بملك

موروث ، وإنما هي خلافة نبوة ، تستحق بالسبق والتقدم ، كان على فى وقته هو سابق الأمة وأفضلها ، ولم يكن فيهم حين وليها أولى بها منه ، ولا خير منه ، فلم يحصل لمبطل بذلك شبهة ، والحمد لله » . وقد ذكر القيم كلامه هذا فى كتابه « بدائع الفوائد » ج ٣ ص ٢٠٧ ، فأين إذن ما يزعمه أولئك المفترون الذين ما زالوا إلى الآن يحاولون بجدع الأنوف وشق النفوس أن ينالوا من رسول الإسلام منالا ، وهو بعصمة ربه فوق الشبهات وفوق الظنون ؟ . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن هذا النبي الكريم الذى لم يجمع مالا ولم يبتغ سلطاناً والذى لم يتعلق بجاه الدنيا أو مطامع الحياة ، قد آتاه ربه من الدرجات المعنوية الرفيعة ما تتطامن أمام روعته الملوك والسلاطين ، فجعله خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، ووصفه بأنه رءوف رحيم ، وبأنه السراج المنير ، وجعله قائد الغر المحجلين يوم الدين ، فما أجدر هذا النبي الكريم بأن يكون المثل الأعلى لكل إنسان ، وأن يكون القدوة المثلى فى كل زمان ومكان ، « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

عندما سالت دموع النبى

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله، جعل قلب المؤمن بين إصبعيه يقلبهما كيف يشاء ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتى القلب الشاعر الذاكر ، والإحساس النبيل الطاهر ، فهو « بالمؤمنين رءوف رحيم » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأتباع ملته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حرمت لقاءكم فى الأسبوع الماضى ، وقد كان أسبوعاً حزيناً باكياً ، دعيت فيه إلى إلقاء خطبة الجمعة فى التلفزيون العربى ، حيث تحدثت عن تلك الجريمة البربرية البشعة التى لايجوز أن تطوى ولا أن تنسى ، وهى نسف اليهود اللئام للطائرة الليبية المدنية ، وقد كان فيها الرضيع الذى لا يتكلم ، والمرأة التى لا تقاتل ، والمريض الذى يتطلب العلاج ، والشيخ الذى يضعف عن الحركة ، وكان فيها المجاهد المرحوم صالح مسعود أبو بصير ، الذى لا تهون فيه المصيبة ، ولا تسهل فيه الفاجعة ، ولقد أجهشت بالبكاء خلال خطبتى أكثر من مرة ، وخاصة عندما تحدثت عن هذا الداعية الإسلامى ، المناضل فى سبيل الإسلام والمسلمين ، بلسانه وبيانه وماله ، والذى كان صاحب فضل يذكر فيؤثر بين رواد هذا البيت من بيوت الله عز وجل .

ولقد لقينى بعد ذلك من قال لى عاتباً : كيف تبكى ، وهذا موقف تناسبه الشدة والصلابة ؟ فأجبته قائلا : إن لى ولغيرى خير قدوة وأفضل

إمام فى سيدنا ومولانا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى يقول فيه القرآن : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . إن الرسول هو أقوى الناس عزماً ، وأصلبهم إرادة ، وأصبرهم عند البلاء ، ومع ذلك سالت الدموع من عينيه أكثر من مرة ، كما تحدثنا سيرته العطرة . فقد بكى الرسول على عمه حمزة حين لقى مصرعه شهيداً فى غزوة أحد ، ولقد كان حمزة يوم أحد يهد المشركين الطاغين بسيفه ، لا يبقى شيئاً يمر عليه ، وجاء غدر وحشى ابن حرب فصرع سيد الشهداء ، ولما علم الرسول بمصرعه قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا » ولما سمع النبي النساء يبكين على شهدائهن سالت الدموع من عينى الرسول وقال : « لكن حمزة لا بواكى له » فذهب النساء يبكين على حمزة ، ولما رآهن النبي قال لهن : « ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن » .

وفى السنة الثامنة للهجرة كانت غزة « مؤتة » العصيبة ، حيث استشهد فيها قوادها الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله ابن رواحة ، وأخبر الرسول أصحابه بذلك وهو على المنبر ، فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن روحة فأصيب». وذرفت عينا الرسول ، أى سالت منهما الدموع ، وسارع الرسول إلى بيت جعفر ، وطلب أن يحضروا إليه أبناءه الشهيد الطيار ذى الجناحين ، وأخذ النبي يضمهم ويشمهم ، ثم ذرفت عيناه، فقالت له أمهم : يارسول الله بأبى أنت وأمى ، ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم ، أصيبوا اليوم ! . ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة مريضاً مغشياً عليه بكى ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا معه ، فقال لهم معلماً :— « إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب (لأنهما قهريان) ولكن يعذب بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانه ، فيكون العذاب لصاحب اللسان

إذ ناح أو ندب أو قال مالا يليق ، والرحمة تكون لصاحب اللسان ، إذا قال حقاً مثل قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ولقد أرسلت إحدى بنات الرسول إليه تخبره بأن ابنها فى سكرات الموت ، فسعى إليها مع جمع من أصحابه ، ولما رأى الطفل فى نزعه الأخير فاضت عيناه بالدموع ، فقال له سعد بن عبادة : ماهذا يا رسول الله ؟ . فأجابه : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » . وهذا يذكرنا بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » . ولقد نقلوا إلى الرسول أن طائفة من أتباعه قتلوا رجلا محارباً مشركاً أمام امرأة له يحبها ، فتأثر النبى من ذلك أشد التأثر وقال : « أما كان فيكم رجل رحيم » ؟ . ثم نرى الرسول بعد ذلك يدخل على ابنه الرضيع إبراهيم ، وهو مريض مرض الموت ، فحمله وقبله وشمه ، وكان إبرهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا الرسول تذرفان الدموع ، أى تسيل منهما الدموع ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف : وأنت يا رسول الله : (أى وأنت أيضاً تبكى ؟) فقال الرسول الرحيم : يا ابن عوف . إنها رحمة (أى من أثر الرحمة فى قلبى) . ثم قال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » .

ولم يبك الرسول فى موقف الموت الحزين الأليم فحسب ، بل روت لنا سيرته الطاهرة أنه بكى لسماع القرآن من غيره ،

فقد روت السيرة أن النبى صلوات الله وسلامه كان جالساً على صخرة فى قبيلة بنى ظفر ، وحوله جمع من أصحابه فيهم عبدالله بن مسعود فقال النبى لابن مسعود : اقرأ على (أى من القرآن) . فقال ابن مسعود : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ . قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . وبدأ ابن مسعود يقرأ

على رسول الله من سورة النساء ، حتى بلغ قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » . وهناك قال له الرسول : وإذا عيناه تزرفان : ورفع ابن مسعود رأسه ناظراً إلى النبي فرأى دموعه تسيل ! ! .

إن هذه الدموع الزكية العلية التى سالت من عينى الرسول فى أكثر من موطن تمثل أطهر مافى النفس البشرية من نوازع ومشاعر ، فهى تمثل ذلك الإحساس النبيل بالألم ، وتلك المشاركة الوجدانية للمحزونين والمكروبين ، وهذه الدموع التى سالت لا تتعارض أبداً مع أن الرسول كان المثل الأعلى للمجاهد الثابت الراضى بقضاء الله وقدره ، والمؤمن الشديد فى مواطن الشدة واليأس ، هو نفسه المؤمن البكاء الرحيم فى مواطن الرحمة والإشفاق « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ...... » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الرسول الشهيد

الحمد لله تبارك وتعالى، هو القاضى بما شاء ، والفعال لما يريد ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله يحاسب على الفتيل والقطمير ، وكفى بالله حسيباً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من شهد لله وشهد على عباد الله ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته، والفائزين بشرف صحبته، والسائرين على دربه وطريقته « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك موقف للنبى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، يتطلع إليه المؤمن متذكراً معتبراً ، ويقف إماماً خاشعاً شاعرا بالإجلال والرهبة ، مستعرضاً عنده ما عمرت به حياة الرسول من جلائل الأعمال ، وما احتمله فى سبيل الله من المتاعب والأثقال ، وما أعده له من مكانه وشرف تتقاصر عنه همم الرجال والأبطال ، وهذا الموقف كان للرسول الأعظم صلى اللهعليه وسلم مع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، ولعله من الخير أن نعرف هنا لمحة عن هذا الصحابى الجليل ، فقد أسلم مبكراً فى صدر الإسلام حتى قال « رأيتنى سادس ما على الأرض مسلم غيرنا » ،وهو صاحب الهجرتين إلىالحبشة والمدينة ، وشهد مع الرسول غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد ، وشهد له الرسول بالجنة ، وكان كثير الدخول على الرسول ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة حديث . وكان مقدماً فى القرآن والفقه والفتوى والعلم ، وكان أحد أربعة يؤخذ منهم القرآن ، وكان يقول : « والله الذى لا إله غيره ، مافى كتاب الله سورة إلا أنا أعلم أين نزلت ، وما من آية من كتاب

الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه » . وكان إذا نامت العيون قام يرتل القرآن فيكون له دوى كدوى النحل حتى يصبح . ولقد مرض ابن مسعود فعاده عثمان رضى الله عنه وسأله : ما تشتكى ؟ قال ذنوبى . فقال : ما تشتهى ؟ . قال : رحمة ربى ، فقال : ألا آمر لك بطبيب ؟ . قال : الطبيب أمرضنى . فقال : آلا آمر لك بعطاء ، قال : لاحاجة لى فيه . فقال : يكون لبناتك . قال : أتخشى على بناتى الفقر ، إنى أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

هذه لمحة عن ابن مسعود ، ومنها تفهم أنه كان كثير الترتيل للقرآن ، حلوا النبرات عذب الصوت ، وإنه لكثير الدخول على الرسول ، والرسول يحبه ويميل إليه ، وقد كان الرسول يحب أن يسمع القرآن من غيره ، فطالما رتله لغيره ، وطالما تلاه فى الصلاة وفى المناجاة وعلى أسماع أبناء الحياة ، ولكنه يحب أن يسمعه من سواه ، ليرى كيف يسرى القرآن من القلوب إلى الشفاة . وهنا يأتى الموقف ، فقد روى أن الرسول قال لابن مسعود : اقرأ على . فقال : آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ . قال النبى : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأ عليه ابن مسعود سورة النساء ، حتى رتل ما يزيد عن أربعين آية ، وبلغ قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ، وهنا قال له الرسول : أمسك ، حسبك الآن . ورفع ابن مسعود رأسه ، فإذا النبى يبكى ، وإذا عيناه تذرفان ، ورأى ابن مسعود دموعه تسيل ، حتى اخضلت وجنتاه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وإذا هو يقول : « يارب ، هذا شهدت على من أنا بين أظهرهم ، فكيف بمن لم أرهم » ؟ ويروى أنه قال : « شهيد عليهم مادمت فيهم

فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » .

ومعنى الآية الكريمة فى إيجاز شديد هو : كيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة ، أو كيف يكون حال الأمة كلها ، حين لقاء الله جل جلاله ، وعز شأنه ، إذا جمعنا الخلائق من هنا وهناك وهنالك ، وجاء فى طليعة كل أمة رسولها يشهد عليها ويتحدث عنها وعما فعلت وتصرفت وجئنا بك ياخاتم النبيين وإمام المرسلين شهيداً على هؤلاء ؟ ماذا يكون مصيرهم وجزاؤهم ؟ أيكونون معذبين أم منعمين ؟ أيكونون فائزين أم خاسرين ؟ إنهم لن يفروا مما عملوا ، فالحسيب دقيق ، والمحاسب رقيب مقتدر ، وكل كبير وصغير مستطر ، فلن يضيع شىء ، ولن ينسى شىء : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا » : إلا إن الموقف عصيب والحساب ثقيل ، والأوزار ضخمة ، والجرائم ثابتة ، فياويلهم ماذا يكون مصيرهم ؟ « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » ، وهذه هى الآية التى جاءت مباشرة بعد آخر آية سمعها الرسول من ابن مسعود وبكى عندها كما رأينا ، فأهل الكفر والضلال والإثم يتمنون لو انشقت الأرض وبلعتهم فى أعماق أعماقها أو لو جعلهم الله والأرض سواء ، فأصبحوا تراباً من ترابها[1] ، أو لو لم يبعثهم الله جل جلاله ، وظلت الأرض فوقهم مستوية على قبورهم بدل بعثهم لهذا اليوم العصيب الرهيب ، وذلك كله من شدة الخزى وعظم الفضيحة وثقل العذاب : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة

---

(١) سورة النبأ – ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ..

مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » . فسحقاً لهم وبئس المصير .

ولقد قال أهل التفسير إن بكاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، إنما كان لشدة تأثره بمعانى القرآن وروعته ، ولما تضمنته هذه الآية الجليلة من تصوير هول المطلع وشدة الأمر ورهبة الحساب ، إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق أو التكذيب ، ويؤتى بخاتم النبيين يوم القيامة شاهداً على هؤلاء ، فياجلال التبعة ، ويالدقة الإحساس من الرسول بهذا الواجب الجليل . بل هذا سعيد بن المسيب رضى الله عنه يقول : « مامن يوم إلا تعرض على النبى صلى الله عليه وسلم أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم ، فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تبارك وتعالى : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ؟. وهذا القول من ابن المسيب يرينا كيف تتضاعف التبعات والمسئوليات على كاهل الرسول وهو بها خير ناهض وعليها خير أمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن حبنا لرسول الله ألوان وأنواع ، إنا نحبه لما حباه الله به من فضائل وجلائل ، « وإنك لعلى خلق عظيم » ، ونحبه لما هدانا الله به على يديه من دلائل الخير وأسباب التوفيق « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » ، ونحبه لما احتمله فى سبيل الله من متاعب ومصاعب ، وما قدمه فى سبيل الله ممن جهود وأعمال : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، ونحبه لأن الله قد أكرمنا على يديه بأن جعلنا أمة وسطا شاهدة وجعله لنا شهيداً « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . والمرجو من الله أن تكون شهادة لنا لا علينا ، وأن تبيض وجوهنا يوم القيامة : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

كان رسول الله

الحمد لله العلى الحكيم الذى يقول فى حق رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » أحمدك اللهم وأشكرك وأتوب إليك وأستغفرك ، وأشهد أن لا إله إلا أنت تفضلت على عبادك فأرسلت إليهم نبيك ، وجعلته رحمة للعالمين ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك الذى كان بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، والذى فطرته على خلق عظيم ، وجملته بالأدب النبيل والطبع الكريم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه خير الداعين إلى طريق رب العالمين !

أما بعد فيا أتباع محمد عليه السلام . . .

يقول الله تبارك وتعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . ومن الواجب علينا أن نتعرف إلى جانب من عادات هذا القائد الأعظم والرسول الأكرم ، إذ فى الوقوف على هذه الأخلاق سلوك إلى التطبع بها والنسج على منوالها ، وبدراستنا لها نجد ما يدفعنا إلى حب صاحبها صلى الله عليه وسلم وحب شريعته الخالدة ما دامت السموات والأرض ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما اختلط حبى بقلب أحد فأحبنى إلا حرم الله جسده على النار » . فاسمعوا كيف كان رسول الله :

كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس خلقاً ، وأشد حياء من العذراء ، وأصبر الناس على أقذار الناس ، وكان كلامه فصلا مبيناً ، يفهمه كل من سمعه ، وكان أبغض الخلق إليه الكذب ، وأحب الألوان إليه الخضرة ،

وأحب العمل ماداوم عليه صاحبه ، وكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه ، وكان إذا أتى مريضاً أو أتى به قال : أذهب البأس رب الناس ، اشف وأنت الشافى ، لاشفاء إلا شفاؤك ، شفاء لايغادر سقما ! . وإذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم ! السلام عليكم ! . فان أجابه مجيب دخل وإلا رجع ! . .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال . وإذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم قال : باسمك اللهم أحيا وباسمك أموت ، اللهم إن قبضت روحى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين . وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وكان إذا أراد أن يودع أحداً قال : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ، وإذا أراد سفراً قال : اللهم بك أصول وبك أجول وبك أسير . وإذا خاف نسيان حاجة ربط فى خنصره أو فى خاتمه خيطاً ليذكرها به ، وإذا أصابته شدة فدعا برفع يديه حتى يرى بياض إبطيه ، وإذا أصابه غم أو كرب قال : حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوقين ، حسبى الرازق من المرزوقين ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ! . .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا وجد أحداً من أهل بيته كذب كذبة أعرض عنه حتى يتوب ، وإذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وإذا بلغه عن أحد كلام سىء لا يقول :

مابال فلان يقول ، بل يعرض ويقول : مابال أقوام يقولون كذا وكذا . وكان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاث مرات حتى تفهم عنه ، وإذا جاءه خبر يسره خر ساجداً لله شكراً ، وإذا جرى به الضحك وضع يده على فمه ، وإذا أهمه أمر فزع إلى الصلاة ، وإذا خرج من منزله قال : اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل ، أو نظلم أو نظلم ، أو نجهل أو يجهل علينا . وكان إذا خلا بنسائه ألين الناس وأكرم الناس ضحاكاً بساماً مثالا للزوج الكامل .

وكان إذا رفع بصره إلى السماء قال : اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك . وإذا شهد جنازة أكثر الصمت وأطال الحديث مع نفسه ، وإذا عطس وضع يده أو ثوبه على فمه وخفض بها صوته فى عطاسه . وكان إذا عمل عملا أحكمه ، وإذا سمع بالاسم القبيح حوله إلى ماهو أحسن منه . وإذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ، وإذا غاب عنه الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده ، وكان إذ قدم عليه الوفد من الناس لبس أحسن ثيابه ، وأمر عليه أصحابه بذلك ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه لم ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده لم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه ، وإذا لقى أحداً من أصحابه فأسر إليه حديثاً مال نحوه بإذنه فلا يرفعها حتى ينتهى الرجل من حديثه .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بآية رحمة سأل الله أن يرحمه ، وإذا مر بآية خوف تعوذ ، وإذا مر بآية فيها تنزيه سبح الله .

وكان إذا نظر فى المرآة قال : الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله ، وكرم صورة وجهى فحسنها ، وجعلنى من المسلمين . وكانت فيه دعابة يمزح

ولا يقول إلا حقاً . وكان لا يقبل قول أحد على أحد . ولا يتطير ولكن يتفاءل ، ولا يحدث حديثاً إلا تبسم ، ولا يدع قيام الليل ، وإذا مرض أو كسل صلى قاعداً ، بقدر ما يستطيع .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد الطيب ، بل يحبه ويكثر منه ، ولا يقدم على أهله ليلا إذا كان فى سفر ، ولا ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى الإناء ، ولا يواجه أحداً فى وجهه بشىء يكرهه . وكان يأتى ضعفاء المسلمين فيزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ويقضى حوائجهم ويتصدق عليهم ، ويبيت الليالى المتتابعة طاوياً بلا طعام وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير ، وكان يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء .

وكان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه بيده ، ويتتبع الحرير فيه فينزعه ، ويخصف نعله ويرقع قميصه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه ، ويحمل حاجته ويكرم ضيفه ويعمل ما يعمله الرجال فى بيوتهم ، ويضع طعامه على الأرض ، ويجيب دعوة العبد ، وإذا جاءته هرة أمال لها الإناء حتى تشرب بسهولة .

وكان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ! .

وكان يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة . وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى حاجتهم ، وكان يمر بالنساء والصبيان فيسلم عليهم ويحادثهم ويتلطف معهم ، ويجالس الفقير ويؤاكل المسكين ، ومع كل هذه الطاعات وتلك الحسنات كان شديد الخوف والرهبة من الله ، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فدخل معى فى لحافى ، ثم قال : ذرينى أتعبد لربى ، فقام صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم

قام فصلى فبكى حتى سال دمعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال رضى الله عنه فآذنه بالصلاة فقلت : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . فقال : أفلا أكون عبداً شكورا ؟ ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه لمحة من أخلاق نبيكم وعادات رسولكم ، ترون منها أنه كان أنبل الناس وأفضل الناس ، وما يراد بتجليتها عليكم إلا أن يحاول كل منا أن يتخلق بهذه الخصال الكريمة ويتعود تلك العادات الفاضلة حتى يكون محباً لرسول الله ، مستحقاً لشفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . فاتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

بعد خمسة عشر عاما

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة إن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي المرحمة وقائد الملحمة ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان يقول للناس : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون على ربكم لا تخفى منكم خافية » . ونحن الآن أيها الأحباب الإخوة فى الله ، فى فصل الربيع من سنة ١٩٧٢ م ، وغداً يبدأ شهر أبريل من هذه السنة ، وفى مثل هذا الشهر من سنة ١٩٥٧ شاء القدر أن أبدأ الخطابة فى هذا البيت من بيوت الله عز وجل وهو (مسجد الرفاعى) ، وهاقد مضى على هذه البداية خمسة عشر عاماً كاملة ، وإنها لزمن ممتد طويل ، مر فيه ما يقرب من سبعمائة وخمسين جمعة من الجمع ، فكم من مرة صعد فيها الإنسان المنبر ونزل ، وكم وقفة تكلم فيها وسكت ، وكم موضوع تعرض له فأصاب فيه أو أخطأ ، وكم نفس من الأنفاس تردد شهيقاً أو زفيرا ، وكم خفقة خفقتها تلك الساعة الإلهية الدقاقة المعلقة فى صدر الإنسان ، وتسمى القلب : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى

السمع وهو شهيد » . وما أكثر العظات التى رددها اللسان ، ولم يتأثر بها الجنان ، ولم يعمل بها الإنسان ، مع أن التنزيل المجيد قد قرع السمع ومازال يقرعه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » . ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل تعلم العلم رياء وعلمه وقرأ القرآن ، فلما كان فى موقف الحساب فخر بما عمل ، فقيل له من قبل الحق جل جلاله : كذبت ، تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئٌ ، فقد قيل ، ثم يؤمر به إلى الحساب ، ويا شدة خوف النفس من هول هذا المصير .

ولقد يحاول الإنسان الذى يعظ الناس أن يتخلص من التبعة ، فيسلك مسلك التأويل ، ويتجه إلى التماس المعاذير ، ويقول لنفسه : فلتفرض أنك تذكر ولا تتذكر وإنك تعظ ولا تتعظ ، وإنك تقول ولا تعمل بما تقول ، وإنك عليم اللسان كثير البيان فحسب ، فهل يصح فى شرعة الإسلام أن يكون ذلك مسوغاً للسامعين كى لا يستجيبوا للنداء ، أو لا ينتفعوا بالكلام أو يعرضوا عن العظة والعبرة ؟ . وكيف والقرآن المجيد ينادى بشعاره القوى الجلى : « كل نفس بما كسبت رهينة » ويقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . والرسول يقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » . ولقد قال أحد حكام المسلمين : « أيها الناس ، لا يمنعنكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا » . وهذا أحد القدماء يقول :

اعمل بقولى وإن قصرت فى عمـــلى ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

ومهما فرط هذا أو ذاك فإن هذا لايعد مسوغاً لارتكاب الخطأ « إن الحق لن ينقلب باطلا . . . الخ »

وثمة حقيقة لا يسهل جحودها أو نكرانها ، وهى أن الإنسان كلما صعد درجات المنبر أحس برهبة ، وتجدد لديه خوف ، ورحم الله عبد الملك ابن مروان حين قال : « شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » . مع أن رأس المال للداعية هو الكلمة ، فكلمة يقولها ، وكلمة يكتبها ، وكلمة يطالعها ، وكم يتمنى الإنسان أن يكون ممن يستضيئون بقول الحق تبارك وتعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

وإذا كان الله جلا جلاله يسجل على الإنسان كل كلامه ويؤاخذه به بمقتضى قوله سبحانه : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ويحاسبه أيضاً على ما سمع من نصح أو إرشاد بمقتضى قوله : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . فهلا وقفنا بعد هذا الزمن الطويل ، وبعد لقاء تكرر وتعدد وامتد خلال خمسة عشر عاماً ، ليسأل كل منا نفسه عما قال وعما سمع ؟ . لقد تلاقينا داخل هذا المسجد على مئات من الموضوعات والعظات فى شتى شئون الدين والدنيا ، فماذا عملنا فيما قلنا أو سمعنا ؟ . ولقد ظللنا — على سبيل المثال — ما يقرب من خمس سنوات ، أى منذ النكبة الأليمة التى حطمتنا فى يونيه ١٩٦٧ حتى الآن — نتحدث عن نماذج الوفاء والفداء فى تاريخ الإسلام فاستعرضنا معاً من هذه النماذج كل لون ، فكان فيها الرجال والنساء ، والشباب والشيوخ ، ومن عاشوا مع الرسول ، ومن جاءوا بعد الرسول ، ولقد كل اللسان فى هذا المجال وما مل ، فماذا كانت الحصيلة ؟ وماذا كان أثر ذلك كله فى القلوب والجنوب ؟ علم ذلك عند علام الغيوب ، ولكن هناك حقيقة مرة قاسية يجب أن نتذكرها دائماً وأن نواجهها كلنا وأن نطب لها جميعاً ، هى أن

بلادنا مازالت تحت وطأة الاحتلال ، وأنه يجب علينا أن ننام ونصحو على هذه الحقيقة ، وأن نقوم ونقعد على هذه الحقيقة ، وأن نسير ونقف على هذه الحقيقة ، وأن نؤمن بأنه لا بقاء لنا ولا كيان إلا إذا غسلنا هذا العار ، وحررنا المغصوب من الديار « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

وهناك بعد هذا ظاهرة تستحق التدبر والتأمل ، وهى أننا نسمع العظة ونحن جمع كبير ، وفينا مستويات فكرية ونفسية متعددة ومتنوعة فيفسر كل منا ما يسمعه حسبما يريده ويهواه ، ولقد يكون الكلام واضحاً محدداً ، ولكن هذا السامع يشرد بمعناه جهة اليمين ، وذاك السامع يشرد بمعناه جهة الشمال ، وقد تصادف الكلمة أحياناً هوى من نفس السامع فيحمدها ويمجدها وتصادف الكلمة نفسها مخالفة لهوى سامع آخر فينقدها ويفندها ، ورضا الناس غاية لا تدرك كما قال الخبراء ، والواجب هو أن نحمل أنفسنا وأهواءنا على الحق لتخضع له ، لا أن نخضع الحق لأهوائنا فنحرقه ونضيعه ، ولا أقل من أن يحاول الداعية أن يقول ما يعتقده ويؤمن به فى حكمة وموعظة ومجادلة بالتى هى أحسن ، والقرآن الكريم يقول : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ، ويقول : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كلنا مسئولون ، وكلنا محاسبون ، ولا بد لنا من وقفات من حين لحين ، يحاسب المتكلم فيها نفسه على ما قال ، ويحدد السامع موقفه مما سمع ، وخير الناس من أحسن الألفاظ بكلمة عمر الفاروق : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

بين محمد واصحابه

حينما ندرس شخصية محمد صلوات الله عليه من جوانبها المختلفة ، نعلم أنه المثل الأعلى الذى يتجلى لكل طامح إلى المفاخر ، أو طامع فى معالى الأمور ؛ ومانريد حين نجلى ملامح هذه العظمة المحمدية أن نضيف إلى صاحبها شرفاً جديداً ، فليس بعد تكريم الله تكريم ، ولكنها أنفسنا نحن التى نبحث لها عن الخير ، ونطلب لها المزيد من التربية والتهذيب ، وليس كالقدوة الحسنة فى الإغراء على التشبه والمضاء . . وما نريد أن نغلو فى شأن رسولنا كما غــلا سوانا ، فإننا لنعلم أولا أن الله أعلى وأكبر ، وأن محمداً بشر ، قيل له من قبل : « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقيل عنه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » .

ولو أن هذه العظمة اقتصرت على شخص صاحبها ، فلم يستفض نورها هنا وهناك ، ولم تلق ظلالها الطيبة على هذا وذاك ، لما شغلت التاريخ بهذه الصورة ، ولما بقيت لها هذه الروعة الدائمة وذلك البهاء الموصول . ولقال القائل : وما نفع كنز عظيم لا ينال الناس منه خيراً ؟ وما قيمة محيط واسع لايجد الراغبون إليه سبيلا ؟ . . . ولكن محمداً هو الذى هتف : « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » . ولذلك كانت عظمته لغيره قبل أن تكون لنفسه . وكأنما خلق الله رسوله على عينه ، وجمع له أطراف المحامد والمكارم ، ليظهر فيه سر النبوة وسمو الرسالة ، ثم أتاح لصفيه وحبيبه بعد ذلك أن يفيض من هذا النبع الذى لا يغيض ، على من حوله ومن يأخذون عنه ، والرسول

حينئذ لا يستطيع أن يخلق من هؤلاء الأتباع صوراً مطابقة كل المطابقة لشخصه وذاته ، وإلا لصار هؤلاء الأتباع رسلا مثله ؛ فليس له إلا أن يهيىء لكل واحد منهم ما يناسبه ويلائمه ، فيغترف من حوض الرسول ما استطاع . ومن هنا رأينا العظمة المتجمعة فى شخص محمد صلوات الله عليه تتفرق فى أشخاص أصحابه ، وفى خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين بوجه خاص ؛ فهذا أبو بكر مثلا يرث عن رسوله نور اليقين والإيمان ، ويقوى عنده هذا النور حتى يسطع فيبهر ، فيصفه بالصادق المصدوق قائلا : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة » ! . . .

وهذا عمر يرث عن رسوله حسن التدبير وعمق التفكير وصواب النظر وأصالة الرأى ، حتى ليقول فيه المصطفى : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وحتى يستطيع عمر إبان خلافته أن يسوس دولة ما ساسها قيصر من قبل أو شاه ، وأن يجتهد فى أمور الدين والدنيا ، فيهديه ربه إلى فض مشكلات وحل معضلات ما كان يقتدر عليها لولا أنه تخرج من مدرسة النبوة التى تفيض بالهدى والرشاد . . .

وهذا عثمان يرث عن رسوله رقة الطباع ودماثة الأخلاق وشدة الحياء ، حتى يستحى من نفسه وهو منفرد متجرد لاغتساله ، وحتى يقول فيه الرسول : « أصدق أمتى حياء عثمان » . وإنه ليدخل على الرسول فيستحى الرسول منه ، فتسأله عائشة عن سبب ذلك ، فيقول : « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة » ؟ .

وهذا على يرث عن رسوله زهده وتقشفه ، حتى تهون فى نظره أعراض الحياة وأغراض العيش ولذائذ الدنيا فيصرخ فى وجه الدنيا قائلا : « يا دنيا

غرى غيرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيهن . آه من طول الطريق ، وقلة الزاد ووحشة السفر » .

وهناك ناحية أخرى . . إن القائد يجب ألا ينفرد بالسلطان والمجد ، وألا يستأثر بالرأى يستحوذ عليه ، أو الثناء يستبد به . وكم من أناس هيأت لهم الأقدار أن يبلغوا مناصب القيادة والرياسة ، فخيل إليهم أنهم قد صاروا فى الكون آلهة ، وما من إله إلا إله واحد ، فلا يقضى أمر إلا بكلمتهم ، ولا يوجه مدح إلا إلى ذاتهم ، ولا يسبح مسبح إلا بحمدهم وشكرانهم ، وإن قلوبهم الحاقدة الحاسدة لتتميز من الغيظ وتتقطع من الغل إذا رأوا شخصاً غيرهم فعل مكرمة أو استحق تمجيداً ، أو بدأ نجمه فى الظهور والسطوع ، وإنهم ليبذلون كل شىء لكى يقضوا على كل نابغ أو ناهض ، ليضمنوا البقاء لأنفسهم ، وليرضوا شهوة الأنانية المتعمقة فى جذور طباعهم . وأف لزمان تفنى الجماعة فيه ليعيش القائد ، وتذل الأمة ليعز فرد على أنقاض أبنائها ! . .

وعلى العكس من ذلك كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام . لقد بعث محمد عظمته فى صحابته ، وشاركهم فيما منحه الله من صفات وبركات ، فحفظ للصغير حقه قبل الكبير ، وشاور قومه فى الجليل والقليل ، وأعطى كلا منهم نصيبه فى التحية والإكرام ، وأظهر تقدير كل عامل ، وأعان شكران كل فاضل ، وما من مكرمة جرت على يد صحابى إلا فرح لها الرسول ، كأنها جرت على يديه ، وهكذا يكون القائد الرحيب الأفق المتفتح القلب النقى الضمير الطاهر الشعور . .

وها هو ذا يمجد أصحابه عامة فيقول : الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ،

ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » . ويقول أيضاً : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

ثم ها هو ذا يمجد أصحابه فرادى ، فيصف كل واحد منهم بوصف له جماله وبهاؤه ، فأبو بكر هو الصديق ، وعمر هو الفاروق ، وعثمان ذو النورين ، وعلى باب مدينة العلم ، وابن الزبير حمامة المسجد ، وسعد بن أبي وقاص مجاب الدعوات ، وطلحة بن عبيد الله الشهيد الذى يمشى على الأرض ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وحنظلة غسيل الملائكة ، وجعفر بن أبي طالب هو الطيار فى الجنة ذو الجناحين ؛ إلى غير ذلك من جميل الصفات ورائع النعوت .

نستفيد من هذا أن الأمة يجب أن تهتدى بهدى قائدها وراعيها ، حتى تتجلى مواهبه فى أفرادها ونواحيها ، فيصبح كل إنسان عظيماً فى ناحية أو عدة نواح ، فتكثر الأيدى القوية العاملة ؛ وأن القائد يجب ألا يكون أنانياً يستحوذ على الفضل والخير كله ، بل يقدر العاملين ، ويهىء فرص النبوغ للنابغين ، حتى تتبارى الكفايات وتظهر العبقريات « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ! .

وليس بعد أمة محمد أمة ، لأنها خير أمة أخرجت للناس ، وليس مثل محمد قائد أو زعيم ، لأنه رحمة الله للعاملين ، فلم يبق إلا المسير . فمتى يكون؟..

مع الامام على

الحمد لله عز وجل ، أعطى وحدث على الإعطاء ، ووعد بالخير الكرماء ، وتوعد بالعقاب البخلاء « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى » . أشهد أن لا إله إلا الله ، عدل وأمر بالاعتدال ، ورسم طريق النجاة فى الحياة وفى المآل ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خرج فى مدرسته عظماء الرجال وعمالقة الأبطال ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كان الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أبلغ الناس بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تجلت شواهد بلاغته ودلائل حكمته فى كتابه المشهور « نهج البلاغة » وفى هذا الكتاب نجد كلمات ناضرة منثورة يمكن أن نجمع شتاتها ونتعرف إليها فى حديث يساق إلى الآذان والعقول فتجدد لها من العظة والعبرة ما هى جديرة بالتفكير فيه والتدبر له فى مثل هذا المقام المشهود حتى تهتدى إلى سواء السبيل ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . فهذا هو الإمام على أولا يقول : « الطمع رق مؤبد » وهو يقصد بهذا أن الطامع يظل طيلة حياته أسيراً لطمعه ، عبداً لجشعه ، يجمع ولا يقنع ، ويأكل ولا يشبع ، وقد يحوز ولا يتمتع ، بل قد يؤدى بنفسه عن طريق طمعه إلى الخسران والبوار والهلاك ، ولذلك يعود الإمام فيقول : « أكثر مصارع العقول تحت بروق الطمع » وهذا حق ،

فكم من شهوات منحرفة جامحة سيطرت على صاحبها ، واستنام لها ، فجعلته يطمع فيما لا يستحقه ، أو فيما يتعذر عليه أن يناله ، فقادته إلى شر المهالك والمعاطب ، بل ربما تجاوز الإنسان حد الاعتدال فى وقت من الأوقات فحرمه ذلك أن يتمتع بما كان ينبغى أن يتمتع به ، ولذلك قال الإمام على : « كم من أكلة منعت أكلات » لأن الإنسان رد عن الطاقة المحتملة المعقولة فى الأكلة الأولى فأفسدت عليه أمره فأمرضه ، وجعلته غير صالح لأكلات كثيرة بعدها . وليس معنى هذا أن الإمام علياً كان يكره الغنى واليسار ، أو يحبب فى الفقر والحرمان ، فالواقع أنه كان يبغض الفقر ويشوه منظره ، فيقول : « الفقر الموت الأكبر » ويقول : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » ولكنه فى الوقت نفسه يخبر الإنسان بأن حيازة الثروة وحدها ليست هى كل شىء ، فقد يكون هناك ما هو خير منها ، مثل صحة البدن وسلامة القلب ، فيقول : « ألا وإن من البلاء الفاقة ، (أى الفقر) وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب ، ألا وإن من النعم سعة المال ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب » . والحديث يقول ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » .

والإمام على يدعو المؤمن إلى أن يشارك غيره وجدانياً ومادياً على قدر طاقته ، وأن يحذر الجشع والاستئثار بالنعمة دون سواه ، فإن ذلك ربما كان مآله الحرمان والضياع ، وربما تعب الجشع فى حفظ ماله ، ثم صار المال إلى سواه غداً على الرغم منه ، ولذلك يقول الإمام : « يا ابن آدم ، ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك » . ولهذا يدعو إلى التكافل الإسلامى الوثيق بين الأغنياء والفقراء ، لأن القادر مسئول عن تضييع أخيه العاجز ، والقوى محاسب على ضعف الضعيف ، فيقول الإمام : « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ،

والله تعالى سائلهم عن ذلك » . ويحرض الإمام هؤلاء الأغنياء على قضاء ضرورات العاجزين الضعفاء ، حتى يحفظ الله على المالكين القادرين نعمته وفضله ، وإن لم يستجيبوا لذلك نزع الله بعد قليل ما بأيديهم وصرفه إلى سواهم ، وفى هذا يقول الإمام : « إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد ، فيقرها فى أيديهم مابذلوها (أى ماداموا يبذلون منها للمحتاجين) فإذا منعوها نزعها الله منهم ، ثم حولها إلى غيرهم » .

ويلفت الإمام نظر الإنسان وتفكيره إلى أنه ينبغى له أن يحسن التصرف فى ماله ، وأن يستخدمه فى الطيبات والأعمال النافعة له ولغيره ، وأن يحذر تكديسه بلا استعمال حتى لاتفجأه الأقدار بأحداث الحياة فتطيح بالمال دون انتفاع منه ، أو تفجأه بالموت فينتقل المال إلى وارث جديد ، فيقول الإمام : « لكل امرئ فى ماله شريكان : الوارث والحوادث » . ولكن الإمام فى الوقت نفسه يحض النـــاس على سلوك الطريق القويم المعتدل من ناحية الضيق أو السعة فى المال ، فيحث من كان قليل المال على أن يتجمل بالرفعة والتماسك والاحتمال والبعد عن الذلة والهوان ، ويحث من كان كثير المال على شكر الله بالبذل منه فى وجوه الخير ، والإسهام به فى مصالح العباد ، فيقول : « العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى » ويقرب من هذا قوله : « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله » فهو بهذا يعلم الغنى أن يعاون المحتاج ، ولكنه فى الوقت نفسه يعلم الفقير أن يترفع عن المذلة والخضوع للغنى ، بل عليه أن يتل على ربه ، ويعتمد على فضله ، ويسعى بجهده ، فينال ما يحتاج إليه ، ويحفظ لنفسه بما يصونها من شرف وكرامة . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .

ولقد أراد الإمام على أن يعلم الناس القناعة والرضى ، وأن يحارب فيهم الشره والنهم والتكالب على الدنيا ، فقال رضوان الله عليه : « الرزق رزقان ،

رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك ، كفاك كل يوم على مافيه ، فإن تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك فى كل غد جديد ما قسم لك ، وإن لم تكن السنة من عمرك ، فما تصنع بالهم لماليس لك ، ولن يسبقك إلى رزقك طالب ، ولن يغلبك عليه غالب ، ولن يبطىء عنك ماقدر لك » . وكأنه بهذا يريد من الإنسان أن يعيش حاضره ، وأن يبذل جهده لتوفير ما يحتاج إليه الآن ، وألا يستبد به القلق على المستقبل ، أو يسيطر عليه الخوف من الغد المجهول ، وألا يفترض المتاعب قبل حلولها ، بل ليقدم على غده آمناً واثقاً أن الله سيعينه فيه كما أعانه اليوم وبالأمس ، وبذلك يظل ضوء الرجاء وحسن الظن بالله يهدى الإنسان على الطريق : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

والإمام على حريص على أن يدفع بالمؤمن إلى استخدام ما يملكه فيما يرضى ربه ، بعد أن يناله بطريق يرضى ربه أيضاً ، وإلا انقلب عليه ماله حسرات فيقول الإمام : « إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا فى غير طاعة الله ، فورثه رجل فأنفقه فى طاعة الله سبحانه ، فدخل به الجنة ، ودخل الأول به النار » . ويقول : « إن أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعياً ، رجل أخلق بدنه (أى أتعبه) فى طلب ماله ، ولم تساعده المقادير على إرادته ، فخرج من الدنيا بحسرته ، وقدم على الآخرة بتبعته » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا قبس من حكمة الإمام على الذى ورث عن الرسول البصر بالإيمان واليقين ، وما أجدر هذا القبس بأن يضيء أمامنا الطريق ، فنسعى سعى الأقوياء ، ونكسب كسب الشرفاء ، وننفق إنفاق الكرماء ونعاون معاونة الأوفياء ، ونعبد الله عبادة الخلصاء ، وبذلك نكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأولئك هم الفائزون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مع على بن أبى طالب

المصلح الاجتماعى الحكيم

١ — استقلال القضاء .

٢ — الوفاء بالعهود .

٣ — جشع التجار .

لنا نحن المسلمين تراث ثقافى اجتماعى خالد . وإن الحوادث الغابرة والمعاصرة لتعطينا الدليل بعد الدليل على أن هذا الدين الإسلامى الحنيف بكتابه الكريم وسنته المطهرة ، وسيرة رسوله العاطرة وتاريخ صحابته والخيرة من تابعيه ، هو دين الكمال والجلال ، وسبيل الله القاصدة القويمة الهادية للناس فى كل زمان ومكان !

وهأنذا أجلو صورة من صور الإسلام الاجتماعية الرائعة التى توضح لنا كيف خلق الله بدينه العام الشامل من رعاة الابل والشاه قادة الأمم وسادة الشعوب ، وجعلهم أئمة يهدون بأمره ويملكون زمام عباده بحسن الرعاية ومحكم التوجيه .

تلك الصورة هى صورة على بن أبى طالب ربيب المدرسة المحمدية الإسلامية حينما تجده وقد تقدم به الزمن مئات ومئات من السنين يقول بنظريات اجتماعية وإنسانية ، نحن نفخر بها اليوم ونحسبها من القرن العشرين ، وإليك البيان :

١ — إستقلال القضاء :

منذ حين أصدرت الحكومة المصرية قانون « استقلال القضاء » وأقامت عقيب إصداره مهرجاناً فخما تبارى فيه الخطباء من رجال الدولة وعظمائها ، ذاكرين لما لهذا القانون العظيم من مآثر فى حفظ العدالة وصون القضاءوالبعد بالقضاة عن التأثير الحزبى أو السياسى ، وعن سلطان الرهبة والتخويف . والواقع أن هذا القانون يعد عملا مجيداً وخطوة طيبة فى سبيل إعلاء كرامة الوطن ونشر العدالة التامة بين ربوعه وقد كان من واجب الحكومات المصرية المتتابعة أن تفكر فيه وتعمل على إصداره ، وتنفيذه من يوم أن نالت مصر دستورها وحقوقها التشريعية . . .

إلا أنه يجب علينا فى هذا المقام ألا نتوهم أن « استقلال القضاء » غريب على البيئة الإسلامية ، أو أنه جديد علينا نحن المسلمين ، إذ لو ذهبنا نستعرض تاريخنا الإسلامى لوجدنا أن « استقلال القضاء » قد دعا إليه ونص عليه منذ مئات من السنين ، أحد الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ذلك هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، إذ نراه فى العهد المنسوب إليه الذى أمر به مالك ابن الحارث الأشتر النخعى حين ولاه مصر لجباية خراجها وجهاد عدوها ، وإصلاح أهلها وعمارة بلادها ، يوصى بأن يكون « القاضى » عزيزاً كريماً مهاب الجانب مكفى الحاجة ، صبوراً حكيماً دقيقاً فطناً مترفعاً عن الشبهة بعيداً عن الظنة ، لا تقبل فيه سعاية ولا وشاية ... فيقول الإمام للاشتر فى عهده المشار إليه ما يلى :

« . . . ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر عن الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم

دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ؛ ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . : . »

« ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيح علته وتقل معه حاجته إلى الناس ؛ وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ؛ فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى يد الأشرار ، يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا ! ...»

ذلك هو « استقلال القضاء » يقول به رجل عربى من أسلافنا ، لم يدرس فى جامعة ، ولم يقرأ فى القانون « موسوعة » ولكنه تخرج فى مدرسة محمد عليه السلام التى أخرجت خير أمة للناس ! . .

٢ ـ الوفاء بالعهـود :

كثير من الناس يسمون العصر الحاضر عصر المدنية والنور ، وهم لو أنصفوا لسموه عصر التحلل والفجور . . ألست ترى فيه تلك الأمم الباغية الطاغية التى لا تعرف للأخلاق حرمة ، ولا لفضائل الإنسانية مكانة ؟ . . ألست ترى فيه هذه الحروب التى تمثل فيها أفظع ألوان الهمجية والوحشية؟... ألست ترى فيه هذه الدول المتجاورة التى لاتنام إلا على حقد ، ولا تستيقظ إلا على خوف ، فلا تأمن الدولة جارتها ولا تطمئن إلى صديقتها ، ولا تثق فى وعود غيرها ؟ . . ألست ترى فيه هذه المعاهدات الحربية والسلمية وهى تنقض من عاقديها قبل أن يجف منها المداد ؟ . ألست ترى فيه الأمة تقبل على جارتها أو صديقتها فتدعوها إلى عقد محالفة أو معاهدة أو هدنة أو اتحاد ثم لا يمضى على ذلك إلا قليل ، وإذا بكل هذه المواثيق تصبح هباء فى هباء ؛ وهذا بين الأصدقاء فكيف بالأعداء ؟ . . .

ألا إن بنى هذا العصر لفى أشد الحاجة إلى استماع صوت كريم نبيل صدر فى فجر التاريخ الإسلامى ولا يزال يتردد قوياً إلى اليوم ، ولو أرادوا لا ستمعوا إليه وعرفوا ما فيه من نبل وسمو وجلال فتمسكوا به وعملوا له . ذلكم الصوت هو صوت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، إذا يوصى الأشتر النخعى فى عهده الذى سلف ذكره ، فيحذره من خيانة العدو المعاهد ، ويوجب عليه أن يلتزم ما يشترط على نفسه ولو تأدى به ذلك إلى أشد الصعاب ، ويدعو إلى الصراحة فى المعاهدات والمخالفات ، كى لا يجد ذو الهوى فى إبهام اللفظ أو لحن القول أو عموم « المادة » ما يشبع به هواه ، ويخوفه من الغدر وآثاره ، حتى ولو ترتب على هذا الغدر ما يبهر ويغر ، فاستمع إليه إذ يقول للنخعى :

« وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ؛ وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين[1] لما أستوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن قول إلا بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من

---

(١) أى حال كون المشركين دون المسلمين فى الأخلاق والعقائد .

غدر تخاف تبعته ، وأن تحيط بك فيه من الله طلبة فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك ! . » .

هذا صوت على ، فقل للذين يفخرون بالمدينة والحضارة ، ويباهون بالرقى والتقدم : أولئك أساتذتكم فخذوا عنهم ما يهديكم سواء السبيل ، ويريكم نور الحياة ، الوضاء ، ويحقق لكم غاية ماترجون من سمو فى المادة والروح .

٣ — جشع التجار :

وقديماً قالوا : الحديث ذو شجون ، فلا علينا إذا جلنا جولة فى هذا العهد الرائع نستخلص منه من العبر والعظات وجوامع الكلم ما يناسب المقام ويتصل بالحاضر ، فلعل فى ذلك تبصرة وذكرى لقوم يعقلون ! . .

على الرغم من أن الحكومة تبذل مافى وسعها الآن . وتجاهد جهاد الصدق فى سبيل التموين التجارى ، فإن الأمة تعانى ما تعانى من جشع التجار وتكالبهم على الربح الفاحش ، واحتكارهم لأصناف الحاجات واختزانهم للبضائع التى يحتاج إليها الشعب أشد الاحتياج ، وذلك كله طمعاً منهم فى الغنى الباهظ واكتناز الأموال من أسهل طريق وفى أقرب وقت ، وللامام على كرم الله وجهه فى عهده المذكور دستور حكيم وعظ به الوالى فى هذا الموضوع ، فدعاه أولا إلى العناية بالتجار ، والحرص على تسهيل الصعاب أمامهم ، لأنهم مواد المنافع وأسباب المرافق ، ثم حذره بعد ذلك من شحهم واحتكارهم وجشعهم المفرط ، ودعاه إلى أخذهم بالشدة والعقوبة الرادعة حينئذ فى غير إسراف ، فقال كرم الله وجهه :

« . . ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات ، وأوص بهم خيراً . المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فانهم من مواد المنافع وأسباب

المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، فى برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها ، فانهم سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك ، واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحا قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً فى البياعات ! وذلك باب مضرة للعامة ، وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل لا تجحف بالفريقين مع البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقب فى غير إسراف » ! . . .

رضوان الله عليك يا على ، فقد كنت خير واعظ وأحكم مصلح ، وقد كنت فى عهدك مثالا للأمير الحازم ، البصير ببواطن الأمور وخفايا الأشياء ، وإن عهدك هذا لهو خير ما يجب أن يفقهه طلاب الشريعة والقانون حتى يحيطوا علماً بما كان لأسلافهم من آيات باقيات فى التقنين والتشريع ! ..

الشيماء اخت الرسول

الحمد لله عز وجل ، له دعوة الحق ، ومنه كلمة الصدق ، ومن أصدق من الله حديثاً . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الأدكار والاعتبار : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو القائل : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأبطال صحبته ، وجنود دعوته : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

منذ أيام قليلة دعيت مع بعض العلماء لنشهد عرضاً خاصاً لفيلم الشيماء أخت الرسول « أو شادية الإسلام » حتى نبدى الملاحظات الدينية التى يجب أن تراعى احتراماً لكرامة الإسلام وصوناً لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، والشيماء أولا هى أخت الرسول من الرضاعة ، والرسول يقول : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » فأصبح للشيماء بذلك حرمة ومكانة ، وقد أسلمت ولقيت النبى فصارت إحدى الصحابيات . ولكن الفيلم اتجه إلى إظهارها فى صورة الفتاة الجميلة العاشقة لشخص غير مسلم . أو المشتغلة بالغناء وترديد الأناشيد ، مع حشر رقصتين مثيرتين بين أحداث الفيلم الدينى ، وتحوير أو تحريف لجانب من وقائع السيرة ، وتزيد فى أحداث التاريخ الإسلامى بحجة أن هذا أمر يقتضيه الفن أو حبكة الموضوع . ونحن لا نعارض أن يتسع التعاون بين رجل الدين ورجل الفن فى ميدان سليم طهور ، ومنذ

ربع قرن وأنا أردد : « إذا تدين رجل الفن وتفنن رجل الدين التقيا فى منتصف الطريق ، لخدمة العقيدة القويمة والفن السليم » . ولكن هناك حقيقة مرة لابد من الاعتراف بها ، وهى أننا لم ننجح — حتى الآن — فى إخراج فيلم إسلامى رفيع ، له مكانته وروعته ، مع أنه توجد أفلام كثيرة دينية غير إسلامية ، خدمها أهلوها ببراعة وإتقان ، فظهرت براقة جذابة ، ويا ضيعة الحق الأعزل فى طوفان الباطل المتنمر ، والمؤلم أننا نفشل فى التعريف بحقنا ، وسوانا ينجحون فى الترويج لباطلهم ، ولعل ذلك يرجع إلى أننا نريد أن نتعملق قبل الأوان ، وأن نصعد الجبل قبل أن نتعلم صعود الربوة ، مع أن كل صنعة دقيقة لها علم وفن ، وقواعد وتدريب .

والتاريخ بصفة عامة له حرمته ومكانته التى يجب أن نحرص عليها وأن نصونها ، فلا يليق بنا أن نحرفه أو نبدله بدعوى أننا نقدم عملا فنياً له جماله أو روعته ، والسيرة النبوية الإسلامية العطرة لها أكثر من حرمة ، لأنها بأحداثها ووقائعها تطبيق عملى لمبادئ الإسلام وأحكامه ، أو هى بتعبير آخر الشريعة الغراء ماثلة فى سلوك وأعمال ، فلا يجوز بحال من الأحوال أن نحرف فيها أو نزيد عليها ، والرسول يقول : « إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور » .

والشيماء التى يدور حولها الموضوع هى « خذامة[١] بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة ، من بنى سعد بن بكر من قبيلة هوازن ، ولكن غلب عليها لقب « الشيماء » فلا تعرف فى قومها إلا به وهى أخت الرسول من الرضاعة ، ويقال لها أيضاً « أم النبى » لأنها اشتركت فى حضانته

---

(١) وقيل بالحاء وبالخاء وبالجيم .

مع أمها وهى بنت حليمة السعدية مرضعة الرسول ، وكان للشيماء أخ اسمه عبد الله بن الحارث ، وأخت اسمها أنيسة بنت الحارث ، وتروى السيرة أن الشيماء حملت ذات يوم أخاها فى الرضاع رسول الله وهو طفل صغير ، وخرجت به إلى الشمس أمام دارها ، وجعلت تهزه وتقول :

هـــذا أخ لى لم تلـــده أمى   وليس مـــن نسل أبى وعمى

فأنمه اللـــهم فيما تنمى

ورأتها أمها فنهرتها عن ذلك وقالت : لا ينبغى أن يكون هذا فى الحر . فقالت الشيماء : يا أمى ، ماوجد أخى حراً ، رأيت غمامة تظلله إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت . وأتم النبى رضاعه ، وأعادته حليمة إلى أمه ، ونشأ طاهراً مطهراً ، مبرأ من كل عيب وشين ، وفرقت الأيام والأحداث بين الشيماء وأخيها فى الرضاع وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وأوحى الله إلى عبده ونبيه ما أوحى ، من أثقال النبوة وأحمال الرسالة ، وأقبل الصراع العنيف العارم بين الإيمان والكفران ، وخاض الرسول ماخاض من غزوات ومعارك ، فدعا وصبر ، واحتمل وهاجر ، وجاهد وناضل ، وتحقق الفتح الأعظم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ولكن قبيلة هوازن ظلت معاندة مباعدة عن الدخول فى الإسلام ، وجاءت غزوة هوازن ، وانتصر فيها المسلمون ، واقتادوا منها آلاف الأسرى والسبايا ، وكان من بينهم الشيماء أخت الرسول ، ولكن القوم لا يعرفونها ، ويظهر أن الشيماء أرادت الاعتزاز بين القوم بأنها أخت النبى ، فقالت لهم : أنا أخت صاحبكم ، تعلمون والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم

يصدقوها وأقبلوا بها على الرسول وهى فوق الستين من عمرها صلوات الله وسلامه عليه ، فلما دخلت عليه قالت له : يا رسول الله ، أنا أختك فى الرضاع ، فسألها وما علامة ذلك ؟ . فذكرته بعضة عضها لها وهو صغير ، فتذكر ذلك ، وهش لها ورحب بها ، وأقبل عليها ، فبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ودمعت عيناه الشريفتان إجلالا للذكرى وتأثيراً بالماضى ، ثم قال لها : إن أحببت فأقيمى عندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أمتعك وترجعى إلى قومك . فقالت : بل تمتعنى وأرجع إلى قومى ، فأعطاها نعماً وشاء ، ومنحها ما تيسر له ، وأعادها إلى قومها مصونة معززة .

وفى رواية أنها حينما لاقته قالت : يارسول الله ، أنا أختك الشيماء بنت الحارث ، فقال لها : إن تكونى صادقة فإن بك منى أثراً لا يبلى ، فكشفت عن عضدها وقالت : نعم يارسول الله ، عضضتنى وأنت صغير هذه العضة . فعرفها الرسول وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وقال لها : سلى تعطى ، واشفعى تشفعى . وكان وجود الشيماء من العوامل التى رجعت إلى قبيلتها بالخير والبر ، فقد تقدم وفد من هوازن ، وذكروا للنبى صلة الرضاع التى تربطه بهؤلاء الأسرى والسبايا ، فاستجاب الرسول لذلك النداء الكريم ، وتحدث إلى المسلمين فى أمرهم ، ثم أطلق سراحهم ، وعادت الشيماء إلى دارها حرة مكرمة باختيارها ، ثم أسلمت وعادت إلى ركب الإسلام من جديد بإرادتها واختيارها ، وكان نفحة من نفحات النبوة ألمت بها فلم تحرمها من الاهتداء بهدى الله العلى الكبير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه الصورة المضيئة المشرقة للشيماء رضوان الله عليها لابد لها أن تعرض عرضاً كريماً سليماً قويماً ، يجذب الإنسان المشاهد إلى هذا الجو الإسلامى المعطر بجمال النبوة وجلال الرسالة ، دون أن يسطو عليه تحريف أو تخريف ، أو استعانة بمشاهد الإثم والفجور ، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .

على طريق النضال

الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبي الرحمة وقائد الملحمة ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير ، « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

لا ينبغي أن ينسينا كر الغداة ومر العشى ، أن علينا فى الحياة واجبات ، وأن علينا نحو أنفسنا ووطننا ومجتمعنا تبعات ، وأن هذه الواجبات والتبعات متجددة موصولة ، متنوعة متفرعة ، تتواءم مع ظروف الحياة وتتابع الأحداث ، وملاك الأمر فى ذلك وعماده ، هو استشعار روح الإيمان والعمل والنضال ، وأن يقوم كل منا على جانب من جوانب البناء والتعمير والإعداد يقويه ويعايه ، ويد الله مع الجماعة ، ثم الاعتصام بحبل الله خالق الأرض والسماء ، وواهب التوفيق والتأييد : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ، ولو رجعنا إلى سير الذين خرجتهم مدرسة سيد الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام ، لعرفنا كيف صبروا وصابروا ، وكيف جدوا واجتهدوا ، وكيف أعدوا لكل أمر عدته ، من سلام أو حرب ، ومن دين أو دنيا ، ومن إنتاج أو بذل ، وكيف عاشوا بأرواح المجاهدين المناضلين المرابطين على اختلاف الأحوال وتنوع الأعمال .

وهذا نموذج منهم : إنه المقداد بن عمرو الصحابى المناضل السباق

إلى المكرمات ، أسلم مبكراً فى مطلع الدعوة ، وكان أحد سبعة أظهروا إسلامهم فى أول البعثة ، فأخذهم الكافرون وألبسوهم دروع الحديد على أجسادهم ، وعذبوهم فى لهب الشمس ، فاحتملوا راضين صابرين ، ضاربين المثل فى إيثار ما عند الله على ما عند الناس ، ثم زاد الاضطهاد وضاقت البلاد ، فأرغم المقداد على ترك وطنه ، وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم عاد فهاجر إلى المدينة ، وهناك آخى الرسول بينه وبين المجاهد الشهيد طلاب الشهادة عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، أحد الأبطال القادة الثلاثة الشهداء فى غزوة مؤتة ، وإن نسينا فلا يليق بنا أن ننسى أن المقداد هو الذى نهض واقفاً بين الصحابة من المهاجرين والأنصار قبيل غزوة بدر ، وقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، بل نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد — وهو مكان بعيد — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، ولنقاتلن عن يمينك وعن يسارك ، وبين يديك ومن خلفك ، حتى يفتح الله عليك » . وهكذا كانت أخوة الإيمان ميثاق شرف بين هؤلاء المؤمنين ، ليظلوا على يقينهم ثابتين ، وليواصلوا خطواتهم فى طريق العمل الصالح المصلح مجتمعين .

وكان المقداد أول فارس ركب جواده فى سبيل الله ، ولذلك روت السيرة أنه لم يشهد غزوة بدر فارس غير المقداد ، وكانت هذه الفروسية المبكرة المستمرة معواناً على سرعة استجابته لنداء الاستغاثة وصوت النجدة ، فكان لا يسمع نداء إلى واجب أو معاونة إلا لباه مسرعاً ، لا يسبقه فى ذلك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ ولقد أغار الأعداء ذات ليلة على طرف من بلاد الإسلام ، وارتفع النداء يستدعى المجاهدين الأوفياء ، فكان المقداد

فى طليعة من استجاب ، وهناك وجد أن الرسول قد سبقه ، وجعل الرسول يثنى عليه ، ويحمد له حسن استعداده وسرعة استجابته؛ ولا عجب فالله جل جلاله يقول للأخيار من عباده : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » .

وكان المقداد إلى جوار بطولته وشجاعته ونضاله المستمر المتنوع — موضع ثقة الرسول صلوات الله عليه وسلامه فيما يؤتمن عليه من أسرار وواجبات ، وهذه منزلة لا يبلغها الصحابى من نفس النبى العظيم إلا بجدارة واستحقاق ، ومن شواهد هذه الثقة أن المقداد كان ثالث اثنين هما على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، أرسلهم النبى سراً وراء المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة إلى مكة ، لتحمل خطاباً إلى المشركين ينبئهم بأن الرسول وأصحابه يستعدون لفتح مكة . ولكن المقداد لم يكن يفتر ببلوغه هذه المكانة ، بل كان إنساناً متواضعاً ، يفضل أن يكون جندياً مجهولا ، يؤدى واجبه حيثما كان بأمانة وشرف وإخلاص ، على أن يكون مشهوراً تتطلع إليه الأنظار ، وكان يضايقه ، ما يجده فى مفاخر الحياة من أسباب لتضليل النفس أو تعويقها عن جهدها الموصول ، ولذلك كان يكره التطلع إلى أماكن الإمارة أو التزعم ، ولقد جعله الرسول أميراً لجماعة فى عمل من الأعمال ، وكأنه يختبر بذلك معدنه الأصيل ، فأطاع المقداد ، وبعد أن أدى واجبه قدر طاقته ، سأله الرسول : كيف وجدت الإمارة يا مقداد ؟ . فأجابه بصراحة ووضوح وصدق تعبير عن ذات نفسه قائلا : « يا رسول الله ، لقد جعلتنى الإمارة أنظر إلى نفسى كما لو كنت فوق الناس وهم جميعاً دونى ، والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين بعد اليوم أبداً » .

ومضى المقداد على طريق العمل الدائب والجهد الموصول ، يتقلب بين

ميادين الواجبات مناضلا فيها ، وينتقل بين مختلف التبعات حاملا لها ، واشترك فى فتح الإسلام لمصر كنانة الله فى أرضه ، وطالت حياته ، وحسن عمله ، وكثرت مناقبه ، وهو على الحق والعمل ثابت لا يتحول ولا يتبلبل ، وكان يفخر بنعمة الإيمان ، ويعدها كبرى النعم من ربه : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » . ولقد قيل له يوماً فى أخريات حياته الطويلة الجليلة : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لوددنا أنا رأينا مارأيت ، وشهدنا ما شهدت . فقال لهم موجهاً وناصحاً : ما يحمل أحدكم على أن يتمنى مشهداً غيبه الله عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يصير فيه ؟ والله لقد عاصر رسول الله أقوام كبهم الله على مناخرهم فى جهنم ، أولا تحمدون الله الذى جنبكم مثل بلائهم ، وأخرجكم مؤمنين بربكم ونبيكم صلى الله عليه وسلم .

إن فم النبى الطهور قد قال : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » ، وشأن المجتمع العاقل الفاضل أن يحرص أبناؤه على استغلال أيامهم وأعوامهم فى خير ما تنفق فيه الأعمار ، حتى يكسبوا خير الدنيا ونعيم العقبى ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هو الهادى إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

يقول الله عز من قائل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ومعنى هذا أن المؤمن بالله ، المستجيب لأمره ، السائر على طريقه ، من شيمته وشأنه أن يكون موصول الجهد ، دائم العمل ، يحسن استغلال وقته فيما يعود عليه وعلى أسرته ومجتمعه ووطنه بالخير والبر ، والرفعة والكرامة ، مستبصراً فى طريقه بنور الله الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ،والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات . . . إلى آخر الدعاء .

بين المطلوب و الطالب

الحمد لله عز وجل ، يصطفى لآلائه الأكرمين الأخيار ، ويركس فى نقمته الأشقياء الفجار ، وماربك بظلام للعبيد ، نشهد أن لا إله إلا الله ، يرفع بفضله كراماً إلى أعلى علين ، ويخفض بعد له لئاماً إلى أسفل سافلين وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان إمام الصالحين وخير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى وعلى آله وذريته ، وأقطاب صحبته ، وجنود دعوته ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أرادت إحدى الأمهات أن تحسن الدعاء لابنها العزيز عليها الحبيب إليها ، فقالت له : « جعلك الله يابنى مطلوباً لا طالباً » . وفى هذه العبارة الوجيزة صورت تلك الأم الحكيمة طريق العزة والمجد فى الحياة ، فما أكثر الذين يأتون إلى الدنيا ويعيشون فيها جاهلين خاملين ، وكأنهم ليسوا بأحياء ، وما أكثر الذين يقبلون عليها ثم يرحلون عنها دون أن يحس بهم الناس ، وما أكثر الذين يعتلون فيها اعتلاء غير مشروع ، فإذا جاء وعد ربك تهدم لهم كل شىء ، « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلنـــاه هباء منثوراً » ، والقرآن المجيد يقول — وما أدق ما يقول — : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

وهناك من الناس قلة قليلة، هم صلاح الفساد ، وزينة الحياة ، يعيش الواحد منهم كأمة وهو فرد ، ويكون كل منهم فى قومه محبوباً مطلوباً ،

يبحثون عنه كما يبحثون عن الكبريت الأحمر ، لأن الرجل المطلوب يكون عزيز النفس كريم الطبع رفيع الهمة ، لا يتسفل ولا يتنزل ، بل يصون عرضه ، ويحفظ وجهه ، ولو لقى فى سبيل ذلك العنت والعناء ، ويردد مع الإمام الشافعى رضوان الله عايه ما كان يردده كثيراً ، وهو قوله :

أمطرى لؤلؤا سماء سرنديب وفيضى جبـــال تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همـــة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

والمطلوب رجل مصلح نافع ، إذ لو لم يكن كذلك لما حرص الناس على طلبه ، ولما لجئوا إليه ينشدون عنده الإنقاذ والمعونة ، وخير الناس أنفعهم للناس ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ولن يكون الإنسان معيناً نافعاً إلا إذا كان بارعاً فى الجد والاجتهاد ، سباقاً فى العمل والإنتاج ؛ وأما الرجل الحريص الطالب الراغب فهو نكبة على نفسه وعلى الناس ؛ يريد ، ومتى أر د الإنسان وطمع ذل وهان ، وصدق الأوأون يوم قالوا : أذل الحرص أعناق الرجال ، وهو يطلب ما يهوى وما يشتهى بجشع وتكالب ، وفى سبيل هذا الطلب يريق ماء وجهه ، ويمحق صحته دينه ، ويزهق جمال خلقه ، ويصبح عبداً لحاجته .

قد يطلب زينة الدنيا الكاذبة وحدها فتفر منه فيجرى وراءها ويظل يجرى وهى مسرعة فى فرارها ، حتى تنقطع أنفاسه دون أن يصل إليها ، وإن وصل إليها بعد أن ارتكب فى سبيلها ما ارتكب من عظائم ومآثم ، وجدها بسوء سعيه وخبيث وسائله جيفة فتنته ، وقد يغالط نفسه فيزعمها جميلة حلوة ، ولكنها تذيقه الصاب والعلقم ، وقد احترس الإمام على رضى رضى الله عنه من مثل هذا الاستعباد الدنيوى اللئيم فقال : « يا دنيا غرى

غيرى ، ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات ، قد فارقتك ثلاثاً لارجعة فيهن ، آه من طول الطريق ، وقلة الزاد ، ووحشة السفر » ! . . .

وقد يطلب المال بإسراف فى الطلب واعتساف فى الطريقة ، فيذله المال ويستعبده ، ويظل يلم ويكنز ، ويحصى ويحرس ، ويجمع ولا يقسم ، حتى يفجأه الموت أو الدمار وهو على ذلك ، فيبوء بالخسران والبوار ، وصدق رسول الله حين قال : « لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتى فى المال » وحين قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار » ! . وقد يطلب الجاه الكاذب فى الحياة ، يطلبه عن طريق الشهرة التى تغره وتخدعه فى أول الأمر ، فيظل يطلبها ويحرص عليها ويحتال لها ، حتى إذا جاء ته أضنته وأتعبته ، وكلفته الكثير من ماله وصحته ، وربما محق فى سبيل ذلك بقية عقيدته ، ولعله لو عاش جندياً عاملا مستوراً لسعد وفاز ، وصدق الرسول حين قال : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » . وقد يطلب ذلك الجاه عن طريق رغبته الجشعة فى المنصب ، فلا يفوز فيه ولا يفلح ، لأن من أراد المنصب بجشع حرص عليه ، ومن حرص عليه ذل له ، ومن ذل له لم يصلح فيه ، ولذلك روى عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها . ودخل رجلان على الرسول وطلبا منه أن يوليهما على بعض الولايات فقال : إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله ، ولا أحداً حرص عليه .

والرجل الطالب للمتاع الزائل ، الراغب فى الجاه الكاذب ، تراه عبداً ذليلا لأشياء كثيرة فى هذه الحياة ، تراه عبداً لشهوته ، وتراه عبداً لشيطانه ، وتراه عبداً لماله ، وتراه عبداً لمن يذل عندهم ويخنع أمامهم ، وهو يرتضى

لنفسه أن تحمل من قيود المهانة وأطواق التسخير الشيء الكثير ، وليته إذ خضع لكل هذه القيود لم يطلق هواه الأثيم من كل قيد ، ولم يجعله كالسائمة العشواء ترتع بلا بصر أو بصيرة . وأما الرجل الكريم المطلوب فإنه لا يرتضى عبودية كغير خالقه ومولاه ، ولا يفرط فى حريته التى وهبها له الله ، وكيف وقد برأه الله حراً ؟ ولكن هذا الحر الكريم يقيد نفسه مختاراً بقيود العدالة والاستقامة ومكارم الأخلاق :

قيد الحر نفسه بهداه ... وأبى فى الحياة قيد سواه

وترى العبد راضياً كل قيد ... غير تقييد نفسه عن هواه

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الطريق إلى الحقارة والشر مفتحة الأبواب ، وأما المصاعد إلى الفضيلة والخير فشاقه متعبة ، والرسول يقول : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » . ويقول خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » . ومن الميسور لكل إنسان أن يمد يده طالباً ملحاً ملحفاً ، ولكنه من العسير أن يعد المرء نفسه ليكون كريماً مطلوباً نافعاً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، فليسأل كل منا ربه قائلا : « اللهم اجعلنى مطلوباً لا طالباً » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

روابط المسلمين

الحمد لله عز وجل ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أبدع الخلائق بحكمته وأمدهم بهدايته : فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ، ووحد الأمة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

جاء الإسلام بهداية الله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، فأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، وكسب العرب — قومه الأوائل — عزة بفضله ، ورشاداً بتوجيهه ، وسيادة بتمكينه ؛ ولما كان الإسلام قد جاء للناس أجمعين ، وكان نبيه رحمة ربه للعالمين ، كان لزاماً على السابقين إليه أن يكونوا حملته إلى أهل المشارق والمغارب ، ولذلك رأى المسلمون الأولون أن دينهم يفرض عليهم ألا يستأثروا بما ساق الله إليهم من خير ، وألا يحرموا سواهم ما آتاهم من فضله ، فخرجوا بعد أن تدبروا وتطهروا يحملون مشاعل الهداية الربانية ليضيئوا بها المسالك والشعاب أمام الناس هنا وهناك . وكان المسلمون الأولون حين خرجوا من ديارهم لهداية الناس وبث نور الإسلام لا يبغون فتحاً ، ولا يطلبون سلطاناً ، ولايريدون علواً فى الأرض ولا فسادا ، وإنما هم دعاة كلفهم ربهم بأن يشيعوا هذا الحق الإلهى بين عباده حتى يصبح الناس بنعمة الله إخوانا ، ولكن أقواماً أعمتهم غشاوات الجاهلية ، وأضلتهم غوايات الفساد والاستبداد ، أبوا إلا الوقوف ،فى وجه هذه الدعوة الربانية يريدون

وأدها والقضاء عليها ، فكان لابد لجملة هذه الدعوة من أن يذودوا عنها ، ويقاتلوا لصيانتها والانتصاف من الباغين عليها ، فجاءت هذه الغزوات الصادقة التى غزاها المسلمون الأولون لتأمين الدعوة وصيانتها ونشرها . . .

وكذلك كانت هناك بلاد فى الجزيرة أو فيما حولها استبد بها مستبدون ، وطغى على أهلها طاغون ، وفريق من هؤلاء الطغاة دخلاء طارئون ، وفريق آخر من أبناء البلاد ، ولكنهم استغلوا نفوذهم وقوتهم ، فبغوا على قومهم بغير الحق ، وساموهم سوء العذاب ، فجاء الإسلام محرراً لهذه الجموع ، ورادعاً لأولئك الطغاة ، وكان لابد لكلمة الإسلام أن تظل عزيزة عالية موجهة فى تلك البقاع ليسوس المسلمون أمور تلك البلاد سياسة العدل والإنصاف ؛ وهناك بلاد أخرى لم يكن فيها هذا الطغيان البادى ، ولا أولئك البغاة الطغاة، فسرى إليها ضوء الإسلام رفيقاً هادئاً بوساطة الدعاة أو التجار أو الارتحال ، فنمتح الإسلام هناك الآذان والأفئدة والقلوب بلا صراع أو نضال ، ولذلك نجد البلاد التى دخلها الإسلام طائفتين ، فطائفة منها دخلها الإسلام على أيدى أولئك المجاهدين المحتسبين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وطائفة منها دخلها الإسلام فى هدوء وسلام ، وهذه الطائفة الأخيرة قد فتحت صدرها عن طواعية واختيار لدعوة الله واعتزت بها وثبتت عليها .

وتلاقى هؤلاء وهؤلاء على أخوة فى الله وطيدة الأركان شامخة البنيان ، وتعارفوا بهذا الشعار الإلهى المجيد : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وتلاقوا على روابط لها جذورها العميقة فى الأرض ولها فروعها السامقة فى السماء ! . . وكان المسلمون فى عهودهم الناضرة المزهرة لا تصدهم عن اخواتهم وتعاونهم حدود جغرافية أو أوضاع سياسية ، وفى الوقت الذى استطاع فيه الاحتلال الأجنبى الخبيث أن يغزو ديار الإسلام ويفرق أبناءها ويمزق أشلاءها ، ويعزل كل بقعة عن غيرها من بلاد المسلمين بقوة

الحديد والنار ، كان المسلمون برغم هذا كله يتعاطفون ويتجاوبون فى مشاعرهم وعواطفهم من وراء هذه الجدر الصفيقة التى أقامها الاستعمار حول هذه الديار ، فإذا أن جريح فى أرض الكنانة مثلا لمس المسلمون جنوبهم ألما وإشفاقاً فى الهند وأندونيسيا والجزيرة ، وإذا نزل مكروه بقطر من أقطار المسلمين أحست معه بقية الأقطار باللوعة والأسى ، وذلك لأنهم أمة واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ، « إنما المؤمنون إخوة » ، « ترى المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وفى رواية لمسلم : « المؤمنون كرجل واحد » وفى رواية أيضاً : « والمسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله » .

وهذه دول فى الشرق الإسلامى مثلا بدت صراعها مع الاستعمار ، فكانت مصر منبراً للدفاع عن قضايا هذه الدول والمطالبة بحقوقها ، ولفت الرأى العام إلى وجوب حصولها على هذه الحقوق ، وكانت لهذه المؤازرة آثارها وثمارها مما يذكره المناضلون من أبناء هذه الدول وينوهون به فى كل مناسبة ، وحينما وقع العدوان الثلاثى على بلادنا خفقت القلوب المؤمنة فى تلك الدول المسلمة وثارت النفوس هناك ، وغضبت للاعتداء علينا ، وكان لتأييدها لنا ومناصرتها لقضيتنا ومناداتها بالوقوف فى وجه المعتدين الغاشمين أثر وثمر ، مما تجلى فى تلك الغضبة العالمية التى غضبتها الأمم المتحدة حين رفعت بالعار أولئك المعتدين بقرارها التاريخى المشهور . . .

واليوم قد تقلص ظل الاستعمار البغيض ، وحمل عصاه ، ورحل من بلاد المسلمين إلا قليلا ، وسرت أضواء الحرية بين هذه الملايين من المسلمين الذين يبلغون مئات الملايين فى العالم ، وكثرتهم الغالبة تحتل هذا الشطر المجيد الكريم من الأرض وهو الشرق ، وهذا العدد يستطيع

بما بينه من رحم الإسلام ، وروابط الأخوة فى الله، ووشائج التلاقى على القيم الروحية والاعتقادية الطاهرة أن يكون قوة عالمية عزيزة الجانب مسموعة الكلمة فى هده الحياة ، ويستطيع هذا العدد الضخم الهائل بتراثه الروحى ومبادئه السامية وقوته الحاضرة وإمكانياته الواسعة أن يكون ميزاناً للعدالة فى هذا الكون « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . . . وهذا العدد الضخم الهائل فى كمه وكيفه من المسلمين لا يريد له الإسلام أن يتجمع ليبغى أو يبطش أو يحتل ، وإنما ليصلح وينفع ، وليكون عاملاها ما من عوامل الاستقرار والاطمئنان والسلام والتراحم بين الناس ، وإذا كان الإسلام قد طلب من المسلمين أن يعدوا ويستعدوا ، فقد جعل حكمة ذلك إدخال الهيبة على الذين يفكرون فى فى البطش بالشعوب الإسلامية أو الاعتداء على الأمم الضعيفة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وإذا لم تكن هناك عداوة باغية باطشة جاءت الأيدى المؤمنة حاملة الخير والبر للناس ، لأن خير الناس فى اعتبار الإسلام أنفعهم للناس .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أخذ حكام المسلمين فى الفترة الأخيرة يتبادلون الزيادات ، ويعقدون الاجتماعات ، ويصدرون البيانات ، ويتحدثون عن الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية مع الاحتفاظ بحرية كل شعب إسلامى فى شئونه الداخلية وأموره الخاصة ، وإنها لفرصة ذهبية يجب أن ينتهزها أبناء الإسلام ليحدثوا الناس هنا وهناك عن هذا الإسلام الذى يحمل فى ثناياه قارورة الدواء ودستور الهناء : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

بين الاستاذ والتلميذ

الحمد لله عز وجل هو ولى النعمة والإحسان ، وصاحب الفضل والامتنان : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . نشهد أن لا إله إلا الله ، الأمر كله منه وإليه ، والهدى به والاعتماد عليه : « ولله مافى السموات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام المعلمين ، وقائد المربين ؛ فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعشيرته ، وأصحابه وكتيبته ، والقائمين بأمر دعوته : « ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أخذت المدارس تفتح أبوابها لأبنائها وهذه الحياة كالنهر الجارى المتدفق الموصول التيار ، كل موجة من موجاته تمهد الطريق لموجة تليها وتقبل بعدها ، والناس فيهم السابق واللاحق ، وقد جرت سنة الحياة بأن يأخذ المتقدم بيد المتأخر ، ويعلم الكبير الصغير ، ويرشد الأستاذ التلميذ ، ولولا أن العارف يعلم الجاهل ، وأن المهتدى يرشد الضال لما استقام أمر هذه الحياة ، ومن هنا كان التعليم أشرف عمل فى هذا الوجود ، والله عز وجل هو المعلم الأول للخلائق : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » ، وهو الذى يقول : « وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » ، فذكر الله التعليم منسوباً إليه فى معرض الامتنان بالفضل الجليل ، والتعليم هو وظيفة الأنبياء السامية ، ومحمد إمامهم وخاتمهم يقول : « إنما بعثت معلماً » ، وروى أنه صلوات الله عليه دخل المسجد وفيه مجلسان : مجلس تعليم ،

ومجلس دعاء ؛ فقال : كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ! ..» ثم قعد معهم ؛ وأتباع المسيح عليه السلام يجعلون من أوائل ألقابه التى ينعتونه بها لقب « المعلم » ؛ وأفضل المراتب فى الإسلام أن يعلم المرء علماً ويعمل به ويعلمه غيره ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم ! ..»

وأمير الشعراء شوقى يشير إلى هذه المنزلة السامية التى يحتلها التعليم والمعلم فيقول :

سبحانك اللهم ، خير معـــلم	علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته	وهديته النور المبين سبيـــلا
وطبعته بيـــد المعلم ، تارة	صدئ الحديد، وتارة مصقولا[1]
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً	وابن البتول فعلم الإنجيلا[2]
وفجرت ينبوع البيان محمـــداً	فسقى الحديث ، وناول التنزيلا[3]

ولقد كانت العلاقة بين المعلم والمتعلم قائمة على الحب والوفاء والتكريم والتوقير ، فالمعلم والد يؤدب بالحسنى ويهذب بالحكمة ، ويقسو حينما تجب القسوة ، ولكنها قسوة من يريد الخير لابنه وتلميذه ، والمتعلم ابن مطيع بار ، يرى فى إجلاله لأستاذه مظهراً من مظاهر الأدب وحسن الخلق ، وكان التلميذ يعتبر نفسه عجينة بين يدى أستاذه المحب له الحريص عليه ، فهو يشكلها ويصوغها كما يرى ، وعلى التلميذ أن يسمع ويطيع ؛ وكان الطالب

---

(١) طبع السيف أى صاغه (٢) البتول : لقب السيدة مريم

(٣) التنزيل : القرآن

يحافظ على وفائه لأستاذه حتى بعد تخرجه أو انقطاعه عن حلقة التعلم ، أو بلوغه مرتبة ملحوظة فى الحياة ، فهو يظل يذكر مدرسه بالخير ، وهو يحتفل لقدومه ولقائه ، ويجل محضره ومجلسه ، ولا ينسى سابق فضله ، وهو يتأدب أمامه ويستحيي منه ، وهو يزوره ويتودد إليه ؛ والمدرس من جهته يظل على صلته بتلميذه ولو نزل معترك الحياة ، وهو يواصل توجيهه وإرشاده حسب طاقته ، وإمكانه ، وهو يتتبع خطواته فى الحياة ، ويفرح بتوفيقه ونجاحه . . .

وحينما نستنبئ تاريخنا الإسلامى نجده عاطراً بقصص الوفاء والحب المتبادل بين المعلمين والمتعلمين ، مليئاً بمواقف التمجيد من التلاميذ للأساتذة والمربين ، فهذا هو الخليفة المأمون يحضر المعلم النحوى الشيخ الفراء ليعلم ولديه علوم العربية ، وذات يوم أراد الفراء أن يقوم من درسه فتسابق الوالدان الأميران إلى حذائه ، ليقدماه إليه ، وتنازعا على ذلك لحظة ، ثم اتفقا على أن يحمل كل منهما من الحذاء واحدة ! .. وعلم الخليفة الوالد بالقصة ، فتأثر منها وأعجب بها ، والتقى بالفراء فسأله : من أعز الناس؟ فأجاب : لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين .. فقال المأمون : بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله إليه ولياً عهد المسلمين ، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً ! . . فقال الفراء : يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعهما من ذلك ، ولكنى خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصاً عليها ! ! . .

وهذا عبد الله بن المبارك عالم أهل خراسان ينزل ذات يوم مدينة الرقة ، وكان إذا خرج التف الناس حوله وعظموه من أجل علمه ، وكان بها حينئذ الخليفة هارون الرشيد ، ورأت أم ولد الخليفة موكب ابن المبارك فسألت : ما هذا ؟ . قالوا لها : هذا عالم أهل خراسان ، قدم الرقة ، يقال

يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت : هذا والله هو الملك ، لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان ! ! . .

وهذه هى العالمة المصرية الفاضلة تقية بنت غيث ، كانت تلميذة للحافظ المحدث أبى طاهر السلفى ، وذات يوم عثر أستاذها فجرحت قدمه ، فشقت فتاة فى داره قطعة من خمارها وربطت بها الجرح ، وعلمت تقية بالحادثه بعد ذلك فارتجلت تقول :

لــو وجدت السبيل جــدت بخدى عوضــاً عن خمــار تلك الوليدة !

كيف لى أن أقبــل اليوم رجــلا سلكت دهــرها الطريق الحميدة !

ولو امتد حبل الاستشهاد فى هذا المجال لذكرنا عشرات الأمثلة من هذا القبيل من تاريخنا الإسلامى الجليل ! ! . .

هكذا كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين ، وبين الطلاب والأساتذة... أما اليوم فلا محبة ولا وفاء بين التلميذ والأستاذ . . . إن الطالب ينسى حق أستاذه وهو بين يديه يغترف من علمه وفضله ، فكيف به إذا بعد عنه ؟ . . وإن من المدرسين من لا يؤدى حق تلميذه وهو مكلف بهذا الحق « رسمياً » كما يقولون ، فكيف به إذا تخلص من قيود هذا التكليف « الرسمى » ! ! . .

فقد انفصمت الرابطة الكريمة بين التلميذ ومدرسه ، وفسدت العلاقة بينهما فساداً ينذر بأخطر العواقب ، إذ بدأ التلميذ يسرف فى الاغترار بشخصيته وأخذ بعض المعلمين يسرف فى الاعتزاز بمكانته كمعلم ، وقد يتجاهل شخصية التلميذ أو يتحكم فيه ، مع أن التلميذ يحتاج إلى الشعور بكيانه وذاته ، والمعلم الناجح هو من خلط الشدة باللين ، والحزم بالرفق ، وكون فى تلاميذه صوراً من شخصيته ، بدل أن يلغى شخصيات تلاميذه « أريد حياته ويريد قتلى » . . .

أعلمه الرماية كـــل يـــــوم فلمـــــا اشتد ساعده رماني

وكم علمتـــــه نظم القوافـــى فلمـــــا قال قافيـــة هجاني!

ونحن لا نضع تبعة هذا الفساد على كواهل التلاميذ وحدهم ، ولا على كواهل المعلمين وحدهم ، وإن كان التلاميذ يبوءون بأعظم التبعة فى هذا المجال ، فهناك أيضاً الأوضاع الأسرية التى زاد التحرر فيها ، وهناك انعدام التعاون بين البيت والمدرسة ، وهناك انصراف أغلب العناية فى التعليم إلى حشد المعلومات وتنمية المعارف ، دون رعاية كافية للتربية والتهذيب وغرس الأخلاق الفاضلة ، وهناك ضياع سلطة الوالدين وانعدام هيبة الولد لهما وخوفه منهما ، وما دام الولد مدللا عند أبيه وأمه ، فكيف يحفظ حق معلمه فى مدرسته ؟ ! . . .

وأين تطبيق ذلك المبدأ السليم الحكيم الذى قد نردده أو نتذكره ، ولكننا لا نجد موضعه فى القلوب ، أو تأثيره فى النفوس . . . أين الحكمة القائلة :

إن المعلم والطبيب كلاهمـــــا لا ينصحان إذا همـــا لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . :

اذكروا جيداً أن الأسباب الرئيسية فى حسن العلاقات بين الأستاذ والتلميذ هو أن يقوم التعليم والتربية منذ بدء الطريق على أساس الرابط الروحى والأخلاقى بين المعلم والمتعلم ، ولو نهضت البيئات التعليمية على هذا الأساس لتوثقت علاقات المحبة والتقدير بين الناشئين والمعلمين ، ولقد نشأ فتية الجيل الماضى فى ظلال التوقير للأساتذة والإجلال للمعلمين ، ومع ذلك كانت لهم شخصياتهم وجهودهم وخطواتهم فى الحياة ، وذلك لأن نشأتهم

كانت دينية ، ولأن تربيتهم تعطرت بهدى السماء واهتدت بقوانين الأخلاق فليتذكر ذلك ناشئة الجيل الحاضر ، وليتقوا الله فى معلميهم ومرشديهم إلى الخير ، وليتذكروا على الدوام قول رسولهم عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق ، ذو الشيبة فى الإسلام ، وذو علم ، وإمام مقسط (عادل) » .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الغالب والمغلوب

نحمد الله تبارك وتعالى ، هو الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء ، له الأمر ، وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله هو يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، جاهد بصدق ، وانتصر بحق ، فما عاون ظالماً ، ولا خذل مظلوماً ؛ فعليه صلاة ربه وسلامه ، وعلى آله ذوى السيرة العاطرة ، وأصحابه أهل المواقف الباهرة ، وأتباعه العاملين للدنيا والآخرة : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه الحياة سلسلة من المحاولات والمعارك ، والناس داخل هذه السلسلة تختلف أحوالهم وتتباين حظوظهم ، فمنهم المنتصر ومنهم المنهزم ، وفيهم الغالب وفيهم المغلوب ؛ وقد يبذل المرء غاية جهده ، ويقدم كل ما فى وسعه ليبلغ ويصل ، ولكن الأقدار المسيطرة تحول بينه وبين ما يريد لحكمة يعلمها اللطيف الخبير ، وقد يواتى الحظ شخصاً ليس أهلا للانتصار والسبق فى نظرنا أو اعتقادنا ، ولكنه ينتصر ويسبق ، لحكمة أخرى قد لا نحيط بها علماً ؛ ومن عجائب الأيام وكيد الزمان أن الشخص قد يعلو ويرتفع ، وهو ليس جديراً بعلو أو ارتفاع ، وقد ينخفض آخر أو يتقهقر وهو أهل للصدارة والاعتلاء ، وما أقسى عداوة الأيام للأخيار من الرجال ، وما أطول غربة الفضلاء الكرام فى دنيا السفهاء اللئام ! . .

ويزيد الأمر شدة أن العامة من الناس مولعون بتمجيد القوى القادر ،

والمنتصر الغالب ، والغنى الممتلئ ، كما أنهم مولعون بتحقير المستضعف المنكوب ، والمهزوم المغلوب على أمره . . . تراهم مع القوى الغالب يجسمون حسناته ، ويسوغون سيئاته ، وقد يفترون له الأمجاد ، ويوسعون له دائرة الثناء والإطراء ، وينسون أو يتناسون من يكون هناك من أشخاص عاونوه على بلوغ غايته ونيل أمنيته ؛ وتراهم مع المستضعف المغلوب ، يسلقونه بألسنة حداد ، فيسرفون فى ذمه ، ويبالغون فى نقده ، ويتناسون سالف عهده أو سابق مجده ، ويكونون هم والزمان عليه ، وقد أشار الشاعر القديم إلى نحو ذلك بقوله :

والناس من يلق خيراً قائلـون له   مـا يشتهى ، ولأم المخطئ الهبل

كما تبسط الشاعر الحديث فى تصوير هذا الخلق اللئيم الذميم حين قال :

ويح لى قـد طلبت عند طباع النا   س مـا عـز عندهم مطلـوبا !
خلـق النـاس للقـوى المـزايا   وتجـنوا عـلى الضعيف الذنوبـا
احتفـوا فى الحـياة والموت بالغا   لب ، فانظر : هل عظموا مغلوباً؟
شيعـوا الشاة جيفة بـــداهم   واتقـوا وهو فى الرمام الذيبا !

وإنما يفعل ذلك أولئك الذين ضعفت شخصياتهم ، فهم يسترون ضآلة ذواتهم بظلال غيرهم ، وهم يحاولون تكميل نقصهم بمجرد حديثهم عن نصر سواهم ، وهم يستجيبون لهواتف اللؤم البشرى والنفاق الرخيص والجشع فى طلب المنفعة العاجلة والمصلحة الفردية ؛ وهذا يذكر بموقفهم من الغنى والفقير ، فهم يجعلون سيئات الغنى القادر حسنات ، فإن كان بخيلا وصفوه بالحكمة فى الإنفاق ، وإن كان ظالماً متجبراً وصفوه بالحزم والعزم ، وإن كان جباناً وصفوه بالتعقل والرزانة ، وهكذا . . . وأما الفقير فياطول

ويله منهم ! . . إنهم يقلبون له حسناته إلى سيئات ، فإذا كان كريماً قالوا عنه : مبذر مسرف ، وإن كان شجاعاً قالوا عنه : مندفع متهور ، وإن كان مقتصداً قالوا : بخيل شحيح ، وهكذا . . . ومن هنا رأينا العامة تسير فى ركاب الأغنياء القادرين المسيطرين ، وتذل لهم وتنافقهم ، ولو أن هؤلاء الأغنياء الأقوياء أصبحوا فقراء ضعفاء لما وجدوا من هؤلاء المتابعين المتملقين قليلا ولا كثيراً ، لأن اللئام دائماً ظل لمن غلب ، وتبع لمن قدر ، وعبيد لمن ملك وسيطر ، وأعداء بالحق وبالباطل لمن خانه الحظ ، أو دارت عليه الدائرة ؛ وما أكثر الغبن والظلم الذى وقع خلال عصور التاريخ بسبب هذا الاعوجاج فى الحكم والاختلال فى التقدير . . .

ما أكثر الذين غلبوا وانتصروا فى عصور التاريخ ولكن الهزيمة أشرف من غلبهم وانتصارهم ، وما أكثر الذين انهزموا ولكنهم كانوا فى هزيمتهم أبطالا شرفاء ، لم يتنكروا للحق ، ولم يعتدوا على الحرمات ، ولم يلوثوا تاريخهم بالفظائع أو المنكرات ؛ وهنا قد يكون المغلوب المقهور أولى بالتمجيد والتكريم من الغالب الواصل ، بل ربما كان المقهور المغلوب هو الذى مهد الطريق وعبد السبيل لمن جاء بعده فازدهى بالنصر وافتخر ، وقال : يا أيها الناس إنى وإنى . . .

وفى التاريخ كثيرون جاهدوا وصبروا وذهبوا قبل أن يقطفوا ثمر الجهاد، وقبل أن يأخذوا حظهم من التكريم والتخليد ، وجاء بعدهم من قطف الثمر فى سهولة ويسر ، وتوالت عليه فى الوقت نفسه عقود التكريم والتمجيد ، وتتابعت نحوه أوسمة الفخار والازدهاء ؛ وكم من قادة فاتحين وصلوا إلى قمة الفوز ولبسوا تيجان النصر ، وبلغوا ما بلغوه على أكتاف مناضلين سابقين ، أو على جماجم جنود وشهداء ، ضحوا بدمائهم وأرواحهم ، وبذلوا الغالى النفيس من ذخائرهم وحياتهم ، فى غير صخب ولا ضوضاء ، ومهدوا

الطريق للفوز والغلبة ، ثم ذهبوا فى ذمة التاريخ ، لا يذكرهم ذاكر ، ولا يعنى بهم مؤرخ ، ولولا هذه الضحايا الغالية الكريمة لما استطاع أولئك الفاتحون أن يحققوا فوزاً وانتصاراً ؛ وقد أراد فريق من الناس أن يخففوا من طغيان هذا الجور فى الحكم ، وهذا الاعوجاج فى المعاملة ، فابتدعوا فكرة « قبر الجندى المجهول » ، ليكون رمزاً لتكريم المجاهدين الذين ذهبوا شهداء مجهولين ، ولكن الفكرة بقيت رمزاً معنوياً فحسب ، والرموز المعنوية وحدها لا تعنى كثيراً فى دنيا الحس والواقع . . .

والإسلام المنصف العادل يعلمنا أن نعرف الحق لأهله مهما كانوا ، وأن نذكر الفضل لأصحابه أينما ذهبوا ، وأن لا نفترى كذباً على مستضعف أو مغلوب ، وأن لا ندعى محمدة غير موجودة لقوى أو غالب ، بل نرى الإسلام يمجد الفقراء قبل الأغنياء ، فيقول الرسول : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء » ويقول : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » ويقول : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » . والله عز وجل يقف على جانب المستضعفين لينصرهم ويمجدهم فيقول : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ، ويقول : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ؛ ويستمع الله إلى المغلوب ويستجيب له فيقول عن نوح : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء مع أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » والله قد ضمن الثواب لمن غلب فى سبيله أو غلب : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ، ويقول :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا أن ربكم جل جلاله يقول فى قرآنه عن الإنسان : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأن تسجيل ربكم لأعمال الإنسان وأقواله تسجيل دقيق لا يخطئ ولا يسهو : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ؛ فنزهوا أنفسكم وألسنتكم أن تقول بغير حق ، أو تتهم بغير برهان ، أو تفترى الكذب على الله أو على الناس ، واحرصوا على الكرامة لأشخاصكم ، فلا تكونوا إمعات تتابع الريح وتتجه معها أينما سارت ، بل كونوا موازين للحق والعدل فى هذه الحياة ، وابذلوا جهدكم لإرضاء ربكم وإصلاح حالكم والنتائج بعد ذلك بيده ، وعلى المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح ؛

بين الراعى والرعية

الحمد لله عز وجل ، له الأمر ، ومنه الخير : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . أشهد أن لا إله إلا الله ، تقدست أسماؤه ، وتباركت آلاؤه : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعز نفسه بالخضوع لربه ، وأعلى مكانته بالتواضع لجلال خالقه ، وخلد ذكره بالمجاهدة لإسعاد خلقه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المعتزين ببارئهم ، وأصحابه السابقين إلى تأييد مبادئهم ، وأتباعه المتحدين فى ظل لوائهم : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا العصر الحاضر من حياة الإنسانية المجاهدة يبشر بخلاصها مما قاسته فى عهود مظلمة سوداء من بغى الباغين وتجبر المتجبرين وعسف الطواغيت ؛ ويبشر بعودة كريمة إلى حكم الشعوب نفسها بنفسها ، وتصريف الأمم لشئونها وأمورها بوحى من إرادتها ودافع من رغبتها وضابط من رأيها العام ، دون أن تساق سوق الشياه ، أو تذل فيها الجباه ؛ وقد صدق شاعرنا حين هتف :

زمان الفــرد يا فرعون ولى ... ودالت دولة المتجبرينــــا

وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حــكم الرعية نازلينــا

والإسلام الحنيف تقتضى أصوله كما تقضى طبيعة الحياة أن يكون لكل جماعة مهما صغرت أو كبرت راع يرعاها وقائد يقودها ، بمحض اختيارها

وكريم رغبتها ، وفى حدود مصالحها ومنافعها ، فالأسرة يرعاها الزوج ، والإقليم يرعاه الوالى أو الحاكم ، والأمة يرعاها خليفتها وولى أمرها ، والرسول صلوات الله عليه يقول : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ، ومن هديه انه إذا كان هنالك ثلاثة فعليهم أن يختاروا أحدهم ليؤمهم ويتولى شئونهم ، فهو منهم وبهم ولهم وفى خدمتهم ؛ وهذا الإمام الراعى لا يشترط فيه نسب أو حسب ، ولا شرف أو جنس ، ولا جاه أو غنى ، بل يشترط فيه الصلاح والقدرة على الإصلاح والعدالة والاهتداء بهدى الله والخضوع لأمره ، كما يشترط فيه رضا الناس به واجتماعهم عليه ، والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ، ويقول : « أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

ولقد قيل إن إرادة الشعوب من إرادة الله ؛ وهذا قول يطابق الحقيقة والواقع ، لأن الشعوب الواعية الرشيدة ، المؤمنة بربها ، المقبلة عليه ، الواثقة بعدله وفضله ، لا تضل ولا تميل ، ورأيها العام يلتقى على الدوام حول الخير والحق والقسطاس ، وقد يوجد فيها أفراد يضلون أو ينحرفون ، ولكن الأمة ترد هؤلاء إلى الصراط بالتهذيب أو التأديب ، فتعيد الشارد إلى صوابه ، والضال إلى هداه ، والمتغالى إلى اعتداله ، لأنها أمة متكافلة متضامنة ، تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، وأهلها هم السعداء : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ومن هنا قال رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام : « يد الله مع الجماعة » وأخبرنا بأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، وجاء فى الأثر إن لله عباداً إذا أرادوا أراد ؛ وهذا هو القرآن المجيد يخبرنا أن أيدى الجماعة المؤمنة إذا تلاقت على يقين

وصدق باركتها يد الله وعلتها وزكتها : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

ولقد كان الملوك الجبابرة بالأمس يصنعون شعوبهم ، ويجمعون الناس حولهم بالحديد والنار ، وبالرغب والرهب ؛ وأما اليوم فى الدنيا الرشيدة المبصرة فإن الشعوب هى التى تصنع قادتها وتختار حكامها ، ولقد كان يقال : إن الناس على دين ملوكهم ، ولكن الحق أن يقال إن الراعى رمز لرعيته وصورة منها ، وكما تكونون يولى عليكم ، وإذا كانت أسمى النظريات الاجتماعية اليوم تقول إن الأمة هى مصدر السلطات وإن حصن الحاكم الوحيد هو ثقة الشعب ورضاه ، فقد شرع الإسلام ذلك منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، حين قرر أن ولاية الناس ليست كسروية أو قيصرية أو وراثة أو إرغام ، وإنما هى بيعة واستخلاف ، المرجع الأول والأخير فيها إلى الأمة المؤمنة واختيارها ورضاها ، ولذلك هى تطيع إمامها ما استقام لها ، فإن مال وجار ، أو غير وبدل ، راجعته وحاسبته والدين يسر ، والخلافة بيعة ؛ وهذا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يخطب فى المسلمين أول عهده فيقول : إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى . فينهض رجل من بين الجمع ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ياعمر . فلا يغضب عمر ولا يثور ، بل يقول : الحمد لله الذى أوجد فى الأمة من يقوم اعوجاج عمر بالسيف ! . . . ولقد قال أحد المسلمين لعمر : اتق الله فى الناس يا عمر ؛ وكأنما غضب من ذلك بعض المحبين لعمر فقال عمر : ويل لكم إن لم تقولوها ، وويل لنا إذا لم نسمعها ! . . . وما أحكم عمر حين قال ما قال ، فإن حاجة الإمام إلى الناصح الأمين والمذكر الحكيم يجب أن تسبق وتعلو على كلمة الملق والرياء ؛ وقد انتفع بهذه الحكمة أحد

الحكام المتأخرين حين عزل عضواً من أعضاء حكومته وكتب فى أسباب عزله يقول : « إنه كان يتملقنى دائماً ، ولا يعارضنى أبداً » ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أتريدون الحق الصراح ؟ . . إنه لم يبق فى الدنيا المؤمنة مجال لحكام آثمين يتجبرون فى الأرض بغير الحق ، يسومون الخلائق سوء العذاب ، ويمتصون دماء العباد ، ويعيثون بالفساد ، ويطغون فى البلاد ، ويكنزون الذهب والفضة ، ويتقلبون فى الملذات والشهوات ، بينما لا تجد الملايين ما تسد بها رمقها . . وترى هؤلاء الحكام الفاسقين يخرجون على إجماع أمتهم وإرادة شعوبهم ، فيوالون أعداء الله وأعداء الإسلام ، ويمزقون الوحدة التى اعتزت بها أمة محمد وسعدت ، ولا هم لهم من وراء ذلك إلا أن يعيثوا فى الأرض فساداً ، ويحققوا لأنفسهم ما يشتهون من ملذات ورغبات .

لم يبق فى الدنيا المكافحة مكان لجبابرة يتألهون على الناس ، ويستعبدونهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . . ولم يبق فى الدنيا العادلة مقام لطواغيت يستمتعون بما حرم الله وما لم يحرم ، بينما تعيش الملايين فى جدب وحرمان . . . إنما البقاء فى الدنيا لرعاة يتعبون ليستريح الناس ، ويسهرون حين ينام الناس ، ويتذكرون دائماً أنهم حين صاروا رعاة قد أصبحوا مسئولين عن كل فرد من هؤلاء الناس . وبمثل هؤلاء الرعاة تسعد الحياة ، وتعز الجباه ، ويتحقق النصر من الله : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

نحو مجتمع افضل

الحمد لله عز وجل ، حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فكان بعباده الرءوف الرحيم . وأشهد أن لا إله إلا الله ، يمحق الباطل بسلطانه ، ويحق الحق بكلماته ، وهو الولى الحميد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طهر النفوس من طغيانها ، وأعزها بيقينها وإيمانها ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والثابتين على هديه وطريقته « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حينما قال الأثر الإسلامى الحكيم : « إن الله ليزع بالقرآن مالا يزع بالقرآن » أراد أن السلطان فى المجتمع المؤمن يستطيع بما هيأ الله أمامه من أسباب ، وبما أعطاه من مكانة وقدرة ، أن يقوم بكثير من الإصلاح المثمر ، وأن ينفذ الكثير من آراء الخير وأفكار الحق ، لأن المبادئ العظيمة الكريمة تؤثر آثارها وتعطى ثمارها حينما تسندها القوة ويؤيدها السلطان ، ولقد سررت سروراً كبيراً حينما سمعت رئيس الجمهورية فى المؤتمر الوطنى يتحدث أول أمس عن الصفات التى تلزم لعضو الاتحاد الاشتراكى العربى ، فذكر منها أنه يجب ألا يكون سكيراً ولا مرابياً ؛ وقال فيما قال : « إننا نريد تنظيماً مبنياً على الإيمان الكامل والوعى الكامل ، وهناك شخص يحترق قلبه على بلده وعلى المبادئ التى تعز وطنه ، فهو يعطى المثل الطيب للمواطن الصالح ، فهذا هو العضو السليم ، وهناك شخص يشرب الخمر ، وقد يظل مخموراً طول الليل وطول النهار ، فكيف يدخل مثل هذا فى الاتحاد الاشتراكى العربى مع أنه منحرف ويفسد الشخص السليم ، وليس لهذا السكران إلا أن يقول:

إنه جدع وإنه يستطيع أن يقف أمام الناس كلهم ، مع أنه أفسد الأمثلة الموجودة ، فكيف نضع هذا السكران مع الرجل الذى يعد قدوة طيبة؟ إننا لو قبلنا مثل هذا فى الاتحاد لقلب لنا كل الأعضاء إلى سكيرين وشاربين للخمور » . ثم قال : « وهناك شخص يقرض غيره بالربا ، ويعلم الناس عنه أنه يتعامل بالربا ، فكيف آخذ مثل هذا المرابى وأضعه فى الاتحاد الاشتراكى؟ إنه إن دخل فسينقض الميثاق من الأساس . . . إن واجب العضو فى الاتحاد ألا يكون مرابياً ولا سكيراً ، وألا تكون فيه نقيصة من النقائص » .

هذا كلام له قيمته وله تأثيره ، ومن الواجب أن يظل التفكير فيه والتدبر له ، إذ هو يتحدث عن آفتين خبيثتين ومرضين خطيرين من أمراض المجتمع ؛ فإن الخمر مصدر البلايا : تهلك المال فى الإثم ، وتقتل العقل والفهم ، وتقضى على الرجولية والنخوة ، وتحطم الأخلاق والهمم ، وتجعل الإنسان حيواناً يصفع فلا يتألم ، ويبول على نفسه فلا يحس ، وتنتهك حرماته فلا يثور ؛ ولذلك شن الإسلام عليها حرباً لا هوادة فيها . وإذا كان الإسلام قد سلك فى القضاء عليها مسلك التدرج فلأن الخمر كانت سائدة ومتحكمة ، ومع ذلك جاء القرآن فحسم الأمر وقطع بالحكم : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » ؟ . وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام فصور لنا الخمر على أنها أم الخبائث ومصدر النكبات ، وقال فيما قال : « إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قيل : وما طينة الخبال ؟ . قال : صديد أهل النار » . وقال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها . وعاصرها ومعتصرها . وحاملها والمحمولة إليه » . ولقد قيـــل لعدى بن حاتم :

مالك لا تشرب الخمر ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلى . وقدم بعض الأعراب إلى امرأة قدحاً من الخمر ، وهى لا تعرف أنها خمر ، فلما شربت القدح انتشت ، فقالت لهم : أتشرب نساؤكم من هذا الشراب ؟ قالوا لها : نعم . فقالت لهم : زنين ورب الكعبة ! . . .

وأما الربا فإنه لون شنيع فظيع من ألوان تحكم الأقوياء فى الضعفاء ، واستغلال الأغنياء لحاجة للفقراء ، وحسبنا فى تصور شناعته وفظاعته أن ألأم خلق الله فى الأرض وهم اليهود هم الذين احترفوه وصنفوه ، وأذاعوه وأسرفوا فيه ، ولذلك قال عنهم القرآن الكريم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » ، وجاء كتاب الله بعد هذا محرماً للربا قليله وكثيره فقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . ويقول الرسول صلوات الله الله وسلامه عليه : « إن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط » وقال : « إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل » . ويجب أن نتذكر هنا أنه قد تكررت الإشارة فى مناسبات هامة وعامة إلى خطر المراباة والمربين ، ففى الباب السابع من الميثاق الذى أقره الشعب جاء أنه ينبغى تحرير الفلاح وحمايته من خطر المرابين ، وفى الماضى (١٩٦١) خطب رئيس الجمهورية فأشار إلى خطر الربا وأنه ميراث وخيم وبيل ثقيل خلفه لنا الماضى ، وأن الدولة ستشرع فى تجربة لألغائه ، وهى أن يقرض بنك التسليف الزراعى التعاونى الفلاحين بلا فائدة وبلا ربا ، وأول أمس اشترط رئيس الجمهورية ألا يكون عضو الاتحاد الاشتراكى العربى مرابيا ، ولا شك أن هذا كله يذكرنا بهدى الله تبارك وتعالى الذى يقود إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولا شك أن هذا كله نصر كبير للفضيلة والأخلاق والقيم الدينية السامية . لأن الذى

يقول هذا ليس فرداً عادياً ، وإنما يقوله رئيس دولة وقائد أمة ، وإذا كانت الدعوة إلى محاربة الخمر والربا قد تكررت عشرات المرات داخل المساجد وفي أماكن الوعظ والإرشاد ، فقد كان الذين يستمعون إليها قلة ، وكانت هذه القلة بعيدة عن الخمر والربا ، لأنها الفئة التى ترتاد المساجد وتعبد الله وتخافه ، فهى لا تألف السكر ولا المراباة ، ولكن هذا الصوت الكبير حينما انطلق منددا بالخمر والربا ، سمعه الناس فى كل مكان ، وفى داخل الوطن وخارجه ، وقد آن الأوان للذين يتعاطون المسكرات أن يقلعوا عنها حتى لا يحرمهم الوطن صفة المواطن الشريف ، وقد آن الأوان للذين يرابون ويمتصون دماء الناس أن يتوبوا إلى الله ويتركوا ماهم فيه من غى وضلال ، حتى ينالوا نعمة المشاركة فى خدمة هذا الوطن العزيز .

وعما قريب تفتح أبواب الانتساب إلى الاتحاد الاشتراكى الذى يجب أن يكون إطاراً يضم الشعب الصالح كله ، فعلى كل فرد فى هذا الوطن أن يسائل نفسه عن مدى صلاحيته للانضمام إليه والمشاركة فيه والقيام برسالته ، وعلى كل مخمور أن يطهر نفسه من دنس الخمر وخبث المسكر ، حتى لايقال له يومئذ : تنح بعيداً أيها القذر حتى لا تلوث غيرك من الأخيار والأطهار ، وحتى لا تقلب المكان النظيف المعمور إلى ماخور ؛ وعلى كل مراب أن يترك ما هو فيه من إثم ورذيلة ، وأن يتطهر من أوساخ الربا ، حتى يحيا إنساناً له حقوق الإنسانية الكريمة وحتى لا يصرخ فى وجهه مواطنوه الشرفاء قائلين : أغرب عن وجهنا أيها اللص الماكر الذى سلب الحقوق وامتص العروق ، وعلينا جميعاً أن نحسن الانتفاع بهذا التوجيه المصلح ليكون فى ذلك تأييد لديننا وإعزاز لوطننا : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يروى أنه حينما رجع الرسول مع أصحابه من إحدى الغزوات قال لهم :

رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس ، ونحن مقبلون على مهمة كبرى ، هى بناء الوطن وتعمير المجتمع بصالح العمل ، ولابد لإنجاح هذه المهمة من نفوس طاهرة وقلوب عامرة بالإيمان ، وأيد نظيفة تتلاقى على أسمى المبادئ والقيم ، والله ولى الصالحين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

بين الرئيس والمرءوس

لله الحمد ، هو وحده المنزه عن الخطأ والنسيان ؛ وهو الذى « خلق الإنسان علمه البيان » سبحانه ألف بين قلوب المسلمين فأصبحوا بنعمته إخواناً ، ونزع ما فى قلوبهم من غل فصاروا أحبة وخلانا ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، وسويت بينهم فلا عبيد ولا أرباب : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من اصطنع الرجال وأبرز الأبطال ؛ وأصدق من حارب الاستبداد وآخى بين العباد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته الناضرة ؛ وفرسان صحابته أولى العزمات الباهرة ، وأتباعه الثابتين على شريعته الظاهرة الزاهرة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من العيوب الشنيعة الفظيعة ، التى تهدم البنيان وتحطم الكيان ، أن أكثر المترئسين فى نواحى الحياة المختلفة ؛ يعتبرون الرياسة مغنما يفيض بالرغبات ، وسلماً يؤدي إلى التجبر والإعنات ، فما يكاد الواحد منهم يتسلم مقاليد السلطة ، ولو فى دائرة محددة ، أو مجال صغير ضيق ، حتى يستنسر وقد كان بالأمس بغاثاً ضعيفاً ، وحتى يستأسد وقد كان من قبل ثعلباً هزيلا ، فلا هم له إلا أن يظهَر سلطانه ويبدى عنفوانه . تارة يطغى ويتجبر ، وتارة يتحكم ويتسيطر ، وتارة يصيح برعونة فيمن حوله ليسمعوا ، ويسمع الجيران وجيران والجيران إن استطاع . فيقول : أنا الآمر هنا فلا تأخر ولا عصيان ، وأنا الناهى فلا مخالفة ولا نكران . . . ويحاول بكل ما أوتى من وسائل

مشروعة أو ممنوعة أن يركز السلطة كلها فى يده ، فلا معقب عليه فى حكمه ، ولا شريك له فى أمره ، وكأنه يشعر بما يسمونه « مركب النقص » فى نفسه ، فهو يستره ويداريه ، أو يحاول خداع الناس عنه بالاغترار والاستكبار . .

وإنك لتنظر إلى المرءوس الذى توقعه حظوظه السود تحت رياسة هؤلاء ؛ فتراه أمامهم آلة صماء ، ليس لها من الأمر شيء ، وليس لها عند التصرف حساب أو ميزان ، بل عليها أن تدور وتعمل حينما يطلب منها ذلك ، وعليها أن تقف بسرعة وتصمت صمت الجماد أو صمت القبور حينما يطلب منها ذلك ، فالمسكين لا يختار ولا يتصرف ، ولا يستخدم عقله أو مواهبه ، ولا يعمل عملا إلا بإذن من الرئيس السيد المهيب ؛ فهو ينهض بإذن ، ويجلس بإذن ، ويوقع على الأوراق بإذن ؛ ويضع الورقة العادية فى « الملف » المألوف بإذن ، وهو أيضاً قد يذهب إلى دورة المياه بإذن ، وهكذا . . .

ولا يحسبن ظان أن فى القول مبالغة أو ادعاء ، فإن كثيراً من الأرجاء فى الحياة تضم أصنافاً من الضحايا المرءوسين الذين لا شخصية لهم ولا كرامة ، كما تضم ألواناً من الرؤساء المهازيل أو المعاليل الذين يريدون دائماً أن يكونوا جبابرة تطاع أوامرهم مهما كان سخفها أو ضعفها بلا مناقشة أو جدال ، ومن حدثته نفسه بأن يراجع أو يلاحظ فهو المصاب المنكوب بلا رحمة أو إبقاء وكثيراً ما يتلقى المرءوس من رئيسه أمراً ، والمرءوس يعلم أنه فساد أو ضلال ، ولكنه يوافق ويؤيد ويسارع إلى التنفيذ ، وربما أمر الرئيس بعد ذلك بنقيض ما طبق فلا يرى المرءوس بأساً فى أن يساير « تطور » رئيسه فيوافق أيضاً ويسارع إلى التنفيذ . . . وقد تمر على المرءوس مسألة تحتاج إلى التصرف فيها ؛ فيلجأ إلى رئيسه المهيب مستفتياً ومتلقياً منه الوحى والإلهام ، فيأمره الرئيس فى المسألة بما يرى ، ويفتيه بالقاعدة التى يجب أن

تكون ، وبعد ذلك بقليل أوَ طويل تمر نفس المسألة ، فإن حدثت المرءوس نفسه بأن يطبق عليها ما تلقاه من قاعدة سابقة ، غضب الرئيس وثار ، وصرخ : أنا هنا الرئيس فكيف لا أستشار ؟ وإذن فلا بد من الإذن فى الصغيرة والكبيرة ، والجديد والقديم ، والمألوف وغير المألوف ، كأن طلب الإذن من الرئيس أمر تعبدى لابد منه دون أن يسأل عن علته ولا عن حكمته ، ومن هنا تتعطل مصالح وتضيع منافع ، وتتجمع السلطة كلها فى يد الرئيس « المبجل » وهو محدود العزم والوقت ، مشغول بألف موضوع وموضوع ، فلا هو بقادر على تنفيذ الجميع فى الموعد المضبوط والوقت المناسب ، ولا هو يتيح لمن حوله أن يتصرفوا وينفذوا ؛ ليتعودوا تحمل التبعات والنهوض بالمسئوليات ، ويقضوا للناس مصالحهم بلا تعطيل أو تأجيل . . . وإذا ضعفت النفوس وضلت الأفهام ، ثم استبدت الرءوس وضاعت الأحلام ، فانفض يديك وقل : على المجتمع السلام ! . . .

ما هكذا الإسلام يا بنى آدم ، وما ذلك بطريق الرجال أيها الأفزام ، وما يرتضى العقل أبداً أن يكون الرئيس هو كل شىء ، وأن يكون من حوله لا شىء ، أو أن يظن الرئيس أن تحكمه وتسيطره واستبداده هو دلالة قوية على عظمته ، أو أن يفنى المرءوس فى شخص رئيسه متوهماً أن ذلك طاعة أو إخلاص. . . وما يجوز فى شرعة العدل والإنصاف أن يبسط شخص محدود القوة والمجهـــود سلطانه على كل أمر كأنه مفتاح كل باب وحلال كل مشكلة ، أو كأنه من صنف لا يلحقه التعب ولا العيب ، بينما تتقلص شخصية امرىء آخر بجواره حتى يصبح صفراً من الأصفار ، بل يصبح ذيلا من الذيول ، أو عصا يلعب بها سواه بحق أو بغير حق ... لا .. لا أيها الناس .. لقد خلقكم ربكم أحراراً ، وبرأكم غير مستعبدين لا فى الديار ولا فى الأفكار ولا فى الأبدان ، ووهب كلا منكم عقلا وطاقة ، وفتح أمامكم أبواب الترقى

والاستعلاء ، وجعلكم من أب واحد وأم واحدة ، ولم يفرق فى الحقوق الإنسانية بين خادم ومخدوم ، ولا بين رئيس ومرءوس ، وجعل سيد القوم خادمهم ، وعبر عن وحدة الأصل البشرى ، مع وجوب الالتجاء إلى الله سبحانه ، واتقائه وحده ، وخشيته وحده ، والخوف منه وحده ، فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » ... وأمر نبيه المختار المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ألا يستبد بالأمر ، فقال له : « وشاورهم فى الأمر » . . . ومعنى هذا أن يجعل الرسول الكريم لكل فرد حقه فى إبداء الرأى وإجالة النظر ، حتى يشعر المسلم بأنه يحيا فى أمة تحترم وجوده وتعتبر رأيه وتشركه فى تدبير الأمور ، ولقد حرص سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه على أن يجعل صحابته وأتباعه أشخاصاً أحياء ، يفكرون ويستفسرون ويعترضون ويتحركون ولم يتخذهم فى يده آلات صماء ، أو أسلحة له خرساء ، فكان أولا يعرض الأمور عليهم ؛ ويشاورهم فيها ؛ ويجعل نفسه كأحدهم ، ويبدى رأيه فيما لا تشريع فيه من السماء كما يبدى أى فرد منهم ، وأحياناً كثيرة يختار رأيهم ويترك رأيه ، وكم من مواقف استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى آراء كبار أو صغار من المسلمين فرأى صوابها فعجل بتنفيذها دون نظر إلى أى اعتبار آخر ، وفى مشاورات الغزوات ومواقفها دلائل مستفيضة يطول فيها البيان ، وكذلك رأينا كيف بارك الرسول النبيل صلى الله عليه وسلم بتقديره جهود الشباب من صحابته فاستمع منهم واستجاب لهم ، وربى شخصياتهم وفسح المجال لنبوغهم وتصرفاتهم ، وأعطاهم الفرص التى يظهرون فيها مقدرتهم ومجهودهم ، ووكل إليهم جلائل الأعمال وعظائم الأمور ، مما يدلنا على أنه كان لا يريد الاستئثار بالأمر لنفسه ، ولا يريد السلطة لذاته ، ولا يريد

أن يتباهى برياسته أو يتجبر فى قيادته ؛ بل كان يريد أن يجعل كلا منهم صالحاً للقيادة والرياسة ، إذا انفرد بأمر نهض به نهوض الكملة من الرجال ؛ وكأنما أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى قوله الوجيز البليغ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .
وحسبنا من الأدلة على احترام الرسول صلى الله عليه وسلم لآراء صحابته وإظهاره لشخصياتهم ورضاه بمعارضاتهم أن نتذكر الحديث المشهور الذى يقول إن الرسول صلوات الله عليه كان جالساً مع بعض صحابته يوماً ، ثم قام عنهم وغاب فأقلقهم غيابه ، فبعثوا أبا هريرة ليسأل عنه ، فسر الرسول من إخلاص صحابته وحبهم له ، فقال لأبى هريرة : « اذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط « البستان » يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه دخل الجنة » ورجع أبو هريرة ، فلقيه عمر أول من لقيه ، من الذين كانوا جالسين فبشره أبو هريرة ، فضربه عمر فى صدره ؛ فتأثر أبو هريرة ورجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باكياً ، وأخبره الخبر وعمر وراءه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما حملك على ما فعلت يا عمر ؟ . قال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أبعثت أبا هريرة بكذا وكذا ؟ . قال النبى : نعم . فقال عمر : فلا تفعل يا رسول الله ، فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون . فأجاب الرسول : فخلهم يعملون يا عمر ! .

ولقد أثمرت تلك التربية الاستقلالية العالية أينع ثمارها ، وأخرجت أبهى أزهارها ، أخرجت لنا أبناء المدرسة المحمدية الأولى الذين يرتفعون حتى يمسوا الثريا علاء ومجداً ، ثم توضع فى أيديهم مقاليد الأمور فلا يستبدون بها ، ولا يرونها تشريفاً بل يعدونها تكليفاً ، ويؤمنون بأنهم محاسبون أمام الله وأمام الناس على الفتيل والقطمير ، وأنهم لا يطاعون الطاعة العمياء ، بل يطاعون عن يقين وضياء ، وفيما هو حق ومشروع ، لأن قانون محمد صلى الله

عليه وسلم يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . . . ولذلك كانوا لا يضيقون بمناقشة أو معارضة ، ولا يفرون من حساب أو مراجعة ، ولا يدعون لأنفسهم كل شيء ، ولا يلزمون رعاياهم بأن يرجعوا إليهم فى كل شيء ، بل يبيحون لهم أن يتصرفوا بأنفسهم فى حدود سلطتهم ، ومن أمثلة هذا أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان يكره أن يرجع إليه عماله فى كل صغيرة وكبيرة فهو يكتب مثلا إلى أحد عماله يقول :

« إنه يخيل لى أنى لو كتبت لك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إلى : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بإحداهما لكتبت إلى : أصغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبت إليك بإحداهما لكتبت : أضائنة أم معزى ؟ . فإذا كتبت إليك فنفذ ولا ترد على ، والسلام » .

وكتب إلى عامله على اليمن : « أما بعد ، فإنى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم وتراجعنى ، وأنت تعرف بعد مسافة ما بينى وبينك ، أو لا تعرف أخذات الموت ، حتى لو كتبت إليك : أردد على مسلم مظلمة ، لكتبت إلى : أردها عفراء « بيضاء بحمرة » أو سوداء ؟ انظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى » ! . . .

بل كان الولاة الأوائل إذا تصرف أحد رعاياهم تصرفاً جميلا ولو بغير إذن منهم حمدوه وغفروا له ، وسألوا الله أن يؤيده ويعضده ، وهذا على سبيل المثال سعد بن أبى وقاص أول مريق لدم الكفر فى الإسلام ، وأول رام بسهم فى سبيل الله ، وفارس الإسلام المجاب الدعوات ، وخال الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم استجب لسعد إذا دعاك . وقال فيه أيضاً : اللهم سدد سهمه وأجب دعوته . . . هذا سعد ، كان زعيما فى فتح القادسية ، وكان القائد الأعلى للجيش الإسلامى

المظفر ، ولما تهيأ للبدء فى الغزو تسرع القعقاع بن عمرو متشوقاً إلى الحرب فزحف بغير إذن من قائده سعد ، فلما علم بذلك سعد أبان أنه لا يبغى تجبراً أو تكبراً ، وأنه أخلص نفسه وعمله لله وللاسلام فقال : اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذن . . . وكذلك تعجلت قبيلة بجيلة فى الزحف دون إذن منه ، فلم يثر سعد ولم يغضب ، ولم يعتبر أن رياسته قد جرحت ، أو أن كرامته قد أهينت ، بل قال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ...

ويجب أن نلاحظ أن الموقف هنا جليل خطير لأنه يعتبر من المواقف الحربية العسكرية ، ويتعلق بنظام الجيش وطاعة القائد . وذلك أهم بمراحل كثيرة من الأمور العادية فى شئون الحياة ، فماذا يقول أولئك المنشبثون بأذيال الرياسات والذين يتميزون غيظاً إذا رأوا أحداً من أتباعهم لم يقدم لهذه الرياسات فروض الطاعة المطلقة والخضوع الشامل ؟ ! . . .

وهذا عمر الفاروق يثق برعيته فتثق به رعيته ، ويأتمن جنوده على كنوز الأرض وخيرات الفتوح فلا يخونونه فى قليل منها أو كثير ، ويرسلهم باسم الله فى نواحى الأرض فاتحين ، لهم شخصياتهم .ولهم حرياتهم ولهم تصرفاتهم ، فيفتحون ويغنمون ثم لا يختلسون ولا يغتالون ، ويحملون إليه مثلا ذخائر كسرى وكنوزه وجواهره وهى رائعة هائلة مدهشة ، فيقول عمر معجباً : إن الذين أدوا هذا لأمناء . . . ويدرك على رضى الله عنه سبب تلك الأمانة فيقول : يا أمير المؤمنين ، إن القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ! . . .

وهكذا كانت الرياسات بين المسلمين مغرما لا مغنما ؛ وتعباً ونصباً لا زهواً ورتباً ؛ وتعاوناً واستناداً لا تجبراً واستبداداً وبذلك عزت الأفراد وأدت واجبها ، فعزت الأمة وسادت ، ولم تخضع جباهها إلا لله الواحد القهار . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ألا لعنة الله على كل من يدعى لنفسه ما ليس له ، ولعنة الله على كل من يحاول اتخاذ الناس عبيداً له وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولعنة الله على من يخفض رأسه أمام الباطل السافر والمنكر الصريح ليناله رشاش من الذلة والقذارة ، ولعنة الله على كل أمة لا تمكن كل فرد فيها من أن يكون له كيانه ووجدانه ، وحريته وشخصيته ... نريد تعاوناً بين كل رئيس ومرءوس وتبادل احترام بينهما ، ونريد من الرئيس ألا يستبد أو يرغم ، ونريد من المرءوس ألا يذل أويحجم ، ونريد من الفرد لا يقول « أوافق » إلا بعد أن يؤمن ، ونريد من كل امرىء لا يكون ذيلا أو ظلا ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ؛ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

فتية آمنوا بربهم

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو خالق الفطرة ، وملهم الفكرة ، وباعث العبرة ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ، أحمده سبحانه وأشهد ألا إله إلا الله مؤيدالمؤمنين ويثبت الطائعين. «ومن يعمل من الصالحات وهومؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل « استوصوا بالشباب خيراً » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطيبين الطاهرين من آله ، والسابقين إلى الخير والبر من رجاله ، والسائرين على طريقته وحاله ، « فأولئكَ تحروا رشدا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أصدق الذى قال : « لاحياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة » فلولا شعاع الأمل يلوح للانسان من حين إلى حين ، لكان فى عداد الأموات ، وفى وسط الهموم والغموم والعلل التى تلاحق الإنسان ينبثق نور للرجاء يعيد إليه ثقته بأن الخير فى أمة محمد على الدوام ، وأن الحديث النبوى يصور الحقيقة حين يقول : «لاتزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة » فقد نشرت إحدى صحفنا الصباحية منذ أيام أن « السيرك القومى » أقام لتكريم المتفوقين فى شهادتى الابتدائية والإعدادية ، وخاف الطلبة النابغين أن تفوتهم صلاة العصر خلال الحفل ، فجمعوا أنفسهم فى المصلى ، ليصلوا العصر جماعة ، وقد « اضطرت » إدارة الفرقة إلى تأجيل بدء الحفل نصف ساعة ، حتى ينتهى الطلبة الصغار من أداء فريضة الصلاة . قرأت الخبر ففرحت إذ رأيت هذه البراعم الناشئة الطاهرة تحرص على الدين وهى ذات نبوغ وتفوق بين زملائها ، فازددت إيماناً بأن الفطرة السليمة تؤدى إلى الإيمان

واليقين ، وإنما تفسد يد الإنسان هذه الفطرة حين تتدخل فيها بالتضليل أو التبديل ، وصدق العلى الكبير إذ يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وصدق الرسول الكريم إذ يقول : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه » .

وهؤلاء الطلبة ليسوا « طلبة صغاراً » كما أخطأت الجريدة فى الوصف بل هم كبار ، أكبر من أصحاب أجسام عريضة طويلة يعيشون بلادين ولا أخـــلاق ، فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان ، وكم فى الحياة من أناس يصدق عليهم قول القائل : « أجسام البغال وأحلام العصافير » ، وهؤلاء الطلبة الكبار قد علموا الكثيرين من الطوال العراض أن الإنسان السوى لا يهمل حق عقيدته ودينه حتى فى مقام التسلية أو اللهو ، وهم من غير شك يذكروننا بقول الحق جل علاه : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططا » .

ولقد قال الخبر إن الفرقة « اضطرت » إلى تأجيل الحفل نصف ساعة وكلمة « اضطرت » هنا كلمة نابية قد خانها التوفيق ، إذ تدل على أن الفرقة فعلت ذلك مرغمة مضطرة ، مع أن الواجب يقضى بأن نقدم واجب الله الخالق الرازق البارئ المصور على متعة النفس وتفريح القلب ، ونحن مع شديد الأسف قد نضطر فى كثير من الأحيان إلى تأجيل ما هو أهم وأعظم أكثر من نصف الساعة انتظاراً لقادم له شخصية أو مكانته . فليت التأخير عندنا يكون من هذا القبيل الذى سببه أولئك الطلبة النجباء المتدينون لكى يؤدوا الصلاة فريضة الله . ليتكم يا قومنا تؤخروننا ساعات وساعات — لا نصف ساعة فقط — لكى نؤدى واجب ربنا ، فكم من الساعات تضيع وتموت فى

الصغائر والحقائر ، بل فيما يعود بالشر والضر على الأفراد والجماعات :
« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ .

وليتنى أعرف : ما الذى سنفعله لأمثال هؤلاء النابغين الناشئين ، فأخشى ما أخشاه ألا يجدوا التوجه الرشيد فى المرحلة الثانوية من الدراسة ، فيضلوا الطريق ، أويتوهوا بين المسالك والشعاب ، وهذه المرحلة ، مرحلة خطيرة تثور فيها شجون وأفكار ومشاعر فى ذهن الشاب ، ويحتاج معها إلى الرائد الصادق والناصح الأمين . وأخشى ما أخشاه أن تتلقفهم أيدى أصحاب الوجوه الوردية المعروفة علىأبواب الجامعة ، فيقلبوا إيمانهم وتدينهم إلى ريب وشكوك إن لم يكن إلى زندقة والحاد ، ومادام الدليل مفقوداً ، والرائد معدوماً . فليت المسئولين فى مجتمعنا يلفتون أبصارهم وبصائرهم إلى هذا الأمر الجليل الخطير ، بل كتب الأزهر الشريف يحرص على الاتصال بهؤلاء الناشئين الطاهرين كى يواصل توجيهم وإرشادهم ورعايتهم .

وهنا ينبغى أن نتصارح ، فإن الحقيقة المرة هى أننا نعلم الدين فى مدارسنا ، ولكننا مع الأسف العميق لا نربى أبناءنا تربية دينية ، وشتان ما بين التعليم والتربية ، فالتعلم تلقين وحشو للمعلومات فى الأزهان فحسب ، ولكن التربية تهذيب وتأديب ، وتطبيق وممارسة ، وتصرف وسلوك ، ونحن فى مدارسنا مع الأسف العميق نضع لطلابنا كتباً فى الدين ، نسوق فيها جانباً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأحكام الدينية والمعلومات الإسلامية . و كلف الطلاب حفظ ذلك أو تحصيله ، وندرسه لهم بطريقة إلقائية تلقينية . لاحياة فيها ولا روح ، فلا يتأثر التلميذ ولا يقتنع ولا يستجيب ، وليس هناك ربط بين المعلومات الدينية والحياة الاجتماعية . وليس هناك ربط بين الدرس والممارسة ، ولا بين التعليم الدينى وأداء الشعائر الدينية ، وهذا الربط مفقود فى أجهزة الإعلام والتوجيه ، ومن أمثلة ذلك إذاعة أذان الصلاة فى التلفزيون

وهذا من غير شك عمل جميل واتجاه حسن . نقدره ونشكره ، ولكنا نتذكر أن غيرنا فى بعض الدول الإسلامية يذيع الأذان من التلفزيون ثم يتوقف الإرسال بمقدار أداء الصلاة فيكون ذلك حافزاً إلى أن يقوم المشاهد لأداء الصلاة دون أن يفوته ما يعرض ، والأهم من ذلك هو التنسيق بين الأذان وما يسبقه ويلحقه من برامج . فقد يكون من المضحك ، وشر المصائب ما يضحك — أن يسمع الناس كلمات الأذان وقد سبقها أو لحقها ما يدعو إلى طريق الشيطان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله يقول : « استوصوا بالشباب خيراً ، فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فحالفنى الشباب ، وخالفنى الشيوخ : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » . وهذا مثل من أمثلة الخير والصلاح يقدمه إلينا فريق من أبنائنا ليتنا ننتهز الفرصة حتى لا تنقلب غصة ، فنعنى بشبابنا فإن ريح الجنة فى الشباب .

رفقا بابناء الاسلام

الحمد لله عز وجل ، أبدع الكون بقدرته ، وشمل العباد برحمته ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب السلامة والكرامة لمن آمن واستقام ، واحتمى بحصن الإسلام : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالهدى والحكمة ، وبشر بالرفق والرحمة ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته ، وأقطاب صحبته ، وجنود دعوته : « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن مصر كنانة الله فى أرضه ، وهى كما يعبرون قلب العالم الإسلامى وزعيمة المسلمين ، ولها دوى واسع وذكر مرتفع فى المشارق والمغارب ، وأكبر مفاخرها فى الخارج هو هذا الأزهر الشريف الذى ثبت للأحداث والحوادث أكثر من ألف عام ؛ وهذا الأزهر المهجور المنكور المضيع يضم بين طلابه وأبنائه الكثيرين مئات ومئات من أبناء البلاد الإسلامية المختلفة المنتشرة فى شتى بقاع الأرض . وهؤلاء الطلاب يفدون على الأزهر من بلادهم وقد كانوا غالباً فى خشونة وتعبد وجفاف حياة . فلم يعتادوا الفجور أو التحلل أو الإلحاد . وهم يسعون إلى الأزهر بعد أن سمعوا من حديثه وتاريخه ومكانته ما ملأ صدورهم هيبة له وإجلالا . ما جعلهم يتخيلونه كأنه الكعبة الثانية أو قطعة من الجنة ؛ ولكنهم بعد مجيئهم يصطدمون بوسائل الفتنة والإغراء ، يجدونها مبثوثة طاغية عن يمين وشمال فى المسارح

ودور السينما والشواطئ والشوارع وغيرها من الأمكنة والمحالات ، ويجدون حقيقة أمر الأزهر حقيقة مرة مؤلمة ، فليس هو بالصورة الرائعة الخلابة التى تصوروها وحلموا بها ، بل هو كعزيز قوم ذل ، وقد حيل بينه وبين أداء رسالته الكبرى بشتى الوسائل ، ولو أنهم أصلحوه الإصلاح الصادق ، وحفظوا عليه هيبته ومكانته ، ودفعوا به إلى الأمام ، لحفظ عليهم الكثير الضخم من الجهود والمتاعب ، ولحقق لهم الكثير الخطير مما يريدون ومما يرغبون . . .

وهؤلاء الطلاب الأزهريون من أبناء العالم الإسلامى يقضون بيننا مايقضون من أعوام الدراسة وهم يتعرضون لتجارب قاسية ، ويقابلون ابتلاءات عديدة ، وكثير منهم تتغير فكرتهم عن بلادنا وعن أزهرنا بسبب هذه التجارب والابتلاءات ، فيعودوا بغير الوجه الذى أقبلوا به ، ويرجعوا إلى قومهم ليؤثروا فيهم بما تأثروا هم به ، فيكونوا أخطر على سمعتنا فى الخارج من الأشخاص الذين لم يأتوا إلينا ولم يقيموا بيننا . . . وكثير من هؤلاء يتعرضون للضياع الروحى والفكرى خــلال إقامتهم ، إذ لا يجدون المراقبين الدائمين ، ولا المرشدين الموجهين ، ولا الهداة المربين ، الذين يتولونهم بالتهذيب والتقويم خارج نطاق الدراسة الرسمية ، وقد يوجد بين أيديهم المال والفراغ والانفراد ، فيزلون أو ينحرفون ، والغربة الطويلة البعيدة غول مخيف رهيب لابد معه من حصانة ورقابة وتوجيه ، ونحن نعرف شباناً كانوا يعيشون فى بلادهم عيشة الكفاف والجفاف . فلما جاءوا إلينا وصار المال فى أيديهم بذروه بذر السفهاء هنا وهناك ، لا على أبواب المساجد ، ولا فى دور الكتب ، ولا فى دور العلم ، ولا فى مواطن الخير ، بل فى شوارع وأماكن نعف عن ذكرها وذكر ما فيها . . .

وربما اشتغل هؤلاء الطلاب أثناء الموسم الدراسى بدروسهم ومذكراتهم

وامتحاناتهم ، ولكن العطلات الصيفية تقبل عليهم بطولها وفراغها فلا يحسنون استغلالها ولا يجيدون الانتفاع بها ، ولا نقوم نحن بعمل له قيمته ومكانته لتوجيه هؤلاء أثناء تلك العطلات توجيهاً إسلامياً وخلقياً واجتماعياً صالحاً مصلحاً .

إن أهل هؤلاء الطلاب لم يرسلوهم ليتنزهوا ويتفرجوا ، أو ليلهوا ويلعبوا ، أو ليتلفوا وينحرفوا ، أو لتستبد بهم اتجاهات ظنينة أو مذاهب معوجة ، بل أرسلوهم باسم الإسلام ، وباسم الإسلام وحده — ليكونوا متفقهين فى دينهم ، منذرين لقومهم إذا رجعوا إليهم ، فاتحين فى بلادهم بعد عودتهم فتوحاً روحية ودينية واجتماعية تهدى من ضلالة ، وتعلم من جهالة ، وتقوم من عوج ، وترشد من انحراف ، وليكونوا اللبنات الصالحة القوية فى بناء الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية ؛ وأهل هؤلاء الطلاب يبذلون فى سبيل تعليمهم الإسلام ما يبذلون من جهود وأموال ، ويظلون ينتظرون السنوات فى أعقاب السنوات مرتقبين الأيام السعيدة الميمونة التى يعود فيها فلذات أكبادهم ، فينقلونهم من حال إلى حال ؛ فالواجب علينا ألا نخيب آمال هؤلاء الناس ، أولا نفجعهم فى مستقبل أبنائهم الذين يرجون لهم الصلاح ، ويرتجون منهم الإصلاح للأفراد والجماعات .

ولنتذكر جيداً أن هؤلاء الطلاب من أبناء المسلمين هم عصب العالم الإسلامى ، وخلاصة الشبيبة المسلمة الباقية على دينها ، المرجاة فى غدها ، المأمولة فى مستقبلها ؛ وقادتنا ورعاتنا يدركون القيمة الكبرى لهذا العالم الإسلامى ، بما فيه من سكان ومواهب ، وطاقات وخيرات ، وهم يستطيعون أن يحدثوا فى هذا العالم الإسلامى ثورة إصلاحية جوهرية عظمى ، لها آثارها وثمراتها ، عن طريق هؤلاء الطلاب لو أجادوا تنشئتهم وأحسنوا تخريجهم ، وثبتوهم على قواعد الإسلام ، وحصنوهم بأركان الإيمان ، فكل طالب منهم

سيكون المسموع المطاع المجاب فى قومه ، لأنه كان فى مصر أم الدنيا ، ولأنه تعلم فى الأزهر الشريف شيخ الجامعات ، ولأنه يتكلم باسم الإسلام خير العقائد ، ولأنه يدعو إلى طريق الله خير طريق : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ ! . . .

ومن العجيب أننا نسمى هؤلاء الطلاب « بالغرباء » ، وهذا وصف فيه قسوة وجفوة ، وهم إخوتنا فى الله وفى الإسلام ، وإذا كانوا قد اغتربوا فعلا من أجل العلم ، وارتحلوا فى سبيل الثقافة الإسلامية فالواجب أن يشعروا بيننا بأنهم قرباء لا غرباء ، وأنهم قد استبدلوا أهلا بأهل ، وإخوة بإخوة ، وأنهم بين أشقاء لهم أحباء ، يجمعهم الإسلام بأبوته الرحيمة ، ويظللهم التوحيد بكلمته الجامعة : كلمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . . تلك الكلمة التى ألفت بقوتها وحكمتها ونورها حواجز العصبيات والجنسيات وفروق الدماء والألوان ، وصهرت الناس فى بوتقة واحدة ؛ هى بوتقة العبودية لله جل جلاله ، والأخوة فى الله رحمن الدنيا والآخرة : « وكونوا عباد الله إخوانا » .

ولكن أين نحن من هذه البوتقة ؟ وماذا قدمنا فى سبيل هؤلاء الراحلين من أجل الإسلام ؟ وكم شخصاً نعرف منهم أو نتودد إليهم أو نعاون فى توجيههم وإرشادهم ؟ . هل منكم من يجلسون إلى هؤلاء الطلاب متحدثين أو مستمعين أو متباحثين ليزداد الجميع فى الله حباً ، وعلى الإسلام تآلفاً ؟ .

إن من الواجب على كل مسلم فى هذه الديار أن يوثق صلاته وروابطه بأكبر عدد ممكن من هؤلاء الطلاب المسلمين المغتربين فى سبيل العلم والثقافة . فهذا هو طريق التكتل والوحدة الذى يعلو به الإسلام وتعز به كلمة المسلمين ؛ ومن واجبنا جميعاً رعاة ورعايا أن نبذل أوسع ما نستطيع لرعاية هؤلاء

وتخريجهم تخريجاً إسلامياً قويماً ، لأننا نقول عن أنفسنا إننا قادة المسلمين وزعماء أبناء الإسلام ، وتلك دعوى واسعة تلزمها تبعات عريضة ، فإذا كنا نريد الاستمساك بها والاستحقاق لها ، وجب علينا أن ندفع ثمنها حرصاً على الدين وأهله ، وعناية بالإسلام وسهراً على مصالح المسلمين ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لسنا ننكر أن بين هؤلاء الطلاب نماذج طيبة صالحة ، ولكن مجموعهم فى حاجة إلى عناية ورعاية وتوجيه ، ومنهم عدد كبير يطويهم البؤس والشقاء عن الأنظار ، وأغلب هؤلاء قد جاءوا من البلاد التى أوذيت فى حرياتها وأرزاقها كفلسطين والجزائر وبعض أنحاء أفريقيا ، وهم بحاجة إلى المعونة والمساعدة ، فلنبذل لهؤلاء ما نستطيع ، ليبذل من استطاع علماً وتوجيهاً ، وليبذل الذى يملك الجاه عناية ورعاية ، وليبذل من يقدر على المال عوناً ورفدا ، والله لا يضيع أجر العاملين . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

كيف نقضى على الشيوعية

الاسلام كل لايتجزأ

لك الحمد يا أكرم مسئول ، وأفضل مأمول ، كل كثير غيرك قليل ، وكل عزيز سواك ذليل ، سبحانك سبحانك ، لا يضل من هديته ، ولا يفتقر من كفيته ، نشهد أن لا إله إلا أنت الرءوف الرحيم ، لا يذل من والاك ، ولا يعز من عاداك ؛ ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الذى عمل لدنياه كما عمل لأخراه ، والذى جاهد الطاغين المبطلين حتى أنصف الضعفاء المستذلين ، فعليه سلامك وصلاتك ، وتحياتك وبركاتك ، وعلى أغصان دوحته المثمرة ، وجنود دعوته الظافرة ، والمستضيئين بأنوار شريعته الباهرة ، أولئك حزب الله . وحزب الله هم الغالبون ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أحس ولاة الأمور فينا بخطر الشيوعية الداهم ، الذى أخذ يتسرب إلى مجتمعنا ، تسرب الداء الخبيث إلى الجسم العليل الذى خلا من المناعة والمقاومة ، فأخذوا يهاجمون أوكارها وخلاياها ويحاربون أنصارها ورفقاءها ، بما فى أيديهم من سلطة القانون ورهبة العقاب ، ثم رأوا أن هذا لا يكفى ، فأرادوا الاستعانة بالقوة الدينية الغلابة ، لعلمهم أن فطرة الأمة المصرية لا تزال رغم الاحتلال والانحلال فطرة إسلامية فلجأوا إلى الأزهر الشريف وهو حصن الإسلام وبقية معاقل الشريعة ، يطلبون إليه أن يفتيهم بأنه لا شيوعية فى الإسلام . واستجاب الأزهر الرسمى لذلك الطلب ، فسارع بإصدار فتواه التى أوضح فيها أن الإسلام يحترم الملكية الفردية ، وأن لكل امرئ أن

يتخذ من الوسائل المشروعة ما يشاء لاكتساب المال وتنميته حتى يتملك بهذه الوسائل ما يشاء ؛ وهاجمت الفتوى مذهب أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، وقالت إنه لم يعلم أن أحداً من الصحابة قد وافقه عليه ، ووصفته بأنه مذهب غريب بعيد عن مبادئ الإسلام والحق الواضح ! . .

ونحن نسارع فنحمد للأزهر الرسمى هذه الفتوى ، لأن الشيوعية خطر وبلاء وعلة أشر مما نحن فيه من داء ، ونظام لا يرضى عنه الإسلام ، ولا تقبله العقول السليمة أو الأفئدة الطاهرة ؛ ولكننا لن نستطيع القضاء على الشيوعية بهذا القول الذى عالج ناحية وترك نواحى بلا علاج ، وصرح فى جهة ولمح فى جهات ؛ إذ يخيل إلينا أن فساد الحال وشيوع الاختلال وسوء التوزيع فى العقار والأموال هو الذى جعل الجهلاء يتخلصون من عنائهم ولو بالفناء ، شأنهم فى ذلك شأن المريض الذى يضيق بمرضه ، فلا يحاول الصبر عليه أو معالجته ، بل يفكر فى الانتحار وبئس القرار !

لقد قلتم عن الشيوعية أيها السادة القادة إنها إجرام وإلحاد ، وضلال وفساد ، وقد صدقناكم واستجبنا لكم ؛ ولكن قد بقى عليكم أن تقولوا أقوالا أخرى لأناس آخرين ، حتى يكون العلاج تاماً ، والإصلاح شاملا ، فإن منهاج الإسلام كل لا يتجزأ ، وحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها من شدة الإحكام ودقة الصنع ، فلا يجوز فيها التمييز أو التفريق ، وإلا كنا كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون !

قولوا بجوار هذا للأغنياء الأشحاء ما قاله فاطر الأرض والسماء « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ،

يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وقولوا للذين يسطون على حقوق الضعفاء ، ويسلبون الأموال والعقار بوجوه الضلال والحرام ما قاله محمد عليه الصلاة والسلام : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » وقولو اللذين توضع فى أيديهم الأمانات فيضيعونها ، وتوكل إليهم أمور الناس فيفسدونها ، وتسند إليهم رعاية الأيتام والأرامل والعجزة فيأكلون أموالهم أكلا لما ، قولوا لهؤلاء : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا » !

وقولوا للظالمين جميعاً ، سواء أكانوا حكاماً أم أصحاب أموال أو مزارع أو مصانع أو شركات : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » وقولوا للطاغية الذى لا تهمه إلا شهوات حسه ولذائذ نفسه ، وتكتيل المال لشخصه ، ولا يعنيه أسعدت الأمة أم شقيت ، قولوا له :

أيها المالئ كأس النصر مع دمع اليتامى ومغذى النشوة الكبرى بأنات الأيامى فوق أشلاء ضحاياك تبختر وتسامى ! أيها الظالم هل خلت دم الشعب مداماً ؟ وحسبت الناس فى الأرض قطيعا وسواما إن تنم يوماً فعين الله يقظى لن تناما !

وقولوا للذين أعرضوا عن هدى السماء ، وصموا آذانهم عن كريم الدعاء ، وتركوا شرعة الإسلام الوافية الواقية إلى قانون أرضى قاصر ،

إن نظام الظواهر والأشكال عجز عن إصلاح النفوس والرجال ، قولوا لهؤلاء أيها السادة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقولوا لهم : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الواجب على جماعة المسلمين ، وخاصة الولاة والموجهين ، أن يكونوا عقلاء بصراء ، لا يعالجون المشكلة من جهة واحدة ، ولا يخادعون أنفسهم وإخوانهم ، فيكون موقفهم كموقف النعامة حين ترى الصياد مقبلا لاقتناصها ، فتخفى رأسها بين فخذيها ، وتظن المغرورة بذلك أن الصياد لن يراها مادامت هى لا تراه !! أو كموقف المحرف لكتاب الله الذى يقول : « لا تقربوا الصلاة » ويترك : « وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ؛ أو كموقف الذى يعالج الجائع المتهالك بمخدر ينسيه الجوع إلى حين ، ثم يستيقظ فإذا هو مشرف على الهلاك ؟؟ بل يجب أن نصلح أمر الفقراء وأمر الأغنياء فى وقت واحد ؟ .

أيها الناس ، أنتم حيارى والإسلام هو الهادى فسارعوا إليه ، وأنتم مرضى والإسلام هو الدواء فخذوا منه ، وأنتم ضعاف والله هو العلى القادر فاعتمدوا عليه ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

واجب الشباب العربى

لك الحمد يا من علمت الإنسان مالم يعلم ، فوهبته العقل والإدراك ، وهديته إلى أسرار الكون وخفايا الطبيعة ، وشرحت صدره لأنواع العلوم وألوان المعارف ، وأخرجته من الظلمات إلى النور ، سبحانك سبحانك ، نحمدك حمداً كثيراً مباركاً فيه ، ونثنى عليك بما أنت أهله ، ونشهد أن لا إله إلا أنت العليم الخبير ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك الذى لم تمنعه أميته أن يكون سيد الحكماء وتاج الحكماء ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله الذين آتيتهم من فضلك ما جعلتهم به مصابيح الأنام ، وأصحابه الذين حملوا بين الناس ألوية العلم والنور ، ومن دعا بدعوته إلى يوم النشور ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الشباب فى الأمة هم عصب الحياة ، ومحور الدائرة ونقطة الارتكاز ، فإذا أدى الشباب واجبهم سعدت بهم أمتهم ، وتحقق المجد على أيديهم ، وما أكثر الواجبات التى نطالب بها الشباب ونلفت أنظارهم إليها ونحرضهم عليها ، وليس هذا المقام مقام التفصيل والإحصاء ، ولكنه مقام التمثيل والتنبيه ، فمن واجب الشاب العربى أن يحصل فى هذا العصر على أكبر قدر ممكن من العلم والمعرفة والثقافة ، لأننا فى عصر لا تتنافس الأمم فيه بأجسامها أو سعة أراضيها ، أو كثرة أفرادها أو انفساح مداها ، بل نحن فى عصر التنافس بالعقول والأفكار والاختراع والابتكار ، عصر العلم والفكر ، عصر الكتاب والمعهد والمعمل والجامعة ، عصر المذياع والبرق والبارجة والمدرعة والطرادة والغواصة وحالة الطائرات والقنبلة الذرية وتحطيم الذرة ،

وغير ذلك من ثمرات البحث والدرس والاطلاع ، فى عصر الوصول إلى أدق ما فى الكون من أسرار ، فى عصر استخدام الهواء والماء والسماء وجوف الأرض ، فى عصر استخدام الإنسان والحيوان والجماد والنبات والأثير ، وهذا كله لم يتيسر إلا بالعلم والفكر والثقافة التى أخرجت روائع العقل البشرى ، وعبقريات الفكر الإنسانى ، وما من أمة اليوم تستطيع أن تشارك فى الأمور الدولية ، أو تساير ركب الحياة العالمى ، إلا إذا كان لها نصيب موفور من الثقافة والعلم والفن والأدب .

ونظرة واحدة إلى تاريخ بلادك أيها الشاب العربى تدلك على ما أقول ، فهؤلاء هم أجدادك العرب ، كانوا بالأمس البعيد يعيشون فوق رمال الصحراء قبل الإسلام عيشة بدوية ساذجة تافهة لا يدرون بما فى العالم من نظم أو حياة ، ولا يخرجون عن دائرة جزيرتهم الجرداء ، ثم انبعث فيهم ذلك النور القوى الساطع الذى حمل مصباح مشكاته ذلك الداعى الكريم محمد العظيم ، نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وفتح بحفنة معدودة منهم مشارق الأرض ومغاربها ، وحثهم بكل وسيلة وأسلوب على هتك أسرار الكون وبحث كل ناحية من نواحيه ، واستخدام كل قوة فيه ، وحرضهم تحريضاً قوياً على طلب العلم وتحصيـــل المعرفة ، والإحاطة المستطاعة بما فى العالم من نظريات وآراء . . وأخذ سلطان العرب ينبسط وينبسط ، ويمتد ويمتد ، حتى أصبح فى الدولة العباسية ملكاً كملك بنى التاميز فى هذا العصر ، لا تغيب عنه الشمس ولا يحده الخيال ، وجلس الرشيد على عرشه المرموق وتطلع إلى السحابة الغادية ، فخاطبها قائلا : اذهبى حيث شئت أيتها السحابة فسيأتينى خراجك .

وما قامت عظمة هذه الدولة الإسلامية الكبرى إلا على أركان وطيدة من العلم والفكر والثقافة ، ولما سكنت ريح هذه النهضة المباركة تقلص ظل

الدولة ودب الضعف والهوان فى كيانها ، وأخذ المسلمون يتشتتون أذلة كما يتبدد الحلم الجميل ! .

اطلبوا العلم يا شباب ولو كان فى الصين ، وخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، واستنفدوا طاقتكم فى التقرب إلى حياض المعرفة والفكر ، وإذا شئتم سبيل العلم الميسر ، فاقرأوا ثم اقرأوا ثم اقرأوا . . . اقرأوا يا شباب فإن العلم وسيلة القراءة ، اقرأوا متخيرين ما تقرأون ، اقرأوا بشغف ونهم ، وخذوا الأمثال من سابقيكم : فقد أتى الحافظ ابن أبى حاتم مؤلف كتاب « علل الحديث » إلى القاهرة ليتمم تعليمه فمكث فى مصر سبعة أشهر لم يجد هو وأصحابه من الوقت ما يجهزون به لطعامهم مرقاً ، وكانوا يطوفون بالنهار على شيوخهم يتلقون العلم منهم ، وفى الليل ينسخون ويقابلون ! والفيلسوف ابن سينا لم ينم طيلة اشتغاله بالعلم ليلة كاملة ، ولم يشتغل أثناء النهار بسوى المطالعة ، والفيلسوف ابن رشد لم يدع القراءة والكتابة منذ بلغ الحلم إلا ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه على أهله ، وقيل لأبى بكر الخوارزمى عند موته : ما تشتهى ؟ فقال : النظر فى حواشى الكتب ! . .

وروى عن أحد ملوك الهند أنه قال لأولاده وكانوا أربعين : يابنى ، أكثروا من النظر فى الكتب ، وازدادوا فى كل يوم حرفاً ، فإن ثلاثة لا يستوحشون فى غربة : الفقيه العالم ، والبطل الشجاع ، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأى ، وغير ذلك من الأمثال كثير .

اقرأ أيها الشاب ، فإن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هى « اقرأ » فلا تخرج على أول أمر فرضه العليم الخبير ، وما نريد بالقراءة تسلية أو

تزجية فراغ ، ولكنا نريد منكم أن تصلوا عن طريق القراءة المتصلة المفيدة إلى عظمة الخالق وآياته فى الكون وبذلك تزدادون إيماناً ويقيناً ، وتتطهر نفوسكم من أوهام الجهالة وأباطيل الضلال ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

حصنوا الشباب ياشباب

لله الحمد ؛ تبارك اسمه ، وتمت كلمته : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . نشهد أن لا إله إلا أنت ، منك الهداية وحدك : (ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشدا) : وإليك المرجع وحدك : (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، آمن — كما علمته — بأن التقوى خير زاد ، فجعلها فى دعوته الأساس والعماد ، فألان بها الحديد ، وقرب بسلطانها البعيد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وصحبه وحزبه ؛ الذين عصمهم دينهم عن الخنا والفجور ؛ فكانوا كالملائكة يمشون بين الناس هادين مهديين مطمئنين ؛ ومن يعتصم بالله فقدهدى إلى صراط مستقيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

جرت العادة فى بلادنا المنكوبة أن المسئولين عن مصائرها الأخلاقية والاجتماعية لا يتنبهون للضرر إلا بعد استفحال الخطر ، ولا يفتحون عيونهم جيداً إلا بعد خراب الديار ، ولا يبحثون عن العلاج والدواء إلا بعد تحكم العلة وسيطرة الداء ، ولا خير فى الفكرة بعد أوانها ، ولعنة الله على الرأى الدبرى الذى لا يعالج المشكلة فى إبانها ، وسعدت أمة عرفت أن الوقاية خير من العلاج ، وأن الحذر من مواطن الخطر أجدى ألف مرة من محاولة النجاة من الهوة العميقة بعد السقوط فيها : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

هذه هى صيحات الاستنكار والأسف تتعالى حتى من المتحررين والمتهاونين فى أمور الحفاظ والشرف ، منذرة بالويل والثبور من فسق الشبان وفجورهم ، وتعرضهم للفتيات فى الشوارع والميادين ، وتطاولهم على السيدات فى كل مكان ، وتفوههم بألفاظ وقحة بذيئة قذرة ، يعف عن سماعها الرجل فكيف بالمرأة الضعيفة ، أو الفتاة المرهفة ، وإقدامهم فى جرأة جريئة ، وصفاقة صفيقة على ارتكاب جرائم خلقية وعلنية بمرأى ومسمع من الناس ، وفى أماكن لها سمعتها أو حرمتها ، ولكنّ هذه الصيحات مع الأسف جاءت متأخرة جداً ، وبعد خراب مالطة كما يقولون ، وبعد أن استشرى البلاء وعمت النكبة الأرجاء ؛ وطالما سبقتها صيحات من مرشدين مخلصين ، محذرة ومنذرة ، ومنادية بالحيلولة بين المجتمع وبين الشقاء الداهم والداء المهاجم ، فوصفت تلك الصيحات البريئة المخلصة الناصحة ، التى كانت فى الوقت المناسب الملائم ؛ بأنها رجعية وجمود ، وتخلف عن حضارة الأمم ومدنية الشعوب ! ...

ومن عجب أن هؤلاء المحترقين بنيران الغفلة والتفريط يطالبون الشرطة بإصلاح هذا الفساد ؛ والقضاء على ذلك المنكر الذائع الفاشى ، كأن الشرطة على كل شىء قديرة ، ولن يمكن العلاج إطلاقاً عن ذلك الطريق ما دام الأساس فاسداً ، وما دام المحرض على الجريمة موجوداً ، وما دامت وسائل الفسق مهيأة ميسرة ؛ ومهما بذلت الشرطة من جهود مشكورة فسيظل المستور أو المتروك من هذه الجرائم أضعاف أضعاف المضبوط ، وستقبل عوامل الهوى والعناد والاحتيال من المجرمين الفاسقين ؛ وعوامل سوء الاستغلال أو بشاعة الاستحلال من بعض الشرطة ، فتهدم بيدى الضلال ما تصلحه يد التقويم والتهذيب ، ولسنا ندرى ماذا تفعل الشرطة المسكينة حين تحدث هذه الجرائم فى طوفان الزحام والاختلاط هنا وهناك فى الترام والسيارات العامة والحفلات الحاشدة ودور

السينما المظلمة ورحبات المسارح اللاغبة . أو فى منعطف مظلم أو مكان مهجور ، أو بسرعة اللص الخبيث ، أو فى تستر الأثيم الوضيع ؟ . وهل فى الناس اليوم من يأمن على زوجته أو أخته أو بنته لتذهب إلى عمل أو مدرسة؟ وهل فى الناس اليوم من لا تأكل عقارب الوساوس والأوهام قلبه حينما يتخيل امرأة من محارمه وهى تتعرض لتلك الذئاب المفترسة والثعالب المتجارئة ، يحدثونها بالقوة عن العورات ؛ ويعرضون على مسامعها خبيث المغريات ، ويسيئون إلى كرامتها وشعورها بالغ الإساءات ؟ ! . .

ليس هذا هو العلاج إذن أيها المحترقون بنيران التهاون والإهمال ، إذ كان من واجبكم أن تعرفوا من زمن بعيد أن الشباب مجموعة من الغرائز المتحفزة والعواطف المشبوبة والمشاعر الملتهبة ، وأن هذه المجموعة أشبه بقوة أسدية إن لم نحسن توجيهها وتهذيبها انقلبت بغياً وعدواناً ، ولا يمكن تهذيب هذه الغرائز الملتهبة للوثوب والجموح إلا بتركيز العاطفة الدينية ، وتوطيد الوازع الخلقى ، وإحياء محكمة الضمير ، وإشعار الشباب من أول أمره بسلطان ربه القهار عليه ، ورقابته الدائمة له ، فيأخذ سبيله منذ نشأته إلى (الإحسان) الذى وصفه رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقال : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . . . وعلماء النفس وزعماء الإصلاح وسياسة الاجتماع يقررون أن العاطفة الدينية إذا انغرست فى نفس الشاب كانت خير منفس عن غرائزه ، وأفضل ملطف لحدة عواطفه ، وأجمل موجه لقوى الشبيبة ؛ لأن سلطان الدين — وخاصة فى نفس الشباب — نافذ التأثير عميق الأثر . . .

ولسنا نذهب بعيداً حين نلتمس على ذلك الدليل ، فقد كان لمجتمعنا فى الماضى شباب أتقياء أنقياء ، وفتية آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى ، كانوا وكتابهم المصحف ؛ وشارتهم السكينة ، وحليتهم المسبحة ، وسميرهم

الذكر ، وناديهم المسجد ، فابتعدوا بذلك عن مواطن الخنا والفجور ، وشغلوا أنفسهم بمكارم الأمور ، إن لم يمنعهم عن الطيش الإيمان منعهم المظهر والخجل والحياء على أقل تقدير ، وكان هؤلاء الشبان يسيرون فى الوادى بنور الله ونار التطهير ، يدعون إلى أقوم صراط ، ويبذلون جهودهم فى أكرم ساحة ، وما كانت طوائف الشباب يومئذ تنصرف إلى نزق أو جموح بالصورة الفاضحة المعيبة التى نراها اليوم ، فأبت شياطين الإثم وطواغيت الفساد من الداخل والخارج إلا أن تشوه ذلك الجمال ، وأن تضيع ذلك الجلال ، حتى تعيد الحمى مرقصاً يفيض بالخمر والزمر ، بدل أن يعمر بمزامير الإيمان وأناشيد التقى والصلاح ! . . .

لابد لكى تتجنبوا الكارثة المقبلة الزاحفة ببلاياها ؛ المهددة لضحاياها ؛ من نشر الدين والأخلاق أولا وقبل كل شىء ، لأن ذلك هو العماد والسناد ، فعلموا الشباب دينهم الآمر الناهى ، الواعظ الزاجر ، قبل أن تعلموهم الحضارة والمدنية ؛ وعلموهم طهارة الروح والبدن بدل تعليمهم مفاسد الحزبية ، واملئوا قلوبهم برحيق الأخلاق قبل أن تحشدوا عقولهم بالعلوم والفنون ، وعودوهم قراءة المصحف بدل قراءة المجلات الرقيعة والروايات الداعرة ، وأشركوهم فى حفلات المساجد والجمع بدل حفلات الرقص والمنكر ، وأجلسوهم إلى موائد البر والتقوى بدل موائد الخمر والميسر ، واضربوا لهم من أنفسكم القدوة الصالحة . فإن الشاب العربيد معذور إذا رأى أباه يسكر وأمه تفجر وأخته تتبختر ، فسار مع القافلة وولغ مع الوالغين . . والشباب أشباه معذورين إذا رأوا السادة الكبار يعبون الخمر عباً ؛ ويأتون المنكر جهاراً نهاراً ؛ ويقيمون حفلات الرقيق الأبيض ، والسحت الصريح ، والإثم البليغ ، والرقص الخليع ، والتهتك الهادم ، تحت مختلف العناوين الخادعة والأسماء المزورة ، ويتمتعون بلحوم النساء المحرمة ، وأعراضهن

فى غير تستر أو حياء ، بل ينشرون فضائحهم مطولة مفصلة ، قولا وتصويراً ، أمام المحرومين الفائرين الذين يقرأون فقط ، ويرون صوراً فقط ، ويعلمون أن غيرهم من هؤلاء يأكلون فعلا ، ويشربون فعلا ، ويهتكون فعلا ، فماذا تكون النتيجة ؟ . . إن دم الشباب المسكين سيغلى ويثور ، ولا عاصم له من دين أو خلق أو ضمير ، فيقدم على جريمته بلا تدبر أو تفكير ، وفى فضيحة (الباليه) التى يتحدثون عنها فيقولون : إن شبيبة الجامعة هجمت كالسنانير الجائعة على أجسام الراقصات البادية الغضة ، حين استباح ولاة الأمور أن يضعوا اللحم الشهى أمام القط الجائع وبلا حائل ، وفى مأساة دار الاتحاد النسائى حينما حمل بعض الشباب فتاة عذراء إلى إحدى حجرات الدار وهتكوا عرضها فى بشاعة واجتراء عجيب ، وفى مخازى الحوادث المعروفة المألوفة التى تطالعنا كل يوم ، والحوادث التى لا تطالعنا ، ولكنها أيضاً تقع وتستمر كل يوم ، فى كل هذا البرهان بعد البرهان للذين لا يؤمنون إلا بعد الطوفان ! . . .

ثم أنت أنت أيها الشاب الفاجر . . . أنت أنت أيها الإنسان ذو الإحساس ، أو لست فرداً فى أسرة لك فيها أم وأخت وعمة وخالة ؟ . . ألم تتذكر أيها الحيوان ، حينما تحاول التطاول على تلميذة أو فتاة ، لتنال من كرامتها وعفتها بالإكراه ، أن هناك من سيفعل ذلك أو أضعافه بأختك أو أمك أو خالتك أو عمتك ؟ . . . ألا تعرف أن شرعة القصاص هى قانون الأرض والسماء ، مهما اختلفت الصور والأسماء ؟ . . أما بقى فيك أيها الثور الآدمى الهائج بقية من حياء ؟ . . . ألم يأن لك أن تترفع لتشرف ، وتتدين لتنظف ، وتتعيد لتعف ، وتنبل لتسود ؟ ! . . .

تعال هنا فى المسجد مصلياً ، أو فى المكتبة دارساً ، أو فى الندوة الأدبية

مستمعاً ، أو فى مكارم الأعمال الدينية والوطنية مساهماً ، فذلك أليق بك وأجدى عليك ، وأكرم لك من أن نراك كلباً يحاول الولوغ فى كل إناء حرام ، أو صعلوكاً حقيراً (ملطوعاً) فى الشوارع والميادين ، تعال هنا ليكون لك دين وخلق ورسالة ، وإذا أصبح لك دين فقد استمسكت بالعروة الوثقى ، وإذا صار لك خلق فقد سموت عن الدنايا ، وإذا جعلت لك رسالة فقد غدوت من كرام الرجال ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد طغى نساؤنا وفسق شبابنا وتركنا جهادنا لأنفسنا وجهادنا فى سبيل ربنا ، وتتابعت علينا الفتن والمحن ، جزاء بما كسبت أيدينا . . . لقد تركنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك شديد ، ثم رأينا المنكر معروفاً والمعروف منكراً وذلك أشد ، ثم أمرنا بالمنكر ونهينا عن المعروف وذلك أشد ، ثم أتاح الجليل سبحانه لنا فتنة صار الحليم فيها حيران ، وبهذا تحقق فينا ماروى عن الرسول فى بعض الروايات والله اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه ، الجواد بكرمه ، الذى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر لم يتح هذه الفتنة التى صار الحليم فيها حيران لأنه يحب الفتنة — حاشاه — ولكنه يجزى كل امرىء بما قدمت يداه ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . . . وإنه لمن ألزم الواجبات لجماعة المسلمين أن يعملوا جاهدين جادين مسرعين على إزالة تلك الفتنة بإزالة موجباتها وأسبابها ، حتى يصلح أمرنا اليوم بما صلح به أمر أسلافنا من قبل ، وإن أهم الأسباب المؤدية إلى ما نحن فيه اليوم من فتنة ومحنة هو ضياع الدين من نفوس الشباب ، وطغيان النساء بالفجور ، وقلة الحياء فى الناشئات وكلها مفاسد تتجمع وتتعاون على إتلاف الصالح وتخريب الديار وتضييع الحرمات ! . . .

إن هذه هى مشكلة الساعة ، والجميع بنيرانها يحترق ، والناس اليوم فى هم مقعد مقيم من الخوف على أعراضهم ومحارمهم ، اللهم إلا الديوث الذى لا يحس ، أو التيس الذى لا يغار ؛ فلنؤدب أبناءنا أولا ، ولنحمل بناتنا ونسائنا على الحشمة بالقول والعمل ثانياً ، ولنكن متعاونين على تأديب الفاسقين ثالثاً ولنعمل قبل ذلك وبعد ذلك على أن يكون كل شاب صاحب دين ، فذلك هو العلاج الأمين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ؛ سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

انقذوا الجيل الجديد

الحمد لله ، جعل الأخلاق عماد الأمم والشعوب ، وجعل الفضيلة حصناً من النقائص والعيوب ، « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، مفتاح الهداية فى توفيقك ، وغاية النجح فى اتباع طريقك : « بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا » : ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أدبته فأحسنت تأديبه ، وهذبته فأعليت تهذيبه ، فكان المصطفى الأمين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى عترته وآله ، وصحبه ورجاله ، أعلام الهدى وأئمة التقى ، « وللدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون » :

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أسمعتم النبأ الجديد عن الجيل الجديد ؟ . . . خرج خمسة طلاب من أبناء المدارس فى نزهة خلوية ، فصادفوا بعيداً عن العمران رجلا معه زوجته ، فتحرشوا بهما واعتدوا عليهما ، وتكاثر أغلبهم على الرجل فأوقعوه ومنعوه من الحركة ، وتولى الباقون الهجوم على المرأة للاعتداء على شرفها وعرضها ، وكادوا يفعلون لولا أن المرأة جعلت تصرخ ، حتى جاء من أنقذها أو قبض على الطلاب ، وساقهم إلى ساحة العدالة والتأديب . . .

هذه يا سادة صورة من صور الشباب الحديث فى البلد المنكوب بأهليه ؛ وهذه أخلاق الفتية الذين يرتجيهم الوطن المصاب ببنيه ، فأين أنتم من هذا الطوفان الأثيم ؟ . . . إننا جميعاً نعرف أن فتية اليوم هم رجال الغد المأمول ، وعليهم يتوقف مجد البلاد وعز العباد ، ومع ذلك لم نفعل شيئاً من أجل هؤلاء ،

بل بالعكس فعلنا أشياء وأشياء لنحطمهم فى كل مكان . . . فماضى الجيل الجديد فينا إهمال مريع فى كل شىء ، فى التربية والأخلاق والدين والتعليم ؛ وحاضر الجيل الجديد عبث صارخ ولهو رخيص فى كل مكان ، فى المنزل والشارع والمدرسة والسينما ومباءات الفساد ؛ ومستقبل الجيل الجديد ظلام من فوقه ظلام ، فلا منهاج له ولا أهداف ولا إصلاح ؛ فكيف يبقى الجيل الجديد بعد كل هذا صالحاً لمكرمة أو أهلا لنجاح ؟ ! . . .

تدخل البيت فإذا أول العيوب فى تربية الجيل الجديد تدليل وتعويد على الضعف والخنوثة ، الحرص الزائد والخوف الشديد ، وعدم تعريض الأبناء لتبعات الرجال ، وحتى التسمية يبدو منها روح الخور ، فهم يقولون لمحمد ميمى ، والسعيد سوسو ، ولفؤاد فوفو ، ولتوفيق توتو ولمصطفى صفصف ، ومن وراء هذا التدليل الخفيف فى النداء تنشأ ألوان أخرى كلها تقريب للفتى من التأنث وبعد به عن فحولة الأبطال .

ثم أين القدوة الصالحة أمام الفتى أيها الناس ؟ . . . الأب يذهب إلى المقهى ، والأم تذهب إلى زياراتها ، ويظل الصبى فريسة هنية أو وديعة ضائعة بين أيدى الخدم والخادمات . . . والأب يتحدث عن غرامياته أمام ابنه الناشىء ، فإذا عوتب فى ذلك غضب وقال : إن ابنى ليس بنتاً ولكنه رجل ؛ والأم تتبجح فتسرد فى حضرة بنتها ما يليق ومالا يليق عن العلاقات الجنسية وماشاكلها ، والقدوة السيئة جداً جداً تراها واضحة من الأب والأم والأخت والأخ الأكبر ، فالأب سكير عربيد ، والأم متبرمة مستهترة ، والأخت عاشقة مفتونة ، والأخ الأكبر متغطرس مستبد ؛ والناشىء المسكين بين هؤلاء الآثمين جميعاً ريشة ضعيفة فى الهواء ، تحركها الريح كيف تشاء ، فكيف لها بالسلامة أو النجاء ؟ ! . . . ليس أمامه بعد هذا إلا ضيقه بالبيت ، وعدم احترامه لوالديه ، وهجره للمنزل ، وتعوده السهر مع

رفاق السوء وأصدقاء المنكر، حتى يعود آخر الليل مخموراً أو « مصطولا » أو أثيما ؛ ومن هنا ينشأ بلا رابطة قوية تربطه بأسرته أو والديه ، فإذا ما كبر تمرد عليهما ، ولم يحفظ لهما واجبهما ، وأنت لا تجنى من الشوك العنب . . .

ثم أين سلطان الدين أو وازع الإسلام فى منازلنا ومدارسنا ؟ . . أين التهذيب القرآنى والتأديب المحمدى والهدى الإسلامى فى تربية الأبناء ؟ : ؟ لقد تبخر كل ذلك من زمن بعيد ، فأكثر التلاميذ لا يعرفون أركان الدين ، ولا كيفية الصلاة ، ولا غير ذلك من شعائر الإسلام ، ولم يتذوقوا طعم حديث أو قصة دينية أو حكمة هادية ، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن تربية الولد اليوم كبناء عمارة شاهقة ، تحتاج إلى النفقات والجهود ، ومن الواجب أن يعنى الوالد بتهذيب ابنه ، دينياً وخلقياً واجتماعياً من أول الطريق ، وهو لا يزال عجينة لينة طيعة ، قبل أن يستعصى على التوجيه ؛ وتذكروا أن أولادكم أمانة الله فى أيديكم ، فحصنوهم بحصن الله المنيع ، واحفظوهم من مهاوى الإثم والضلال ، وإلا جنيتم الصاب والعلقم فى دنياكم ، وكسبتم العار والفضيحة فى ناديكم ، وأخذتم بذنبهم يوم لقاء العزيز القهار . .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أى نار ياشباب

الحمد لله الكبير المتعال ، صاحب العزة ، ومصدر القوة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أدب وهذب وعلم وقوم فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى روحه الطاهرة ، وصحبته الخيرة ، وأمته الذاكرة الشاكرة ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الصراع بين الأبناء والآباء ، أو بين الشباب والشيوخ ، مستمر موصول ، وكأنه جزء من طبيعة الحياة ، وفطرة الأحياء ، ورضوان الله على عمر يوم قال : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » . ولكن الذى لاريب فيه أن كثيراً من الآباء أهملوا توجيه أبنائهم منذ بداية الطريق ، ولم يربوهم تربية دينية أخلاقية قويمة ، فساروا بلاقائد ولارائد ، فهاموا على وجوهم يستقيمون فى تصرفهم مرة ويخطئون مرات ، وقد يخطئون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وكأنهم شبه معذورين فى ذلك ، لأنهم لم يجدوا من يسدد خطاهم ، أو يوطد هداهم ، فساروا كما اتفق لهم ، والآباء عن ذلك مسئولون ، لأن الولد سر أبيه :

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

ولقد رأيت شاباً حائراً فى ربيع عمره ، لم أستبن أنه فتى إلا بعد تطلع

وتدقيق نظر ، فقد أرسل شعره خلف رأسه كما تفعل النساء ، وارتدى قميصاً مزركشاً فاقع الألوان زاهى الأصباغ فى فمه قطعة من اللبان يمضغها ، ودلدل حزامه فى أدنى وسطه ، كما تفعل اللاهيات من الفتيات ، وضيق سرواله (بنطلونه) على فخذيه وساقيه ، وعلق فى وسطه سلسلة بها دائرة معدنية كتب عليها : « نار ياحبيبى نار »، وجعل يردد هذه العبارة فى تكسر وتخاذل . فقلت فى نفسى : يا ضيعة الشباب فى عهد الحرية ، وياضيعة الشباب دون رجولة وأخلاق ، وياضلال الشباب حينما تتشعب بهم المسالك ، فلا يجدون معهم مرشداً ولا موجهاً : « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ».

وساءلت نفسى وأسألكم الآن معى : أى نار تلك التى يتحدث عنها الفتى الحائر والشاب التائه ؟ . إن النار هى اللهب الذى ينبعث منه الحرارة ، وينتشر منه الضوء ، والنار كما تكون للتدفئة وإنضاج الطعام وغير ذلك من المنافع والمصالح ، تكون للاحراق والتدمير ، وكما تكون النار نعمة فى كثير من الأحيان ، تكون نقمة وعذاباً فى كثير من الأحيان ، وإذا كان القرآن الحكيم قد قال : « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » . فإنه أيضاً قد قال : « يا أيها الذين آمنو قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ». فأى نار يريدها ذلك الفتى الحائر المسكين ؟ . أهى نار الشباب العازم والإقدام الصارم ، اللائق بالشبيبة والشباب ، حيث تهزأ الفتوة بالمصاعب وتستخف بالمتاعب ، وتقدم لتقوى بجلائل الأعمال ومحامد الفعال ، وتردد قول من قال :

هات عهد الشباب إن غاص فى الما ء ، وإن غاب فى السماء فهاته

همسات الشباب فى النفس أحــلى من حديث الهــوى ، ومن همساته

ناره تطـــرد الهمـــــوم فتمسى خافقـــا ت الحنـــان من جمراته
ناره تصهـــر العزيمـــة ســـيفاً تتـــوق السيـــوف لمـــع شباته
الشباب الشباب ، نور من الله وريح تهب من جنـــاته ! !

أهى نار الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، تلك النار المباركة ، التى تعصف العداة ، وتأتى على الطغاة ، وتطهر الحمى من الذل والهوان ، حين تحرر الدار ، وتغسل العار ، وتأخذ الثأر ، وتهدأ بنداء التخاذل والحذر ، وتعرض عن دعاء اليأس والقنوط ، وتذكر نفسها بقول ربها العلى الكبير : « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » وقوله : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

أهى نار الحركة والعمل والكدح ، تلك النار الصاهرة التى تشعل الأفران الضخمة وتحرك الآلات الكبيرة ، فى طريق الإنتاج والابتكار والاختراع ومضاعفة الدخل ، والإعداد لمجتمع الحرب ومجتمع السلم على السواء ، حيث يتذكر العاملون المؤمنون أن نار الصناعة القوية هى التى تحقق الآمال وتليق بالأبطال ، وأن القرآن المجيد يقول عن ذى القرنين « قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردماً ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » وأن الله جل جلاله يحرض على العمل الموصول المستمر ، فيقول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون»

أهى نار الشباب الطاهر المؤمن الذى يعرف جد الحياة قبل هزلها ، ومعالى الأمور قبل سفاسفها ، ويرجو أن يكون ممن قال عنهم القرآن : « إنهم

فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن تدعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططا » . ويتذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » ويحسن الإصغاء إلى قول القائل الحكيم :

يا شباب الحمى ، ويا جنده الأبرا ر إن فتش الحمى عن كماته
زاحموا فى ونيمة الدهر أرسالا ولا تكتفوا بجمع فتاته
لا تنال العلا بليت ولكن وعكوف الفتى على مرآته
آلة الفوز همة تطحن الصخر وتسمو للنجم فى سبحاته
فابتنوا للعلا وللدين مجداً واسكبوا من حياتكم فى حياته

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . .

ما أشد حاجتنا إلى نار تطهر قلوب شبابنا وعقولهم ، وإلى نار تلهب عزائمهم وهممهم ، وإلى نار تزكيهم وتنقيهم ، هى نار الإيمان بالله ، ونار الغيرة على حقوق الله ، ونار الاعتصام بحبل الله ، ونار الجهاد فى سبيل الله : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الرياضى بين الفوز والهزيمة

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يحب الأقوياء ، ويكرم الشرفاء ، ويكره الضعفاء : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم ، الأعلون إن كنتم مؤمنون » أشهد ألا إله إلا الله ، فعال لما يريد ، يقدم من يشاء ، ويؤخر من يشاء ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره : « إن الله لقوى عزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يغره فوز أو انتصار ، ولم تنل منه هزيمة أو انكسار ، بل جاهد جهاداً طويلا ، وصبراً جميلا ، فكان إمام الصابرين الثابتين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأتقياء ، وأصحابه الأعزاء ، وأتباعه الأقوياء : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمو ن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يرى الباحثون المعاصرون أن الأمم الراقية يجب أن يكون لها طائفة من التقاليد والعادات ، تحرص عليها وتتمسك بها وتجذب الأفراد إليها ، ومن هذه التقاليد الحرص على الشرف والأدب والأمانة والنظام والطاعة فى المسابقات والمنافسات والمباريات ، وعدم الازدهار أو الخيلاء عند الفوز والانتصار ، وعدم الثورة أو الانفعال عند الهزيمة والانكسار ، فتجرى المباريات الرياضية مثلا فى جو من التفاهم والانسجام ، وفى حدود الذوق والنظام ، لا يفخر غالب على مغلوب ، ولا يحقد مغلوب على غالب ، لأن هذه المباريات ليست تجارة أواستغلالا ،بل هى فى صميمها وسيلة ، من وسائل التربية الجسدية التى يصحبها تهذيب خلق وتقويم نفسى مما يرتفع بمستوى الإنسان فى الجسم والخلق . .

ويظهر أننا لم نصل بعد إلى هذا المستوى الرفيع ، وذلك بدليل الحوادث

الكثيرة المؤسفة التى تقع فى المبارات الرياضية المختلفة التى تقام فى بلادنا هنا وهناك ؛ فهذا فريق ينهزم مثلا فلا يجد وسيلة يعبر بها عن غيظه وحقده إلا أن يعتدى على أفراد الفريق المنتصر ، فيضربه أو يجرحه أو يسبه ويشتمه ، وهذه طائفة من جمهور المشاهدين للمباريات تتعصب لفريق خاص وتهتف له فى صراخ وحدة ، وتعرض بالفريق الآخر وتتندر عليه وتستهزئ بجهوده ، وقد يصل التبجح بهذه الطائفة من الجمهور إلى اعتدائها على أفراد الفريق الذى لا يعجبها لأنه غريب عن بلدها أو ليس بينه وبينها صلة أو معرفة ، فتقذفه بالحجارة أو التراب أو قطع الخشب أو نحو ذلك ، وهناك فى المباريات رجل حكم يضبط المخالفات ويحكم بين الفريقين ، وهذا الحكم يتعرض مراراً لاعتداء اللاعبين أو لاعتداء المشاهدين ، إلى غير ذلك من الحوادث المؤسفة التى تحدث فى ميادين الرياضة المختلفة ، ويشترك فيها بعض الرياضيين أو المنسوبين زورا إلى الرياضة . .

ليس هذا من الرياضة ولا الرياضة منه فى شىء ، وهو عنوان سيىء للرياضة والرياضيين ، كما أنه دعاية سيئة لأمة ناهضة تريد أن تحيا وأن ترتفع ، وهو إن دل على شىء فإنما يدل على روح الأنانية والحقد الرخيص ، وعلى ضيق الأفق وضعف التربية الرياضية الصحيحة ، لأن الرياضة فى نظر المجتمع المسلم هى تهذيب فردى للبدن عن طريق التمارين المختلفة ، والألعاب الرياضية مباريات بين مجموعات تتذرع كل منها بالتنظيم والتعاون إلى السبق والغلب ، وأما التربية الرياضية فهى التربية الحسية والنفسية والذهنية التى تكون فى المرء جسماً قوياً وخلقياً نقياً وعقلا ذكياً . . . ونحن فى مجتمعنا الإسلامى نريد الفرد الرياضى بجسمه المحكم وتفكيره المنظم وخلقه المقوم وإيمانه المدعم نريد جيلا قوياً فى بدنه وكيانه ، عميقاً فى تفكيره وجنانه ، متطهراً فى خلقه

ووجدانه ، ثابتاً فى يقينه وإيمانه ؛ وما أبعد هؤلاء المتمردين الأنانيين عن هذه المعانى الكريمة الرائعة .

وكثير من الناس يحسبون خطأ أن الإسلام لم يتعرض لهذه الأمور أو لم يتحدث فيها ، بينما الواقع أن الإسلام دين عالمى خالد ، لم يترك أمراً ذابال من أمور الفرد أو المجتمع إلا تحدث عنه وحدد الرأى فيه ؛ والإسلام دين قد عنى عناية كبيرة بالرياضة وتهذيب البدن ، وحسبنا أنه قد شرع كثيراً من ألوان المسابقات وحث عليها ، حتى قيل إن من المنسوب ، إلى الرسول قوله : « تعاموا الرمى فإن ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة » فكأنه يعطى الساحة الرياضية كرامة ليس بعدها كرامة ، ويجعلها موصولة الأسباب بجنات النعيم ... والإسلام يعلم الرياضيين مكارم الأخلاق ومحاسن التصرفات ، فهو يرشدهم أولا إلى أن المقصود الأساسى من الرياضة والمسابقة ليس الكسب المادى ولا التباهى الشخصى ولا التطاول على الغير ، بل المقصود هو تربية البدن وتهذيب النفس وإعداد العدة لحفظ الوطن ورعاية الذمار : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وهو يعلمهم أن النصر والهزيمة من الله فيجب أن لا نغضب أو نثور على أمر قضاه الله ، ولذلك جاء فى حديث الإمام على بن أبى طالب عن الفوز فى المسابقات قوله : « يسعد الله بسبقه من يشاء من خلقه » . والإسلام يعلم الرياضى أن من حقه إذا انتصر أن يفرح فى غير إسراف ولا خيلاء ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق على حصان له يسمى « سبحة » فسبق الحصان غيره ، فبش النبى وأعجبه ذلك فى غير مباهاة ؛ ولكن الإسلام فى الوقت نفسه يعلم الرياضى أن يتجمل بالصبر والثبات والخلق الكريم إذا انهزم ، فقد كان للرسول ناقة تسمى « العضباء » ، وكانت لا تسبق ، فجاء أعرابى على

قعود (أى جمل صغير) فسبقها ، فعز ذلك على المسلمين ، وجعلوا يقولون : سبقت العضباء ! . . . فقال الرسول : « إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » . فكان هذا درساً أى درس فى تعليم المتسابقين الصبر والحلم وعدم التزلزل عند الانهزام مهما كان ! . . .

والقرآن الكريم يعلمنا فى هذا الباب أن نحسن تحمل الهزيمة ، وأن نصبر على ما يصيبنا فيها وأن نبذل الجهـود بعدها ، وأن نتذكر أن الأيام دول ، وأن المنهزم اليوم يستطيع بجده وكفاحه أن ينتصر غدا ، وأن الغالب المتباهى عرضة للاندحار والهزيمة بعد قليل، فيقول التنزيل : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى إن يصبكم ألم وجرح اليوم فلا تبتئسوا ولا تغضبوا فقد أصيب أعداؤكم بمثله من قبل ، والعاقبة للمتقين الصابرين ، والعبرة بالخواتيم ؛ فهو يعلمنا حتى فى ساحة الجهاد أن نصبر صبراً جميلا ، فلا تثيرنا الهزيمة ، كما لا يطغينا النصر ، والقرآن يقول على لسان لقمان لابنه : « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . والرسول يقول : « ليس الشديد بالصرعة (أى الذى لا يغلبه الرجال) وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . ولقد قال الرسول لصحابته : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ : قالوا : الذى لا يصرعه الرجال . قال : ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب ، وفى الحديث : « إن الغضب من الشيطان » ! . وإذا ملك الرياضى نفسه عند الغضب فقد صار بطلا وأصبح عملاقا ، ولا يتصور أن يقع منه تهور أو تمرد أو اعتداء .

والإسلام يعلم أبناء الرياضة أن يبتعدوا بها عن الصخب والتهريج والتعصب ففى حديث النبى : « لا جلب فى الإسلام » . وفى الحديث الآخر : « ليس منا من أجلب على الخيل يوم الرهان » . والجلب هو أن يأتى المتسابق على

جواده مثلا ببعض الناس لكى يصيحوا له أو يهتفوا به دون غيره حتى يسبق ويفوز بالرهان ، كما يعلمهم الإسلام عدم الحرص على الكسب المادى من طريق الرياضة والتسابق ، وهذا رسول الله يأتيه « ركانة » أكبر مصارع فى العرب ، فيطلب مصارعته ويشترط له شاة كلما غلبه مرة ، ويصرعه النبى عدة مرات ، وتصير الشياه من حقه ، وهنا يدرك ركانة أن محمداً لم يغلبه بشخصه ، بل بقوة من الله خاصة ، فيقول للنبى : يا محمد ما وضع جنبى أحد إلى الأرض ، وما أنت بالذى تصرعنى ! . . . ثم أسلم ركانة فرد النبى عليه غنمه ليريه أنه لا يطمع فى امتلاك المال ولكنه يطمع فى هداية الرجال .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن لكم أولاداً يزاولون الرياضة ، ويشتركون فى المباريات والمسابقات ، فأدبوهم بأدب الإسلام فى هذا الباب وعلموهم كيف يكون المسلم متواضعاً عند الفوز صبوراً عند الهزيمة ، وذكروهم أن الرياضة وسيلة للتهذيب والتأديب وليست طريقاً للكسب أو الافتخار ، ويوم يتعلم أبناؤكم هذا ويعملون به يصبحون من قوم محمد الذين وصفهم القرآن بأنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » وبأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

قتيل لعبة الكرة

الحمد لله عز وجل ، ميز الإنسان بالعقل ، وكرمه بالفضل : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الهدى طريقه ، والعدل سبيله : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

طالعتنا الصحف أخيراً بنبأ خبيث أثيم ، هو أن عاملا بريطانياً اسمه « أدولف هيملين » قتل ابنه البالغ من العمر سبعة أشهر ، لأنه قد أزعجه بالصراخ خلال مشاهدته مباراة لكرة القدم ، وأن الأب حاول تهدئة الطفل بإحدى اللعب ، ولكنه لم ينجح فثارت ثائرته ، ووجه إليه عدة لكمات أزهقت حياته ... إنه كما ترون نبأ خبيث أثيم ، ويبدو أن هذا الوالد المجرم قد أقدم على جريمته وهو مجرد من عقله وشعوره ؛ ولكن هذا النبأ يذكرنا بما يمكن أن نسميه « جنون الكرة » ، فقد أصبح الكثيرون مشغولين بها أكثر من انشغالهم بجليل الواجبات والتبعات ، ولقد يمر المار فوق كوبرى قصر النيل عند الأصيل فيرى جموعاً هائلة تزحف ، ويتمنى لو أنها كانت ساعية إلى أداء صلاة ، أو إلى مؤتمر أخلاقى أو اجتماعى ، ولكنها تزحف إلى ملاعب كرة القدم لتشهد مبارياتها المختلفة فى حرص عجيب وشوق متسعر ، وليت هذه المشاهدة تتم فى هدوء وحكمة ، ولكنها

تمتلىء بالصخب والضجيج ، والمناقشة الحادة والمنافسة القاسية والتعصب الأحمق مما يؤدى إلى خلاف عنيف ، أو إلى خصومة هائجة بين الأصدقاء والمعارف ، وبين الأزواج والزوجات ، وبين الأبناء والآباء ، ولقد كانت عندنا فى الماضى أحزاب سياسية تنخر فى عظامنا ، وتفرق كلمتنا ،وتفسد ما بيننا ، واليوم صارت لنا أحزاب رياضية تؤذى وتؤلم ، لأن التعصب لها يستنفد الكثير من وقتنا وجهدنا ونقاشنا ، ونحن أحوج ما نكون إلى إنفاق هذه الكنوز فيما هو لازم لنا وواجب علينا من حقوق الله وحقوق الوطن والناس .

وهذه هى الصحف فى الأيام الأخيرة تتحدث بمناسبة « موضوع النادى الأهلى » عما يوجد فى الأندية الرياضية من روح التحيز والاختلاف ، بل إن محافظ العاصمة نفسه يقول إن مستوى الألعاب فى بعض الأندية قد هبط ، وأن هناك ضغائن وتكتلات وآراء شخصية ، وفى مكان آخر من الصحيفة نجد خبراً يقول إن « موسم ضرب الحكام الذين يحكمون المباريات قد بدأ فى الإسكندرية ، وفى جامعتها بالذات — فى الجامعة حيث ننشد التربية والتعليم والتقويم — وتقول الصحيفة إن هذه « ظاهرة مؤسفة تستدعى سرعة التدخل من المسئولين عن النشاط الرياضى فى الجامعة » ، وفى مكان ثالث من الصحيفة نفسها نجد خبراً يقول إن بعض المشاهدين لإحدى المباريات سرق الورقة التى تسجل فيها نتيجة المباريات وهرب . . . وبجوار هذا نحن نتذكر جيداً — من غير شك — ما يحدث بسبب جنون الكرة من تصارع بين جمهور المتفرجين ، ومن تبادل للهتافات النابية والتعليقات القاسية ، ومن تقاذف بالحجارة أو الأدوات الأخرى أحياناً ، فهل هذه هى الرياضة التى نريدها ونتمناها ؟ وهل هذه هى الطريقة السليمة للانتفاع بالرياضة والاستمتاع بها ؟ . إن الرياضة فيما نفهم تقويم للحس ، وتهذيب للنفس ، وتربية للخلق ،

وتعويد على قوة الإرادة وضبط الشعور وعدم الاغترار بالفوز ، وعدم الانكسار عند الهزيمة ، وغرس لروح النظام والتعاون ، ونستطيع أن نقول هنا إن الرياضة تبدأ بالحركة البدنية التى يعمل فيها الفرد على تقوية جسمه بالتمارين الرياضية . ثم تأتى الألعاب الرياضية وهى مباراات بين مجموعات تتذرع كل منها بالتنظيم والتعاون إلى السبق النظيف والفوز الشريف ، ثم تأتى التربية الرياضية ، وهى التربية الحسية النفسية الذهنية الخلقية ، التى تكون فى الإنسان جسماً قوياً وخلقاً نقياً وعقلا ذكياً ، وهكذا يجب أن تكون الرياضية فى المجتمع السليم الكريم .

لقد تحقق للرياضة إمكانياتها الواسعة من الملاعب والملابس والحفلات والاستعراضات والجوائز ، وصار للبارزين فيها مكافأت أو مرتبات ، ووجدنا الصحف تخبرنا بأن محافظة القاهرة مثلا تحجز بصفة مستمرة « شقتين » من المساكن لتكونا تحت طلب أحد الأندية ، وتخبرنا بأن عطايا سخية توزع على الفائزين فى المباريات الهامة وتدفع هذه العطايا من مال الأفراد أو الجماعات ، وكل هذا يمكن أن يطاق ويحتمل إذا حققت الرياضة رسالتها وحقق أهلوها والمحبون لها الأهداف السامية التى يتمناها كل غيور على القيم والأخلاق ، فلم يجعلوها احترافاً واكتساباً ، بل جعلوها هواية طيبة ووسيلة لغايات رفيعة ؛ ولم يجعلوها تعصباً وتحزباً وتعادياً ، بل جعلوها تأديباً وتهذيباً وترويحاً عن النفوس وإيقاظاً لكريم العواطف والمشاعر .

إن الرياضة هى الشىء الوحيد الذى يصدر له ملحق شبه يومى مع أكثر الصحف ، وهذا حظ لم تفز به الصناعة ولا التجارة ولا الزراعة ، ولا الدين ، ولقد تمنينا لو أنه كان هناك أى جزء يومى من الصحف — ولو نصف عامود — لشئون الدين والأخلاق فى كل صحيفة ولكن ذلك لم يتحقق ، على حين نجد أن المجال يتسع ويتسع — لا بالأعمدة بل بالصفحات — للرياضة

وأخبارها وصورها وكل ما يتعلق بأهليها ، ولسنا بالأعداء للرياضة ، فطالما انطلق هذا الصوت الذى تسمعون داعياً إلى العناية بالرياضة ، ومنذ قرابة ثلاثين عاماً دعا صاحبه بقلمه ولسانه إلى ادخال الرياضة والكشافة فى الأزهر الشريف ، وطالما تردد الصوت من فوق هذا المنبر ليشرح عناية الدين الإسلامى بالرياضة ، ودعوته إلى القوة والفتوة ، وإلى الإعداد والاستعداد ، وإلى بناء الأجسام الصلبة التى تقودها الأخلاق الكريمة ، لأن القرآن يقول : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ؛ ولكن يظهر أن المسألة فى مجال الرياضة قد زادت من ناحية الشكل عن حدها ، فانقلبت إلى ضدها ، فنحن لا نريد التعصب ولا التحزب ولا الاستغلال ولا التمزق ولا الانحراف فى فى مجال الرياضة ، ولا نريد الرياضة التى تعلمنا الألفاظ النابية أو التصرفات المتوترة ، بل نريد مزيداً من رياضة النفوس والأخلاق والأبدان ، ونريد الرياضة الضابطة العاصمة من الانفعال الجامح ، حتى نكون مهتدين بقول الرسول : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . .

إن الله العلى القوى يريد لنا أن نكون أقوياء ، ولكنه يريد لنا أيضاً أن نكون فضلاء ، وما نهضت عظمة الإسلام إلا على قوة الروح ، وقوة الخلق وقوة العقل ، ومن ورائهما قوة المادة ، فلنبن أنفسنا ومجتمعنا على القوة العاقلة الفاضلة ، لنكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وذلك هو الفوز الكبير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

احزاب الرياضة وضحاياها

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يحب الأقوياء ، العلى الذى يكرم الشرفاء ، وهو بكل شيء عليم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، « إن الله لقوى عزيز » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يغره فوز أو انتصار ، ولم تضعفه هزيمة ولا انكسار ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأحبابه ، والواصلين أسبابهم بأسبابه ، « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

شهد أسبوعنا الماضى حادثتين أليمتين من الحوادث التى تدمع العين ، وتدمى القلب ، وتشق المرائر ، أولاهما حادثة القتيل فى بلدة كمشيش ، والأخرى حادثة الطالب الذى لقى مصرعه بيده حزناً على هزيمة نادى الزمالك ، وقد لقيت الحادثة الأولى كما ينبغى عناية بادية ملحوظة واسعة من المختصين ، ومن أقلام الصحافة ، ولكن الحادثة الثانية مرت علينا مروراً خفيفاً ، فما هو إلا وصف للحادثة المفجعة المبكية تنشره إحدى صحفنا ، ثم يطوى الخبر أو يلقى عليه « ماجور » كما تعبر العامة ، مع أن هذه الحادثة لا تقل خطورة عن حادثة قتيل كمشيش ، وإذا كانت لحادثة كمشيش دلالتها الحادة على صراع بين أقوياء وضعفاء ، أو على عدوان بقايا جيل عتيق على طلائع جيل ثائر ، فإن لحادثة مصرع الطالب بسبب العصبية لفرق الكرة الرياضية دلالتها الصارخة على أن المجتمع مهدد بحزبية رياضية مخبولة ، سيجنى منها الصاب والعلقم إذا لم يسارع إلى علاجها والطب لها . والقضاء على أسبابها ودوافعها ، وأرجو ألا يكون هذا الصوت الذى يتكرر انبعاثه هنا محذراً من هذا الخبال ،

كصوت ذلك الحكيم المضيع بين قومه حين قال : « لا يطاع لقصير أمر » ، وإلا فما أجدر صاحب العين البصيرة واليد القصيرة بأن يردد قول ربه جل جلاله : « فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » .

وأقسم لكم بالذى برأ النسمة ووهب النعمة أن الأيام مرت بعد هذه الفاجعة ، وكلما تخيل الإنسان صورتها ، واستحضر دوافعها ، وخشى تكرارها أحس كأن خنجراً يصيب قلبه ويزلزل لبه ، وإنى لإنسان وإنى لوالد ، وهذا طالب فى مثل عمر الورود ، كان يشق طريقه فى دراسته الثانوية بخطوات فتية ، ولكن تأثره بالجو المسموم المشئوم : جو التعصب الحزبى الأعمى لهذا الفريق أو ذاك أو ذلك من فرق كرة القدم ، يصيبه بما يشبه العلة الخبيثة أو الداء الوبيل ، وكيف لا وهو يرى أن العناية بهذه الفرق وأنشطتها قد زادت عن حدها فانقلب إلى ضدها ، وهو يشاهد صراعاً واسع النطاق يقع هنا وهناك وهنا لك ؛ بسبب هذا التعصب الحزبى الأعمى لمختلف الفرق ، بين الأب وابنه ، وبين الأم وابنتها ، وبين الزوج وزوجته ، وبين الصديق وصديقه ، وهذا الصراع لا يأخذ طابعاً رياضياً سلميا ، ولا خلافاً لفظياً رقيقاً ، بل يبلغ حد الخصام والسباب ، وحد التقاذف بالتهم والشتائم ، وأحياناً حد الاعتداء الأثيم بما يقع فى هذه الأيدى المخبولة المتعصبة من وسائل الاعتداء ، وقد مرت علينا شواهد دامية مخزية على هذا الانحراف ، بل على ذلك الإسفاف .

وما ذا تكون النتيجة المحزنة المريرة ؟ تكون النتيجة أن هذا الشاب المترعرع ما يكاد يرى أن الفريق الذى يتعصب له قد انهزم فى مباراة ، حتى يفقد رشده وتوازنه ، ويخشى لقاء زملائه فى المدرسة وهم سيسرفون فى السخرية والاستهزاء به وبالفريق الذى يتعصب له ، وإذا هو يستجيب لوسوسة

الشيطان فيتجرع زجاجة مليئة بمادة سامة ، وما هى إلا دقائق حتى يصبح من الأموات ، وإذا إحدى الصحف تستهويها غرابة الحادثة فتقص قصتها على قرائها ، وتمضى الأيام بعد ذلك ، دون أن نشهد اهتماما كافياً بادياً بالحادث الجليل ، مع أنه جدير بأن يقض مضاجع المسئولين والمختصين ، لأنه يوحى بدلالات مروعة ، ويشير إلى انحرافات ناشئة عن هذا التعصب الممقوت ، والقليل من هذه الانحرافات هو الذى يطفو إلى السطح فتراه العيون وتحس به المشاعر ، والكثير منها تحول دور ظهوره قلة المتابعة وضعف الاهتمام .

وينبغى أن نتذكر أن أكثر من سائل يسأل هنا فيقول : ترى ما الهدف من وراء هذا الاهتمام الواسع بمباريات كرة القدم ، وشغل الناس بها إلى هذا الحد ، وإثارتهم بسببها إلى هذا المدى ، والكرم الحاتمى فى الإنفاق عليها والتمكين لها والحرص على إذاعتها بوسائل الإعلام المختلفة من تليفزيون وإذاعة وصحافة ، حتى إنها لتطغى فى أحيان كثيرة على حقوق أمور جليلة لها مكانتها الدينية أو القومية أو الاجتماعية ؟ . أيكون الهدف من هذا كله أن تنتشر الرياضة السليمة ، والمنافسة الشريفة ، والتقدير الواعى للعبة النظيفة ، وأن يتعود الأفراد التواضع والوقار عند الفوز ، والصبر والاحتمال عند الهزيمة ، أم أن الهدف هو إيجاد هذا التحزب الأعمى الذى يسبب الكثير من الشقاق والخصومة بين الناس ؟ . وهل يعلم المسئولون عن الرياضة بخطورة الموقف أوهم لا يعلمون ؟ وسواء أكانوا من العالمين بها أو من الجاهلين لها أو من المتجاهلين أمامها ، فإن التبعة خطيرة أمام الله وأمام الناس :

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة   أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم !

لسنا من أعداء الرياضة علم الله ، بل نحن من دعاتها ، ولكننا دعاة للرياضة الشريفة ، وأنصار للتربية البدنية النظيفة التى تتخذ وسيلة لا غاية ،

وتلتمس طريقاً إلى إيجاد الإنسان الفاضل المتميز بجسمه المحكم ، وتفكيره المنظم ، وخلقه المقوم ، وإيمانه المدعم ، وإسلامنا العظيم قد عنى عناية ملحوظة بالرياضة وتهذيب البدن ، تهيئة لمجتمع القوة والفتوة والجهاد والثبات ، وحسبنا أنه قد شرع كثيراً من ألوان المسابقات الرياضية وحث عليها ، حتى قيل إنه من المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « تعلموا الرمى فإن ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة » فكأنه يعطى الساحة الرياضية المؤمنة النقية الشريفة المقصد والغرض كرامة ليس بعدها كرامة ، ويجعلها موصولة الأسباب بجنات النعيم ، وياله من احترام وتعظيم ، وإسلامنا الجليل يعلمنا أن الهدف من الرياضة ليس الكسب المادى ، ولا التباهى الشخصى ، ولا الحزبية العمياء ، بل الهدف منها هو تربية البدن وتهذيب النفس وإعداد العدة لحفظ الوطن وحماية الذمار : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فأين نحن مما نادى به الإسلام فى هذا المجال ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نريد جيلا قوياً فى بدنه وكيانه ، عميقاً فى تفكيره وجنانه ، متطهراً فى خلقه ووجدانه ، ثابتاً فى يقينه وإيمانه ، وأولادكم فلذات أكبادكم وأمانة ربكم بين أيديكم ، فأرشدوهم إلى الطريق القويم ، وجنبوهم آفات الحزبية العمياء والتعصب الذميم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به محسنون .

بلوى كرة القدم

الحمد لله جل علاه ، هو بارئ النسم وواهب النعم . أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى قال فيه رب العزة : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره ، وأهل صحبته ، والسائرين على هديه وملته « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أنا ــ ولعنة الله على كلمة « أنا » وخصوصاً حينما تأتى فى خطبة منبر ، وخصوصاً حينما تأتى فى فاتحة كلام ــ أنا ممن يحبون الرياضة ، ويدعون إليها كوسيلة للصحة والقوة ، وقد دعوت منذ قرابة أربعين عاماً إلى إدخال الرياضة والكشافة فى الأزهر الشريف ، ومنذ قرابة خمسة عشر عاماً قلت فى كتابى : « وسائل تقدم المسلمين » ، « لو كان الأمر إلى لجعلت فى كل ملعب مسجداً ، ولجعلت على مقربة من كل مسجد ملعباً ... » . ولكنى ألاحظ أن الرياضة ــ وبخاصة كرة القدم قد صارت ــ كالبلاء أو كالسعار ، حيث انحرفت عن طريقها المقبول ، وزادت عن حدها المعقول ، فالجماهير الغفيرة تترك أعمالها من أجل كرة القدم وتتجمع عند مبارياتها أضعاف أضعاف ما تتجمع فى دور العبادة أو مجالات العمل ، والسيارات الكثيرة تطوف العاصمة قبل المباريات ، حيث تتعالى أصوات مزاميرها مؤيدة هذا الفريق أو ذاك ، والألوف تتجمع حول أجهزة التلفزيون لمشاهدة هذه المباريات بحرص

وشغف مجنونين ، والذين لا يملكون أجهزة تليفزيون يستجدون مشاهدته عند الجيران أو المعارف ، وكلما أقبلت مباراة ، توترت الأعصاب ، وثارت الخلافات ، واحتدت المنافسات ، كأن الجميع مقبلون على معركة حامية الوطيس وكأننا قد حررنا الديار ، وغسلنا العار ، وأخذنا الثأر ، ولم يبق إلا معركة الكرة تتمم بها قائمة الانتصارات والمفاخر .

وفى الأيام الأخيرة طالعتنا الصحف بأخبار تعد كالإرهاص لمضاعفات ستأتينا من وراء تلك البلوى ، فهذا رئيس لمجلس الإدارة فى إحدى الشركات يموت بالسكتة القلبية ، لأن فريق الكرة الذى يحبه قد انهزم فى المباراة ، وهذا مراقب فى الامتحان بإحدى الكليات يأخذ معه جهاز راديو فى وقت الامتحان ، ليسمع مباراة كرة القدم وهو مكلف بالتفرغ لمراقبة الطلبة أثناء الامتحان ؛ هذا زوج يتعصب لفريق ، وزوجته تتعصب لفريق آخر ، والنزاع يثور بينهما دائماً كلما جرت مباراة ، وحينما يفوز فريق الزوج يغيظ زوجته بالقول والإشارة وغير ذلك من تصرفات ، وبيت هذين الزوجين تعلن فيه حالة الطوارئ ، كلما كانت هناك مباراة بين الفريقين ، ولابد من صدام بين الزوجين ، إذا تغلب أحد الفريقين على الآخر ، بل هناك صدام حتى ولو تعادلا ، لأن كلا من الزوجين يمدح فى فريقه ويذم فريق الطرف الآخر ، وليس ببعيد أن يأتى اليوم الذى تؤدى فيه بلوى التعصب لكرة القدم إلى أن ينتحر الشخص حداداً على انهزام فريقه متأثراً بما فعله ذلك المخبول الأمريكى حين أطلق الرصاص على جهاز التلفزيون لأنه شاهد على شاشته الفريق الذى يحبه وقد باء بالهزيمة والفشل . ويزداد الموقف أسفاً وأسى حين تخبرنا الصحف بأن الفريقين فى المبارات المهمة يرفضون أى حكم وطنى يحكم بينهما ، بل يصرون على اختيار حكم أجنبي كأنه لا يوجد بين المواطنين من يستحق الثقة أو يعرف العدالة :

إن هذه الأخبار التى توالت فى أيام متقاربة تحملنا على أن نتذكر قول أبى الطيب المتنبى .

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

أو قول حافظ إبراهيم :

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو طالب

أو قول الآخر :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب

إننا — كما قلت منذ عهد بعيد — نحتاج إلى التربية الرياضية التى تكون فى المرء جسماً وفهماً وعقلا وخلقاً ، لأننا نحتاج إلى الرياضى الصحيح ، بجسمه المحكم ، وتفكيره المنظم ، وخلقه المقوم ، وإيمانه المدعم ، كما نريد جيلا فتياً فى بدنه وكيانه ، عميقا فى تفكيره وجنانه ، غيوراً على بلاده وأوطانه ، متطهراً فى خلقه ووجدانه ، ثابتاً فى يقينه وإيمانه ، ومن هذا الجيل المنشود يتكون المؤمن العظيم الذى نريد ، ولا معنى للرياضة إذا لم يحسن صاحبها الجمع بين قوة بدنه وضبط نفسه وتحكم عقله ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم ، فقد قال عن أحد الأخيار : « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » وبسطه العلم إشارة إلى قوة العقل والخلق ، وبسطة الجسم إشارة إلى فتوة البدن وصلابة الأعضاء . والله تبارك وتعالى حين امتدح أهل الكهف وصفهم بأنهم فتية ، وهذه إشارة إلى القوة الحسية ، وبأنهم آمنو بربهم ، وهذه قوة عقلية وخلقية ، فقال : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقلوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططا » . فكيف يتحقق هذان الهدفان ، الجليلان ،

أو نحسن الجمع بينهما عن طريق الرياضة إذا كنا سنظل نتخذها وسيلة للتعصب المذموم والمنافسة السخيفة الزائدة عن حدها ، والخلافات الحادة التى تؤدى إلى الكراهية والبغضاء ؟ .

من حقنا أن نتمتع بالرياضة ، ولكن على شريطة أن تكون وسيلة لا غاية ، وتدريباً لا حرفة ، واستمتاعاً لا تعصباً ، وعلى شريطة أن لا تشغلنا كرة القدم عن واجبات ثقال تلاحقنا من يمين وشمال ، لأن الناس يتندرون علينا فى الخارج ، ويقولون إن سبب ضياعنا ونكبتنا أمران هما كرة القدم والغناء ، ولقد نشرت الصحف مثلا أن الإسكندرية انقلبت إلى أعراس وأفراح ، لأن فريقها قد فاز ، وحينما قرأت ذلك ورأيت جانباً من صورة تحركت أشجانى ، وقلت فى نفسى : ليتنا نعيش حتى نرى الإسكندرية وغيرها من بلادنا تعيش فى أعراس النصر وأفراح الحرية : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

والله ما دون الجلاء ويومه   يوم تسمية الكنانة عيداً

وينبغى أن لا ننسى أن بلادنا محتلة ، العدو فى سيناء ، والعدو فى غزة ، والعدو فى المرتفعات السورية ، والعدو فى فلسطين ، ولا يجوز أن ننسى ذلك بحال من الأحوال ، ولقد كنت أحدثكم فى كل أسبوع عن شهيد من شهدائنا ، أو بطل من أبطالنا ، لكى تتحرك الهمم وتستيقظ العزائم ، فماذا يراد منى أمام وباء كرة القدم ؟ أخشى أن يراد منى أن أحدثكم كل أسبوع عن لاعب من لاعبى الكرة النجوم الأعلام ، لأخبركم عما ذا يأكل ، وماذا يلبس ، وما هى علاقته العاطفية ، وهلم جرا .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الإسلام لا يقاوم الرياضة ، بل هو يدعو إليها ويحث عليها ، ولكنه يريدها وسيلة للتربية والتهذيب ، لا أن تكون ملهاة خبيثة تشغل الأمة عن قضاياها الكبيرة وعن واجباتها الثقيلة ، أمام طغيان أعدائها الذين يتربصون بها الدوام عن يمين وشمال « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

اعداد الشباب

الحمد لله عز وجل ، رسم الطريق للسائرين ، وأجزل الثواب للشاكرين « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » : أشهد أن لا إله إلا الله ، واهب النعمة ، وناشر الرحمة ، وهو بكل شىء عليم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، معلم الدنيا ومربى البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته وصحابته ، وأتباعه وأنصار دعوته : « الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أقبل الصيف وانتهت الامتحانات وبدأت الإجازات ، وأصبح الشباب فى فراغ بعد شغل الدرس والاستذكار والابتلاء فى الامتحان ، والشباب هم أمل البلاد وفلذات الأكباد ، فمن الواجب علينا أن نرعاهم حق الرعاية ، وأن نصونهم أفضل الصيانة ، والمشاهد الملموس أننا قد نعطى الشباب حظاً أو حظوظاً من تربية الحس والبدن ، ولكننا قد ننسى ما وراء ذلك . مع أن الشباب عقولا يجب أن تربى ، وأخلاقاً يجب أن تزكى وعقيدة يجب أن تحيا ، حتى لا تكون الشبيبة شعبة من شعب الفتون أو الجنون ، بل تكون قوة محصنة بمكارم الأخلاق ؛ والقرآن الكريم حين يحدث عن طائفة من خيار الشباب لم يبن مدحه لهم على ضخامة البدن أو متانة الفضل فقط ، بل بناه على التقوى والهدى ، فقال عن فتية الكهف الذين ضربوا القدوة فى الإيمان والصبر : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » وقال على لسان بنت شعيب لأبيها فى أمر موسى الشباب حينئذ : « إن خير من استأجرت

القوى الأمين » ولقد أشار الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم إلى أن الشباب يستحقون أكثر من غيرهم التقدير والعناية ، لأنهم صالحون للتأثر والتوجه ، بحكم قلوبهم الفتية ومشاعرهم الحية ، فقال : « أوصيكم بالشباب خيراً ، فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فحالفنى الشباب ، وخالفنى الشيوخ » ثم تلا قول الله تعالى : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

ولم يكتف الرسول بالإشارة إلى مكانة الشباب وحسن استعدادهم ، بل رسم المنهاج لتربيتهم وتأديبهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » . وهذا الحديث يوصى بأمرين جليلين الأول منها أن يلازم الوالد ولده ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى يشرف عليه ويتابع خطواته ، ويقدم إليه النصيحة فيما يعرض له من أحداث الحياة وأمور المجتمع ؛ وكثير من الناس يهملون هذه الناحية ، فلا يجلسون مع أولادهم ، بل يتركونهم للخدم أو لأصدقاء الشارع أو جيرة الحى ، وقد يتعرض الفتى حينئذ لزلازل وقلاقل تؤدى به إلى معاطب أو مخاطر ولو أن والده لازمه بقدر استطاعته لأعطاه فيضاً من وحى تجــاربه ، وباعد بينه وبين الوقوع فى كثير من الأخطاء والزلات . ولا يريد الحديث الشريف من الوالد أن يلازم ولده ملازمة سلبية صماء ، بل يضيف إلى الملازمة أمراً مهماً آخر ، لا تتم الثمرة من هذه الملازمة إلا به ، وهو أن يحسن أدبه ويتقن تهذيبه ، ويجيد تعويده مكارم الأخلاق . ثم يأتى حديث ثان ويقول : « من كان له صبى فليستصب له » وهذا مسلك رائع فى تربية الشباب وتدريبهم ، فالحديث ينصح لرجل بأن يتقرب من صبيه ، فلا ينظر إليه من برج شاهق ، ولا يجعل بينه وبينه فجوة بسبب تفاوت العمر ، أو اختلاف العصر ، بل يتحبب إليه ويتودد ، وينزل إلى مستواه ، ويعيش فى دنياه ، ويتفهم أحاسيسه ومشاعره

حتى يدركها على وجهها ، ويقدر العوامل والانفعلات التى تموج فى صدر الفتى ، ويحسن توجيهها وقيادتها ، حتى ينفس عنها من جهة ، ويتقن استغلالها من جهة أخرى .

وبعض الناس يخافون على أبنائهم خوفاً مبالغاً فيه ، فيحيطونهم بالحنان الطاغى والعطف الزائد ، وقد يظل الولد حبيس هذا التخوف حتى يكبر عمره ، وهم لا يسمحون له مثلا بأن يخرج منفرداً لركوب ترام أو سيارة أو قضاء مهمة ، مع أن الواجب على الأب أن يحسن رعاية ابنه ورقابته عليه ، وفى الوقت نفسه يمكنه من النهوض ببعض الأعمال التى تناسبه وتكون شخصيته وتظهر ذاتيته ، وتملا نفسه بالثقة والاطمئنان ، حتى لا يظل جباناً خوافاً هياباً ، فلا يفلح فى حياته ، ولا يحسن مواجهة الدنيا حين يضطر إلى مواجهتها ؛ وهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام نجده يحيط نفسه بكوكبة من الشباب يحملهم جلائل الأعمال وهم فى نضارة الشباب ، فهذا على الفتى الشاب نراه ينام فى فراش الرسول ليلة الهجرة ، ويعرض حياته للخطر بلاخوف أوجبن ، ويؤدى الأمانات التى وكل إليه الرسول أن يردها الى أهلها ثم يهاجر وحده وهذا سعد بن أبى وقاص الفتى الشاب نراه فى غزوة أحد — وقد اشتد الأمر على المسلمين ، وتفرق الكثيرون — يقف بجوار النبى فى شجاعة وثبات ، يدافع عنه بنباله وسهامه ، والرسول يقول له حاثاً ومشجعاً : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحزور (أى القوى) ، ويظل سعد يرمى حتى يبلغ مارماه قرابة الألف ، ثم يتناول سهماً ويقول : اللهم سهمك ، فارم به عدوك . ويزكى الرسول رجاءه قائلا : اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد رميته ، واستجب دعوته ، وحقق الله دعاء رسوله ، فكان سعد فارساً مسدد الرميات مجاب الدعوات ؛ وهذا أسامة بن زيد الفتى الشاب يجعله الرسول أميراً على جيش المسلمين وفيه أعلام الصحابة ، ولما وجد

بعضهم من ذلك شيئاً فى نفسه قال الرسول عنه : « إنه مظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . وأسامة نفسه هو الذى ركب جواده ، وسار يقود الجيش ، وسار الخليفة أبو بكر فى ركابه ماشياً ، فقال له أسامة : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال له : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ! .

ولقد سار صحابة رسول الله على سنته فى العناية بالشباب وتوجيههم وعرفان قدرهم ، وهذا هو الإمام الزهرى يقول لطائفة من الشباب : « لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المفضل دعا الفتيان فاستشارهم ، يتبع حدة عقولهم » . ومن بعد الفاروق جاء حفيده خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز الذى نراه يستقبل وفد أقدم من الحجاز لتهنئته بالخلافة ، فتقدم شاب صغير السن ليتكلم ، فقال له خامس الراشدين : ليتكلم من هو أسن منك ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، ليس الأمر بالسن وإنما المرء بأصغرية قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاز له الاختيار واستحق الكلام ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا . فأعجب عمر بالشاب وشجاعته وحسن منطقه وقال له : صدقت . تكلم أيها الغلام ، فهذا هو السحر الحلال ! .

فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة (طلب المعونة) لم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا أمنا فى أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

وهنا قال عمر لمن حوله معجباً بما سمع :

تعلم فليس المرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده　　　صغير إذا التفت عليه المحافل

والرسول عليه صلوات الله وسلامه لا يرضى للشباب أن يستجيبوا لنزواتهم الجامحة أو أهوائهم ، بل يرضى لهم الفضيلة ، والحكمة والرزانة ، ولذلك يقول : « خير شبابكم المتشبهون بشيوخكم » أى فى عمق التفكير ورزانة التصرف وبراعة القيادة ، كما يرضى لهم الجد فى ميدان الهداية والتقوى ويكرم من يفعل ذلك خير تكريم حين يقول : « إن الله تعالى ليباهى ملائكته بالشباب الصالح » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس : « الخير كله فى الشباب » وإنما يكون هذا إذا عنينا بالشباب حق العناية ، ورعيناهم أفضل الرعاية ، فاتقوا الله فى أولادكم ، وأرضوا ربكم بصيانتهم وتوجيههم وربطهم بأسباب على استقامة وبصيرة دينهم ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، وسبحانه من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

موسيقى الجاز فى الجامعة

الحمد لله تبارك وتعالى ، رسم معالم الطريق ، وهيأ أسباب التوفيق ، من يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل : « استوصوا بالشباب خيراً » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه السابقين وأتباعه الصادقين ، أولئك المقربين فى جنات النعيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول ربكم جل جلاله : « ولتكن منكم أمة يدعو إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول رسولكم صلوات الله وسلامه عليه : « الدين النصيحة » واستجابة لهذا الهدى الإلهى والتوجيه النبوى اذكر أن إحدى صحفنا الصباحية نشرت منذ أيام موضوعاً استغرق نحو نصف صفحة من صفحاتها الطويلة العريضة تحت عنوان عريض طويل ثقيل هو « موسيقى الجاز فى الجامعة » وموسيقى الجاز هى موسيقى راقصة صاخبة ، تتسيب فيها الضوابط وتنطلق فيها المشـــاعر وتتحلل الذوات. وقد بدأت الصحيفة بقولها : « موسيقى الجاز ظاهرة جديدة لم يشهدها الحرم الجامعى فى مصر من قبل ، ولم تألفها الأجيال العديدة التى تخرجت فى الجامعات من قبل ، انتشرت حفلاتها بجامعة عين شمس ، واستمرت حتى الآن بنجاح لافت للنظر » . وقد انتظرت أياماً أتوقع تكذيباً للخبر أو تصحيحاً له ، ولكنى مع الأسف لم أجد شيئاً ، فهتفت من أعماقى : يا ضيعة الشباب فى عصر الحرية. وقد نشرت الصحيفة صوراً لطلاب اختلطوا بطالبات فى غير وقار ،

وذكرت أن القاعة امتلأت بهم وبهن حتى جلس بعض الطالبات على درجات السلم ، وأن بعض الطلبة « كان هائماً تماماً مع اللحن » — هكذا تعبير الصحيفة .

وقد بدأت المهزلة بأن إحدى الكليات اتفقت مع فرقة أجنبية لإقامة حفلة موسيقية فيها ، بأجر لها قدره ثلاثمائة جنيه ، وكان ثمن التذكرة للطلبة خمسة وثلاثين قرشاً ، وسارعت الكليات الأخرى بالتلقين والمتابعة فتعاقدت مع الفرق الموسيقية ، وتكاثرت الحفلات حتى وصل عددها إلى ثلاث حفلات فى الأسبوع ، مع أن السنة الدراسية بدأت متأخرة ، والمواد كثيرة والكتب المقررة ضخمة ، ووسائل اللهو والضياع كثيرة ، وفرص التحرر والعبث عديدة ، والجمل على ظهره ناقة منذ أمد بعيد ، فلصالح من يكون هذا الانطلاق ؟ . . والعجيب هو أن تذكر الصحيفة أن أحد العمداء قد قال إنه لا يجب أن تناقش هذه التجربة ، لأن الجامعة يجب أن تكون مفتوحة لكل التجارب ، ويقول إنه قد سمح بموسيقى الجاز دون رقص الآن ، لأن الرقص مازال لا يتناسب مع تقاليدنا وعاداتنا ، ومعنى هذا أن المسألة مسألة وقت ومسألة زمن ، وأنه لا يبعد أن تقام فى الجامعة حفلات « جاز » يكون فيها رقص يشترك فيه الطلبة والطلبات كما بشرنا السيد العميد ، الذى يقول إن الجامعة يجب أن تكون حقلا لكل التجارب ، مع أن من التجارب تجارب فيها اعتساف أو انحراف أو إسراف ومن التجارب تفتح أبواب السعير كأوسع ما تكون هذه الأبواب ، ولست أدرى لماذا نبرع فى تجارب الشر ولا نبرع فى تجارب الخير ؟ هل قامت الجامعة مثلا بتجربة دراسة الثقافة الإسلامية لطلابها ؟ هل قامت الجامعة بتجربة أداء الطلاب والأساتذة للصلاة فى جماعة ؟ هل قامت الجامعة بتجربة لتعويد طلابها كيف يطالعون فى المصحف الشريف أو يحفظون جانباً من القرآن الكريم ؟ .

ويذكر العميد أن هذه الحفلات الصاخبة المنطلقة تحقق ربحاً مادياً ،

فهل أصبحت الجامعة متجراً يبحث عن الربح المادى ولو على حساب التقاليد والآداب والقيم ؟ وإذا كان ثمن التذكرة لإحدى هذه الحفلات الصاخبة هو خمسة وثلاثين قرشاً ، فما هو صنف الطلبة والطالبات الذى يقدران بدفع هذا المبلغ الكبير بالنسبة إلى الطالب ؟ إنه فى الغالب لمن أبناء أو بنات الطبقات الغنية أو الميسورة ، وهناك فى الجامعة طلاب يحتاجون إلى ثمن التذكرة ليكون مصروفاً لهم خلال أسبوع ، وهناك فى الجامعة من يعجز عن ثمن تذكرة الركوب فى الترام أو السيارة العامة ، ومعنى هذا أن الطلاب القادرين على حضور هذه الحفلات يكونون فى العادة من الأسر الغنية التى ألفت التحرر والانطلاق فى عاداتها وتقاليدها ، فهى تعرف الطريق إلى المسرح والسينما ، وتملك جهاز التلفزيون ، وتحضر الحفلات المختلفة الصاخبة إلى آخر هذه القائمة السوداء المعروفة ، وكأننا بهذا نزيد المتحررين المنطلقين تحرراً وانطلاقاً فى رحاب الجامعة ، ونزيد الطلاب الفقراء شعوراً بالحرمان والعزلة ، فياهادى الطريق جرت ، ياهادى الطريق جرت .

وهناك أمر له أهميته وخطورته، إننا نشكو من سوء فهم بعض المتدينين من الشباب للدين ، ونطالب بتوعيتهم وترشيدهم وينبغى أن نفهم من أسباب هذا التدين المتعصب وجود هذا الانطلاق ضد الأخلاق عند المتحررين أو الملحدين أو الذين يعيشون بلا دين .

فحينما يرى الشباب المتدين أمثال حفلات الجاز يزداد غيظاً وألماً ، ويقوم بعملية « رد الفعل » على هذه المساخر ، فيصب غيظه فى تدينه حسبما يفهم التدين ؛ ويزداد تعصباً وتزمتاً بمقدار ما يزداد الآخرون تحللا وانطلاقاً ، فكأننا نحن الذين نتسبب فى إيجاد هذا التزمت الممقوت ، لأن الإسراف هنا يؤدى إلى الإسراف هناك .

والغريب أن السيد العميد يسوغ هذه الحفلات الجازية الصاخبة بأن الطلاب مع الطالبات راضوان عنها. فهل هذا منطق ؟ . وماذا تنتظر من الشباب حين تطلق لهم العنان ، وتهيئ لهم أسباب اللهو والغيب ؟ هل تنتظر منهم أن يكونوا قديسين ، وهم يرون أن الذين يفرض عليهم أن يربوهم ويعلموهم ويهذبوهم يهيئون لهم حفلات الموسيقى والغناء ؟ ! .

ومن المضحك المبكى معا أنهم يحرصون على تسمية مكان الجامعة باسم « الحرم الجامعى » ، وكلمة « الحرم » كلمة لها حرمتها وقداستها ، وإذا سمع المسلم كلمة « الحرم » تذكر الحرم المكى ، وفيه الكعبة البيت الحرام ونذكر الحرم المدنى ، وفيه مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونذكر الحرم القدسى ، وفيه المسجد الأقصى ثالث مساجد الإسلام رده الله على العرب والمسلمين فماذا يتذكر المسلم حين يسمع كلمة « الحرم الجامعى » ؟ هل يتذكر موسيقى الجاز التى تقام بلا حساب داخل الجامعة ؟ ياهادى الطريق جرت :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن لكم أبناء أو بنات فى الجامعة ، ومن واجبكم شرعاً أن تحرصوا على سلامة توجيههم وتعليمهم ، ومن واجبكم أن تقولوا للمسئولين عن هؤلاء الشباب : نريد أن يتعلم أولادنا العلم لا الرقص ، والتصون لا التحلل ، والوقار لا التسيب ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم .

الصلاة

الحمد لله عز وجل ، شرح الصدور بطاعته ، وهدى القلوب بحكمته « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ضلت الطرق إلا طريقة ، وعميت السبل إلا سبيله : « من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أنذر الخائفين وعلم الخاشعين « إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته ، وصحبه وجماعته ، ومن استجاب لمدينه ودعوته « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشرت إحدى الصحف بالأمس صورة طبيب مشهور يصلى ركعتين قبل دخوله حجرة العمليات ، وذكرت أنه كلما هم بإجراء عملية جراحية توضأ وصلى ركعتين فى اطمئنان وخشوع ثم أخذ يؤدى عمله ؛ وحق له أن يفعل ذلك ، فهو يقبل على عمل مهما أوتى من مهارة وعلم لا يقدر بقوته وحدها على أن يحسنه ويتقنه ويضمن النتيجة ؛ فهو لذلك يربط أسبابه أولا بواهب القوى والقدر ، وولى الهداية ومصدر التوفيق ، ليمنحه رشاداً وسداداً ، ويعصمه من الخطأ والزلل : « ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » ... وهذا طبيب مسلم آخر ، اختصاصه عمليات التوليد ، وكلما هم بالقيام بعملية توليد توضأ وصلى ركعتين ؛ ويقول إنه عقب هذه الصلاة التى يؤديها بإخلاص وخشوع ، يحس بأن جسمه قد خف ورق ، وأن روحه قد صفت وأشرقت ، وأنه يقدم على واجبه الدقيق وهو عميق الشعور بأن الله

معه ، وبأن يد الخالق جل جلاله فوق يده ، ويقول إن حالات كثيرة عسيرة في الولادة تيسرت فى هذا الجو وانتهت على خير . . . ومن المشاهد أن أن إيمان المؤمنين من الأطباء والعلماء أقوى من إيمان سواهم ، لأنه إيمان مبنى على التجربة والمشاهدة ، فالطبيب يرى من دقائق الصنع الإلهى فى الجسم البشرى ما يقف أمامه مندهشاً مذهولا ، هاتفاً فى جنانه أو بلسانه : ذلك صنع الله الذى أتقن كل شىء ، فتبارك الله أحسن الخالقين . . . والعالم يتطلع فى نواحى الكون دارساً فاحصاً ، فإذا أمامه الأسرار والأخبار ، وإذا بين يديه الآيات المعجزات ، وإذا عن يمينه وشماله الشواهد الناطقات على أن للكون إلها ، وللعلم ربا يقوده ويسيطر عليه :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد ! !

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » ! . . .

وبجوار هذا العلم بآيات الله ودقائق صنعه الربانى ، نجد للصلاة المستقيمة أثرها وثمرتها ، فأداؤها على وجهها والتبتل فى القيام بها ، مما يحقق صفة الإيمان فى النفس ، والإيمان قوة حصينة مكينة ، وحينما وصف الله المؤمنين افتتح أوصافهم بالخشوع فى الصلاة فقال : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ثم عاد فى الموطن نفسه إلى ذكر الصلاة مرة أخرى فى صفاتهم فقال : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » . وأخبرنا القرآن أنه حينما سئل المجرمون من أهل الجحيم : ما سلكم فى سقر ؟ ذكروا أول الأسباب فى ذلك : « قالوا لم نك من المصلين » ، وذكر القرآن أن قوماً

ضلوا وغووا لأنهم أضاعوا هذه الصلاة : فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

وهذا رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام يخبرنا عن أثر الصلاة وثمرها وخيرها ونورها فيقول : « إن العبد إذا صلى فأحسن الصلاة صعدت ولها نور ، فإذا انتهت إلى أبواب السماء فتحت أبواب السماء لها ، وتشفع لصاحبها وتقول : حفظك الله كما حفظتنى » ؛ ولما سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع له وأن يرافقه فى الجنة ، وألح فى ذلك الرجاء ، قال له النبي : فأعنى على نفسك بكثرة السجود ؛ أى فهيئ نفسك لبلوغ هذا الأمل بكثرة الصلاة لأنها ترفعك إلى أسمى المراتب .

والدولة تنشئ للصحة هيئات ومنظمات وتخصص للنظافة أسابيع ومباريات كما أنها تبذل ما تبذل لإيقاظ النفوس وتعبئة المشاعر وإحياء النبيل من العواطف ولو فقهنا أمر الصلاة لوجدناها عند إتقانها وإحسانها خير معوان على نظافة الحواس وطهارة النفوس ، فهى كما يقول القائل : « رياضة أبدان ، وطهارة أردان ، وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشيب عليها الجوارى والولدان » . . . والصلاة تبدأ بأن يطهر المسلم نفسه وجسمه وثوبه ومكان صلاته ، ويطهر أطرافه ويزكيها بالوضوء ، ثم يقبل على الصلاة ، فإذا ارتفعت يداهورددت شفتاه تكبيرة الإحرام ، سما فوق هذه الحياة ، واتصلت أسبابه بالله ، وانغمر فى تمجيد لخالقه وتسبيح : « سبحانك اللهم وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ؛ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من ذنوبى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من ذنوبى

بالثلج والماء والبرد » . وفى الصلاة يخرج المسلم من قيود المادة ، ويسبح في روحانية منطلقة ، ويركع ويسجد خاضعاً خاشعاً لله وحده ، فيعرف أنه لا يجوز شيء من هذا لغير الله ، ويشعر فيها بنعمة الاتصال بربه ولذة المناجاة لخالقه ، ومن هنا قال الرسول : « جعلت قرة عيني فى الصلاة » ، وما تكاد الصلاة تنتهى فى خشوع ، وتختم بالسلام والرحمة ، حتى يشيع الأمان والأطمئنان فى الإنسان وفيما حوله ، وإذا هو يردد معقباً على صلاته كما جاء فى الحديث هذه الكلمات : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

وهكذا ، إن لم تكن الصلاة عبادة ، فهى إصلاح نفس ، فإن لم تكن فهى طهارة حسن وجسم ، فإن لم تكن فهى رياضة أطراف وأعضاء ، فإن لم تكن فهى نظام ومراعاة مواقيت ، فكيف بها وهى تحقق عند إتقانها وإحسانها كل هذه الثمرات ؟ ! . . . ولكن أين نحن من حفظ الصلاة وإقامتها على وجهها ؟ وأين نحن من إتقانها وإحسانها ؟ . إن هذه الحياة الصاخبة اللاغبة ، الكثيرة الأهواء والرغبات ، المتزاحمة المطامع والشهوات ، قد حرمتنا لذة الإتقان للصلاة فنحن ننقرها نقر الديكة ، ونخطفها خطف العجلين ، ونكون من عجلتنا كالذين يختلسون أو يسرقون ، مع أن الرسول يقول : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته » . ولذلك لا نتمتع بآثارها وثمارها على الوجه الذى يرضى ، وقد نؤديها فى تكاف أو تثاقل ، فلا تنهانا عن فحشاء ، ولا تصدنا عن منكر ، ولقد كنا ونحن فتية نطلب العلم فى الأزهر منذ قرابة ثلاثين عاماً نربط دروسنا بمواقيت الصلاة فتنتهى الدروس قبل هذه المواقيت : ويؤذن للصلوات بمواقيت الصلاة ونؤديها فى جماعة وإقبال ، لأن القدوة كانت موجودة ، وحرمة الفرائض كانت

مرعية ، وأما اليوم فاسألوا إن شئتم عن مصير الصلوات بين دروس الأزهر ودروس غيره من المعاهد والمدارس ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن ناشئة الجيل الجديد لا تعرف الطريق إلى الله ، لأنها لا تجد التوجيه الديني الصحيح ولا القدوة الحسنة ، لا فى البيت ، ولا فى المدرسة ، ولا فى النادى ، ولا فى المجتمع الذى نعيش فيه ، فاتقوا الله فى هذة الأفلاذ الغالية ، وعودوا بها إلى الدين ، وعودوها الصلاة ، واللجوء إلى الله ، والاستضاءة بهداه ، فنحن أحوج ما نكون إلى ترسيخ العقيدة الدينية فى نفوس هذا الجيل ، ولن يتحقق ذلك بالندوات والمقالات فقط ، بل يتحقق بتطبيق خطة عملية يتمكن فيها نور القرآن من الصدور ، وتنطبع فيها الحواس على التطهر ، ويتعود الأفراد فيها على التعبد ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

الصوم مدرسة تهذيب

الحمد لله عز وجل ، « له مقاليد السموات والأرض » ، « فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » . أشهد أن لا إله إلا الله « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » ، « ذلكم الله فأنى تؤفكون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير العابدين وسيد المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وأتباعه وحزبه : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فى حديث الرسول عليه صلوات الله وسلامه : إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » وفى حديث آخر : « تعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى » . وبعض الأيام قد يوجد فيها من المعانى واللفتات ، أو من اللمحات والنفحات ، مالا يوجد فى غيرها ؛ عما قليل ينبثق فى كبد السماء هلال رمضان الوليد ، فكان ليكون أشبه بشعاع إلهى يسطع على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ليوحى إليهم بأن ربهم الذى أحل الحلال وحرم الحرام قد آذنهم بشهر له فى مجتمعهم تأثير ، وفى نفوسهم تأديب ، وفى مشاعرهم إيقاظ ، وكأنه لهم موسم ربيع ، يأتيهم بعد أن ظلوا أحد عشر شهراً وهم سائرون فى مسالك الحياة ، ينالون منها وتنال منهم ، وتعلق بهم رواسب وأخلاط من أعراضها وشهواتها ، فيصيبهم بسبب ذلك لون من الونى والكسل أو الفتور والخلل ، فيأتيهم رمضان إن كانوا مؤمنين حقاً . يأتيهم بصيامه وقيامه ، وعبادته وتلاوته ، فينفض هذه الأجسام الفاترة والنفوس الوانية ،

ويظل يوقد عليها بنار تأديبه ، ويضيئها بأنوار تهذيبه ، حتى يجعلها فى آخره وقد اكتمل — بتوفيق الله تعالى — وعيها الروحى وصلاحها الحسى وصفاءها النفسى ، فتتخذ لها من ذلك عدة تسير بها على الطريق حتى يلقاها رمضان مرة أخرى فى عام قابل ، وهكذا دواليك .

ورمضان عند المؤمنين العقلاء هو شهر الثورة الروحية والحسية ، فيه تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع ، فمن امتلاء إلى خلاء ، ومن رى إلى ظمأ ، ومن انطلاق مع الرغبات إلى تقييد وحرمان ، ومن غفلة ولهو إلى ذكر وترتيل ، وكأن الصوم قانون إلهى للبطن والشهوات وقانون للنفس ، يحكمها من الداخل لا من الخارج ؛ فما أكثر الذين يخضعون لقوانين الأرض من الظاهر ، ويفسدون مقاصد هذه القوانين من وراء ستار ؛ وأما قانون الصيام فإن سلطانه ينبع من أعماق النفس وأغوار الضمير ، ولذلك كان الصوم سراً مودعاً فى أمانة المسلم . لا يطلع على حقيقته وصحته إلا من يعلم طوايا النفوس وخفايا الضمائر ، وهو الله جل جلاله : « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ . ومن هنا جاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

وهذا الصوم إذا استقام أمره وأينع ثمره يكون تطبيقاً عملياً للأخوة الإسلامية بذلك الحرمان الإجبارى والجوع المفروض والتساوى فى الإحساس بالألم الواحد ، وهو ألم الحرمان المشروع فى الصوم الذى هو : « تأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع » .

والذى « يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر » . ونحن نشكو مر الشكوى من التكالب المادى على الحياة ، والإلحاح الجشع على مطالبها ورغبائها ، مع عدم الرضا وعدم الشعور بالسعادة ، وكأن الإنسان فى طلبه للحياة يملأ فى « قربة مقطوعة » ، فهى لا تمتلئ ولا تكتفى ، فيأتى

شهر رمضان ليكون فترة تأديبية تهذيبية تعلم الإنسان كيف يهدأ ، وكيف يخفف من جموح رغباته وإسراف شهواته ؛ وهذه هى المفطرات تكون من حوله ، وليس عليه من رقيب أو حسيب سوى ربه المطلع على الضمائر والسرائر ، ومع ذلك يصد الصائم نفسه ، ويسوسها لتتعلم كيف تمتنع وتصبر ، وكيف تراقب الله علام الغيوب .

وهذا هو العالم يشكو طوفان ذلك السعار المادى الذى أصاب أكثر الناس ، فجعلهم يطلبون ولا يعطون ، ويشتهون ولا يصبرون، ويحسنون الجمع ولا يعرفون القسمة ، حتى حطم فيهم روح المغالبة والمقاومة ، فيأتى شهر رمضان ليكون مدرسة تستمر ثلاثين يوماً فى كل عام ، فيأخذ فيها الصائم المخلص دروساً عملية تهديه إلى المغالبة وتقويتها ، وإلى المقاومة وتعزيزها والحياة غير مأمونة العواقب ، فهى يوم لك ويوم عليك ، وكوارث الدنيا تتربص بأهلها الدوائر عن يمين وشمال ، فإذا ألف الإنسان الترف والنعيم ، وفاجأته الشدة أو المحنة ذل أمامها وخنع ، لأنه لم يتعود خشونة أو تقشفاً أو تخففاً فى المتاع ، ولهذا قال عمر : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » . والصوم تدريب على هذا الاخشيشان طوعاً واختياراً ، قبل أن يكون جبراً وإرغاماً ؛ والنفس البشرية قد توضع لها القوانين الوضعية لتحكمها وتزجرها وقد تبدو النفس راضية بهذه القوانين من الظاهر ، ثم تكرهها من الداخل ، ولكن الصوم هو القانون الإلهى الداخلى الروحى الذى يسيطر على أعماق النفس وخفاياها ، فيقودها طواعية واختياراً لا كرهاً ولا إجباراً ، ومتى استطاع الإنسان أن يملك زمام نفسه من الداخل فقد تحكم فى أسبابها ، واستطاع أن يقودها إلى حيث يريد . ولأن الصيام فيه هذه « الباطنية » المستورة ، وفيه هذه « الداخلية » أو الجوانية التى لا يطلع على أمرها إلا الله الذى يعلم السر والنجوى ، جعل الله تبارك وتعالى هذا الصوم عملا خالصاً

لوجهه ، تزيد مضاعفة الثواب من الله عليه ، حتى يغمر الله عبده بفيوض من رحمته ونعمته ، يقول الحديث : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » . ولأن الصيام الحقيقى يحفظ النفس من الجشع والسعار والترف المهلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصيام جنة » أى وقاية وحفظ من المعاطب ، لأنه يكسر الشهوة ويعلم العفة ويقوى الإرادة ، ويحقن فى نفس الصائم المخلص صفة التقوى التى تتجمع تحت لوائها الفضائل وتنأى عنها الرذائل، ولذلك يقول عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

قد يقال إن بعض الناس لا يستفيدون من الصيام ، وهؤلاء فى الواقع هم الذين لا يصومون الصوم الإسلامى الذى شرعه الإسلام وأراده الله تعالى لعباده ، فهم فى رمضان يقلبون الوضع ويعكسون الهدف ويفسدون الخطة ، فيسرفون فى الطعام إسرافاً يجعل هذا البطن مخزناً لطبقات من الطعام بعضها فوق بعض ، فتتلبك المعدة ، ويضطرب الهضم ، وتتأذى الأمعاء ، ويظل الواحد منهم طيلة النهار فى خلل واختلال ، وهم يقضون ليلهم ساهرين فيما يتلف الصحة أو الخلق ، ويتناولون ما حل أو حرم من المشروبات والمنبهات ، ولا يقوون أرواحهم بكلم طيب ، أو قيام مهذب أو عبادة موقظة ، ويحرمون أنفسهم حظها من النوم ، فإذا غدوا إلى أعمالهم غدوا كسالى ، وإذا خاطبوا الناس خاطبوهم على غير هدوء ، وإذا طولبوا بالاستقامة فى القول والعمل ضجوا واحتجوا بالصيام ، والصيام منهم برئ ، وهكذا يحملون الصيام تبعة إسرافهم وانحرافهم ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . :

إن لله فى أيامكم نفحات ، والعاقل اللبيب من تعرض لهذه النفحات لينال منها ويسعد بها ، وهذا شهر رمضان قد أقبل ، وهو موسم جليل من مواسم الطاعة والخير والبر ، وفرصة من فرص التقرب إلى الله تعالى بذكره وعبادته ، ومعاونة المحتاجين من خلقه ، وتثبيت دعائم الصلاح والإصلاح فى أرضه ، فلنستعن الله جل جلاله فى أن يوفقنا خلاله لصالح العمل ، وأن يجعله لنا موسماً من مواسم الطاعة والتطهر والقبول ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم :

فائدة الصوم[١]

الحمد لله عز وجل ، يؤدب ويهذب ، ويهدى ويرشد : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء الله لهداكم أجمعين » . . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحي بقدرته موات الحواس والنفوس ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

بعد ساعات معدودات ينبثق فى كبد السماء هلال رمضان الوليد ، فيكون هذا الهلال أشبه بشعاع إلهى يسطع على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ليوحى إليهم بأن ربهم الذى أحل الحلال وحرم الحرام قد آذنهم بشهر له فى مجتمعهم تأثير ، وفى نفوسهم تأديب ، .

ومن عجيب الاتفاق أن رمضان فى هذا العام يأتى موافقاً لشهر مارس من شهور الميلاد ، وشهر مارس هو الشهر الذى تبدو فيه بواكير الربيع ، وتبدأ الطبيعة خلال ثلثه الثالث تنبعث من رقدتها ، وتهب من غفوتها ، وتأخذ فى نشر مكارفها وزخارفها ، فتحيا الأرض الهامدة بعد موات ، وتورق الأشجار بعد جفاف ، وتتفتح البراعم والأكمام ، وتزدان الحقول والمزارع بالأزهار والثمار ، وتتهيأ الأرض لتؤتى أكلها الطيب بإذن ربها الخلاق العظيم . . . وإذا كان مارس هو شهر الربيع للطبيعة ، والإخصاب للأرض ، فإن رمضان شهر ربيع للمسلمين فى حواسهم ونفوسهم ، يأتيهم بعد أن ظلوا أحد عشر شهراً ، أى نحو ثلاثمائة وثلاثين يوماً وهم سائرون

فى مسالك الحياة ، ينالون منها وتنال منهم ، وتعلق بهم رواسب وأخلاط من أعراضها وشهواتها ، فيصيبهم بسبب ذلك لون من الونى والكسل ، أو الفتور والخلل ، فيأتى رمضان بصيامه وقيامه فينفض هذه الأجسام الفاترة والنفوس الوانية ، ويظل يوقد عليها بنار تأديبه ، ويضيئها بأنوار تهذيبه ، حتى يجعلها فى آخره وقد اكتمل وعيها الروحى وصلاحها الحسى وصفاؤها النفسى ، فتتخذ لنفسها عدة تسير بها على الطريق حتى يلقاها رمضان مرة أخرى فى كل عام قابل وهكذا دواليك .

ولقد تردد أن مسرفاً فى القول من الحاكمين فى بعض بلاد المسلمين قد دعا إلى تعطيل شعيرة الصيام ، بدعوى أنه مضيعة للوقت والمجهود ،

والليـــالى من الزمان حبـــالى   مثقلات يلدن كـــل عجيب

وكأن هذه الملايين قد جدت واجتهدت فى كل أوقاتها وحالاتها ، ولم يبق إلا شهر رمضان وهو الذى يقبل ليسوس الجسم والنفس والعقل معاً ، فيكون كما قرر الأطباء — وليس العلماء فقط — تطهيراً للمعدة وتقوية للارادة وتصفية للذهن ، كما يكون تطبيقاً عملياً للاشتراكية الإسلامية بذلك الفقر الإجبارى والجوع المفروض والتساوى فى الإحساس بالألم الواحد وهو ألم الحرمان المشروع الذى هو « تأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع » ، والذى « يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر »... ونحن نشكو مر الشكوى من هذا التكالب على الحياة والإلحاح الجشع على مطالبها ورغائبها ، مع عدم الرضا وعدم الشعور بالسعادة ، وكأن الإنسان فى طلبه للحياة يملا فى « قربة » مقطوعة ؛ فهى لا تمتلئ ولا تكتفى ، فيأتى شهر رمضان ليكون فترة تعلم الإنسان كيف يهدأ ويخفف من جموع رغباته وإسراف شهواته ؛ وهذه هى المفطرات تكون من حوله ، وليس عليه

من رقيب أو حسيب سوى ربه ، ومع ذلك يصد نفسه ، ويسوسها لتتعلم كيف تصبر ، وكيف تراقب الله علام الغيوب .

وهذا هو العالم يشكو من طوفان ذلك السعار المادى الذى أصاب أكثر الناس ، فجعلهم يطلبون ولا يعطون ، ويشتهون ولا يصبرون ، حتى حطم فيهم روح المغالبة والمقاومة ، فيأتى شهر رمضان ليكون مدرسة تستمر ثلاثين يوماً فى كل عام ، فيأخذ فيها الصائم دروساً عملية تهديه إلى المغالبة وتقويتها ، وإلى المقاومة وتعزيزها ؛ والحياة غير مأمونة العواقب . فهى يوم لك ويوم عليك ، وكوارث الدنيا تتربص بأهليها عن يمين وشمال ، فإذا ألف الإنسان الترف والنعيم ، وفاجأته الشدة أو المحنة ذل أمامها وضنع ، لأنه لم يتعود خشونة أو تقشفاً أو تخففاً فى المتاع ، ولهذا قال عمر : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » . والصوم تدريب على هذا الاخشيشان طوعاً واختياراً ، قبل أن يكون جبرا وإرغاماً ؛ والنفس البشرية قد توضع لها القوانين الوضعية لتحكمها وتزجرها ، وقد تبدو النفس راضية بهذه القوانين من الظاهر ثم تكرهها أو تثور عليها فى الداخل ، ولكن الصوم هو القانون الداخلى الروحى الذى يسيطر على أعماق النفس وخفاياها ، فيقودها طواعية واختياراً لا كرها وإجباراً ، ومتى استطاع الإنسان أن يملك زمام نفسه من الداخل فقد تحكم فى أسبابها واستطاع أن يقودها إلى حيث يريد ؛ ولأن الصيام فيه هذه « الباطنية » المستورة وهذه « والداخلية » التى لا يطلع على أمرها إلا الله الذى يعلم السر والنجوى ، جعل الله تبارك وتعالى هذا الصوم عملا خالصاً لوجهه ونسبه إلى جلاله ، فجاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » . ولأن الصيام يحفظ النفس من الجشع والسعار والترف المهلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصيام جنة » أى وقاية وحفظ من المعاطب ، لأنه يكسر الشهوة ويعلم العفة ويقوى الإرادة ، والله تعالى

يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

قد يقال إن بعض الناس لا يستفيدون من الصيام ، وهؤلاء فى الواقع هم الذين لا يصومون الصوم الإسلامى الذى شرعه الإسلام وأراده الله لعباده ، فهم فى رمضان يسرفون فى الطعام إسرافاً يجعل هذا البطن مخزناً لطبقات من الطعام بعضها فوق بعض ، فتتلبك المعدة ، ويضطرب الهضم ، وتتاذى الأمعاء ، ويظل الواحد منهم طيلة النهار فى خلل أو اختلال ، وهم يقضون ليلهم ساهرين فيما يتلف الصحة أو الخلق ، ويتناولون ما حل أوحرم من المشروبات والمنبهات ، ولا يقوون أرواحهم بكلم طيب أو قيام مهذب أو عبادة موقظة ، ويحرمون أنفسهم حظها من النوم ، فإذا غدوا إلى عملهم غدوا كسالى ، وإذا خاطبوا الناس خاطبوهم على غير هدوء ، وإذا طولبوا بالاستقامة فى القول والعمل ضجوا واحتجوا بالصيام ، والصيام منهم برئ ، وهكذا يحملون الإسلام تبعة إسرافهم وانحرافهم ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إن لله فى أيامه نفحات ، والعاقل اللبيب من تعرض لهذه النفحات لينال منها ويسعد بها . وهذا شهر رمضان على الأبواب ، فلنستعن الله جل جلاله فى أن يوفقنا خلاله لصالح العمل ، وأن يجعله لنا موسماً من مواسم الطاعة والتطهير والقبول ، وسبحان من لوشاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . .

الحج خاتمة الأركان

الحمد لله عز وجل ، رسم الطريق ويسر التوفيق : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، واهب الهدى ، ورازق الرضى : هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل له ربه : « ونيسرك لليسرى » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

أنزل الله دينه العظيم ليكون تزكية للحياة ونوراً للأحياء ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ، ولقد بنى الله العلى الكبير دينه على خمسة أركان ، يتم بها البنيان ، ويسعد بها الإنسان ، وبدايتها شهادة التوحيد : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وختام هذه الأركان حج بيت الله الحرام ، ولذلك قال سيد الخلق : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، ونلاحظ أيها الأخوة أن مجموع هذه القواعد يعمر حياة الإنسان ويصاحبه فى الليل والنهار ، والصباح والمساء ، على امتداد اللحظات والأيام والأسابيع والشهور والأعوام ، بل تصاحبه العمر كله ، منذ أن يفقه الحياة إلى أن يلقى الله : « صنع الله الذى اتقن كل شىء » .

ونلاحظ معاً أيها الإخوة أن من هذه القواعد ما يجب تذكره وتدبره واستحضاره فى القلب والعقل فى كل ساعة من ساعات الحياة ، بل فى كل

لحظة من لحظات العمر ، بل مع كل خفقة من خفقات القلب إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ألا وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ، « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

ومن هذه الأركان ما نقوم به كل يوم عدة مرات ، ونعود إليه كلما مرت علينا من الحياة ساعات ، وهى فرائض الصلوات ، التى نؤديها يومياً خمس مرات ، فى الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، والقرآن الجليل يقول : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ويقول : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » . فالصلاة فريضة يومية متكررة ، كلما مر بضع ساعات هرعنا إلى محراب الصلاة ، لنستغرق فى المناجاة ، وفى الحديث مع الله خالق الحياة ، بعد أن نقطع العلاقة المادية إلى حين مع شهوات هذه الحياة .

ومن هذا القواعد ركن نستطيع أن نسميه بالفريضة الموسمية ، يتكرر فى كل موسم من مواسم العام ، وهو الزكاة بمختلف أنواعها ، فى زكاة الزروع نؤديها كلما حل موسم للحصاد ، ولذلك يقول الكريم عن الزرع : « وآتوا حقه يوم حصاده » ، فإذا مر العام ، أو كما يقول الفقهاء : حال الحول ، وجب إخراج زكاة المال المدخر إذا بلغ النصاب المطلوب ، والحق يقول : « قد أفلح من تزكى » ويقول : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » . ومن هذه القواعد ما نؤديه فى شهر واحد معين من كل عام فريضة من الله والله عليم حكيم ، ذلكم هو الصوم الذى يقول فى شأنه التنزيل الحكيم : « يا أيها الذين أمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات » ثم حدد القرآن تلك الأيام بقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

ومن هذه القواعد أخيراً فريضة تؤدى مرة واحدة فى العمر كله مهما طال أو امتد ، وهى فريضة الحج الذى يقول عنه القرآن المجيد : « ولله على الناس حج البيت من اسْتطاع إليه سبيلا » ، ولأن الحج يؤدى كفريضة مرة واحدة فى العمر كله جعله الله خاتمة لقواعد الإسلام الخمس ، ففرضه على الناس وشرعه بعد أن شرع الفرائض الأخرى ، ولأمرما وحكمة يعلمها الله سبحانه حج الرسول حجته الواحدة — حجة الوداع — فى العام التاسع من الهجرة ، وقبل وفاته ، صلوات الله وسلامه عليه بقليل ، واشتراط الإسلام فى وجوب الحج على المسلم شرط الاستطاعة ، فقال : « لمن استطاع إليه سبيلا » ، وهذه الاستطاعة فيما يفهم المتدبر المتبصر تتسع وتنفسح حتى تشمل الاستطاعة الصحية والاستطاعة المالية والاستطاعة الذهنية ، بحيث يفهم من يقوم بالحج كيف يحج ولم يحج ، وبحيث يعقل ما يؤدى فى مناسك الحج ، لأن بعض الناس يؤدون هذه المناسك أداء صورياً تقليدياً لا يعقلون منه قليلا ولا كثيراً ، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى تفقه فى الدين ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين كما قال الصادق المصدوق عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

ولعل السر فى اشتراط القرآن شرط الاستطاعة فى أداء فريضة الحج ، هو أنه يريد أداءها من صاحبها بإتقان وإحسان واقتداء ، لأنها فريضة تؤدى مرة واحدة فى العمر كله ، ولأنها ستكون تاجاً لبقية الفرائض التى سبقت وتمام الإحسان فى العبادة هو كما قال سيد الخلق: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والعجيب أن قواعد الإسلام هذه مرتبة فى الحديث النبوى الذى سمعناه ترتيباً يتناسب مع مقدار الزمن الذى تتكرر فيه كل قاعدة ، فقاعدة شهادة التوحيد تأتى أولا ، لأنها تصاحب الإنسان دائماً فى حياته ، فمع كل نفس داخل أو خارج من الإنسان يتذكر أن ربه هو « الله لا إله إلا هو الحى

القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » وأن محمداً رحمة الله لعبادة دائماً : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ثم تأتى الثانية ، وهى الفريضة اليومية التى تصاحب الإنسان كل يوم مرات ، ثم تأتى الزكاة وهى تتكرر فى كل موسم من مواسم الحصاد ، أو عند تمام العام ، ثم يأتى الصوم وهو فريضة سنوية لاتكون إلا فى شهر واحد فى السنة هو رمضان ، ثم تختم القواعد بقاعدة الحج الذى لا يفرض الا مرة واحدة فى العمر كله : « صنع الله الذى اتقن كل شىء » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

دين الله ، هو نور الحياة ، هو روح الأحياء ، هو صوت السماء ، هو الدواء والغذاء والشفاء والضياء ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الحج ووحدة الصف والهدف

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه وأشكره ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى النعمة ، ومصدر الرحمة : إن رحمة الله قريبة من المحسنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبى الرحمة وقائد الملحمة. « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . وأصلى وأسلم على أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير : ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

شرع الله تبارك وتعالى الحج إلى بيته الحرام ، وجعله فريضة من فرائض الإسلام ، وقاعدة من قواعد الدين حيث قال عز شأنه : أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . ولقد كان الحج آخر الفرائض الإسلامية التى شرعها الله لعباده المؤمنين ، حيث تمت فرضيته سنة ست أو تسع ، وقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بأداء الحج سنة عشر ، أى قبل وفاته بزمن قصير ، ولعل الحكمة فى ذلك — والله أعلم بمراده — هو أن يكون الحج مسك الختام لأداء الفرائض ، وأن يكون مظهراً من مظاهر اجتماع الأمة وقوتها وتلاحمها ، واتحادها فى صفوفها وأهدافها ، بعد أن تكون قد هذبت أفرادها ، وأصلحت أمورها ، ولذلك قال القرآن الكريم فيما قال عن حكمة الحج : « ليشهدوا منافع لهم » ولعل أكبر منفعة للحج هو أن يجتمع

المسلمون حول بيت الله الحرام ليترجموا عملياً عن وحدتهم وقوتهم واجتماعهم واستجابتهم لخالقهم جل جلاله ، والمسلم يبدأ بأداء الصلاة والمحافظة عليها لتكون تطهيراً لروحه ، وتهذيباً لنفسه ، وارتباطاً بخالقه ، ثم يؤدى الصيام ليكون إحياء لروح المراقبة فى صدره ، وبعثاً لعواطف التراحم والإشفاق بين جوانحه ، ثم يؤدى المسلم الزكاة لتكون ترجمة عمليه عن التكافل والتضامن بين أبناء الإسلام ، وبعد أن تتهذب الأفراد وتتأدب أدبها السامى الإسلامى بالصلاة والصوم والزكاة ، تأتى فريضة الحج لتكون عنواناً على ترابط هذه الملايين باسم الله ، وعلى بركة الله ، وبروح الأخوة فى الله تبارك وتعالى .

والحج هو الفريضة الدينية الكبرى التى تجمع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، حيث يلتقى الأبيض والأسود ، والقريب والبعيد ، والغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم ، متجردين من زينة الدنيا ، منصرفين عن شهواتها وشواغلها ، مستجيبين لربهم ودعوته ، مرددين نشيد الاستجابة والإنابة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . وهناك وحول بيت الله الحرام ، وفوق جبل عرفات ، وفى منى والمزدلفة ، وفى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تلتقى هذه الجموع كلها على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ؛ كلمة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتوحيد الكلمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وهناك يزدادون تعارفاً وتآلفاً ، ويؤكدون ما بينهم من أخوة ومودة ومحبة ، ويتناصحون ويتشاورون ويتعاونون على ما فيه صلاح أمرهم ، واستقامة شئونهم ، استجابة لقول بارئهم سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . ويلمون شملهم ، ليوحدوا أملهم ، ويتقنوا عملهم ، ويزهقوا روح الشقاق والافتراق من بينهم ، ويؤكدوا وحدة الصف ووحدة الهدف

معتبرين أصدق الاعتبار بقول ربهم عز من قائل : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وبعد أن يطهر المسلمون فى الحج حواسهم ونفوسهم ، ويزكوا قلوبهم وعقولهم ، يتلاقون فى ذلك المؤتمر الإسلامى الأكبر ، ليعرضوا على أنفسهم قضاياهم ، ويتدارسوا شئونهم ، وليكون كلّ منهم لإخوته فى الله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ويتفقوا بنية خالصة وعزيمة راسخة على ما فيه خير الإسلام والمسلمين ، فى الدنيا والدين ، ليتعاهدوا أمام بيت الله الحرام ، وفى المشاعر الطيبة ، وعند منزل الوحى ومشرق الرسالة ومطلع النبوة ، وحيث بدأ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام دعوته الإلهية الربانية ، وثورته الإصلاحية الإنسانية ، على أن يحرروا دارهم ، ويغسلوا عارهم ، ويأخذوا ثأرهم ، بروح الوفاء والفداء ، وإرادة الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد ، ذاكرين أن الإيمان الصادق بالله والاستجابة العملية المخلصة لهداه ، والالتجاء الدائم إلى حماه ، هو طريق السيادة والقيادة والعزة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . وهذه العزة هى التى جعلها الله ميراثاً للمؤمنين ، وفضلا مستمداً من رحمة رب العالمين : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ألا ما أجدر المسلمين اليوم بأن يجددوا إيمانهم ، ويشدوا عزائمهم ، ويتضامنوا فيما بينهم ، وينتهزوا موسم الحج ، ليجعلوا منه موسماً عملياً للالتقاء على الخير ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » : وصدق العلى الكبير : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يوم الحج الأكبر

الحمد لله عز وجل ، هو صاحب العزة والطول ، وهو مصدر النعمة والفضل : « وما كان عطاء ربك محظورا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى إلى خير الدنيا ونعيم العقبى ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أتدرون أى يوم هذا ؟ إنه يوم عرفة ، إنه يوم الحج الأكبر ، إنه أفضل أيام العام على الإطلاق ، وهو يوم الخير والرحمة ، وفيه كمل الدين وتمت النعمة ، ويوم عرفة هذا العام تجتمع فيه حسنيان ، الأولى أنه يوم المشهد الأكبر ، والأخرى أنه يوم جمعة ، ويوم الجمعة هو عيد المسلمين كل أسبوع ، ويوم عرفة هو الذى نزل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ربه جل جلاله : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » . ولقد روى أن بعض اليهود حينما سمع هذه الآية قال : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليها هذه الآية لنظرت اليوم الذى أنزلت فيه فاتخذته لها عيداً تجتمع فيه . فقال عمر : لله الحمد ، لقد علمت اليوم الذى أنزلت فيه : إنه يوم الجمعة فى يوم عرفة ، وكل منهما بحمد الله لنا عيد ؛ ولعل أكبر عبرة نعتبر بها ونتعظ فى هذا المقام هو أن ذلك اليوم العظيم المجيد يذكرنا بالهدف الأسمى والغرض الأعلى ، وهو تحقيق روح الجماعة والألفة والوحدة بين أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ،

وتلك غاية سعى إليها الدين الحنيف أكرم مسعى ، فشرع صلاة الجماعة كل يوم خمس مرات ، وطالب الجمع المؤمن بإقامتها ، فقال : « وأقيموا الصلاة » ثم شرع صلاة الجمعة كل أسبوع ، وأمر بالسعى إليها وترك العمل من أجلها : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، ثم شرع صلاة العيدين ليتسع فيهما نطاق اللقاء ومدى الاجتماع ، ولذلك سن الدين أداء صلاتيهما فى المكان الرحب الفسيح ، ليشمل جمع المسلمين فى بلدتهم أو محلتهم قدر استطاعتهم ، ثم شرع الوقوف بعرفة ليتكون منه المؤتمر الإسلامى العام الذى يشهده مئات الألوف من مسلمى العالم حيث يهتدون بهدى خالقهم الذى يقول عن غاية حجهم : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » ، فإذا أحسنوا الاهتداء بلغوا قمة الألفة والوحدة ، فصدق عليهم قول بارئهم : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وإنى لأتخيل بعين البصيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وقف على جبل عرفات فى حجة الوداع ، وهى حجة البلاغ ، وحجة الإسلام ، وأخذ يلقى خطبته، وفيها يقول : أيها الناس ، اعقلوا قولى ، إنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة رسوله ، أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . اعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة » ثم يقول لهم : هل تدرون أى يوم هذا ؟ . فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد » .

وإذا كنا نجتمع الآن فى بيت من بيوت الله عز وجل ، وكان هناك

كثيرون من أمثالنا فى مشارق الأرض ومغاربها يتلاقى كل جمع منهم فى بيت كهذا البيت ، فهناك جمع أكبر وأكبر ، لعله أعظم جمع يتحقق انعقاده فى مكان واحد وزمن واحد باسم الدين والعقيدة ، وهم أشقاؤنا وإخوتنا الواقفون الآن على جبل عرفات فى تسبيح وتهليل وتكبير واستغفار ، ومتاب ودعاء ، بعد أن عاهدوا ربهم أن يكونوا على تقوى فى المظهر والمخبر ، وفى القول والعمل ، وفى الحركة والسكون ، لأن ربهم قد قال لهم : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب » . وتنطلق أفواه مليون مسلم فوق عرفات بنشيد إسلامى موحد ، قد ألفوه منذ بداية حجهم ، ورددوه فى مختلف مجالاتهم ومناسباتهم ، بلغة واحدة ، هى لغة القرآن ، وهى اللسان العربى المبين ، على الرغم من اختلاف ألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وثقافاتهم ومستوياتهم ، ذلك هو نشيد التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . وهم يعلمون فى ثقة ويقين أن الله يغفر فى هذا اليوم ذنوب التائبين المخلصين جميعاً ، وأن هناك كما جاء فى الأثر ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة ، وأن الشيطان لا يبدو صغيراً حقيراً كما يبدو فى يوم عرفة ، إذ يغيظه الالتقاء والائتلاف والاتحاد ، ويغيظه أن يستمع إليهم وقد ملأوا الفضاء ، وهزوا الأرض والسماء ، بأفضل الذكر والدعاء كما علمهم قائدهم الأعلى ورائدهم الأول رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، يحيي ويميت ،

وهو حى لا يموت ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى قلبى نوراً ، اللهم اشرح لى صدرى ، ويسرلى أمرى ، اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وبوائق الدهر ، إنك على كل شىء قدير . وبهذا الجمع التائب المنيب الراغب فيما عند الله ، يباهى الله ملائكته ، فيقول لهم : « انظروا يا ملائكتى إلى عبادى ، أتونى شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق ، يرجون رحمتى ، ويخافون عقابى ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم » .

ووقوف هذا الجمع الهائل فوق عرفات ، وليس من حولهم إلا الأرض الجرداء ونسمات الهواء وصفحة السماء، يعطى نموذجاً مصغراً ليوم الحشر ، فالناس قد خلفوا الدنيا وراءهم ، ونسوا متاعها وأهواءها ، وتوحدت ثيابهم وتساوت صفوفهم ، وتجردت لله نفوسهم أصلح ما يكونون حينئذ لإخلاص التشاور فيما يفيدهم ، وفيما يحقق عزتهم وحريتهم وكرامتهم ، ولا غرو فهم واقفون حيث وقف رسول الله ، عند الصخرات ، وعند جبل الرحمة والنور ، وعلى مقربة من مكة البلد الحرام ، والكعبة بيت الله الحرام ، وقد تعبدوا لله من قبل بالصلاة والصيام والزكاة ، وجاءوا ليتمموا قواعد الإسلام ، وقد طهرهم الحج فى الأيام الماضية بما طهرهم به ، فالنفوس إذن صالحة للخير ، بعيدة عن الشر ، فهى أصلح ما تكون لتحقيق قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إذا فاتنا الوقوف بعرفة حسا ، فلا يفوتنا أن نقف عليه روحاً ونفساً ، ولا يفوتنا أن نسير على نهج إخوتنا ممن دعوا ولبوا ، ورجوا وأنابوا ، فلنعتصم بحبل الله وقوته ، ولنجتمع على دينه ودعوته ، ولنعتز بوعده ونصرته ، نكن من الفائزين ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

عائد من الحرم

الحمد لله عز وجل ، شرع فأتم وأحكم ، وهدى فأكرم وأنعم : « وكان فضل الله عليك عظيماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الخير فى دعوته ، والفلاح فى اتباع ملته : « إن هذا القرآن يهدىَ للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير الداعين وإمام العابدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إن من حسنات دين الله تعالى أنه إذا أمر بشيء طوى الأمر على حكمة وثمرة ، وإذا نهى عن شيء جعل للنهى سبباً وعلة ، « يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث » . وهو لا يقول للانسان : اعتقد وآمن ثم فكر وابحث ، بل يقول له : ابحث وفكر ، ثم آمن واعتقد ؛ وحتى الأمور التعبدية التى لا تبدو لنا حكمتها تنطوى حقيقتها على حكمة وهدف ، وإذا كنا لا نعرف هذه الحكمة أو هذا الهدف فلعل السبب راجع إلى قصور فى الفهم وضيق فى الإدراك ، وليس عدم العلم بوجود الشيء دليلا على أنه غير موجود ، فما أكثر الأشياء التى لا نعلمها ومع ذلك هى موجودة وقائمة « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

هذا هو الحج مثلا ، كلما أنعم الإنسان فيه النظر تكاثرت أمامه الحكم والعبر ، ففى أوائل شهر ذى القعدة من كل عام يؤذن مؤذن الإيمان فى المسلمين بالدعوة إلى حج بيت الله الحرام : فيسمع السامع ويستجيب القادر ،

ويسعى الحجيج إلى ربهم مواكب فى إثر مواكب ، وجموعاً وراء جموع : منهم فريق يتجه إلى المدينة فيبدأ بزيارة الرسول قبل الشروع فى أداء الفريضة والقيام بمناسك الحج ، ومنهم من يتجه إلى مكة إذا جاء متأخراً فيقوم بالفريضة ، ثم يذهب عقب الموسم إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ ويتوالى تجمع الجموع فى رحاب مكة ورحاب المدينة قبيل موسم الحج ، ولكن هذه الجموع ، مع كثرتها وضخامتها تعد محدودة قليلة بالنسبة إلى الجمع الأعظم الذى يتكتل فى الحج الأكبر ، فإذا أشرق يوم عرفة رأيت الجبل الواسع الفسيح — جبل عرفات — كأنه يتطامن أو يخشع من ضخامة هذه الجموع الهائلة التى تلاقت على موعد محدد لتمثل بضخامتها قوة الإسلام وعزة المسلمين ، لتمثل وبحسن استجابتها صدق الطاعة لله رب العالمين ،لتمثل وبملابس إحرامها ، إخلاص الخضوع والتواضع لله فى المظهر والمخبر ، وفى الحس والنفس ، لتمثل وبجنبها مالا يليق من القول والعمل الاعتصام بحبل الله القوى المتين ، والتأبى على وسوسة الشيطان الخبيث اللعين : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب »

هناك تجتمع هذه الآلاف المؤلفة من الحجيج الذين كتب لهم ربهم النعمة ، وحفهم خالقهم بالرحمة ، يتلاقون فوق الجبل الكريم المبارك عرفات ، ويقفون فى ساحته طاعة لأمر ربهم ، واستجابة لنداء رسولهم ، بعد أن زاروا مكة منزل الوحى ، وطافوا بالكعبة بيت الله الحرام الذى يقول فيه القرآن : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ، وبعد أن

سعوا بين الصفا والمروة : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » . وهناك يقرعون أبواب السماء بالدعاء ، ويجأرون إلى ربهم بالتكبير والتهليل والرجاء ، يسألونه أن يغفر ذنوبهم ، ويتقبل متابهم ، ويتم حجهم ، ويوفقهم لجمع كلمتهم ، ودراسة مشكلاتهم ، وإخلاص نياتهم ، واستكمال حرياتهم ، وتوطيد عزتهم ، وتحقيق العدالة والتكافل بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم ، حتى يكونوا كما قال رسولهم : « مثل المؤمنين فى توادهم . . » ويتذكرون وهم فوق الجبل ، وفى أثناء هذه اليقظة الروحية القوية أن رسولهم محمداً صلوات الله وسلامه عليه وقف موقفهم هذا منذ مئات ومئات من السنين ، وخطب فى أتباعه خطبة الوداع التى وعاها الزمن ورددتها الأيام ، وأبطل فيها الوثنية والشرك ، والربا والظلم ، وأنصف فيها المرأة والضعيف ، ورد فيها الحق إلى نصابه ، كما يتذكرون فى هذا اليوم أيضاً أنه قد نزل على رسولهم قول ربهم جل جلاله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وفى هذا اليوم الذى يعد عند الله تبارك وتعالى أفضل الأيام ، وفى هذه اللحظات التاريخية الخالدة فى حياة من حج وسعى من بنى الإنسان ، يلزم المؤمن أن يضع فاصلا قوياً متيناً بين حاضره وماضيه ، فهو قد أحرم ولبى وطاف وسعى ، بعد أن تاب إلى الله ، وتآلف مع عباد الله ، ثم ازداد إشراقاً وضياء بتطهير الله ، فلا بد له إذن من أن يعد نفسه فى هذا اليوم المجيد كأنه يولد من جديد ، وأن سجله مع الله ومع الناس يجب أن يعاد فتحه منذ البداية بلا أوزار ولا أثقال ، فهو إذن يأخذ على نفسه العهد الوثيق والوعد الأكيد بأن يقلع عما كان يأتيه حيناً أو أحياناً من إنحراف أو اعتساف ، وأن يحرص على الطاعات والباقيات الصالحات ، يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه ، واصل

فى الخير بعد أن نزل ضيفاً على مولاه ، فأكرم وفادته ومسعاه ، وأكمل له أمنه وهداه ، مما يستوجب إخلاص العمل لوجهه ورضاه : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ثم يعود إلى وطنه مع غيره من الحجاج بعد أن طهرهم ربهم جل جلاله ذلك التطهير المنقى الممحص الذى يجعلهم — إذا صدقوا وأخلصوا — وكأنهم مولودون لساعتهم فليس فى حياتهم إلا الطهارة والصفاء . . .

ولكن السؤال الذى يجب أن نسأله هنا ويلزم أن نجيب عليه بوضوح هو : أيحقق المسلمون فعلا هذه الأغراض والأهداف المأمولة فى موسم الحج وبعد موسم الحج ؟ . . .

الجواب : لا . . .

وإذا كنا نقول إن المسلمين لا يحققون الأهداف المأمولة من موسم الحج فإنه يلزم منا الاستثناء هنا . . وإن كان يلزم الاستثناء هنا ، إذ توجد قلة مخلصة تحاول جهدها أن تبلغ بأداء الحج غايته وهدفه ، ولكن هذه القلة تضيع بين طوفان آخر هو طوفان الغفلة عن الحكم الجليلة العظيمة لموسم الحج ، وطوفان الكسل والتخلف عن تحقيق هذه الحكم بالقول والعمل ، وبمختلف الوسائل فهذا فريق يحج لأنه يريد أن يزيل عن كاهله ما أثقله به من ذنوب وسيئات ، ولا مانع عند هذا البعض من أن يحج اليوم ليزيل ذنوبه ، ثم يعاود الذنوب والمنكرات غداً وأمامه — كما يتوهم خطأ — فرص كثيرة لكى يعود فيحج فيزيل الآثام مرات ومرات ، وكأنهم « يخادعون الله وهو خادعهم » « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وفريق يحج للسمعة والشهرة والتمتع بلقب « الحاج » ، وله فى هذا اللقب مآرب أخرى يطول حديثها كما يطول ليل الشتاء الثقيل ، وفريق

يذهب إلى الحج وهو جاهل به وبأحكامه ونظامه ، غافل كل الغفلة عن حكمه وأهدافه وثمراته ،فهو يقاد بلا وعى أو بصيرة،وهو يقلد بغير علم أو فهم ، وهو يردد ما يقال له من عبارات أو دعوات ، فيحكيها كما تحكى الببغاء كلمات تسمعها دون أن تفقه لها معنى أو مغزى ، ولو أنصف المسلمون دينهم وأنصفوا أنفسهم أيضاً ، لكان الحج فى حياتهم فاصلا رائعاً يفصل بين ماضى لا يرضى ولا يشرف،وبين مستقبل يجب أن يكون عامراً بجلائل الأعمال وصوالح الأفعال،ولو أنصف المسلمون دينهم وحجهم وأنفسهم لكان مؤتمر الحج فى دنياهم مغنياً لهم عن كثير من المؤتمرات والاجتماعات ولحلوا مشكلاتهم فى حمى ربهم حل العقلاء البصراء المخلصين،(ولا ختطوا) لأولاهم وأخراهم خطة تصلهم بأسباب ربهم ، وتمكن لهم فى أرضهم، وتبعدهم عن أسباب فرقتهم وضعفهم وذلتهم وهوانهم : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إذا كان النبى الصادق الأمين قد قال : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » فليس معنى ذلك أن الحاج قد تخفف من ذنوبه وتخلص من آثامه فحسب ، بل معنى ذلك أيضاً أن الله قد هيأ له فرصة العمر الذهبية الفريدة ، فإذا كان قد قصر أو تخلف فى الماضى ، فها هو ذا ربه تبارك وتعالى ، كأنه يخلقه من جديد ويسويه بقدرته الربانية مرة أخرى فى صفاء ونقاء ، فواجبه المحتوم هو أن يحسن استغلال النعمة ، وأن يواصل المسير بعد ذلك على الصراط المستقيم ، يؤدى واجبه نحو ربه ونحو دينه ونحو الناس جميعاً فى استقامة وإخلاص بعد هذا نذكر موضوع الماء ، وموضوع الذبائح فى منى ، وموضوع إتعاب النفس والتعرض للشمس، وموضوع غناء الحجيج ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

المسجد فى مجتمع الاسلام

الحمد لله عز شأنه ، جمل الأخيار من عباده بالعلم والعمل ، والعبادة والسيادة ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، انفرد بالعز والسلطان ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ألف بين أتباعه بالطاعة وروح الجماعة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وتبعته ، والفائزين بشرف صحبته والقائمين بنشر دعوته أولئك هم أولوا الألباب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن المجتمع الإسلامى ينهض على نقطة ارتكاز أساسية هى المسجد ، ولعل القرآن الكريم أراد أن يلفتنا إلى هذا المعنى حين ذكر أن أول بيت أقيم للناس باسم الله وباسم الدين هو المسجد الأول فى تاريخ البشرية فيقول : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » . وأول عمل قام به الرسول عقب الهجرة هو بناء المسجد ، وحينما فتح المسلمون مصر باسم الإسلام ، بدأ القائد الفاتح عمرو ببناء المسجد ، وحينما أراد المعز لدين الله الفاطمى أن يبنى القاهرة بدأ ببناء المسجد ، وهو الجامع الأزهر ، وسمعة مصر الإسلامية تكاد تنحصر فى أنها بلد الجامع الأزهر ، وهكذا نجد أن المسجد هو مركز الدائرة فى المجتمع الإسلامى حيثما كان ؛ ولقد كان المسجد فى الإسلام معبداً ومدرسة ، ومنبع تعبئة للعواطف والمشاعر ، وهو مركز الإشعاع الأول ، والمركز الرئيسى لنشر الثقافة الدينية والوعى الإسلامى : « فى بيوت أذن الله

أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولذلك كان من واجب المسلمين حكاماً ومحكومين أن يعنوا كل العناية بإنشاء المساجد وتعميرها وتمكينها من رسالتها الإسلامية الكبرى المتعددة الجوانب ، حتى يحققوا لأنفسهم ولمجتمعهم صبغة الإسلام وروح الإسلام ، فإن الحق جل جلاله يقول : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . وقد ذكرت هذه الآية الكريمة للذين يعمرون المساجد بتشييدها وتجديدها وتأييدها والارتباط بها خمس صفات كلها جمال وجلال ، هي الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وعدم الخوف من أحد سوى الله . وقد وصفت الآية عمار المساجد أولا بصفة الإيمان بالله ، لأن أساس الدين هو ذلك اليقين الراسخ بوجود الله سبحانه واستحقاقه العبادة من الخلق دون غيره وسيطرته على كل شيء ، ومن غير هذا الإيمان لا يكون هناك أي دافع يدفع الإنسان إلى تعمير المساجد ، لأنها بيوت الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » . وصفتهم ثانياً بالإيمان بالبعث وباليوم الآخر ، لأن هذا الإيمان هو الذى يجعل الإنسان تتوالى خطواته على صراط مستقيم ، حيث ينتظر يوماً يلقى فيه ربه ليجزيه على ما قدم « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . ووصفتهم ثالثاً بإقامة الصلاة التى هى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، والمكان الطبيعى للصلاة هو المسجد بيت الله ، ووصفتهم رابعاً بإيتاء الزكاة ،

والمسجد يذكرنا بهذا الحق المعلوم الواجب ، فى صلوات الجماعات والجمع يلتقى الغنى والقادر بإخوته فى الله من الضعفاء والفقراء ، والمعوزين والمحتاجين. فيشعر بمتاعبهم ، فتمتد إليهم يده بالخير والبر والإحسان ، ووصفتهم خامساً بعدم خشية أحد سوى الله ، وخشية الله وحده هى التى تجعل المؤمن مخلصاً فى عمله ، قاصداً بطاعته وجه ربه ، غيوراً على بيوته فى الأرض وهى المساجد ، وهؤلاء المتصفون بتلك الصفات الخمس الجليلة العظيمة ، هم الذين يعمرون مساجد الله ، وهم الذين يستحقون أن يرجوا هداية الله ، وأن يكونوا من الفائزين برضوانه : « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ».

ولقد جاءنى الحديث الصحيح قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » ، وإذا كانت بلادنا — هى مصر المسلمة ، مصر القرآن ، مصر الأزهر ، كنانة الله فى أرضه — تزدان بكثير من المساجد ، فإنها ما زالت بحاجة إلى مزيد من هؤلاء الأخيار الأبرار الذين يعمرون مساجد الله ، وكلما ارتفعت مكانة الإنسان الاجتماعية أو المادية ارتفعت مطالبة الإسلام له بأن يكون صاحب جهد ملحوظ مشكور فى تعمير المساجد ورعايتها وتمكينها من أداء رسالتها الكبرى المتعددة الأنشطة والجوانب ، وما زالت فى بلادنا أحياء وأنحاء تحتاج إلى مساجد ملائمة على طراز حديث نافع ، فهناك مثلا ميدان العباسية ، وهو المدخل الأول لقلب القاهرة ، إن هذا الميدان محتاج إلى مسجد ضخم يلائم ضخامة القاهرة ، ويعطى صورة كريمة لمصر الإسلامية ذات التاريخ الإسلامى الطويل ، ومن فضل الله علينا وعلى الناس أن هدى طائفة من أهل الإيمان والخشية إلى السعى لإقامة هذا المسجد المأمول بقرب ميدان العباسية وتسميته « مسجد النور » حتى يكون تذكيراً بقول الحق جل شأنه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ومن الواجب على كل قادر أن يسهم بقدر ما يستطيع فى إنشاء هذا المسجد وإقامته : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وإن ميدان المحطة (ميدان باب الحديد) هو مصب الطرق والمسالك الداخلة إلى العاصمة ، وينبغى أن ينهض فى هذا الميدان مسجد كبير شاهق ، تلحظه عيون القادمين إلى العاصمة من داخل القطر أو من خارجه ، ومن فضل الله علينا وعلى الناس أن طائفة من خيار الناس فى مجتمعنا قد تعاهدوا على إنشاء مسجد فى هذا الميدان ، يسمونه « مسجد الفتح » رجاء لنصر مأمول وفتح منتظر ، وتيمناً بمثل قول الله سبحانه « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ولن يكون هذا المسجد مقصوراً على أداء الصلوات فيه ، بل سيكون مؤسسة إسلامية ضخمة ، فيها مسجد للرجال والنساء ، ومكتبة إسلامية عامة ، ومتحف للجهاد وغزوات الإسلام ، ومن الواجب على مجتمعنا — رعاة ورعايا — أن يعنوا بأمر هذه المؤسسة حتى تكون فى مظهرها ومخبرها لائقة بكرامة الإسلام وسمعة مصر الإسلامية .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ولقد جعل الله العناية بالمساجد وتطهيرها من أشرف الأعمال بل من أعمال الأنبياء وهاهوا ذا رب العزة يقول « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » . كما جاء فى السنة المطهرة أن امرأة على عهد الرسول كانت تنظف المسجد ، ثم لحقت بربها دون أن يعلم النبى ، ثم سأل عنها فقيل له : ماتت ! فقال : أفلا كنتم آذنتمونى بها (أى أعلمتمونى بموتها لأصلى عليها) دلونى على قبرها . فأتى قبرها فصلى

عليه تكريماً للذين يشغلون أنفسهم ببيوت الله عز وجل .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إن الركيزة الإسلامية الأساسية فى المجتمع المؤمن هى المسجد ، فلا أقل من العناية بأمر هذه الركيزة ، حتى لا نزداد هواناً على الله وعلى الناس ، وعلى الله قصد السبيل .

مكانة السنة

الحمد لله عز وجل ، هدى إلى معالم الطريق ، ويسر أسباب التوفيق « إن الله بالناس لرءوف رحيم » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هو أعلم حيث يجعل رسالته ، « إن ربى على صراط مستقيم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعله ربه سبب النعمة ومفتاح الرحمة : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وشيعته ، وأصحابه وكتيبته ، والقائمين بأمر دعوته : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

من الدسائس الخفية التى تسعى فى الظلام لهدم الإسلام أن فئة من الناس أخذت تهون من شأن السنة النبوية ، ومن مكانة سيد البشرية محمد عليه الصلاة والسلام ، فهم يقولون إنه بشر ، وإنه يخطئ ويصيب ، وإن أقواله من اجتهاده وعمل عقله فلا يعول عليها وهذا زعم باطل فلابد لها من مبين ومفسر ، فكان هذا هو من اصطفاه الله لرسالته ، وصنعه على عينه ، وحمله تبعة أمانته ، وهو الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك قال الله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » وقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . ومن هنا أصبح قول الرسول وعمله جزءاً من الدين والتشريع ، لأنه المبلغ . من الله ، والأمين على الوحى ، والمطبق الأول للأحكام والتعاليم ، وهو الذى فسر وأحال النصوص إلى أعمال وتطبيقات ، وقد قال : « خذوا عنى مناسككم » . وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ،

وصرح كتاب الله العلى الأعلى بأن الرسول معصوم وأمين ومتعلق عن الله كل كل ما يقوله فى الدين أو يعمله فقال : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وهى يوحى » وقال : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله » وقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وترجم الرسول نفسه عن أن سنته جزء من الوحى الإلهى ، فقال : « إنى أوتيت القرآن ومثله معه » ، وقال : « حكم الرسول لحكم الله » وقال : « والذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

والأمة المؤمنة كلها من عهد رسوله تدرك أن السنة النبوية إنما اعتمدت على الوحى واستمدت منه ، وكان المؤمنون الأولون يجمعون على أن هذه حقيقة بديهية لا تقبل الجدل أو الارتياب ، وهؤلاء مثلاهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم أجمعين ، وهم خيار الناس فى المجتمع المسلم ، كانت لهم آراؤهم وشخصياتهم ، ولكنهم أمام سنة الرسول يخضعون ويسلمون ، لأنها هدى النبى الأمين المتلقى عن الله رب العالمين ، ولقد حدث أن بعض الخلفاء رأى بعض المسلمين يقول قولا لم يسمعه الخليفة من قبل ، فقام يعارضه ويناهضه ، ولكنه حينما علم أن هذا من قول الرسول المعصوم المؤيد بالوحى رجع وخضع . ولو رجعنا إلى أئمة الفقهاء لوجدناهم يجمعون على أن سنة الرسول جزء من الوحى ، ولقد اتسع نطاق الفقه الإسلامى ، ونشأت فيه مذاهب ومدارس تقول بالقياس والرأى والاجتهاد ، ومع هذا ظل أهلوها يخضعون لسلطان الحديث النبوى ، فإذا قعدوا قاعدة ، أو رأوا رأياً ، أو استنبطوا حكماً ، ثم بلغهم حديث ثابت عن الرسول يخالف ما ذهبوا إليه رجعوا عن رأيهم ، وخضعوا لما أتاهم من هدى الرسول ، وهذا هو الإمام أبو حنيفة الذى يعتبر أكثر الأئمة أخذاً بطريقة القباس والرأى كان

يلغى رأيه أمام الحديث الثابت ، وهذا هو الإمام الشافعى يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » ، فإذا كان الأئمة الأعلام قد خضعوا وخشعوا أمام نور النبوة وجلال الرسالة ، وحفظوا ا للسنة المحمدية جلالها ووقارها فكيف استباح الصغار الأقزام أن يتطاولوا فيحرضوا على تركها أو الاستخفاف بها ؟ . ألا ساء ما يصنعون ! .

والواقع أن وظيفة السنة ترينا بوضوح أنها جزء من الوحى ، وأنها المصدر الثانى الأساسى من مصادر التشريع الإسلامى بعد كتاب الله تعالى ، لأنها فسرت وأبانت ، وشرحت وحددت ، وخصصت العام ، وأوضحت المبهم . فالقرآن مثلا قد ذكر العبادات بأسمائها أو بملامح عامة لها ، ولم يذكر صفاتها ولا كيفياتها ، ولم يتعرض لما فيها من تفاصيل وأجزاء ، فقال القرآن مثلا : « وأقيموا الصلاة » ولكن كيف نقيمها ؟ جاءت السنة فذكرت لنا هيئة الصلاة وحددت مواقيتها ، وبينت عددها ، وما فيها من قيام وركوع وسجود وقعود وتشهد وسلام . وقال القرآن : « وآتوا الزكاة » وجاءت السنة فتكفلت ببيان مقاديرها وطريقة جمعها والأنواع التى تؤخذ فيها ، وقال القرآن : « كتب عليكم الصيام » ولكن كيف نصوم ؟ ومتى نفطر ؟ وما أنواع المفطرات ؟ وما آداب الصيام ؟ . بكل ذلك جاءت السنة شارحة موضحة . وقال القرآن : « ولله على الناس حج البيت » . ولكن الرسول جاء فأوضح لنا أحكام الحج وأعماله من إحرام وطواف وسعى ووقوف بعرفة وذبح ورمى للجمار ، وقال لنا بعد بيان ذلك : « خذوا عنى مناسككم » أى حجوا كما رأيتمونى أحج . أفلا تكون سنة الرسول مع هذا جزءاً من الوحى ، وجانباً من جوانب الدين ؟ ! .

والسنة توضح من القرآن ما يحتاج إلى توضيح ، فقد قال القرآن مثلا : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ؛ » فقال رجل عند ماسمع الآية : يارسول

الله ، ما منا أحد إلا ويقع فى ظلم (يقصد ألوان الظلم الكثيرة اليسيرة) فقال له النبي : ليس ذاك ، ولكن الظلم هنا هو الشرك . فهل فسر محمد هذا من عنده أو هو تعليم الله العليم الخبير ؟ . والقرآن يقول فى المحرمات : « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف » فتأتى السنة النبوية وتضيف إلى ذلك أنه يحرم أن يجمع الإنسان فى الزواج بين المرأة وعمتها ، أو بين المرأة وخالتها ، أفيقول الرسول هذا برأيه أم يتلقاه عن الله رب العالمين ؟ . وهناك كثير من ألوان الطعام المحرمة التى يذكرها القرآن ، وتكفلت السنة بذكرها ، فصار حكمها واجب الالتزام لأنها أبانت جوانب من الحلال والحرام .

قد يقال إن الرسول له اجتهاد ، وهذا صحيح ، فالرسول كان يجتهد فيما لم ينزل فيه حكم ، وفى حادثة تعرض لأول مرة ، وقد وجهه الله ذلك ليدرب أمته على التماس وجوه الحق إذا لم يكن هناك نص ، فتقوى العقول وتظهر الهمم ، وقد حدث فى بعض الأحيان القليلة أن اجتهد الرسول ثم جاء القرآن بحكم آخر ، وذلك ليبين للناس أن الله وحده هو صاحب الأمر الأول والأخير ، «له الحكم وإليه ترجعون » . ولذلك جاء فى القرآن : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » فالرسول بشر ، وليس بإله ولا معبود ، ولكنه مع هذا مؤيد بالوحى ، معصوم بقدرة الله وتوجيهه ، أمين فى وحيه والتبليغ عن ربه ، فإذا قال قولا ، أو حكم حكماً ، أو منع شيئاً ، لم يكن ذلك اختراعاً منه ولا ابتداعاً من نفسه ، بل هو جزء من وحى ربه يتمم به دعوة القرآن ، ويوضح عن طريقه شريعة الإسلام ، فوجب على كل مسلم أن يتلقى بالرضى والقبول والتسليم كل ما ثبت وصح من السنة النبوية وإلا كان غير خاضع للاسلام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

احذروا أن يغركم بسنة رسولكم الغرور ، ولا تلقوا بالا إلى أولئك الآثمين

الذين يهونون من جلال السنة وآثار النبوة ، فهم فى الواقع يهونون من شأن الملة والشريعة ، ومن واجب المجتمع أن يعجل بإنشاء دار الحديث التى تعنى بكل ما يتعلق به ، وأن تتسع الدراسات المتعلقة بعلوم الحديث فى الجامع الأزهر الشريف ، وأن تهتم كل المجلات الإسلامية بهذه الدراسات ، ومن واجباتنا أن نقبل على سنة الرسول فنتعرف إليها ونتدارسها ، ونغترف منها ، ونربط بها ناشئتنا وأسرنا ، حتى تكون لنا من وراء كتاب ربنا هدياً ونبراسا. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

آداب الأعيـــاد

الحمد لله عز وجل : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيما » أشهد أن لا إله إلا الله ، يأخذ المنحرفين بالتأديب حتى يردهم عن غيهم وهواهم : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، معلم الخير والبر ، وناشر الإيمان والإحسان ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطيبين من آل بيته ، والمقربين من أهل صحبته ، والمؤمنين برسالته ودعوته : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

الأعياد أيام معلومة ، تمر على الأمة فتتلقاها لقاء خاصاً ، لارتباطها بما تحبه وتجله ، من ذكريات عزيزة أو عقائد كريمة ، فإذا مر بالأمة عيد من هذه الأعياد تحركت عواطفها ، وانبعثت مشاعرها ، وأحست بهزة تنال عطفيها ، وانتفاضة تشمل حسها ونفسها ، ومن طبيعة الأعياد أن تتسم بالفرح والسرور ، لأنها تأتى فى أعقاب نصر وفوز ، وتكون خاتمة لمرحلة من مراحل التوفيق فى أمر من أمور الدين أو أمور الدنيا ، ولا عيب على المسلم إذا أخذ حظه من الفرح فى مواطن البهجة ، أو أبدى سروره فى مقامات السرور ؛ والله عز وجل قد جعل السرور من خير الثواب الذى يلقى به عباده يوم الجزاء : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » .

ولكن الذى يحسن بالمسلم هو أن يكون قاصداً معتدلا فى فرحه وسروره ،

فلا يسرف ولا يشتط ، بل يتوسط ويقارب ، لأنه من الأمة الوسط ، وفى القرآن الكريم : « إن الله لا يحب الفرحين » أى الذين يكثرون الفرح بزخارف الدنيا . وليذكر المسلم هنا أن عيد الفطر يأتى عقب جهاد هو الصوم،وما يكاد المسلم يأخذ حظه من الراحة والاستجمام حتى يعود إلى جهاده الحسى والروحى ، ويستعد لموسم الحج ؛ وعيد الأضحى يأتى عقب رحلة الحج التى يبذل فيها المسلم ما يبذل من جهده وجهاده ، وما يكاد يعود إلى بلده عقب الحج حتى تطل عليه أضواء عام هجرى جديد تدعوه إلى أخذ الأهبة للبدء فى مرحلة جديدة من مراحل العمل لخير الذات ، وخير الجماعة المسلمة وخير الناس كلهم . . .

ومعنى هذا أن المسلم من شأنه أن يعمل ، فإذا استوفى حظه وجهده من العمل وقف وقفة الراحة والاستجمام ، ليأخذ نصيبه من الهدوء والرضى ، ثم يعاود العمل ، فإذا قطع مرحلة أخذ فترة راحة ، ثم عاود العمل . وهكذا يدأب المسلم على ذلك دون أن يسرف فى العمل فيرهق نفسه أو يزهقها ، ودون أن يسرف فى فرح فيوهن دعائم التماسك والنضال فيها : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسورا » .

ومن الشائع لدى العامة أن الأعياد مواسم يعبون فيها من اللهو عبا ، ويشربون خلالها من الأهواء بأوفى المكاييل ، بلا تحرز من حرام ، أو تباعد عن باطل، وهذا ضلال فى الاعتقاد ، وانحراف فى الاتجاه ، فما كانت الأعياد فى الإسلام إلا واحة فيحاء يجد المسلم عندها وارف الظل ونمير الماء ورقيق الهواء وطهور المتاع . ومن الجدير بالمسلم أن يحسن المزج فى الأعياد بين اللهو الطيب والتعبد الحميد ، وبين الإقبال على الراحة وعدم الغفلة عن واهب النعم ومصدر الكرم جل جلاله ، وليذكر أن رسوله قد قال فى هذا المقام : « من أحيا ليلتى الفطر والأضحى لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » . وقال

الإمام الشافعى : « بلغنا أن الدعاء يستجاب فى خمس ليال : أول ليلة فى رجب ، وليلة نصف شعبان ، وليلتى العيد ، وليلة الجمعة » . وقال سهل التسترى عن هذه الأعياد : « إنها أيام يرجى فيها الفضل من الله ، فإذا انشغلت فيها بهواك ، ومتعت فيها النفس بالشهوات ، فمتى ترجو الفضل والمزيد » ؟ . ولقد خطب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز فى عيد فطر فقال : « أتدرون ما مخرجكم هذا ؟ صمتم ثلاثين يوماً ، وقمتم ثلاثين ليلة ، ثم خرجتم تسألون ربكم أن يتقبل منكم » . ولا شك أن من خرج إلى ربه يرجو ثواب عمله ، يكون فى خشوع وخضوع ، وأدب ووقار ، حتى لا يرد الله عليه عمله ، وحتى لا يحرمه ثوابه .

ومن الشائع كذلك أن الأعياد فرصة للاسراف فى ألوان الطعام وكمياته إلى حد التخمة ، مع أن دستور المسلم فى ذلك هو قول الحق تبارك وتعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا.إنه لا يحب المسرفين » . وهذا الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يعطينا درساً بليغاً فى الاقتصاد فى الطعام ؛ فقد كان ابن عمه مسلمة بن عبد الملك شرها نهما مسرفاً فى الطعام ، يجمع الألوان من الأطعمة ويكثر منها فى نهم وتوسع ، فأراد عمر أن يعطيه درساً ، فدعاه إلى بيته مبكراً ، وانتظر عمر حتى جاع مسلمة ، وأراد أن يستأذن فاستبقاه عمر ، وأمر أهل بيته بأن يعدوا ثريد عدس وحده ، وأن يعدوا ألواناً شهية أخرى من الطعام ؛ فلما امتد الوقت واشتد الجوع بمسلمة أمر عمر بطعام العدس ، فأخذ مسلمة يأكل منه فى رغبة قوية وشهوة بادية ، حتى شبع ، ثم أمر عمر بتقديم الألوان الأخرى ، فلم يمد إليها مسلمة يدا ، فقال له عمر : كل . فأجاب : قد شبعت ولم يبق عندى ميل للطعام . قال عمر : فلماذا السرف فى الطعام والتقحم فى النار . وهذا يجزى عنه ؟ . فاعتبر مسلمة بذلك ، وأخذ يحمل نفسه على الاقتصاد فى الطعام .

ومن آداب الأعياد وملامحها الأساسية الإحسان ومعونة الناس ، لأن الأعياد أفراح ومسرات ، وخير مسرة هى التى تعم الجميع ، والرجل الأصيل يميل إلى الانفراد بما يهمه أو يحزنه ، فإذا شملته نعمة أسعده أن يجد الذين حوله يشاركونه فيها ، ويقاسمونه بهجتها ومسرتها ، ولذلك كان العيدان الرئيسيان فى الإسلام يومين من أيام التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، فنى عيد الفطر يخرج المسلم زكاة الفطر ، وفى عيد الأضحى يضحى المسلم بذبيحة يأكل منها ، ويهدى إلى أحبائه وأصدقائه ، ويحسن منها إلى الذين لا يجدون سعة فى هذا اليوم الكريم . . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

فلنتذكر جيداً أنه ليس من آداب الأعياد فى شىء زيارة القبور ، أو إتيان الفجور ، أو شرب الخمور ، أو الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء ، أو بيات النساء فى المقابر ، أو تلك المهازل التى يرتكب فيها المتحللون مختلف الآثام والمنكرات ، ويصفونها بأنها احتفال أو ابتهاج بالأعياد ، فتلك أيام مجيدة مشهودة ، مجموع لها الناس ، فيجب أن نتنزه عما لا يليق بالعقلاء والفضلاء ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عيد ومعاودة

الله أكبر « تسعا » .

الحمد لله عز وجل ، هو ولى الفضل والنعمة ، ومصدر الخير والبركة : « إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فصبر ، وأعطى فشكر ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصلحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إن يوم العيد يوم ملحوظ في السنة ، مذكور على الألسنة ، مجموع له الناس ، يتلاقون فيه على فرحة وبهجة ، ويتبادلون فيه تحية وتهنئة ، ويحسون عنده كأنهم قد انتهوا إلى راحة خضراء ممرعة بعد أن قطعوا من الطريق شوطاً أو مرحلة ، فهم يستريحون ويستجمون ، ويملأون صدورهم بنسمة الاطمئنان ونفس الرضى ، إذ هو يوم عيد ، والعيد يوحى بالعودة ، فهو يعود فى كل عام ، والثقة بالعودة أمر يجدد فى النفس الأمل ويقوى فيها الرجاء . وهذه العودة المتكررة من العيد بعد كل مرحلة من مراحل النضال فى مجال العمل الدينى المخلص أو العمل الدنيوى الموفق توحى إلى الإنسان بتكرار المعاودة والمحاولة لتحقيق ما يؤمن به من أهداف ومبادئ فى هذه هذه الحياة ، وكلما عاود الإنسان عملا ونجح فيه جاء إليه عيد يستريح عنده ويستجم فيه ، ثم يعاود القيام بواجبه ، والسعى فى مسالك الحياة ،

للانتاج والإثمار ، والنفع والانتفاع ، وهكذا دواليك ، عيد يقبل بالفرحة والبهجة ، وعودة من الإنسان إلى عمل موفق يعقبه عيد بهيج : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

وهذه المعاودة فى حياة الأفراد والجماعات هى التى تكون العادة ، والعادة تقارب الطبيعة ، وكذلك يقول الأول :

تعود صالح الأخلاق ، إنى رأيت المرء يألف ما استعادا

وإذا كانت الأعمال التى يأتيها الفرد والجماعة طيبة صالحة ، وكان التكرار موصولا دائماً ، أدى ذلك إلى تكوين مجموعة من الفضائل يسمو بها الفرد وتعز عن طريقها الجماعة ، وهذه الفضائل التى تعمق جذورها فى النفوس هى ما يسمى بالأخلاق الفاضلة ، وبهذه الأخلاق تعتدل الحياة وتستقيم :

وإنما الأمم الأخــلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وربما كان العمل الذى يكرره الإنسان ويحاول تعوده عملا عسيراً شاقاً فى أول أمره ، ولكنه بالصبر عليه والتطلع إلى غده المأمول يسهل ويلين ، وقد يرحب به صاحبه ويهش له ، والأمم قد يصيبها الذل فى عصور ضعفها وانحلالها فتألفه بطول المدة ، ثم تهيئ لها الأقدار أن تعرف العزة ، وربما أحست بوطأة التبعات والتكاليف التى تقتضيها هذه العزة ، ولكنها بعد أن تدرك سمو مذاقها وعظيم أثرها ترحب بهذه التبعات والتكاليف ، وربما تطلبت منها المزيد .

والمهم هو أن يكون تصرف المرء ومعاودته للمحاولات والأعمال وتكراره لأداء الواجبات ، مصحوباً بالإيمان والثقة فى الله والاعتماد عليه والاستمداد منه ، فالحديث يقول : « لاحول ولا قوة إلا بالله » أى لا توفيق فى الحركة والقوة إلا بمشيئة الله القوى القادر ، وفى الحديث : « اللهم بك

اصول وبك أحول » أى أتحرك وأحتال لعلاج الأمور ، وفى رواية « بك أصاول وبك أحاول » .

ولقد تعددت أقوال الناس فى تحديد السعادة ، ولكن هناك أفراداً منهم يعدون غاية سعادتهم فى أن يوفقهم ربهم للنهوض بما يجب عليهم أن ينهضوا به ، فيتعبوا فى ذلك ويعرقوا ، ويستنفدوا غاية جهدهم ، ولكنهم يبلغون هدفهم ويحققون أملهم ، ويقفون عند نهاية الشوط فائزين ، وقد تصبب العرق منهم فكان وساماً كريماً لهم ، وحينئذ يحسون بنشوة الظفر ولذة الفوز وسعادة التوفيق لأداء الواجب ، وأمثال هؤلاء يلمحون الضوء خلال الظلمات ، ويؤمنون بأن من وراء الشدة متعة ونعمة ، وأن التعب هو الذى يجعل للراحة طعماً ومذاقاً ، وأن العسر يتلوه اليسر ، فتكون له قيمة ومكانة ، فهم يفرغون من واجب ليستقبلوا واجباً ، وهم ينتهون من مهمة ليستأنفوا القيام بمهمة ، يعمر صدورهم الإيمان بالانتصار ، وتتألق نفوسهم بعلو الهمة وشرف المقصد ويقين الثقة بالله ، وهذا يفسره قول الله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » .

روى أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول : « أبشروا ، أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين » وقال عبد الله بن مسعود : « لو دخل العسر فى جحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه ، لأن الله يقول : فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » . وقال مجاهد : « يتبع اليسر والعسر » .

والعيد يذكرنا ـ فى لفظه ومعناه ـ بالعائدة ، والعائدة هى المعروف والإحسان ، يقول العرب : عاد فلان بمعروفه ، إذا أحسن ثم زاد ، ومن صفات الله تبارك وتعالى أنه « المبدئ المعيد » ، أى الذى يبدأ بالفضل ثم يعيده ؛ ولعل تذكير العيد لنا بالعائدة وهى المعروف ، هو بعض الحكمة

فى تشريع الإسلام لزكاة البدن فى عيد الفطر ، حيث يعود المسلم القادر بهذا المقدار من الإحسان على أخوة له فى الله والوطن ، لم تتيسر لهم أسباب السعة فى الرزق أو الاستقرار فى الحياة ، وهو أيضاً بعض الحكمة فى تشريع ذبح الضحية فى العيد الكبير — وعيد اليوم — حيث يستطيع الفقير أن يتذوق اللحم الذى لا يستطيع تذوقه فى أغلب أيامه .

وحينما يقبل علينا العيد يحسن بنا أن نلقاه ونفرح به وندرك مذاقه ، ونهيئ لغيرنا أن يشاركنا فرحته ، ولكننا بعد هذا يجب أن نعود إلى حسن المحاولة مع عمق الرجاء وقوة الأمل وحينئذ يعود علينا العيد بمشيئة الله القوى القادر ، ليرى أمة مسلمة عاملة مكافحة ، تتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، لأن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ويتساوى أبناؤها فى مجال الحقوق والواجبات ، كل يبذل طاقته ، وكل يأخذ حقه وحاجته ، وأساس التقدير والتقديم فيها هو الاستقامة فى مجال العمل وتجنب الزلل والخطأ : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . ويرى أمة يتشارك أبناؤها فى الخير والنعمة ، ويتساندون فى البأساء والشدة . « لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، ويرى أمة تتنزه عن الفتنة والفرقة وإشاعة الفاحشة وإثارة الشهوات ، وتستمسك بالحق والجد ومكارم الأخلاق ومحامد الفعال ، حتى تتحقق منهما وفيها تلك الأمة الوسط الصالحة المصلحة التى يصفها القرآن بقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وحين يعود العيد والأمة الإسلامية على هذا الوصف ، يعمر صدورها الإيمان ، وتزدان دنياها بالعمل الصالح ، وتتواصى بالخير ، وتتناهى عن الإثم ، يحق للامة أن تفرح بعيدها كل الفرحة ، وأن تبتهج به غاية البهجة ، إذ ستكون الأمة الرابحة الناجحة : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

إن الله تبارك وتعالى يعود علينا بالآلاء والخيرات فيجب أن نعود إليه بالصالحات والقربات ، وإن الزمان يعود علينا بالربيع الناضر فيجب أن نعود إلى الحياة بالأمل الباسم ، وإن الأرض تعود علينا بالثمار والحصاد فيجب أن نعود إليها بالعناية والرعاية ، وإن الحياة تعطينا فيجب أن نعطيها ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

فرحة العيد

الله أكبر « تسعاً » .

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يداول بين الناس الأوقات والأيام ، وإليه وحده المرجع فى أمر الحلال والحرام : « ذلكم الله فأنى تؤفكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى القضاء والتدبير ، وبيده مقاليد الأمور : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى سبيل دعوته خير الجهاد ، حتى أسعد بها العباد والبلاد ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « فالذين آمنوا وعملوا الصلحات لهم مغفرة ورزق كريم » . . .

غداً يكون العيد وهو يوم من أيام الله بين عباده ، وهو يوم فرحة عامة ، ليست فرحة لفرد ولا لبيت ولا لبلد ولا لقطر فقط ، بل هى فرحة لأبناء القبلة جميعاً ، وأهل الإسلام كلهم ، وديار المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وقد عبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن فرحة العيد بقوله : « للصائم فرحتان : فرحة يوم فطره ، وفرحة يوم لقاء ربه » ، والفرح لذة فى القلب بسبب الحصول على أمر محبوب ، وانشراح فى الصدر عند بلوغ مقصد مطلوب ، ومن المقاصد شريف وغير شريف ، والإسلام يحرض أبناءه على أن يفرحوا بما يحمد ويشكر من الأمور والأعمال ؛ ولذلك نهاهم عن أن يفرحوا بمتاع الحياة الزائل ، أو يفرحوا للسطوة فى الأرض بغير الحق ، أو يفرحوا فرح الاغترار أو الافتخار الكاذب ربما فى أيديهم من مال أو جاه ، ودعاهم إلى أن يفرحوا بفضل الله ورضوانه : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » وإلى أن يفرحوا بنعمة الكفاح والشهادة فى

سبيل الله حتى يكونوا « فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وإلى أن يفرحوا بالتوفيق لطاعة من الطاعات أو قربة من القربات ، فإن التقى الصالح المصلح هو السعيد المجيد .

وفرحة يوم العيد هى فرحة العامل الذى أخلص فى عمله ، وأقبل على بارئه ومولاه يقدم إليه نتيجة هذا العمل وثمرته ، وهى فرحة المجاهد الذى قهر شهواته وقاوم رغباته ، وحرم نفسه الطعام والشراب ، وزان أيامه بالصيام والقيام ، وعمر ليله ونهاره بالتلاوة والذكر ، والتدبر والفكر ، وأقبل على رحمن الدنيا والآخرة وديان العالمين ، وقيوم السموات والأرض يستنجزه وعده ، ويسأله عطاءه ورفده : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ . « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ! . . . ومادام المرء قدأخلص الإقبال على ربه والتعبد له فمن حقه أن ينال ثمرة جهاده وعاقبة إخلاصه : رضا نفسياً ورضواناً إلهياً وفرحاحسياً ومعنوياً « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

وكل فرحة لها مظهرها ومنظرها ، وفرحة عيدنا غداً تتجلى فى الحشود المؤمنة والجموع الموقنة التى تسعى عند مطلع الشمس وتبلج ضوء النهار إلى ربها خالق الشمس والنهار تذكره وتشكره ، وتحمده ، وتتجلى فى الهتاف الإسلامى الرائع ، المدوى فى الآفاق ،المنبعث من أفواه الملايين من الموحدين : « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر » ! . وتتجلى فى هذه الزكوات والصدقات التى تفيض بها أيدى القادرين الخيرين على الفقراء والمساكين ، وفى هذه التهنئات الرقيقة التى يتبادلها أبناء الإسلام فى هذا اليوم المبارك السعيد ؛

وللمسلمين الحق كل الحق فى أن يفرحوا إذا نالوا نعمة ، أو حققوا أمنية ، أو صادفوا توفيقاً ، أو بلغوا خيراً فى دينهم أو دنياهم ، ولكنهم يفرحون فرح الأقوياء الأتقياء ، الذين قد ينعمون ويتمتعون ويبتهجون ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يبغون ولا يزيغون ، ولا ينحرفون ولا يعتسفون ،وهم أيضاً يعمرون فرحتهم بذكر ربهم الذى أتم عليهم نعمته ، ورزقهم من الطيبات ، وهيأ لهم فى كونه كثيراً من أسباب البهجة ، فخلق الأنهار والأشجار والأطيار والأزهار والثمار وخلق الحدائق ذات بهجة ،وأنبت فى الأرض من كل زوج بهيج ، وإذا كان سبحانه قد قال : « إن الله لا يحب الفرحين » فالمقصود من الفرح هنا — والله أعلم بمراده — هو الشخص الذى يكثر فرحه بمتاع الحياة وزخارفها ، وليس من شأن المسلم أن يكون مفراحاً يكثر الفرح ويسرف فيه ، ولذلك قال الأول :

ولست بمفراح إذا الخير مسنى   ولا جازع من صرفه المتقلب !

وما من شىء من أمور الدنيا إلا والإسراف يشينه والاعتدال يزينه ، اللهم إلا عمل الخير ، ولذلك قالوا : « لا خير فى الاسراف ، ولا إسراف فى الخير » .

ومن الناس قوم ينتهزون فرصة هذه الأعياد ليجددوا فيها الأحزان ويبعثوا الأشجان ، ولذلك نراهم لا ينتفعون بالأعياد،ثم لا تجديهم أحزانهم فتيلا ، وما جعل الله الأعياد لنتخذها منادب وملاطم ، أو لنملأها بالصراخ والعويل ، بل لنتحدث فيها بنعمة الله ، ولنظهر فيها بمظهر الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والقرآن الكريم ينفرنا من الحزن والغم فيقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنون » ، ويجعل من صفات الأبرار من عباد الله عدم الخوف والحزن : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » . وذكر أن من أعظم النعم على عباده فى جنات عدن أنه

أذهب عنهم الحزن : « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » . فليذكر هؤلاء أن لله تبارك وتعالى قد أراد يوم العيد يوم فرحة وبهجة ، لا يوم حزن وشجن ، ثم ليذكروا أن الله قد علم الأخيار من عباده كيف يقاومون الجزع ، ويعلون على الفزع ، ويتخلصون من فضلات الاستسلام للحزن والضيق ، ويتحملون ما يأتيهم من ابتلاء أو اختبار فى رضا وتسليم واسترجاع : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والناس فى كل زمان ومكان يبحثون جاهدين عن السعادة ، ليبلغوا بها قمة الفرح والبهجة ، فى هذه الحياة ، ولهم فى تحديدها وتصويرها أفانين من القول وألوان من الكلام ، والأخيار من عباد الله يرون أن السعادة كل السعادة والفرحة حق الفرحة هى أن يعرف الإنسان واجبه اللائق به المطلوب منه ثم يوفقه ربه فى أداء هذا الواجب أداء مضبوطاً كاملا ، فإذا نهض المرء بما وجب عليه نحو نفسه ونحو بلاده ونحو الناس ونحو خالق الكون جل جلاله ، وبلغ فى ذلك الغاية المثلى أحس كأنه أسعد مخلوق وأبهج إنسان ، وللتوفيق فى أداء الواجبات من اللذة النفسية والنشوة الروحية ما يحس معه أهل المبادئ السامية وأصحاب الدعوات العالية كأنهم فى جنات النعيم يتقلبون . ومن هنا جعل الإسلام أعياد العباد فى أعقاب القيام بالفرائض والواجبات فعيد الفطر فى أعقاب فريضة الصوم ، وعيد الأضحية فى أعقاب فريضة الحج ، وهكذا . . . فمن حق الإنسان أن يفرح ويبتهج إذا كان قد دفع ثمن ذلك من عمل أداه أو واجب نهض به أو مكرمة زان بها حياته : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن رسولكم قد قال : « للصائم فرحتان : فرحة يوم فطره ، وفرحة يوم لقائه » . وها نحن أولاء نتهيأ للقاء فرحة الإفطار وتبقى بعدها فرحة اللقاء . . . بقيت الفرحة الكبرى يوم الجزاء . . بقى أن نطمئن إلى ما سيكون من شأننا يوم نقف بين يدى ربنا : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . . . يوم يتردد النداء فى جنبات الكون : لمن الملك اليوم ؟ فيكون الجواب لله الواحد القهار . . . فلنحسن الاستعداد ليوم اللقاء ، بالهدى والتقى والعمل الصالح ،حتى نفرح يوم نشهد نور الخالق الوهاب ... واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ...

اعياد فى يوم

الحمد لله عز وجل « له مقاليد السموات والأرض » ، « فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » . أشهد أن لا إله إلا الله « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، تلقى كلماته ، وتعرض لنفحاته ، وحرص على مرضاته ، فصلوت الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

فى حديث رسولكم صلوات الله عليه : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » وفى حديث آخر : « تعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى » . وبعض الأيام قد يوجد فيه من المعانى واللفتات ، أو من اللمحات والنفحات ما لا يوجد فى غيره ، وقد يستطيع المؤمن المتدبر المستبشر أن يلحظ فى أيام خاصة معانى وخواطر تدخل على نفسه بالرضا وتدفعه فى طريق الهدى ؛ وهذا شىء وثيق الصلة بالتفاؤل الذى كان يحبه سيدنا رسول الله عليه صلوت الله ويحرص عليه ، لأن الناس إذا أملوا نعمة الله ورجوا فضله وبركته عند كل سبب — ولو كان ضعيفاً — فهم على خير وإلى خير . . والله عند ظن العبد به كما يقول الحديث .

ويومنا الحاضر الذى نحياه الآن يعد موسما من مواسم الخيرات وموطنا من مواطن النفحات ، الذى نستطيع أن نلحظ فيه بروح المؤمن المتفائل المستبشر عدة معان ولمحات تجعله مشتملا على جملة أعياد ومواسم . . . فهو

أولا بدء شهر الصيام والقيام « رمضان » : ورمضان هو شهر الثورة الروحية والانقلاب النفسي ، فيه تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع ، فمن امتلاء إلى خلاء ، ومن رى إلى ظمأ ، ومن انطلاق إلى تقيد ، ومن نوم إلى سهر ، ومن أغراض إلى تهجد وقيام ، ومن غفلة إلى ذكر وترتيل ، مع مافى الصوم من تأديب للجسم بالجوع ، وتهذيب للنفس بالحرمان ، وتدريب للعزيمة على الاحتمال ... وكأن الصوم قانون إلهى للبطن والشهوات ، يحكمها من من الداخل لا من الخارج ، فما أكثر الذين يخضعون لقوانين الأرض فى الظاهر ، ويفسدون مقاصد هذه القوانين من وراء ستار ، وأما قانون الصيام فإن سلطانه ينبع من أعماق النفس وأغوار الضمير ، ولذلك كان الصوم سرا مودعاً فى أمانة المسلم لا يطلع على حقيقته وصحته إلا من يعلم طوايا النفوس وخفايا الضمائر ، ومن هنا جاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

وهذا اليوم نفسه الذى نعيش فيه الآن جمعة ، ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى الدائم للمسلمين ، الذى يتمثل فيه تآخيهم وتآلفهم ، وقد سمى باسم الجمعة لاجتماعهم فيه أثناء الصلاة الجامعة ، وهو اليوم الذى يجب أن يعود إليه جلاله وعظمته ، وأن يجعله أبناء القرآن بروحهم الإسلامى القوى المخلص يوماً مجيداً جديداً دائماً ، يجدد نشاطهم وتجمعهم وصلتهم بربهم ؛ وحسبنا فى شأنه أن يخصه الله بالذكر فى قرآنه ، ويصفه بالنداء للصلاة الجامعة فيه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وجعله يوم طهارة للجسم بالاغتسال والتزين ، وطهارة للنفس بالمسارعة إلى نداء الله وطهارة للقلوب بتلاقيها متصافية تحت لواء الرحمن واجتماعها فى بيت بارئ السموات والأرض . . .

وهذا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يزكى يوم الجمعة أفضل تزكية فيقول : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » . ويقرر أن فيه ساعة إجابة فيقول : (فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه إياه » . ويحذر من ترك صلاة الجمعة فيه فيقول : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه » ويقول : لينتهين أقوام من ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » .

وهذا اليوم الحاضر الذى نحياه الآن هو أيضاً يصادف أول يوم فى فصل الربيع ، والربيع هو الموسم الطبيعى الذى يقبل فى أعقاب الشتاء ، فتحيا فيه الأرض بعد موتها ، وتتفتح الأزهار وتورق الأشجار وتفيض الأنهاروتصدح الأطيار ، وتنبثق الطبيعة من جديد بالبهاء والرواء ، ويسبح الكون بجلال خالقه وجمال مبدعه وكمال سيده وإلهه عز وجل ، وكيف لا وهو الذى أحيا الأرض الهامدة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؟ . . : وإذا كان المسلم يجد فى الربيع الحسى المنظور ما يجدد نشاطه ويبعث همته ويحقق مسرته ، فالواجب عليه أن يبحث كذلك عن ربيع عقله وقلبه وروحه ، فيبعث مشاعره الخيرة من رقادها ، ويحرك عزيمته فى سبل البر من جمودها ، ويعتبر نفسه بإعراضها عن ربها نفساً ميتة تحتاج إلى حياة الاستقامة والاهتداء ، ويتذكر أن رسوله كان يدعو فيقول : « اللهم اجعل القرآن ربيع قلبى » ، وأنعم بالقرآن من ربيع ، فإن روضته الحافلة بكل جميل وكل جليل كفيلة بأن تحقق للمسلم فى روحه وقلبه ويقينه ربيعاً أى ربيع ! ! . . .

وهذا اليوم الحاضر الذى نحياه أيضاً قد جعلته الدولة موعداً للاحتفال بعيد الأم لأنه أول يوم من أيام الربيع ، وبدء الربيع هو بدء الخصب والإنتاج والإزهار والإثمار ، والأم هى التى تحمل وتلد وتنجب وتربى ،

وهذا يذكرنا بمكانة الأم فى الإسلام ، وهى مكانة لا تفضلها مكانة أحد من الناس سواها ، فالله قد ذكر حق الوالدين بعد حق عبادته : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » ، والرسول قد قدم حق الأم على حق الوالد ، وجعل لها من البر ثلاثة أمثال ما للوالد ، وجعل الجنة تحت قدميها ، وجعل رضاها من رضا الله ، وغضبها من غضب الله عز وجل . . . والإحسان ليس له من جزاء إلا الإحسان ، والأم قد قدمت مالم يتقدمه غيرها من الجميل وحسن الصنيع ، فهى التى تسهر لينام ابنها وتتعب ليستريح ، وتشقى ليسعد ، بلا انتظار لجزاء أو شكور ؛ والأم هى الشخص الوحيد الذى يتبع ابنها إلى النهاية ، حين ينفض عنه جميع الخلق ، ويعرض عنه اثر الناس . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ها أنتم أولاء ترون أن يومكم الذى تحيونه الآن يضم من اللمحات والنفحات ما يستحق التأمل والالتفات ، وما يستوجب الإقبال على مواطن الطاعات بالعزائم الناشطة والنفوس المتفتحة والقلوب الحية والآمال الواسعة فى فضل الله ورحمته ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فبادروا وأبشروا ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

عبرة العيد

الله اكبر « تسعاً » . الحمد لله عز وجل ، هو ولى الفضل والنعمة ، ومصدر الخير والبركة : « إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » أشهد أن لا إله إلا الله ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فصبر ، وأعطى فشكر ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

إن يوم العيد يوم ملحوظ فى السنة ، مذكور على الألسنة مجموع له الناس ، يتلاقون فيه على فرحة وبهجة ، ويتبادلون فيه تحية وتهنئة ، ويحسون عنده كأنهم قد انتهوا إلى واحة خضراء ممرعة ، بعد أن قطعوا من الطريق شوطاً أو مرحلة ، فهم يستريحون ويستجمون ، ويملأون صدورهم بنسمة الاطمئنان ونفس الرضى ، إذ هو يوم عيد ، والعيد يوحى بالعودة ، فهو يعود فى كل عام ، والثقة بالعودة أمر يجدد فى النفس الأمل ويقوى فيها الرجاء . وهذه العودة المتكررة من العيد ، بعد كل مرحلة من مراحل النضال فى مجال العمل الدينى المخلص ، أو العمل الدنيوى الموفق ، توحى إلى الإنسان بتكرار المعاودة والمحاولة ، لتحقيق ما يؤمن به من أهداف ومبادئ فى هذه الحياة ؛ وكلما عاود الإنسان عملا ونجح فيه ، جاء إليه عيد يستريح عنده ، ويستجم فيه ثم يعاود القيام بواجبه ، والسعى فى مسالك الحياة ، للانتاج والإثمار والنفع والانتفاع ، وهكذا دواليك ، عيد يقبل بالفرحة والبهجة ، وعودة من

الإنسان إلى عمل موفق ، يعقبه عيد بهيج ويد الله من وراء المسلم المؤمن ، تسدده وترشده ، وتوفقه وتعينه ، : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

وهذه المعاودة فى حياة الأفراد والجماعات هى التى تكون العادة ، والعادة تقارب الطبيعة ، ولذلك يقول الأول :

تعـــود صـــالح الأعمـــال ، إنى   رأيت المرء يألف ما استعاد

وإذا كانت الأعمال التى يأتيها الفرد والجماعة طيبة صالحة ، وكان التكرار موصولا دائماً ، أدى ذلك إلى تكوين مجموعة من الفضائل يسمو بها الفرد ، وتعز عن طريقها الجماعة ، وهذه الفضائل التى تعمق جذورها فى النفوس هى ما يسمى بالأخلاق الفاضلة ، وبهذه الأخلاق تعتدل الحياة وتستقيم .

وإنما الأمم الأخـــلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وربما كان العمل الذى يكرره الإنسان ويحاول تعوده عملا عسيراً شاقاً فى أول أمره ، ولكنه بالصبر عليه والتطلع إلى غده المأمول يسهل ويلين ، وقد يرحب به صاحبه بعد ذلك ويهش له ؛ والأمم قد يصيبها الذل فى عصور ضعفها وانحلالها فتألفه بطول المدة ، ثم تهيئ لها الأقدار أن تعرف العزة ، وربما أحست بوطأة التبعات والتكاليف التى تقتضيها هذه العزة ، ولكنها بعد أن تدرك سمو مذاقها وعظم أثرها ترحب بهذه التبعات والتكاليف ، وربما تطلبت منها المزيد . ولقد تعددت أقوال الناس فى تحديد السعادة ، ولكن هناك أفراداً ممتازين منهم يعدون غاية سعادتهم فى أن يوفقهم ربهم للنهوض بما يجب عليهم أن ينهضوا به ، فيتعبوا فى ذلك ويعرقوا ، ويستنفدوا غاية جهدهم ، ولكنهم يبلغون هدفهم ، ويحققون أملهم ، ويقفون عند نهاية الشوط فائزين ، وقد تصبب العرق منهم ، فكان وساماً كريماً لهم ،

وحينئذ يحسون بنشوة الظفر ولذة الفوز وسعادة التوفيق لأداء الواجب ، وأمثال هؤلاء يلمحون الضوء خلال الظلمات ، ويؤمنون بأن من وراء الشدة متعة ونعمة ، وأن التعب هو الذى يجعل للراحة طعماً ومذاقاً ، وأن العسر يتلوه اليسر ، فتكون له قيمة ومكانة ، فهم يفرغون من واجب ليستقبلوا واجباً ، وهم ينتهون من مهمة ليستأنفوا القيــام بمهمة ، يعمر صدورهم الإيمان بالانتصار ، وتتألق نفوسهم بعلو الهمة وشرف المقصد ويقين الثقة بالله ، وهذا قد يفسره قول الله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » .

والعيد يذكرنا — فى لفظه ومعناه — بالعائدة ، والعائدة هى المعروف والإحسان ، تقول العرب : عاد فلان بمعروفه ، إذا أحسن ثم زاد ، ومن صفات الله تبارك وتعالى أنه « المبدئ المعيد » أى الذى يبدأ بالفضل ثم يعيده ، ولعل تذكير العيد لنا بالعائدة وهى المعروف هو بعض الحكمة فى تشريع الإسلام لزكاة البدن فى عيد الفطر ، حيث يعود المسلم القادر بهذا المقدار من الإحسان على إخوة له فى الله والوطن ، لم تتيسر لهم أسباب السعة فى الرزق ، أو الاستقرار فى الحياة ، وهو أيضاً بعض الحكمة فى تشريع ذبح الضحية فى العيد الأكبر ، حيث يستطيع الفقير أن يتذوق اللحم الذى لا يستطيع أن يتذوقه فى أغلب أيامه .

وحينما يقبل علينا العيد يحسن بنا أن نلقاه ونفرح به وندرك مذاقه ، ونهيئ لغيرنا أن يشاركنا فرحته ، ولكننا بعد هذا يجب أن نعود إلى حسن المحاولة مع عمق الرجاء وقوة الأمل ، وحينئذ يعود علينا العيد بمشيئة الله القوى القادر ، ليرى أمة عاملة مكافحة تتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، لأن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ويتساوى أبناؤها فى مجال الحقوق والواجبات ، كل يبذل طاقته ، وكل

يأخذ حقه وحاجته ، وأساس التقدير والتقديم فيها هو الاستقامة فى مجال العمل ، وتجنب الزلل والخطأ : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

ويرى أمة يشارك أبناؤها فى الخير والنعمة ، ويتساندون فى البأساء والشدة ، لأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . ويرى أمة تتنزه عن الفتنة والفرقة وإشاعة الفاحشة وإثارة الشهوات ، وتستمسك بالحق والجد ومكارم الأخلاق ومحامد الفعال ، حتى تتحقق منها وفيها تلك الأمة الوسط الصالحة المصلحة التى يصفها القرآن بقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وحين يعود العيد والأمة الإسلامية على هذا الوصف يعمر صدورها بالإيمان ، وتزدان دنياها بالعمل الصالح ، وتتواصى بالخير ، وتتناهى عن الإثم ، يحق للأمة أن تفرح بعيدها كل الفرحة ، وأن تبتهج به غاية البهجة ، إذ ستكون الأمة الرابحة الناجحة : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الله تبارك وتعالى يعود علينا بالآلاء والخيرات فيجب أن نعود إليه بالصالحات والقربات ، وإن الزمان يعود علينا بالربيع الناضر فيجب أن نعود إلى الحياة بالأمل الباسم ، وإن الأرض تعود علينا بالثمار والحصاد فيجب أن نعود إليها بالعناية والرعاية ، وإن الحياة تعطينا فيجب أن نعطيها ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

نحن بين اليوم والغد

الله أكبر « تسعا » :

الحمد لله عز وجل ، له الأمر ، ومنه البر ، وبيده الخير : « ألا إلى الله تصير الأمور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الهدى كتابه والعدل بابه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان جوهر طهارة وصلاح ، وداعية إنصاف وإصلاح ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، فأولئك تحروا رشدا .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

العيد يوم معلوم مشهود ، يصفه العليم الخبير كالواحة الخضراء أمام عباده المجاهدين السائرين على صراطه المستقيم ، يقفون عنده بعد كل مرحلة يقطعونها من مراحل العمل والجهاد فى سبيل الحق والخير والعدل ، فيتلبثون عنده فترة ، وينالون قسطهم من الراحة والفرحة برهة ، ثم يعقدون عزائمهم ويشدون مآزرهم ويعاودون سيرهم نحو مراحل جديدة تعقبها أعياد مجيدة ، وهكذا دواليك . فشأن العيد إذن أن يأتى على قوم قد عملوا وبذلوا وناضلوا ، ليستحقوا أن يقطفوا ثمرة ، وأن يحسوا فرحة ، وأن يرددوا لربهم حمداً ، ويرجوه فى قابل أيامهم فلاحاً ومجداً « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » .

وعيدنا اليوم يأتينا بعد ثلاثين يوماً تمثلت فى شهر الصيام والقيام ، وبعد أن امتدت الأيدى المؤمنة الطاهرة بنفحة الزكاة الخالصة الخيرة ،

لتكون تعبيراً عن جزء من دعائم التكافل الاجتماعى والتعاون الإسلامى الذى أراده الله لأمته الذاكرة الشاكرة ، ونعم أجر المتقين .

ويأتى العيد على مجتمعنا وقد خطونا خطوات فى سبيل حياة اشتراكية متضامنة نحرص على أن تكون رشيدة عادلة ، موائمة بين حق الفرد وحق الجماعة ، ونستعين بالله مبتهلين إليه أن تكون مستضيئة بنور الله الحى القيوم ، ومستلهمة من هدى الرسول الكريم ، الذى ناجاه شاعرنا مصوراً ما سبق إليه من اشتراكية فاضلة تعلو على الظنون والشبهات ، وتتصل أسبابها بأسباب قيوم الأرض والسموات ، فقال له فيما قال :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء !

وإذا كانت الغاية الكبرى من وراء هذه الخطوات أن تزول مظالم ، وأن تعتدل موازين ، وأن يرتدع جبارون ، وأن يحيا معدمون ، وأن يتعاون قادرون وعاجزون ، وأن يتشارك عباد الله فى خيرات الله العامة وآلائه الشاملة مع صيانة الملكية الفردية ، وحماية الحرية الشخصية ، وتقوية حوافز الكسب الذاتية ، وتزكية الصبغة الجماعية ، فى ظلال الإخاء والمحبة والعدالة ، فمن واجبنا أن تتلاقى عزائمنا وتتشابك أيدينا ، لنتصافح ونتعاون ، وليكون من وراء الاجتماع مشاركة ومشاورة ومثابرة ومباركة ، ويد الله مع الجماعة . وإذا اجتمعت أمة محمد على خطة موحدة مجدة ، فلن تجتمع على ضلالة أبداً .

ولكنها حين تتمزق أو تتفرق يكون ذلك من حظ الشيطان الماكر ، الذى ينفث سمومه ، ويبث عقاربه فى طريق الإصلاح والصلاح ، فيثير أنانية شحيحة هنا ، وأحقاداً رخيصة هناك ، ومعوقات مصطنعة هنالك ؛ ولكن الذين يؤمنون بالله وشريعته ، وبمحمد وطريقته ، وبالإسلام وعدالته ، يلزمهم أن يلجأوا إلى حصن الله الحصين ، وأن يعتصموا بحبله المتين ، وأن

يتابعوا خطواتهم على طريق الحق الأمين ، فيجعلوا القوى الباغى — كما قال أبو بكر — ضعيفاً حتى يأخذوا الحق العادل منه ، ويجعلوا الضعيف المظلوم قوياً حتى يأخذوا الحق المغصوب له ، ومتى توافر الإيمان والعزم والعدل ، لم يكن للقنوط وجود أو مكان : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، والله ولى الصابرين المثابرين .

ولقد آن الأوان ليدرك الكبير والصغير فى دنيا الإسلام : شرقها وغربها أن عصر الفردية الباغية قد ولى وانقضى ، وأن روح الجماعة المؤمنة يجب أن يظلل الجميع بألوية التضامن والتعاون ، وأن الذين يلون أمور الناس أو يحكمونهم ، أو وضعتهم التقاليد الموروثة أو الظروف الطارئة موضع التملك والتسلط ، ليسوا فى الكون آلهة أو أرباباً ، ولم يخلقهم ربهم ليكونوا جبابرة أو طواغيت ، بلا محاسبة أو مراقبة ، وإنما واجبهم أن يكونوا للرعية خدماً ، وعن جميع أمورها مسئولين : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

ورضوان الله على عمر بن الخطاب يوم قال : « لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة : لماذا لم أمهد لها الطريق » . ورضوان الله على خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز حين بكى ، فسألته زوجته عن سبب بكائه ، فقال : « إنى نظرت إلى نفسى ، فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سائلى عنهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم ، فخفت أن لا يثبت لى عند الله تعالى عذر ، وألا تقوم لى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة فخفت على نفسى خوفاً دمعت له عينى » .

وهذا تاريخ الجزيرة العربية يحدثنا بأن وضعها يستقيم وأهلها يسعدون

حين يتشاركون فى الخير ، ويتعاونون على البر ، ويتشاورون فى الأمر ، وحينما يتعاطف فيها الأقوياء والضعفاء ، ويتكافل الأغنياء والفقراء ، وأنها تشقى شقاء مبيناً حين يبغى قويها على ضعيفها ، ويجحد غنيها حق فقيرها ، ويستعلى فريق بالقصور والدور ، ويغرقون فى اللهو والترف ، ويجمعون المال من حله وحرامه ، لكى يرضوا به الشهوات الجامحة ويشبعوا الأهواء الخبيثة ، بينما الجموع من حولهم لا تجد قوت يومها ولا كفاف حياتها ؛ وقد خلق الله عباده ليتعاونوا لا ليتقاطعوا ، وليتشاركوا فى خيراته وبركاته بالحق والعدل ، وبفرص متكافئة من وجوه العمل والتيسير ، لا ليستبد فرد أو أفراد بخيرات البيئة وطاقات المجتمع ، وتبقى الأكثرية ممصوصة الدماء ، خائبة الرجاء ، موفورة الشقاء .

وهذه هى الجزيرة قبل الإسلام ، كان فيها جبارون فى الأرض ، يستحوذون على كل شىء ، ولا يتركون لغيرهم شيئاً ذا بال ، وألوان العبث والظلم والرذيلة والاستبداد تبدو صارخة فى مختلف الأرجاء ، ولذلك تعددت المظالم ، وجاوز الظالمون المدى ، فجاء الإسلام نوراً ورحمة ، وعدالة ونعمة ، فإذا المترفون يتركون ترفهم رغباً أو رهباً ، وإذا المعدمون ينالون حقهم فى الحياة عملا وكسباً ، وإذا طبقات الأمة تتقارب وتتعاطف ، وإذا مجتمع إسلامى فاضل تسوده العدالة الاجتماعية ، بما شرع الله من زكاة وبر وإحسان وتضامن ، وبما حارب من ترف وجشع واستغلال ، وبما رسم للاكتساب والامتلاك من طريق طاهر نظيف ، وبما أكد فى القلوب والعقول من وحدة الأمة وتآخيها يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

وظل الأمر كذلك زمناً مباركاً ، تتألق فيه نزاهة أبى بكر ، وعدالة عمر ، وكرم عثمان ، وإيمان على ، وإصلاح خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز ثم أقبلت الدنيا بأهوائها وأبهائها واستيقظت الشهوات والملذات ، وعادت الجزيرة على أيدى فريق من الأعاجم وبعض الدخلاء على المجتمع تعرف الإثم والفجور ، فإذا بعض القصور تفيض بالجوارى والغوانى ، وتعرف الخمور والغلمان ، ويحظى فريق من الحاكمين أو المتحكمين بالحياة الناعمة الوالغة فى اللهو والترف ، بينما يحرم الآخرون مستوى الحياة الأدنى اللائق بهم كبشر ، فيختل الوضع ، ويفسد الأمر ، وتضعف الدولة بسبب ما عرض لها من إسراف وانحراف واعتساف .

ولو استنبأنا تاريخنا القريب لوجدنا فيه نفس العظة ، فهذا داعية للإصلاح الدينى هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب يهب فى أرض الجزيرة داعياً إلى محاربة البدع والخرافات ، ومقاومة المظالم والمنكرات ، والرجوع إلى طريق الحق والعدل والتعاون الإسلامى ، والعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فهل يعقل عاقل أو يتصور متصور أن الذى دعا إلى هدم القباب من فوق القبور ، يرضى أن يبنى المسرفون على أنفسهم وعلى الناس شواهق القصور ، أو يتطاول الباغون بسوامق الدور ، أو أن الذى اعتبر التدخين بدعة وأمراً منكراً يرضى عن الإثم والفسوق ، أو أن الذى جدد مذهب الإمام أحمد ابن حنبل الداعى إلى الخضوع لقدرة الله ، والتآخى بين عباد الله ، وعدم الابتزاز أو الامتصاص لأرزاق الناس فى الحياة ، يرضى أن يتعالى فى الأمة متعالون ، فيحتكرون الطاقات والثروات ، ليتمتعوا بها تمتع المسرفين ، أو يبعثروها ذات الشمال وذات اليمين ، وهذا رسول الأمة صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « ما جاع فقير

إلا بما متع به غنى » . فليتنا من الإسلام نتعلم ، وبنوره نهتدى ونتقوم : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : . .

إن الله قد رسم لنا الطريق ، أن نكون أمة واحدة متعاونة متضامنة ، لا تظلم فرداً ، ولا تتملق جباراً ، ولا ترتضى فيها إثماً ، بل شريعتها عدالة وحماية ، وكسب وكفاية ، وتشاور وتناصح ، وتعاون على البر والتقوى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

خطبة العيد الثانية

الله أكبر « سبعاً » . الحمد لله تبارك وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن لنا اليوم فى مجتمعنا أهدافاً كثيرة متعددة القيم والموازين والميادين ، ولكن أهمها الآن هدفان : هدف تحقيق الوحدة العربية ، وهدف تثبيت الاشتراكية المؤمنة ، وتحقيق هذين الهدفين لا يراد منه مصلحة فرد أو أفراد ، بل يراد منه مصلحة الجماعة ، وإعزاز العروبة ، والتمكين للاسلام ، لأنه إذا عز العرب عز الإسلام » كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومفهوم هذا أنه إذا عز العرب عز الإسلام ، والإسلام روح العروبة ، والعروبة وعاء الإسلام .

وفى تحقيق الوحدة قوة واستعلاء ، ولذلك يقول ربنا جل جلاله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » ، وفى تحقيق الاشتراكية المؤمنة تحقيق للعدالة الاجتماعية والرحمة الواسعةالنطاق ، وما أساس دعوة محمد إلا إشاعة نسمات الرحمة الإلهية فى أفسح مجال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وإنما يقف فى طريق الوحدة من تربوا فى أحضان الاحتلال والاستعمار ، أو من تطبعوا بطباع الحزبية والفردية ، أو نالوا فى غفلة الشعوب مجداً كاذباً أو سلطانا زائفاً يخافون ضياعه وزواله ، ويودون بجدع الأنوف بقاءه ودوامه ؛ وإنما يقف فى وجه الاشتراكية من غنموا المغانم السحت ، ونالوا المكاسب الحرام ، واستحوذوا على حقوق الأفراد والجماعات ، فهم يخافون من عدالة الاشتراكية التى ستنزل بهم عن طغيانهم وطاغوتهم درجات ودرجات ؛ ولكن واجبنا هو أن نتدثر دائماً بالإيمان والعدل ، والنزاهة والإخلاص ، وأن نمضى على الطريق يقظين حذرين منصفين ، لا تطغينا نشوة نصر ، ولا يوئسنا موطن ابتلاء ، بل نخلص لله أعمالنا ، والله ولى المخلصين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

اللهم اخذل من كان فى خذلانه صلاح أمة محمد ، وأيد من كان فى تأييده صلاح أمة محمد ، اللهم خذ أطراف الأرض على الباغين والمسرفين والمترفين والمعوقين ، اللهم أعن الصالحين المصلحين المتخففين الراغبين فى إعلاء كلمتك وإعزاز شأن عبادك ، فأنت ولى المؤمنين ، وناصر الموقنين . اللهم وحد أهدافنا ، ووحد صفوفنا ، واجمعنا على كلمتك وطاعتك ، حتى يتحقق فينا قولك : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين ، اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن عين لا تدمع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع . اللهم إنا نسألك بفضلك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بحولك وطولك كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين المجاهدين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين . اللهم وفق ولاة المسلمين وحكامهم للعمل

بكتابك وسنة نبيك الكريم ، اللهم وفق ولاة الأمور لما فيه رضاك ، ولما فيه خير العباد والبلاد يا أرحم الراحمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، وكل عام وأنتم بخير ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

العيد فكرة وعبرة

الله أكبر « تسعاً »

الحمد لله عز وجل ، الكبرياء رداؤه ، والحق قضاؤه ، له الأمر ، وبيده الخير ، وهو على كل شيء قدير . أشهد أن لا إله إلا الله ، يداول الأيام بين الناس ، ويأخذهم بشرعة العدل والقسط . . . « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طالما سأل ربه العزيمة فى الرشد ، والثبات على الحق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ذوى الرشاد والنهى ، وأصحابه السابقين إلى الهدى ، وأتباعه المعتصمين بالتقى : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا يوم من أيام الله بين عباده ، يتجلى عليهم فيه بالرحمة والنعمة ، ويشهد جموعهم الساعية إلى بيوته مكبرة ذاكرة ، حامدة شاكرة ، فيفيض عليهم من آلائه ونعمائه بقدر ما يكونون عليه من إيمان وإخلاص ، ولقد كان رمضان — الذى يتوجه عيد الفطر — فرصة من فرص التربية والإعداد ، وموسماً من مواسم الطاعة والجهاد النفسى والروحى ، ثم يجىء يوم العيد لتكون فيه وقفة من وقفات التأمل والمراجعة ، يمتد بصر الإنسان وفكره إلى ما قدم أو سلف ، فإن كان خيراً حمد ربه وشكر ، وإن كان هناك تقصير تدارك واستغفر ، ثم يفزع إلى خالقه ومولاه ، يسأله الرضى والتقبل لما مضى ، ويرجوه العون والتوفيق فيما يأتى ، ولقد خطب عمر بن عبد العزيز فى عيد الفطر فقال : « أتدرون ما مخرجكم هذا ؟ صمتم ثلاثين يوماً ، وقمتم ثلاثين ليلة ، ثم خرجتم تسألون ربكم أن يتقبل منكم » .

ويوم العيد أشبه بواحة خضراء تقع على طريق الكفاح الموصول ، فالسائر المكافح الذى صام وقام وزكى ، وعبد ربه فى السر والنجوى ، وقدم ما استطاع من مجهود ، يتلبث عند هذه الواحة ، فيتروح ويتزود ، ويستجم ويستعد ، ثم يواصل سيره فى طريقه ، جاعلا يوم العيد عروة تربط بين ماض قد بذل فيه طاقته ، ومستقبل يصمم فيه على ألا يكون أقل خيراً من سابقة ، وإن لم يكن أكبر وأكثر . . . وإذن فللعيد فرحة وللعيد عبرة ، ومن الخير أن نجمع بين متعة الفرحة وعظة العبرة ، فنفرح بما قدمنا ونلنا ، ونعتبر بما استفدنا وتعلمنا ؛ ومن حق الأمة المؤمنة المجاهدة أن تنال قسطها المشروع من البهجة بما قدمته من عبادة ورياضة ، ومن واجبها أن تتعلم مما لاقته فى سبيلها ، وتكشفته من حولها ، لتمضى إلى غاياتها الكبرى وأهدافها العليا ، تعمرها حوافز النشاط والتفتح ، وترشدها منارات التعقل والتبصر : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولقد استبان لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن هذه الأمة تبلغ خيراتها وتنال ثمراتها كلما أزهقت روح الشتات والفرقة بيد التجمع والألفة ، والصادق المصدوق صلوات الله عليه يقول : « الجماعة بركة ، والفرقة عذاب » ويقول : « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار » . ولعل أكبر حقيقة تجسمت للأبصار والبصائر أن أعداءنا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق ، والذين يتربصون بنا الدوائر يحرصون الحرص كله على تفريقنا وتمزيقنا ، لأنهم يريدون إذلالنا واستعبادنا وامتصاص خيراتنا ، أو كسر شوكتنا والقضاء علينا ، ولا يتحقق لهم ذلك إلا عن طريق التفريق والتمزيق ، وهم يمكرون بنا مكر الليل والنهار ، فهم إذا حاربوا قوميتنا فإنما يريدون القضاء عليها وعلى عقيدتنا ، لعلمهم بأن

هذه القومية وعاء تلك العقيدة ، فقد اتسعت العروبة لعرض مبادئ الإسلام وتعاليمه فى لغتها وتاريخها وأدبها وسير أبطالها ومواقف جهادها ؛ ومن ذا الذى بث فى أول الأمر أضواء تلك العقيدة السمحة فى مشارق الأرض ومغاربها سوى تلك الأمة التى آمنت بربها ، واستخدمت ألوان طاقاتها فى تأييد العقيدة التى ثبتت عليها لتقيم من هديها صروح الحرية والعدالة والإنصاف بين الناس ؟ . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . . .

وإذا حارب هؤلاء الأعداء عقيدتنا فهم يريدون القضاء عليها وعلى قوميتنا معاً ، لعلمهم بأن هذه العقيدة روح هذه القومية ، ولعلمهم بأن حب الوطن من الإيمان ، فقد زكت الدعوة الإسلامية الخالدة مكانة العروبة وأعلت شأنها بقرآنها العربى المعجز الباقى ، ونبيها العربى المصلح ، وكعبتها مركز الدائرة فى جزيرة العرب وقبلة المسلمين الجامعة ، ومنذ أن باركت يد الله العلى الأعلى ذلك اللقاء الأول بين العقيدة والعروبة حين ظهور الإسلام تجلى لكل من يعقل أن الرابطة بين الإسلام والعروبة لن تنفصم عراها لأن العروبة ستظل كما أرادها الله جل جلاله وعاء للاسلام ، وسيظل الإسلام العظيم روحاً لتلك العروبة ، فإذا عدا عادون على مقدسات ديننا فهم لا يقصدون هدم ديننا وحده ، بل يريدون هدمه وهدم كياننا وعزة أوطاننا ، وإذا اعتدوا على قوميتنا ووحدتنا فهم سيعتدون مع ذلك على معتقداتنا ، وهم يحملون لهذه الأمة المؤمنة من الأحقاد الدفينة والنوايا السود ما الله به عليم « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » ، « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

وهذا هو القرآن المجيد الذى يتطاولون على جلاله ويسخرون منه . . . إنه الذى صان اللغة العربية وأبقاها ، ومجد الأمة العربية وزكاها ، ورفع مكانة الأدب العربى وسما به ، وصان الألسنة العربية من الرطانة الأعجمية والغرق فى الثقافة الدخيلة الأجنبية ، وأقبل على الدنيا بخير منهاج لإصلاح الحياة وإسعاد الناس ، فكان نوراً مبيناً وصراطاً مستقيماً ؛ وصار هذا القرآن هو المرعب الأكبر لكل أعدائنا والكائدين لنا . يتبجج الاستعمار أو الاحتلال بالاستعباد والإذلال ، فإذا القرآن يثير نا فى وجهه قائلا : « ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . . ويكيد الإلحاد الكافر ما يكيد ، ويريدنا على أن نعبد المادة من دون الله ، وأن نلغى حرياتنا فى سبيل الطغاة ، فإذا القرآن يصيح فى آذاننا « إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ويصيح : : « إنهم يكيدون وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » . ويتوقح دعاة التحلل من الأخلاق ، فيريدوننا على أن نرتع فى الشهوات والمآثم ، فإذا القرآن يهتف بنا : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » ، « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . ولذلك يضيق أعداؤنا بهذا القرآن المجيد كل الضيق ، وهذا طاغية استعمارى مشهور يقول فى نادى قومه السياسى : « لن نستطيع أن نستقر فى مستعمراتنا بالبلاد الإسلامية إلا إذا قضينا على أمرين أولهما : هذا القرآن ، وثانيهما الكعبة » ! ! . . . وهيهات هيهات ، لقد ضلوا ضلالا بعيداً « والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إنها معركة الحفاظ على إيماننا وكياننا ، ومعتقداتنا وأوطاننا ، ونحن

بحاجة إلى تلاقى الجهود وتضافر القوى ، والانتفاع بكل صاحب موهبة صالحة أو فكر رشيد أو رأى سديد حتى يتعاون الجميع على الحق والخير ، وحتى نقيم مجتمعنا على قواعده الراسية الراسخة من الإيمان بالله ، والسمو بالحياة ، والتوحد فى الاتجاه ، وإذا كنا قد أفطرنا فى ميدان الطعام والشراب فيجب أن نظل صائمين عن الضلال والانحراف ، مترفعين عن المذلة والهوان ، قائمين فى موطن المرابطة والمجاهدة من أجل مبادئنا وعقائدنا ؛ وفى سبيل ما يؤمن به المؤمنون تطيب التضحية ويحسن البذل : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الخطبة الثانية

الله أكبر « سبعاً » . . .

الحمد لله وحده ، لارب غيره ، ولا معبود سواه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ، ووحد الأمة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله المجاهدين ، وأصحابه المناضلين ، وأتباعه الصادقين ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . . فى صبيحة هذا اليوم الإلهى المبارك ، وفى بيت من بيوت الله يسمى باسم الإمام الحسين أبى الشهداء وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى خرج من بيته مهاجراً فى سبيل ربه ودينه ومجاهداً من أجل عقيدته ومبدئه ، والذى سقط شهيداً فى ميدان الدفاع عن يقينه وإيمانه ، نتوجه إلى ربنا جل جلاله ، وهو أكرم مسئول وأفضل مأمول أن يهبنا صحة الإيمان به ، وصدق التوكل عليه ، وقوة الثقة بأنفسنا ، وإخلاص العمل لديننا ودنيانا ، وشرف السعى ومبادئنا ، وأن يجعلنا من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . . اللهم من كاد لنا فكده ، ومن خرج على أمتك فاخذله ، واجعلنا كما أردت لنا أمة واحدة متعاونة ، كل فرد منها يخلص فى رأيه ومشورته ، ويقدم غاية جهده وطاقته ، حتى لا يبقى فيها مقام لدخيل ذميم أو عدو لئيم ، بل تحيا حياة عزيزة كريمة تسعد بها أبناءها ثم تفيض خيرها على العاملين . اللهم إن لنا إخوة فى الدين والوطن ، فقدوا أعزاء عليهم ، سقطوا شهداء فى سبيل دينهم وحياتهم وحرياتهم ، اللهم كن لهم وكن معهم ، وأدخل على قلوبهم السكينة والطمأنينة فإنك أنت الرحمن الرحيم .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات . . إلخ .

عيد الفطر

الله أكبر « تسعا » . . .

الله أكبر وهو الجدير بالحمد والثناء ، الله أكبر وهو رب الجبروت والكبرياء ، الله أكبر منه كل شيء ، وإليه كل شيء وهو الغني وأنتم الفقراء ، الله أكبر ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ! . .

الحمد لله الموفق للطاعات ، المثيب بالخير والرحمة على القربات ، أحمده سبحانه ، وأسأله التوفيق لدوام العمل ، وأشهد ألا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذى كان يصوم ويفطر ، ويتهجد وينام ، ويتخشن ويتزين ، ويعمل ويستريح ، ويدعو قومه إلى الطيبات ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما أشرقت الشمس وتوالى الليل والنهار .

أما بعد فيا أتباع محمد عليه السلام ! . . .

هذا يوم الفطر ، وهو يوم عظيم جليل ، يحتفل به المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بما يستطيعون من مظاهر الفرح والتهنئة والاغتباط ؛ وحق لنا أن نسر بهذا اليوم وأن نفرح ، إذا أمرنا الله بالصوم فصمنا ، وندبنا إلى إلى القيام فى الليل فقمنا ، وحثنا على زكاة الفطر التى ترفع الصوم إلى محل القبول فأدينا ، ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن يختصنا الله بيوم يحل لنا فيه ماحرم بالأمس ، ويتيح لنا من لذائذ الحياة الطيبة ومشتهياتها المعقولة ما كنا ننظر إليه طيلة الشهر الماضى ، ونستطيع أن نمد إليه أيدينا فى الخفاء أو العلن ، ومع ذلك كان هناك ما يمنعنا منه ويصدنا عنه ، كان من فوقنا العليم الخبير

الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى نرجو رحمته ونخشى عذابه، ونتقرب إليه بالصوم كى يجعلنا من عباده الصالحين ، ويحشرنا فى زمرة الأتقياء المقربين ، رضوان الله عليهم أجمعين . .

من الله علينا بذلك التوفيق الكبير ، ثم أعقبه بذلك الفضل العظيم ، فما أجدرنا بأن نشكره وبأن نحمده ، وبأن نعاهده على الاستقامة مع دينه ، والاحتماء بظل كتابه ، والاقتداء بسنة رسوله ، والعمل الدائم لوجهه ، حتى يصدق علينا قوله عز من قائل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

إن من حقكم اليوم أيها المسلمون . وقد أديتم واجبكم ، وفزتم فى معركتكم ضد الأهواء والشهوات ، وانتصرتم على نفوسكم الأمارة بالسوء ، أن تظهروا الزينة ، وتبدوا التجميل ، وتلهوا لهواً ليس بحرام ، وتسعوا على أنفسكم وأهليكم فى الطعام والشراب والثياب ، بلا تبذير أو إسراف . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » . نعم لكم هذا ، وعليكم بجواره أن تظهروا عظمة الإسلام وقوة أهله وصفاء طبيعته فى هذا اليوم ، فلا تقترفوا منكراً ، ولا تأتوا إثماً ، ولا تشهدوا فجوراً ، ولا تمشوا فى الأرض مرحاً ، ولا تظهروا ترافاً زائداً ! أو طغياناً مبيناً ؛ وإذا ما سلكتم فجاج الأرض متنقلين من هنا وهناك ، فاصطحبوا معكم ضمائركم وعقولكم وإيمانكم ، واذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى المسجد يوم العيد من طريق ويعود من طريق آخر ؛ فقال العلماء : إنما فعل ذلك ليسلم على أهل الطريقين ، وقيل

لينال الفريقان بركته ، وقيل ليقضى حاجة من له حاجة منهما ، وقيل ليظهر شعائر الإسلام فى سائر الفجاج والطريق ، وقيل ليغيظ المنافقين برؤيتهم عزة الإسلام وأهله وقيام شعائره ، وقيل لتكثر شهادة البقاع له ، فإن الذاهب إلى المسجد إحدى خطوتيه ترفعه درجة ، والأخرى تحط عنه خطيئة ، وقيل لكل ما تقدم . . فها أنتم أولاء ترون أن رسول الله صلوات الله عليه لم يمش فى الأرض مرحاً ، ولم يسلك السبل المتعددة ليزهو أو يتكبر ، بل فعل ذلك ليأتى معروفاً ويتقرب من الله درجة بعد درجة ، فاقتدوا به أيها الاتباع المخلصون ، واذكروا كلمة زوجته عائشة رضى الله عنها إذ تقول : ماتمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار ، وزادوا عليه تقوى الله ! . .

ثم إنكم تعلمون ما يعانيه الناس اليوم من كلب الحياة ومتاعب العيش وضيق ذات اليد ، فالبؤس مخيم والفقر ذائع ، والمطالب القاسية الضرورية عديدة ، فكونوا أيها المؤمنون كراماً سمحاء ؛ مدوا أيديكم بالصدقة للفقير والمسكين والمحتاج ، وأمسحوا بأيديكم الناعمة دموع أولئك الحيارى من المعوزين والبائسين ، وإذا احتجتم إلى عظة ترغبكم فى الإحسان فقرآنكم حافل بالشواهد ، وسنة نبيكم محشودة بالدلائل والمرغبات ، واعلموا أن أحد الكتاب قص قصة عن قوم ليسوا بمسلمين ، وعدها أفضل ما سمع من باب المروءة والإحسان ؛ وخلاصتها أن امرأة فقيرة أرادت أن تشترى لطفلها ليلة العيد لعبة من حانوت لعب فى باريس ، فتغالى صاحب الحانوت فى الثمن حتى عجزت المرأة عنه ، فدفعها حبها لولدها أن تسرق اللعبة من وراء التاجر ظانة أنه غافل عنها ، ولكنه كان يراها ؛ وعادت إلى بيتها وهى تبتسم لفرح ولدها ، وفى الوقت نفسه تبكى للجريمة التى اقترفتها ، وأمهلها التـــاجر حتى وصلت إلى البيت ثم استدعى رجلين من رجال البوليس للقبض عليها ، ففاجأها وهى جالسة بين يدى ولدها تنظر إلى

ابتهاجه فتغتبط وتستريح ، فلما قبضوا عليها وانتزعوا اللعبة من الطفل بكى وصرخ ، لا للعبته بل لأمة المسكينة ، فجثا بين يدى الرجل وقال : ارحم أمى يا سيدى فإننا فقراء ! . . وجعل يبكى ! فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، واستيقظ ضميره فأخذ يحاسبه . . أهذه هى الصدقة التى تقدمها لهؤلاء البائسين ؟ . . ألا تخشى أن تصير إلى ماصاروا إليه ؟ . . أأمنت نكبات الليالى وحوادث الأيام ؟ . .

وهنا دقت الأجراس مؤذنة بإشراق يوم العيد . فانتفض الرجل انتفاضة شديدة ، وصعب عليه أن يكون السبب فى حزن هذه الأسرة المنكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت إلى الجنديين وقال : إنى أخطأت فى اتهام هذه المرأة ، لأننى لا أبيع هذا الصنف من اللعب ! . . فانصرفا لشأنهما ، ثم أقبل الرجل على المرأة والطفل فاستغفرهما حتى صفحا عنه ، ولم يتركهما حتى ملا عليهما يومهما بالبهجة والسرور ! ٢ .

ثم يقول الكاتب معلقاً على هذه القصة الواعظة :

« لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان ، نجم سعود ونجم نحوس ، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً ، تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ؛ وأما الآخر فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى ، يئنون فى فراشهم أنيناً يتصدع له القلب ، ويذوب له الصخر ، حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم ، يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم : ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم ، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها . . . فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى أولئك

الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد النزر القليل مما أعطاهم الله ، ليسجلوا لأنفسهم فى باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل ؟ . .

إن رجلا يؤمن بالله ورسوله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينيه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان ، عندما يرى فى يوم العيد — فى طريقه إلى معبده ، أو منصرفه من زيارته — طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين ، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلىء به أيديهن ، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه ، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها : . . حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيامهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين ! ... » .

ومالى أذهب بكم فى التماس الموعظة بعيداً عن الإسلام ، وفى الإسلام : كتابه وسنته وسيرة أهله من العظات والعبر ما يبلغ القلوب فيصلها بنور الله ويهديها سواء السبيل ! ؟ . .

هذه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، كانت تأتيها الأموال والخيرات من هنا وهناك فتبدأ فى توزيعها حتى تنتهى منها وإنها لجائعة ، فلا تفكر فى أن تبقى لها ما تذهب به جوعها ، وإنها لمحتاجة إلى ثوب ، وقد يكون بين يديها أثواب فلا تدخر أحدها لنفسها . . وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف يوم العيد فيخطب فى الرجال حاثاً لهم على التقوى والإحسان ، ثم

ينتهى إلى النساء وفى صحبته بلال ، فيأمرهن بالصدقة وتقديم الخير ، ويبسط بلال رداءه ليتلقى فيه ما تجود به هؤلاء النساء ، فتلقى هذه بقرطها ، وتلك بخاتمها ، وتلك بمالها ، حتى يكاد يمتلئ ثوب بلال من هذه الحلى التى قدمت خالصة لوجه الله ورسوله .

فلا تكونوا أيها المؤمنون أقل همة من النساء ، وسارعوا بصدقاتكم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، ومن يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له ، وما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولئن شكرتم ليزيدكم ، وإن رحمة الله قريب من المحسنين ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا . . والله هو الغفور الشكور ! ! . .

عن أنس رضى الله عنه قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ولهما يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ . قالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية ، (وهما يوم النيروز ويوم المهرجان) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس . توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا . .

عيد الفطر

الله أكبر « تسعاً »

الحمد لله ، أحل الحلال وحرم الحرام ، وداول بين الناس الأيام والأعوام ، وتنزه سبحانه عن الزمان والمكان : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، فتحت مغاليق رحمتك للطالبين ، وفسحت ميادين توبتك للخاطئين ، « هو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون » . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، عرف الطريق إلى ربه فما انحرف عنه ، وأدى الدين كاملا فما نقص منه ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وشيعته ، وأصحابه وجماعته والقائمين بأمر شريعته : « الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يظل المرء الغافل طيلة العام سادراً فى غلوائه ، غارقاً فى شهواته وأهوائه ، تجذبه جواذب الفتنة والإغراء من الأمام والوراء ، فتارة يهمل وينسى ، وتارة يأثم ويطغى ، وتمر به الأيام وهو يحسبها جبالا من المتاع لا تبيد ولا تفنى ، ثم يقبل عليه رمضان ، فإذا هو شهر الثورة الدينية الذى يغير نظام المرء كله ، فيصله بربه بعد أن كان مقطوعاً عنه ، ويمتعه بالقرآن بعد أن كان محروماً منه ، ويسعف معدته بالحمية التى هى رأس الدواء ، ويحرمه من طعامه وشرابه ولذته فترة ليذوق طعم التأديب والتهذيب ، ويحيى فى صدره من العواطف الرحيمة والمشاعر الكريمة والنفحات العظيمة مالا يكون إلا فى رمضان ، فيصبح المرء فى شهر الثورة الروحية واليقظة الدينية غير ما كان قبله ؛ ثم يؤذن رمضان بالرحيل ، بعد أن يؤثر آثاره ويترك ثماره ؛

فإن حاول المرء أن يكون فى سائر الأيام كما كان فى أيام الصيام ، من الجوع والحرمان والقنوت والقيام ، صار الأمر شديداً عسيراً ، لا يتهيأ لكل النفوس أن تصبر عليه أو تدوم معه ، والله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يطالبها إلا بطاقتها وبما آتاها ؛ وإن عاد المرء إلى سيرته السيئة الأولى التى كان عليها قبل رمضان فقد انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ؛ فلم تبق إلا الثالثة ، وهى أن يختار المرء طريقاً وسطاً ، يجمع فيه بين خلاصة طيبة من متاع الحياة المألوف ، وبين عصارة نقية ميسورة من تأديب الله وتربية الإيمان ، ومن هذا المزيج الكريم يرضى الإنسان ربه ، ويعمل لآخرته ، ثم لا يحرم نفسه ولا يقسو على طاقته : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وعلى هذه القاعدة جاء هدى الإسلام فى العيد ؛ إن العيد يوم زينة ومتاع ، وأكل وشراب ، ولهو ولعب ، وحق له أن يكون كذلك ، فقد جاء بعد تجربة لحرمان النفس وتأديب الشهوة وكبت الرغبات ، ولذلك ندعوكم باسم الإسلام فى يوم العيد أن تأخذوا حظوظكم من التسلية والتمتع ما دمتم فى حدود الدين والأدب والأخلاق ، فتزينوا وتطيبوا وألبسوا الجديد ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وامرحوا واطربوا ما دمتم لا ترتكبون خطيئة ولا تأتون منكراً ، واخرجوا إلى الحدائق والشواطئ ، وتمتعوا بالماء والهواء والنبات ، فى حدود الفضيلة والعفة ، ورددوا إن شئتم قول ربكم : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . ولكنه يجب مع هذا أن نستعد لما بعد

العيد من استقامة على الطريق ، وانتفاع بثمرات الصيام ، وجمع بين الدين والدنيا ، وكأن الله سبحانه قد حرضنا على أن نجعل هتافنا فى فرحة العيد : « الله أكبر » ليذكرنا ونحن فى طوفان النعمة بأن الله أكبر من الحياة وأكبر من الجاه ، وأكبر من الأهواء وأكبر من الأحياء ، فيجب ألا يشغلنا إقبال النعيم عن أداء حق الشكران والإيمان لواهب ذلك النعيم : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » ، « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد قال رسولكم : « أول شهر رمضان رحمة ، ووسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار » ولن يكون ذلك إلا إذا أبقى المؤمن فى نفسه شعاعاً من هدى رمضان يستضىء به فى سائر الأزمان ، ثم صدق فى الرجوع والمتاب : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير » ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

نحن فى العيد

الله أكبر « تسعاً » . . .

لله الحمد ، هو رب الأولى والآخرة ، بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، سبحانه هو الذى يداول الأيام بين الناس ، ويزهق الباطل ليقيم شرعة القسطاس ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ؛ أشهد أن لا إله إلا أنت ، كيف يغيب عنك شىء وقد أحطت بكل شىء علما ، أم كيف يعز عليك شىء وقد وسعت الكون قدرة وحكما : « إنا نحن نحيي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . ونشهـد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، طال صبره فطاب ثمره ، وثبت يقينه فانتصر دينه ، وكان سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وجنده وأصحابه ، والداعين بدعوة كتابه ، أولئك لهم البشرى ، وأولئك لهم جنات النعيم ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى العيد يتبادل الناس التهانى ، ويتقارضون الطيب من الأمانى ، وتبسم منهم الشفاة وتضىء الجباه ، لأن العيد سمى عيداً لعود الله فيه على عباده بالخير والمسرة ، والمثوبة والمغفرة ، جزاء ما قدموا وأسلفوا من صالح القول وطيب العمل ؛ وفى العيد يحس الشعب صغاره وكباره بفرحة تهز كيانه وأبدانه ، وتملأ عليه جوانبه وأركانه ؛ ونحن حين نتلفت لنجد هذه العذوبة أو تلك الفرحة فى أعيادنا لا نجد منها إلا ظلا خافتاً أو خيالا كاذباً ، وكأنما قد مسخت هذه الأعياد مسخاً فبقيت لها الأسماء وزالت عنها السمات والخصائص ؛ ولم لا وقد كان العيد فى ماضينا فرحة بفوز الفكرة العابدة

فأصبح فى حاضرنا طغياناً للفكرة العابثة ؛ وعن أيماننا وشمائلنا ما يصدنا عن معنى العيد ، فالدين مكلوم ، والأخلاق منكوبة ، والأمة متفرقة ، والتهم متلاحقة ، والفضائح متسابقة ، والباطل سائد ، والحق ضائع ، وليس للحياة فيما بيننا عادل ميزان ؟ .

هذا عيد التضحية قد قام إيذاناً بانعقاد المؤتمر الإسلامى العام لدى أول بيت وضع للناس فى البلد الحرام ، حيث يجتمع الحجيج من كل فج عميق لا لغرض أو عرض أو تجارة ، ولكن ليخرجوا من خير ترابهم الآسن ويتطهروا بطهور السماء ؛ والمسلمون فى غير الأرض المقدسة يعقدون أثناء يومهم هذا فى مساجدهم ومعابدهم لجاناً فرعية لذلك المؤتمر ، حتى تتلاقى أرواح الجميع وعواطفهم ، رغم تنائى الديار وتباعد الأقطار ، حول معنى واحد هو التوجه إلى الله ، والاستمداد من هداه ، والعزم على نصرة الإسلام وتأييد المسلمين ! .

وهذه اللجان الفرعية فى سائر الكرة الأرضية روافد للجمع المبارك هناك فى مسرى الرسول ومنزل الوحى ، والكل يتعاونون عن طريق البحث والشورى على الوصول إلى الهدف المنشود ، وهو أن يكون القرآن سيدهم المطاع ، حتى يحقق لهم السعادة والعزة فى سائر البقاع ؛ فلنتبين فى موقفنا هذا حالة الدعاة إلى شرعة ذلك القرآن . . . إنهم يعيشون وا أسفاه غرباء بين سفهاء ، ويحيون حياة الكرام فى دنيا اللئام ، ويصاون حر المحنة والعذاب بينما يلهو غيرهم بالشراب أو الكعاب ؛ وهم يساؤون فى أرزاقهم وأقدارهم وأعمالهم وسمعتهم وحريتهم ، وهم يعيشون دائماً فى حذر وعلى خطر ، الناس من حولهم قد تحزبت فرقاً وشيعاً ، وكل فرقة منها تلى الأمر يوماً أو بعض يوم فتطغى أو تحظى ، وهؤلاء الدعاة ليس لهم من أمر المغنم شىء ، وعليهم المغرم كله ، لأنهم طلاب حق وأصحاب صدق ، والصدق يغضب الجميع ،

وكلمة الحق لا تدع للمرء صديقاً أو حبيباً ، ولكنهم رغم هذا كله يصابرون ويثابرون ، لأن الله لهم هناك ، والله خير وأبقى ، وما عند الله خير للأبرار ، وصولة الباطل مهما امتدت لن تخلد ، وغفوة الحق مهما عمقت لن تطول ! . .

ومما يتقطع له قلب الجليد ويثير غضب الرشيد أن هؤلاء الداعين إلى خير العقيدة وجمال الخلق وجلال المبدأ تساء بهم الظنون على كل حال ؛ إن دعوا إلى حكم الله قيل عنهم إنهم يريدون قلب النظام المشروع ، وإن دعوا إلى الإخاء والتكافل قيل إنهم يريدون الشيوعية الحرقاء ، وإن نقدوا مظاهر التحلل والفجور وطالبوا بإصلاحها قيل عنهم إنهم دعاة فتنةواضطراب وإن لاموا الكبار على فسقهم ومجونهم وإجرامهم قيل إنهم متطاولون قذافون يجب أن يساقوا إلى ساحة العذاب . . . وقد يضحك على ذقون الأمة الغافلة كبير من كبرائها ممن لهم طول فى القياد أو العتاد ، فيردد فى كلامه أو كتابته ما يردده هؤلاء الدعاة ، فيقبل منه على أنه إبداع وابتكار ، ويكال له المديح والثناء ، فإذا ما قال هذا الكلام نفسه أحد الدعاة المخلصين ثارت ثائرة الجبارين ، وانقلب حديث الملائكة إلى حديث شياطين ! . . .

لا يا هؤلاء . . . ليس دعاة الإسلام بالذين تظنون أو تصورون . . . ليس دعاة الإسلام أذناب فوضى أو إرهاب ، وليسوا ثعالب مكر أو شياطين غدر ، ولكنهم مصابيح الظلام وشيعة القرآن وجند الرحمن ، ودعاتكم إلى صراط العزيز الغفار . . . وما يفكر هؤلاء الدعاة طويلا فى المظاهر والأشكال . ولا يعنيهم كثيراً أن يكون للاسلام هيئات أو رابطات ، ولكن يعنيهم أولا وقبل كل شيء أن تطبق شرعة الإسلام ، وليكن فضل ذلك التطبيق على يد أى مسلم كان ، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . . . إن الأشخاص تفنى وتزول ، والهيئات تقوم وتحول . ولكن الله باق حى لا يموت ، والإسلام خالد

لا يبيد حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ودعاته لا يبيدون ، كلما مضى إلى ربه قبيل خلفه قبيل ، قؤول لما قال الكرام فعول ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

قد تسألونني : وما العمل وقد طال الطريق وكثرت العقبات ؟ . . فأقول : ابذلوا جهدكم وأدوا واجبكم ، ودعوا النتائج أو العواقب لله ، فلله عاقبة الأمور ، وعلى المرء أن يسعى طاقته وليس عليه إدراك النجاح ، ولا يضيرنكم أبداً ألا تقطفوا ثمرة الفوز أو تبلغوا غاية القصد ، فإن الفاتح لباب النصر لا يزيد مقداراً أو فضلا عمن مهد الطريق لذلك النصر ، أو هيأ له من بعيد ؛ ومن شيمة المؤمن ألا يتعجل الثمر ، لأن الله يحدد مواقيت الظفر ، وهو رب القضاء والقدر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. . . ومن يدرى فقد ينتصر الإسلام على أيدى أعدائه رغماً عنهم ، وقد يخدمه الذين حاربوه ، ويخضع له الذين تمردوا عليه ، بعد أن يذوقوا وبال أمرهم ، ويدركوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، ويومئذ يحق لهم أن يفرحوا فرحة العيد ، وأن يملأوا دنياهم الصالحة وأرضهم الطيبة بالمباهج والمسرات .

لقد طال الطريق نوعاً ما ، ليس فى ذلك شك ، ولكنه رغم طوله طريق موصل ، لأنه طريق رب العالمين ، وإن سقط السائر خلاله إعياء أو فناء فقد بلغ وخلد ، « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً » ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ؛ « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الله أكبر

الحمد لله عز وجل ، هو « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ». سبحانه « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، فحذر وأنذر ، وعظم ربه وكبر ، فعليه صلوات الله وسلامه ، وعلى من آمن به من آله ، واستجاب له من صحابته ورجاله ، واهتدى بأعماله وأقواله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نستطيع أن نسمى هذا الأسبوع الماضى بأسبوع التكبير ، إذ ظل المسلمون فيه خمسة أيام يكبرون الله على ما هداهم لعلهم يشكرون ، فمن سنة الإسلام أن يكبر أبناؤه فى مختلف الأوقات وبخاصة عقب الصلوات من صبح يوم عرفات إلى عصر اليوم الرابع من أيام العيد ، ورأس التكبير وعماده هو كلمة « الله أكبر » ، وبعض الكلمات الجليلة قد تفقد معناها وتأثيرها فى نفوس الناس وإن كثر تكرارها ، وذلك لقلة التدبر فيها أو التأمل لمعناها أو الاستجابة لمغزاها ، فهذه مثلا كلمة « الله أكبر » وهى رمز التكبير الذى كان أول ما كلف الله به رسوله حين أمره بإنذار الناس فقال له : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر » . والذى يعلم الله رسوله أن يكثر منه بعد تقرير ألوهيته ووحدانيته . « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيراً » ، والمسلمون يكررون هذه الكلمة كل يوم عشرات المرات على الأقل فى

الصلوات ، ولو ذهبنا نبحث عن أثرها فى نفوسهم وتصرفاتهم لوجدناه قليلا ضئيلا ، مع أن الله تبارك وتعالى قد شرع تكرار هذا الهتاف الإلهى فى الأذان والصلاة وسواهما ليكون أشبه بدقات الساعة التى تتردد بين الفينة والفينة ، منبهة لعباد الله ، مذكرة بحقوق الله ، منادية بالرجوع إلى الله ، ليستيقظ الغافل ، ويهتدى الضال ، ويرتدع المسىء ، ويزداد المحسن إحسانا ، وكلما سمع أبناء القرآن هذا التكبير فى ذكر أو أذان قابلوه بمثله فيتعلمون الاستجابة للحق ، والمسارعة إلى الخير ، والتلاقى على الذكر ، والتعاون على البر والتقوى ، والمجاهدة للاثم والعدوان ! . .

« الله أكبر » نداء السماء المنزل من حمى القدس ليتردد بين أهل الأرض مذكراً إياهم بجلال الله وعظمته ، وسلطانه وقدرته ، فتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فترى المؤمنين يرددون كلمة « الله أكبر » فى صدق وعزيمة ، وكأن لصوتها هديراً كهدير البحر المتلاطم أو أشد وقعاً ، لأن معناها القوى البليغ قد أخذ يهدر فى قلوبهم ويتلاطم فى صدورهم ، فكأن هذا من ذاك . . . وتتردد فى الآفاق كلمة « الله أكبر » فإذا هى نسمات السماء الطاهرة التى تحيي موات الأرض الهامدة ، وإذا هى فيض الملأ الأعلى الذى يغسل أدران الحياة وأقدار البشر ، فهى تدوى فى أذن السارق الناهب فترتجف يده وتهتز كيانه ، ويتذكر إن كان من أهل الذكرى — أن هناك إلهاً أقوى منه وأكبر من حيلته واستخفائه ، ومن مكره وخديعته ، أخذه وأقوى من القانون والمحكمة والسجن والأشغال الشاقة المؤبدة ! ! . . . وهى تدوى فى أذن من يهم بإثم أو معصية ، فيقشعر ويرتدع ، ويتذكر أن لله عيناً لا تنام ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم ، وهو معكم أينما كنتم ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ! . . .

« الله أكبر » كلمة يرددها الغنى الكثير المال الواسع الثروة ، فيتذكر عندها أن الله أغنى الأغنياء ، وأنه مصدر النعم والآلاء ، وأنه هو الذى يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، فلا يزدهى الغنى غناه ، ولا يبطره ماله وثراؤه ، بل يتدبر قول ربه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » ؛ ويرددها الفقير المحتاج المجهود ، فلا يذله الفقر ولا يهينه ، ولا يزلزله أو يبلبله ، بل يذكر أن الله العلى الكبير أقوى وأغنى ، وأنه القادر بكبريائه ونعمائه أن يقهر هذا الفقر اللعين ، فلا ينال شيئاً من دين المؤمن الفقير فى ماله : « وإن خفتم عيلة (أى فقراً) فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » ، « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » ؟ ! . . .

« الله أكبر » يرددها الصحيح السليم المعافى القوى المفتول البدن ، فلا يغتر معها بصحته ، ولا ينخدع بقوته ، فإن الله الأكبر الذى وهب الصحة هو الذى يستطيع أن يسلبها ويضع مكانها العلة والمرض ؛ والذى أعطى القوة قادراً على أن يحيلها ضعفاً ؛ وليست صحة الأبدان أو قوة العضلات وحدها مفخرة لصاحبها ، فكم من حيوانات وبهائم توافرت لها قوى الأجسام ، ولم ترزق قوة العقل والجنان ، بل لعل أشد البهائم بأساً فى جسمها هى أقلها فى التعقل والتمييز ، والمهم هو قوة العقل وثبات القلب ، لا شدة الجسم ولا صلابة العقل : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . . . ويرددها الضعيف المريض السقيم فإذا هى بلسم ودواء ، وإذا هى تذكرة بأن الله الرحمن الرحيم هو أهل الرجاء ومعقد الأمل : « وإذا مرضت فهو يشفين » ، « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

« الله أكبر » يقولها الكبير المسيطر الذى يهم بطغيان أو بهتان ، فيعلم ويتذكر أن هناك من هو أقوى منه وأكبر وأعظم هو الله الأكبر ، وأنه ذو البطش الشديد ، فيرهبه ويتواضع له ويتأدب أمامه ، ولا يبغى أو يطغى على أحد من عباده ، وإلا فالمنتقم جبار : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ، والعامة تقول وهى صادقة فى قولها : الله أكبر على طغى وتجبر ، وهذا فرعون قد طغى وبغى « فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » ؛ . وهذا هو نداء الله لمن حاول أن يقاسمه رداء كبريائه : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » . . . ويردد المظلوم المهضوم المستضعف كلمة « الله أكبر » فيتذكر أن هناك إلهاً عادلا منتصفاً لا يرضى الظلم بحال ، فيقوى ذلك المظلوم ، ويجاهد الضيم بكل ما استطاع ، مستعيناً بجاه الله القوى العزيز : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يا أبنا الإسلام . . . يا أبناء العزة التى كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين . . .

فلتعاهدوا ربكم أن نقول كلمة « الله أكبر » بفهم وعزم ، وتدبر وتأثير ، حتى تثمر لنا ثمرتها التى أرادها الله منا . . . إن أرادنا متكبر على أن نذل لغير الله قلنا : الله أعلى وأكبر ؛ وإن خادعنا الشيطان ليصرفنا عن ديننا مغرياً بالمتاع والشهوات ، قلنا : الله أكبر ، وإن ألمت بنا غمرات أو أزمات تماسكنا وصبرنا وقلنا الله أكبر ، وإن جاءتنا خيرات ومسرات لا نغتر ولا نتجبر ، بل قلنا : الله أكبر . . . وليكن من دعائنا لربنا : « اللهم جملنا بالتواضع لعظمتك ، والذلة أمام عزتك ، والاعتزاز أمام غيرك ، واحفظنا من التكبر

والتجبر ، ولا تجعلنا من المفسدين فى الأرض ؛ اللهم انصر المؤمنين المتواضعين لك ، انصرهم بجاهك وسلطانك ، واقصم المتجبرين الطاغين بصولتك وجبروتك ، فإنك عزيز ذو انتقام ، وإنك سبحانك أعلى وأكبر » .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

في عيد الأضحية

الله أكبر « تسعاً » . . .

الحمد لله ، تتبدل الأمور كلها ولا يتبدل ، وتتحول الأوضاع جميعها ولا يتحول ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ نشهد أن لا إله إلا الله أنت ، أقوى الغالبين وخير الوارثين ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جمع القلوب على خير ميثاق ، وأسعد الناس بشرعة الواحد الخلاق ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وأحفاده ، وصحابته وأجناده « فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » . . ؟

يا أتباع محمد عليه السلام ! . . .

هذا يوم من أيام الله بين عباده ، تلتقي فيه كلمة الدين مع كلمة الدنيا في صراط واحد ، فيفرح به المسلمون لما قدموا من عمل صالح وسعي مشكور ويأخذون لأبدانهم وقلوبهم نصيبها ، كما قدمت عزائمهم وأرواحهم لله بالأمس واجبها ، ولا يتأبى على فرحة العيد أو يغر بها إلا مريض النفس أو سيء الظن بالله ، وكلا الداءين ليسا من شيمة المسلم الصحيح ، وكنا والله نتمنى أن يسلم لنا هذا اليوم السعيد من كل شائبة ، ولكن الكمال لله وحده والنقص حظ مقسوم ونصيب معلوم لسائر البشر ؛ والذي يشوب عيدنا اليوم هو أن يختلف موعده هنا عن موعده في مكة المكرمة ، البلد الحرام الذي فيه أول بيت وضع للناس ، مع أن العالم الإسلامي دائرة مركزها مكة ، وجسم قلبه الكعبة ، والعيد يسمى عيد التضحية ، أي عيد الضحية التي يقدمها حجاج البيت الحرام إلى ملك الملوك عرفانا بفضله وحمداً لتوفيقه ، والمسلمون في المشارق والمغارب يحتفلون بعيد الضحية في بلادهم ، وإن لم يسعدوا

بالحج كغيرهم ، مشاركة منهم لإخوانهم الذين خرجوا إلى ربهم حاجين معتمرين ، فكيف يقع الاختلاف بعد هذا بين احتفال القوم هنا واحتفال القوم هناك ؟ ولماذا لا يتفق ولاة الأمور فى العالم الإسلامى على توحيد هذه المواسم الدينية العامة ، على أن يجعلوا مكة المكرمة هى الأساس فى ذلك التوحيد باعتبار أنها مهبط الوحى وأنها بلد الكعبة المعظمة التى تهوى إليها أفئدة المؤمنين فى كل مكان ؟

وهناك أمر آخر . . . إن بعض الناس يتطرفون فى حسن الأمل ويسرفون فى هزة الفرح ، ويصفون يومنا هذا بأنه عيد اكتمال النصر للأمة والمجتمع ، ومن الواجب أن نحذر سكرة النشوة بمثل هذا الكلام ، فلا يزال الحمل ثقيلا ، ولا يزال الواجب علينا جليلا ، ولا يزال الطريق أمامنا طويلا . . . لقد كنا بالأمس نحيا فى عالم مظلم ملىء بالفساد والاستعباد ، محشود بتحطيم الفضائل وتقوية الرذائل ، وقد وفق الله فحطم طاغوته وهدم صنمه الأكبر ، وأزلنا عن أبصارنا غشاوة الذلة والهوان ، وتطلعنا إلى ضوء العزة والكرامة ، ولكن الضوء الساطع لا تقوى عليه إلا صحاح العيون أقوياء القلوب ، وليس الهدم هو كل شىء ، بل من ورائه البناء والتشييد والتعمير ، وهذا يحتاج إلى العزم الوطيد والصبر الجميل ، ولا تزال هناك الثعابين المستورة والبلايا المقبورة والأصابع المفطورة على الاثم والمنكر ، فلنسأل الله سبحانه أن يديم علينا نعمة التوفيق ، وأن يجنبنا عثرات الطريق ، وأن يكون لنا فى عهدنا الجديد خير رفيق ، وأن يكتب لنا النصر المبين على أعدائنا وأعداء عباده وبلاده فى الداخل والخارج على السواء ، إنه أكرم مسئول وأفضل مأمول ...

يا أتباع محمد عليه السلام ! . . .

قد تسوء النصيحة بتحذيرها وإنذارها ، ولكنها تنفع بنتائجها وثمارها ، والدين النصيحة ، والمؤمن مرآة أخيه ، ورحم الله امرءاً ، أهدى إلينا

عيوبنا ، فلنذكر خلال البسمات وهزات الفرح أن خير الناس من لم يلهه يومه عن غده ، ولم يستبد به هم غده حتى يشغله عن يومه ، بل يعمل للحاضر والمستقبل معاً ، وحسب المرء أن يسعى جهده وطاقته ، وعند الله أزمة المقادير ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

في عيد التضحية

الله أكبر « تسعا » . . .

الحمد لله عز وجل ، يبدل ولا يتبدل ، ويحول ولا يتحول : « يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هدى بالفكرة وأدب بالعبرة ، « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، وهذب الحياة وقوم الأحياء ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين من آله وذريته ، والسابقين من أنصاره وصحابته ، والثابتين على هديه وسنته : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

نستقبل الآن يوماً جل بين الأيام قدره ، وخلد فى التاريخ ذكره ، لأنه يوم التوسعة الإلهية والضيافة الربانية ، ويوم الحج الأكبر ، ومفتاح الأيام المعدودات التى يشير إليها القرآن بقوله : « واذكروا الله فى أيام معدودات » وهو يوم التضحية ويوم النحر الذى فضله الإسلام على غيره من الأيام فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « وأعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر » . ويوم القر هو اليوم التالى ليوم النحر ، أى اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، لأن الناس يقرون فيه بمنى ، أى يسكنون ويقيمون . ولا عجب ففى هذا اليوم تتم فريضة الحج الأكبر من مئات الألوف من المسلمين ويفرضون بفضل الله عليهم ورحمته بهم ، تشهد الدنيا جموع المسلمين الضخمة عند منزل الوحى ، وفى مشارق الأرض ومغاربها ، تلبى نداء ربها وتستجيب لدعوته ، وتقتدى بسنة إبراهيم أبى الأنبياء فى الإيمان والتضحية والفداء ، وتشكر خالقها فضله العميم ورحمته الواسعة ، وتسأله أن يعز كلمتها بالحق ، وأن يخذل أعداءها بالعدل .

وقد ذكر فريق من المفسرين أن هذا اليوم هو الذى نزل بشأنه قوله تبارك وتعالى مخاطباً نبيه : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » . وكأن الله عز وجل قد تفضل على خاتم أنبيائه — وهو قائد عباده ، وقدوة أوليائه — فأعطاه « الكوثر » وهو الخير العظيم الشامل للقرآن والرسالة وكثرة الأتباع واتساع الدعوة وخلود الذكر ورفعة المقام وغير ذلك ، فكان من واجب النبي أمام هذا الإنعام الجليل أن يشكره فيجعل صلاته وعبادته ونجواه خالصة لبارئه ومولاه ، وأن يتوجه بنحره وتضحيته ومجهوده إلى الله ، الذى أفاض عليه وعلى أمته ما أفاض ، والذى وعد — ووعده الحق — بأن ينصره نصراً عظيماً ، وأن يفتح له فتحاً مبيناً ، وأن يجعل شانئيه ومبغضيه مبتورين مقطوعين ، لا يبقى لهم مجد ، ولا يدوم لهم كيد ، وإنما البقاء لكلمة الله ، والدوام لدعوة الإسلام ، والخير فى أمة محمد بمشيئة الله عز وجل إلى أن تقوم الساعة ؛ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وقد عرف النبي وأتباعه طريق الحفظ والصيانة لهذا التراث السماوى الرفيع ، وهو طريق الإقبال على الله والاحتماء بحماه والاعتزاز بعلاه ، فكل منهم يعبر عن ذلك حين يفتتح صلواته اليومية بقوله : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . وما تكاد بشائر الحج تلوح فى كل عام حتى يردد الوافدون على ربهم ذلك النشيد الإسلامى المذكر بتجديد الرجوع إلى الله ، وإيثاره على كل ما سواه : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ! . . . ثم يعقدون مؤتمرهم الإسلامى الأكبر الذى تحدوه عناية الله ، وتباركه رعاية الله . . .

وإنما يكمل جلال هذا المؤتمر الإسلامى اليوم إذا كان أهلوه فى ألفة ووحدة ، لا فى فرقة وشتات : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم

فاتقون » . وكانوا يستشعرون حقاً وصدقاً روح الأخوة والمحبة ، لا روح العداوة والبغضاء : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ، وكانوا متعاونين يؤيد كل فريق منهم أخاه ، ولا يخذله أو يسلمه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وكانوا متمسكين بشرعة الوفاء والأمانة ، لا بطرق الغدر والخيانة : «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

أليس عجيباً أن يتطلع الإنسان إلى الأرض فيجد فيها مئات من ملايين المسلمين ، ولديهم من العدد والعدد ، ومن المواهب والخيرات ، ومن الخصائص والمميزات ، ما يجعلهم أهلا لأمجادهم ، سادة فى بلادهم ، قادة لأنفسهم على الأقل ، إن لم يكونوا قادة للناس وهداة للشعوب كما أراد لهم رب العزة جل جلاله ، ثم يصدمه الواقع المر ويؤلمه الحاضر الوجيع ، إذ يرى بأسهم بينهم شديداً ، ويرى جموعهم مفرقة ، ووحدتهم ممزقة ، ويتهارشون تهارش الذئاب عند ما تفقد فى تجاربها الصـــواب ، ويستحكم بينهم الخلاف ، وتتقاسمهم الأحلاف ، ويستعينون بعضهم بأعداء الله وأعداء الإسلام ، ويتركون إخوتهم ويركنون إلى الذين كفروا وظلموا ، مع قول ربهم : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » ، وقوله : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله » ويظهر فيهم حاكمون يستبدون بمحكومهم ، ويخيل إليهم أن الشعوب سائمة عندهم ، فيظهرون غطرسة الحاكمين وتجبر المتجبرين وطغيان الطاغين ، ظانين أن للأفراد قداسة وخلوداً ، وأن للشعوب ذلة وطواعية ، مع أن إرادة الشعوب المؤمنة من إرادة الله ، « ويد الله مع الجماعة » ، ولا مجال اليوم لمستبد أو جبار .

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولـة المتجبرينـــا

وأصبحت الرعاة بكل أرض ن على حكم الرعية نازلينا

وإنما المجال اليوم لحكام يؤمنون بشعوبهم ، ويستجيبون لإرادتها ، ويعتزون بخدمتها ، ويتبادلون المحبة معها ، وصلوات الله على رسوله يوم يوم قال : « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم (أى تدعون لهم ويدعون لكم) . وشرار أمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » .

ورضوان الله على الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز حين قال :

« قرة عين الحكام فى استفاضة الأمن فى البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم » . ويروى التاريخ أن عمر كتب فى يوم عيد كهذا العيد يقول للناس فى موسم الحج : « أما بعد ، فإنى أشهد الله وأبرأ إليه فى الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أنى برىء من ظلم من ظلمكم وعدوان من اعتدى عليكم » . ثم يقول : « ألا وإنه لا حجاب لمظلوم دونى ، وأنا معول كل مظلوم » . وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح أمة محمد ، وأهلك من كان فى هلاكه صلاح أمه محمد ... اللهم زد محسن أمة محمد إحساناً ، وأرجع مسيئهم إلى التوبة ، وحط من أوزارهم برحمتك » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنما يكون العيد عيداً إذا سبقه ما يستحق معه أصحابه أن يفرحوا بنعمة الله ، وأن ينقلبوا إلى أهليهم فى سرور لما وفقهم إليه واهب الحياة والجاه ؛ ولعلنا بذلنا فى ماضينا ما يستأهل اليوم وقفة رضا أو فترة بهجة ، ولكن الذى بقى علينا من التبعات والواجبات أكثر مما قدمنا من أعمال ونضال ، فلننتهز فرصة هذا اليوم السعيد المجيد ، لنقرع فيه أبواب الرحمة الإلهية بهممنا العالية

وعزائمنا السامية راجين خالقنا وموفقنا أن يأخذ بنواصينا إلى مواطن الحق ومواقف الثبات وميادين الجهاد المبرور والعمل الصالح ، حتى يطلع علينا صباح عيد قابل فإذا نحن فى وحدة شاملة من جموعنا ، وعزة كاملة من أمرنا ، وحرية تامة فى أقطارنا ، وإذا نحن أكثر رضا عن أنفسنا ، لأن ربنا رضى عنا بما بذلنا وقدمنا ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى موسم التضحية

الحمد لله عز وجل ، الكبرياء رداؤه ، والحق قضاؤه ، له الأمر ، وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عرف العزيمة فى الرشد ، والثبات على الحق فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله ذوى النهى وأصحابه أعلام الهدى ، وأتباعه المعتصمين بالتقى : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . !

بالأمس كان عيد التضحية ، وهو يوم من أيام الله بين عباده ، يتجلى عليهم فيه بالرحمة والنعمة ، بقدر ما يكون لديهم من إيمان وإخلاص ، والعيد من شأنه أن تكون فيه وقفة من وقفات التأمل والمراجعة ، حيث يمتد بصر الإنسان وفكره إلى ما قدم وأسلف ، فإن كان خيراً حمد ربه وشكر ، وإن كان هناك تقصير تدارك واستغفر ، ثم يتجه إلى مولاه يسأله الرضى والتقبل لما مضى ويرجوه العون والتوفيق فيما يأتى .

وإذا كان للعيد فرحة فإن فيه كذلك عبرة ، ومن الخير أن تجمع فيه بين متعة الفرحة وعظة العبرة ، فنفرح بما قد منا ونلنا ، ونعتبر بما استفدنا وتعلمنا ، ومن حق الأمة المؤمنة المجاهدة أن تنال قسطها المشروع من البهجة بما قدمته من الجهود ، وأن تعقد العزم على مواصلة المسيرة نحو غاياتها الكبرى وأهدافها العليا ، تدفعها حوافز النشاط والتفتح ، وترشدها منارات التعقل والتبصر ، « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحانه الله وما أنا من المشركين » .

وكل عيد له فلسفة ، وفلسفة عيد الأضحى إنما تقوم على البذل والعطاء ،

والتضحية والفداء ، والالتزام والوفاء ، فهذا العيد يأتى عند تمام الحج ، والحج طاعة مطلقة لله عز وجل ، يتجرد فيها الإنسان من مظاهره وزينته وثيابه ويترك فيها أهله وسكنه ووطنه ، ويخرج من بيته مهاجراً إلى الله ، ملبياً داعياً : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، » ويؤدى الإنسان أعمال الحج من إحرام وطواف وسعى ووقوف ، ورمى وذبح ، دون أن يعلق أداءهذه الأعمال على كلمة يحددها ، فحسبه أن الله أمر ، والله هو الرب المعبود ، لا رب غيره ولا إله سواه ، وهذه الاستجابة مثل أعلى فى الطاعة ، والطاعة المطلقة هى أساس البذل والتضحية ، لأنها نكران للذات وسحق للرغبات ومقاومة للشهوات ، وإذا نجح المؤمن فى ذلك صار جزءاً من كل ، وعضوا من جسم ، فيشعر حقاً بجلال قول الرسول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، ولا يمكن لأمة أن تسود وتقود إلا إذا تلاقى أبناؤها واتحدو واتحدوا ، وتلاحموا وتساندوا ، وبذلك يعزون ويسودون ويقودون ، والله من ورائهم محيط .

ولقد استبان لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أن هذه الأمة تبلغ خيراتها وتنال ثمراتها ، كلما أزهقت من بينها روح الشتات والفرقة ، بين التجمع والألفة ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الجماعة بركة ، والفرقة عذاب » ويقول : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار » . ولعل أكبر حقيقة تجسمت للأبصار والبصائر ، أن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، والذين يتربصون بنا الدوائر ، يحرصون كل الحرص على تفريقنا ، وتمزيقنا ، لأنهم يريدون إذلالنا واستعبادنا ، أو كسر شوكتنا والقضاء علينا ، ولا يتحقق لهم ذلك إلا عن

طريق التفريق والتمزيق ، وهم يمكرون بنا مكر الليل والنهار ، وهم يحاربون عقيدتنا وقوميتنا معاً ، لعلمهم بأن هذه القومية وعاء لهذه العقيدة فالعروبة وعاء الإعلام ، والإسلام روح العروبة ، فقد اتسعت العروبة لعرض مبادىء الإسلام وتعاليمه ، فى لغتها وأدبها وتاريخها وسير أبطالها ومواقف جهادها ، ومن الذى بث فى أول الأمر أضواء تلك القصيدة السمحة فى مشارق الأرض ومغاربها سوى تلك الأمة التى آمنت بربها ، واستخدمت ألوان طاقاتها فى تأييد العقيدة التى ثبتت عليها ، لتقيم من هديها صروح الحرية والعدالة والإنصاف بين الناس : «كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

وإذا حارب هؤلاء الأعداء عقيدتنا فهم يريدون بذلك القضاء عليها وعلى قوميتنا معاً . لعلمهم بأن هذه العقيدة هى روح تلك القومية ، ولعلمهم بأن ديننا يعلمنا أن حب الوطن من الإيمان ، وأن قرآننا يقول لنا : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقــول لنا : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ومنذ باركت يد الله العلى الأعلى ذلك اللقاء الأول بين العقيدة والعروبة حين ظهور الإسلام ، استبان لكل من يعقل أن الرابطة بين الإسلام والعروبة لن تنفصم عراها ، وهناك ذلك الكتاب الإلهى العربى المعجز ، وهناك سيرة هذا النبى العربى المصلح ، وهناك هذه الكعبة المشرفة قبلة أهل الإسلام الجامعة ويجب علينا أن نتذكر دائماً أنه إذا عدا العادون على مقدسات ديننا فهم لا يقصدون هدم ديننا وحده، بل يريدون هدمه وهدم كياننا وعزة أوطاننا : « يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » وإذا اعتدوا على قوميتنا ووحدتنا فهم بذلك يعتدون أيضاً على معتقداتنا ومقدساتنا ومبادئنا ، وهم يحملون من الأحقاد الدفينة والنوايا السود

ما الله به عليم : « قد بدت البغضاء من أفواهم ؛ وما تخفى صدورهم أكبر » « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

وأمام هذه الأخطار الجسام لابد لنا من تأكيد وحدتنا وأخوتنا ، وتوحيد صفنا وهدفنا ، واجتماعنا على كلمة واحدة ، كأننا على قلب رجل واحد ، تتجلى فينا طاعة الجنود لقيادتهم ، وحرص القيادة على خيرهم ، وبتلك الطاعة المخلصة تواصل الأمة خطواتها على طريق العمل والكفاح حتى الفوز بنصر الله الذى يعز الأقوياء الشرفاء، ويخذل الضعفاء الجبناء ، ولابد لنا من محافظتنا على طاقاتنا وإمكانياتنا ، فلا مجال اليوم فى حياتنا لإسراف أوتبذير ، بل يلزمنا الاقتصاد والتوفير . والحد من الشهوات والاستهلاك فالطريق أمامنا شاق طويل ، ولابد له من صبر وثبات وبذل ، والله ولى الصابرين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إنها معركة الحفاظ على وجودنا وكياننا ، إنها معركة من أجل دنيانا وديننا ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

يوم التضحية

الله أكبر « تسعاً »

الله أكبر ولله الحمد حمداً كثيراً طاهراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات والأرض ، حمداً يليق بجلال الخالق العظيم ، ويكافئ نعم الرحمن الرحيم ، « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، رب الأرباب ، ومجرى الأسباب ، ومقدر الحساب ، « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أفضل من ذكرك ، وأبلغ من شكرك ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وجنده وأصحابه ، والمستمسكين بمفاتيح بابه ، أولئك هم أهل التقى ، وأصحاب الفردوس الأعلى ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما قيمة الحياة إذا لم يكن للمرء فيها عقيدة يجاهد من أجلها ، ويفرح لانتصاره فى تحقيقها ؟ . وما منفعة العيش إذا لم يكن كفاحاً فيه تعب ونصب ، ثم يتبعه راحة فيها مسرة وهناء ؟ . وما جدوى السير الطويل فى الصحراء الجرداء ، إذا لم يكن فى نهايتها واحة خضراء ، يجد عندها المرء ما يتمنى من ظل وفاكهة وماء ! . . ولهذا نضر الكريم الحليم أيام عباده المؤمنين بالأعياد ، تأتيهم على ميعاد ، فيستريحون فيها ويهدأون ، ويلعبون ويطربون ، ويلبسون ويتزينون ، ويأكلون ويشربون ، ومع كل هذا لم يخلها سبحانه من حكمة بالغة وعظة شافية ؛ فهذا عيد الأضحية مثلا يقبل علينا بنوره وجماله ، ويبهرنا بروعته وجلاله ، ولكنه فوق هذا يعود بألبابنا وخواطرنا إلى الموقف الباقى على الزمن ، الخالد فى التاريخ ، المردد على شفتى الأيام ، موقف

إبراهيم مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، يوم دعاهما داعى الحق تبارك وتعالى إلى التضحية الكبرى ، والبذل الأعظم الذى لا غاية للبذل بعده ، فأصغيا للدعاء ، واستجابا للنداء ، فكان ذلك منهما درساً للأجيال بعد الأجيال ! . .

هذا شيخ جليل طاعن فى السن ، هو إبراهيم خليل الرحمن ، جاهد فى سبيل ربه ، واحتمل أذى قومه ، وغاضب أباه وهجره نصرة لدينه ، واحتمل عذاب النار فى سبيل عقيدته وهو لا يدرى أن الله سيجعلها عليه برداً وسلاماً ، ثم تزوج سيدة يرجو منها ولداً تقر به عينه ، فكانت عاقراً عقيما لا تلد ، واشتد حنينه ورغبته إلى الولد . فتزوج على الكبر بأخرى ، ويشاء الحليم العليم أن يبدأ فيض النعمة عليه فيهبه مولوداً ذكراً ، وينشئه سليما معافى ، ويجعله من صغره حليما رشيداً ، ويضعه بين يدى والديه وحيداً فريداً ، فيصب الوالد الشيخ كل رحمته وعنايته وهمته فى ولده الناشئ المترعرع ، ويرى شبابه وحياته تتجدد فى إهاب غلامه ، فيرضى ويقنع ، ويشكر ربه ويخشع ؛ ويشب الغلام قوياً فتياً حتى يكبر ، ويبلغ مع أبيه مبلغ السعى والعمل ، ويستطيع السير والكسب والارتزاق ، وبذلك تتم النعمة على أبيه الهرم ؛ وهنا يبدأ الاختيار الإلهى والابتلاء الربانى فيكون مع إبراهيم فذا عجيباً . ولا يختار له موضعاً إلا الفتى المرجى المأمول ، ولا يأتى إلا فى أقسى الصور وأشد الأحوال . . . لا يمرض الله إسماعيل ولا يميته ، بل ولا يكتب عليه قتلا أو غرقاً أو شهادة ، بل يكتب عليه وعلى أبيه أن يذبح على مرأى من أبيه ، وبيد أبيه . وبسكين فيها حز وقطع وضغط . وفيها إمرار وتكرار . . . وممن ؟ . . من أبيه الشيخ العجوز الطاعن فى السن . الذى ترتعش يده بلا شيء ، فكيف بها فى قتل الوحيد الغالى ؟ . . . وبأى طريق يطلب منه ذلك ؟ . . . ليس بطريقة الوحى

المألوف فى وقت اليقظة ، بل بطريق الرؤيا فى المنام ؛ وحقيقة أن رؤيا الأنبياء وحى وصدق ، ولكن إبراهيم — لو أنه غير إبراهيم — كان يستطيع أن يتأول أو يخرج ، أو ينتظر قطع الشك باليقين ، ولكنه إبراهيم الخليل ، وابنه هو إسماعيل ذو اليقين ، والآمر هو الله رب العالمين ، الذى له ما أعطى وله ما أخذ ، والذى يجب أن يسمع ويطاع ، وقد كان : (فلما بلغ معه السعى ، قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) . ولكن الله لما رأى منهما صادق الاستسلام ، وحسن الاستعداد للابتلاء ، رحمهما برحمته ، وجنبهما الاكتواء بلهب محنته ، فنجاهما وأكرمهما ، وزاد لهما فى بره وعطفه : (فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » . .

ما الذى نستفيده من هذا الموقف الخالد المجيد ؟ . . . نستفيد أن الحياة فى الحقيقة ملك خالص لله يتصرف فيها كيف يشاء ، وأن العبد بين أصابع ربه يقلبه كيفما أراد ، وأن حسن الاستجابة لأوامر الله فيه امن ونجاة ، وأن الترحيب بالأقدار وعدم الفرار من شديد الاختبار ، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى حسن النتائج وكريم العواقب .

فلنتعلم التضحية

الحمد لله عز وجل ، رسم طريق المكارم ودعا إليها ، وفتح أبواب الفضائل وحث عليها ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . . . أشهد أن لا إله إلا الله ، يرفع أهل الفضل بقدرته ، ويذل أهل السوء بنقمته « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ضحى فى سبيل دعوته ، وتعب من أجل أمته ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأتباع دعوته : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اليوم يوم التضحية ، ولذلك يسمى عيد التضحية ، والتضحية ألوان ودرجات ، فهناك التضحية بالمال والمتاع ، وهناك التضحية بالوقت والجهد ، وهناك التضحية بالرغبة والهوى ؛ وللتضحية بمختلف أنواعها فى تاريخ الأمة المسلمة ذكر وخير ، وتاريخ وأثر ، وإن إعجاب الإنسان لا ينقضى بهذا المجتمع الإسلامى الأول ، الذى تجمع له من الفضائل والمكارم ما جعله نموذجاً فريداً بين المجتمعات الفاضلة ، وحسبك أنه كان مجتمعاً يقوم على التضحية النبيلة الجليلة فى كل ميدان ، فقد ضحى المسلمون الأولون بأموالهم ، فأنفقوها فى سبيل الله ، وأقاموا بها دور العبادة والعلم والاستشفاء ، وأقرضوها لربهم الغنى قرضاً حسناً ضمنوا به جمال الأحدوثة فى الدنيا وجزيل الثواب فى الآخرة ، ولم يستعبدهم المال فى وقت من الأوقات ، بل تحكموا فيه كسباً وإنفاقاً ، وجمعاً وقسمة ، وأخذوه طيباً صالحاً ، وأعطوه طيباً صالحاً ، فقد سمعوا رسولهم صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ولم ينفقوه فى الفجور والخمور ، أو على أجساد البغايا والمتحللات ، أو على المظاهر الكاذبة والحفلات الصاخبة ولم يفكروا يوماً

أن يكنزوه كنز الأشحاء البخلاء ، وكيف وهم يسمعون تهديد ربهم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . وضحوا بأجسامهم فخرجوا بها إلى ميادين العمل الصالح وساحات الكفاح المشروع ، وأذبلوا هذه الأجسام فى الطاعات والقربات ، حتى اضمرت وخفت ونحلت ، وهذا يونس بن أبى شبيب يحدثنا مثلا عن الحاكم العادل والخليفة الراشد الشاب عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . . . يحدثنا عن حاله فى شبيبته وحاله فى خلافته فيقول : « شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وإن حجزة إزاره لغائبة فى عكنه (أى طيات بطنه ، من السمن) ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت » ! . . . وضحوا بشبابهم ، فوقفوه على المآثر والمكارم ، لا على المناكر والمآثم ، ولم يبالوا أن يعجل بهم الشيب ما داموا على الصراط سائرين ، وبنور الحق مهتدين ، وإذا كان غيرهم قد ذهب شبابه وأقبل شيبه لأنه أفرط فى شهواته أو أسرف فى ملذاته ، فهؤلاء قد شابوا شيبة حميدة مجيدة ، لأنها نشأت عن الخوف من الله ، والجهاد فى سبيل الله ، والتعب المرير فى سبيل ما يؤمنون به من عقائد ومبادئ ، ولذلك أنفقوا أعمارهم — طالت أم قصرت — فى خير ما تنفق فيه الأعمار ، أنفقوها فى العبادة ، وطلب العلم ، والكفاح فى سبيل الحق ، والنضال من أجل الأسرة والأولاد ، والجهاد فى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، والوقوف فى وجه الظلم والظالمين ، وقطع الطريق على الفساد والمفسدين ، وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يضحى براحته ونعميه ، وهنائه وسرائه ، فى سبيل أن يحمل الناس على الحق ، حتى قال لمن أرادوا أن ينحرفوا عن صراط

الإسلام القويم : « إنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى ، فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة » !

ولا عجب فى أن تنجلى ألوان التضحيات من أبناء هذه الأمة المؤمنة القائمة بأمر ربها ، فإن الحرص على هذه التضحيات ميراث من مواريثها الأخلاقية والنفسية ، فإن هذه الأمة تراجع تاريخ أنبيائها ورسلها قبل خاتمهم وإمامهم محمد ، فتجد هذا التاريخ سلسلة من التضحيات ذات البطولات ؛ فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم الصلاة والسلام يضرب المثل السباق فى التضحية حين يهم بقتل ولده إسماعيل عقب رؤياه المعروفة ، حتى صارت هذه الحادثة مثلا رفيعاً للتضحية وعلماً عليها ؛ فالأب يضحى بفلذة كبده وحشاشة قلبه قائلا له : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ . . والولد يستجيب لداعى التضحية الكريمة ، فلا يتأبى ولا يتعلل ، بل يقول : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! . . ويصدق كل منهما فى تضحيته ويشرع فيها ، ويتحقق البلاء المبين ، فتأتى رحمة الله المنقذة بالحكمة : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين » . ولا يكتفى إبراهيم بتضحية فذة ، بل نراه يدعو إلى التوحيد ، ويناهض وثنية قومه الظالمين ، ويتعرض لغضبهم وعذابهم ، ويحطم أصنامهم ، ويقبضون عليه ويسوقونه إلى الموت بالنار ، « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا : يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » . . .

وهذا نوح عليه السلام ، يضحى براحته ومتعته ، ويجهر بدعوة ربه بين قومه الصم الغلاظ ، ويناله من سخريتهم وتطاولهم ما يناله ، ويقدم على

ركوب السفينة أثناء الطوفان ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وتصدق منه التضحية فتلحظه عناية الله وترعاه : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » . . . وهذا موسى عليه السلام يناصب فرعون العداء الجبار ، ويقف له بالمرصاد ، ويضحى موسى بالبقاء فى أرض الوطن ، ويخرج من خلفه فرعون وجنوده ، ويضرب موسى البحر بالعصا ، ويقبل عليه غير هياب ولا وجل : « فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » ! . . . وهذا عيسى عليه السلام يدعو قومه إلى صراط ربه فلا يستجيبون له ، بل يتمردون عليه ويبغون ، فيصدق فى عزمه ، ويثبت فى نضاله ، ويضحى بكل شىء فى سبيل دعوته ، ويبالغ القوم فى أذاه والتنكيل به « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وأرادوا قتله والفتك به ، ولكن الله أكرمه وعظمه : « بل رفعه إليه وكان الله عزيزاً حكيما » . . .

وهذا أخيراً شيخ الأنبياء محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام يضحى فى سبيل الله بشتى أنواع التضحية ، ويتخطى مثلا رقاب الشرك التى اجتمعت لقتله ليلة الهجرة ، ويخرج إلى وجهته المحفوفة بالأخطار مع أبى بكر الصديق ، ويطويها الغار المفتوح الباب ، ولكن الله من وراء التضحية ساهر يرعى ويحفظ : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد بعد العهد بيننا وبين معرفة التضحية الكريمة ، وسيطرت على كثير منا الأنانية والحرص ، وأصبحنا فى أمس الحاجة إلى تذوق هذه التضحية

ومحاولة التعود عليها والتطبع بها ، حتى تتحقق فينا معانى الإنسانية ونرتفع عن حضيض الحيوانية ؛ لأن المخجل المخزى أن ألفنا نشاهد ألواناً من التضحية الخبيثة الخسيسة ، نشاهد كيف يضحى الفرد بمصلحة المجموع فى سبيل هواه ، وكيف يضحى الموظف بمصالح الناس فيضيعها أو يهملها فى سبيل شرب فنجان القهوة أو مطالعة الصحيفة ، أو استقبال الزوار ، أو الرد على مكالمات التليفون الناعمة ، وكيف يضحى الآخر بضميره ودينه فى سبيل رشوة يأخذها أو نفاق يأمل من ورائه الرواج ؛ فما أحوجنا إلى تذوق التضحية ، وما أحوج شبيبتنا فى المدارس والمعاهد إلى سماع سير التضحيات والبطولات ، حتى يكونوا أمثلة لمكارم الأخلاق ، كما كان الآباء والأجداد ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاسلام والطفولة

الحمد لله عز وجل ، « خلق الإنسان علمه البيان » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هو المبدع من العدم ، وهو البارئ للنسم ، « هذا خلق الله فأرونى خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رعاه ربه فأحسن الرعاية ، وخصه بالمزيد من الكفالة والعناية : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » ؟ . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، « الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

بعد يومين اثنين تحتفل الأمة بعيد الطفولة ، فتقام الحفلات والندوات للحديث عن الطفولة وصيانتها وتكريمها وواجبنا نحوها ، وإن من أعظم الواجبات علينا أن نعنى بالطفولة ، وأن نرعاها حق رعايتها ، لأنها خلق الله الجديد الذى تمتد به حياتنا وتنفسح آمالنا :

وإنمـــا أولادنا بيننـــــــا   أكبادنا تمشى على الأرض

والإسلام الحنيف دين قد كرم الطفولة وأجل شأنها ، ويكفى فى أول الأمر أنها الدليل المحسوس الملموس فى عالم البشر على قدرة الله جل جلاله ، فمن نطفة قذرة ضئيلة يخرج الخالق البارئ المصور هذا الوليد الجديد بما فيه من طاقات تتفتح يوماً بعد يوم : « ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا » . وإذا هذا الطفل ينمو فى استواء واعتدال ، فتبارك الله أحسن الخالقين : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » ؟ . . ويكفى الطفولة شرفاً أن نرى القرآن الكريم يقسم بها فيعلى شأنها ، ويلفت الأبصار والبصائر إلى مكانتها

فيقول : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » . ويزيد فى تكريمها حين يقول : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً » .

والله تبارك وتعالى يجعل الذرية – وهى التى تتمثل فى الطفولة أول أمرها – نعمة يمن بها على عباده ويذكرهم بقدرها وحقها ، فيقول : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » ، بل يجعلها نعمة على أنبيائه ورسله ، فيقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » ولذلك تطلعت إلى هذه الذرية عيون الأخيار من عباد الرحمن ، يرجونها طيبة صالحة : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » بل وتتطلع إليها عيون الأنبياء المقربين : « هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » : وعلم القرآن أتباعه أن يسألوا ربهم طيب نسلهم وإصلاح ذريتهم ، حتى تكون الطفولة من الأذى والقذى ، فأرشد الإنسان إلى أن يدعو فيقول فيما يقول : « وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين » ، وقال على لسان أم مريم : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وفى القرآن إشارة إلى أن واجب الآباء أن يعنوا بأبنائهم ، وأن يرعوا نشأتهم ، ويصونوا طفولتهم ، حتى يقدر الأطفال هذا الجميل من آبائهم حينما يكبرون ، فيقابلوا الجميل بالجميل ، فالقرآن يعلم المسلم أن يقول عن والديه : « رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » فالتربية فى الصغر هى التى استوجبت التقدير فى الكبر : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . وعلى الآباء أن يتذكروا أن الطفولة بين أيديهم كوديعة غالية ، وأمانة جليلة وهم مطالبون بصيانتها ورعايتها ، وأن هذه الطفولة عجينة لينة صالحة التشكيل ، قابلة للتوجيه والتعليم ، وحينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الطفل الذى

يموت قبل أن يبلغ مبلغ التكليف : « الوليد فى الجنة » أراد أن يرشدنا إلى أن الطفل حينئذ يكون فى مرحلة البراءة والطهارة ، فهو لم يأت إثماً ، ولم يرتكب فحشاً ، ولم يتعود التواء أو خبثاً ، بل هو صفحة نقية بيضاء ، ونحن الذين نكتب عليها ما نشاء ، وينشأ الطفل حسبما نوجهه ونؤثر فيه ، ومن هنا قال الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه » . ويا لها من تبعة خطيرة يحملها الآباء نحو الأبناء ، ونحو الطفولة التى يلزمها حسن الرعاية وحسن الوقاية ، وحسن التوجيه ، وهذا رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام يقرع الأسماع مذكراً بحقوق الأولاد وصيانة الأطفال وأداء الواجب نحوهم فى التربية والتعليم والتوجيه والتقويم ، فيقول : « ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن » ويقول : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بصاع على المساكين » ويقول عبد الله بن عمر : « أدب ابنك فابنك مسئول عنه : ماذا أدبته ، وماذا علمته ، وإنه مسئول عن بره لك ، وطواعيته لك » .

ولو رجعنا إلى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام لوجدنا فيها تكريماً للطفولة ورعاية لها وحدباً عليها ، فقد روى فى سيرته أنه كان أحياناً يصلى فيأتى الحسن أو الحسين ليعلو ظهره وهو ساجد ، فيطيل الرسول سجوده حتى لا يزعج الطفل ، ولا يقطع عليه لهوه البرىء الساذج ، وقد روى ، فيها أيضاً أنه كان يخطب ذات يوم ، فرأى الحسن والحسين يقبلان نحوه ، وهما يتعثران فى ثيابهما وخطواتهما ، فلم يملك نفسه أن نزل فى أثناء خطبته ، وحمل الطفلين على صدره ، وعاد ليتم حديثه ، وهو يعبر عن قيمة الذرية ، وعن تقديره لحفيديه العزيزين عليه الحبيبين إليه ؛ ولقد كان الرسول يسمع بكاء الطفل من الأطفال وهو يصلى بأصحابه ، فيخفف صلاته ، حتى تستطيع أم الطفل التى تصلى وراءه أن تعجل بالعودة إلى طفلها الباكى لإسكاته وإرضائه

وكأنه صلوات الله عليه كان يحس بلذع شديد لبكاء الطفل ، فهو يريده هادئاً راضياً سعيداً ، وهكذا يكون الشعور النبيل بمكانة الطفولة .

ومن تقدير الإسلام للطفولة وحرصه على رعايتها وصيانتها أنه ينبه المسلمين إلى عدم الاقتصار على العناية بأطفالهم ، بل يجب أن تتسع هذه العناية لتشمل أطفال غيرهم ، وبخاصة من كان هناك من الأطفال اليتامى الذين لا يجدون حصناً ولا درعاً ولا رعاية ، وإنه من فساد الشعور وأنانية العاطفة أن يهتم الإنسان بأطفاله لأنه قادر على إسعادهم ، ثم يترك أطفال غيره الذين تيتموا فلم يجدوا عائلا ولا موئلا ولا معيناً ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » ويشير بإصبعيه السبابة والوسطى ، وما أكثر الأحاديث التى حثت على تربية اليتامى ورعايتهم وصيانتهم ، وما أقوى حديث القرآن المحرض على تربية اليتيم وحفظ ماله وتهيئة الأسباب التى تجعله فى المستقبل رجلا صالحاً سعيداً ، وحسبنا هذا الإنذار الموجه من القرآن إلى الناس كيلا يهملوا طفولة اليتامى ، أو يجحفوا بحقها ، أو يعتدوا على شىء لها ، فيقول القرآن : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

إن اهتمامنا بالطفولة يستوجب منا أن نتقى الله فى هذه الطفولة ، فننشئها من أول الأمر على الاستقامة والصلاح والارتباط بهدى الله العلى الكبير منذ بداية الطريق ، وأن نعنى بأطفال الفقراء والعاجزين ، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وعيد الطفولة إنما يحقق ثمراته على وجهها إذا

أزلنا من مجتمعنا الأسباب المؤدية إلى هذه الطفولة المشردة التى نرى ضحاياها هنا وهناك ، فلا يكفى أن يرفل أطفال القادرين فى الدمقس والحرير ، بينما أطفال العاجزين يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى فصل الشتاء

الحمد لله عز وجل ، يغير ولا يتغير ، ويبدل ولا يتبدل : « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أحاط بكل شىء علما ، « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، وفى لعقيدته ، ودام على طريقته ، فكان خير الأوفياء الثابتين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته الزكى الطاهر ، وأصحابه النجوم الزواهر ، وأتباعه فى الأوائل والأواخر : أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا لألباب . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد انقضى فصل الخريف ، وأصبحنا الآن فى جوف الشتاء ، ولاشك أن تقلب الليل والنهار ، وتوالى الأيام والليالى ، وكر الغداة ومر العشى ، مما يثير لدى العاقل عبراً وخواطر ، ولعل أسرعها إلى الدوام من المحال ، وأن الإنسان يجب عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، لأن الإنسان يخيل إليه أن عمره يزيد ويكبر كلما مر عليه يوم أو عام ، بينما هو فى الحقيقة يتناقص ويتضاءل ، حتى يرد المرء إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ثم يذوق الكأس الدوراة على الخلائق ، كأس الموت المحتوم ثم يأتى البعث والحساب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ونحن نرى الطبيعة فى الشتاء تبدو عارية متجردة ، وقد يظن جاهل او غافل أنها همدت أو خمدت ، ولكنها فى الحقيقة تجردت لكى تتفتح ، وكأنها أحست بأن الثواب الذى كان عليها بالأمس قد بلى وقدم ، فهو فى حاجة إلى تجديد ، فهى تلقى عنها هذا الثوب ، وتتطهر بماء السماء الطهور

وهو ماء المطر ، ثم تعود لترتدى فى مطلع الربيع ثوبها الجديد : « صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون » .

ومن الخواطر التى تخطر على البال حين إقبال الشتاء معنى التحصين والاتقاء ، فالمرء يخاف من صولة البرد فيتقيه بالدفء والملابس والمعاطف لينجو من أذى يهم باللحاق به ، وهنا يتذكر المؤمن كيف نهض الإسلام على معنى التقوى من الذنوب والتحصن من الآثام ، فكما يتقى الإنسان ما يضيره فى جسمه وحسه يجب عليه أن يتقى ما يضيره فى خلقه ونفسه ، وما نزل القرآن الكريم إلا ليكون هدى ونوراً يضىء طرق التقوى أمام العباد : « ألم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » .

ومن لطائف التوافق بين التقوى الحسية فى الشتاء والتقوى الدينية فى الإسلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد روى عنه أنه جعل الشتاء موسماً من مواسم العبادة والطاعة ، فقال : « مرحباً بالشتاء ، فيه تنزل الرحمة ، أما ليله فطويل للقائم ، وأما نهاره فقصير للصائم » وقال : « الشتاء ربيع المؤمن ، طال ليله فقامه ، وقصر نهاره فصامه » أى يستطيع المرء أن ينام من ليله جانباً ويقوم جانباً فيرتل القرآن ، أو يتهجد ويتعبد ، أو يقوم بصوالح الأعمال الأخرى التى تفيده ديناً ودنيا ، كما يقول الرسول : « الصيام فى الشتاء الغنيمة الباردة » . وإذا كان نهار الشتاء يعجل بالانتهاء ، فإن فى ليله عوضاً أى عوض ، بامتداده وهدوئه ، وإذا كان الغافلون يقضون هذا الليل الطويل فى سبات عميق أو فى لغو وباطل . فإن لله عباداً آخرين تشغلهم شواغل كريمة ونبيلة يصلحون بها شئونهم أو شئون سواهم ، وإذا كان هناك فريق من الناس يضيقون بالفراغ فلا يجدون له أعمالا ، فإن هناك فريقاً آخر يواصل العمل وتكثر عليه الواجبات حتى تضيق عنها الأوقات ، ولكل

من الفريقين منازل ودرجات : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون » ؟ .

ومن الخواطر التى تخطر ببال المسلم فى أثناء الشتاء أن الله العلى القوى ، القادر على التعذيب بالنار والحرارة ، قادر كذلك على التعذيب بالريح والبروده ، ولذلك جعل سبحانه أهل الجنة « متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا » فنفى عنهم شدة الحر وشدة البرد ، إذ علم أن شدة الحر تؤذى وشدة البرد تؤذى ، فوقاهم أذاهما جميعاً ، ويروى أن فى جهنم بيتاً يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده ، وعن ابن عباس : « يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة ، يصدع العظام بردها ، فيسألون الحر » . وهكذا يتقلبون فى ألوان من العذاب والبلاء ! .

وعن مجاهد قال : « يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض » . وعن كعب : « إن فى جهنم برداً هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم » .

وفى الحديث : « إن لجهنم نفسين : نفساً فى الشتاء ونفساً فى الصيف ، فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وأشد ماتجدون من الحر من سمومها». وحينما تعرض المفسرون لقوله تعالى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » قالوا إن الله سبحانه وتعالى لو قال : « يا نار كونى برداً » فقط لأهلك البرد إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال الله بعدها : « وسلاماً » .

وفى الشتاء نجد أناساً تشبع بطونهم ، وتتمتع حواسهم بالدفء ، ولكن قلوبهم تظل فى برودة كبرودة الثلج وجفاف كجفاف الصحراء ، لأنهم لايشاركون غيرهم فى عواطفهم ومشاعرهم ، بل يتمتعون بما يتمتعون ، ويغرقون فيما يفرقون من نعيم وتمتع ، ، دون أن يفكروا أو يتذكروا أولئك الذين

يلقون الشتاء بلا كساء ولا غطاء ولا غذاء ، ولو أن لهم قلوباً تحس وتشعر لمدوا أيديهم بمعونة الشتاء للمحرومين فيه والمعذبين بسطوته وقسوته ؛ ورحم الله أبا عمرو بن العــلاء فقد قال : « إنى لأبغض الشتاء لنقص الفروض، وذهاب الحقوق ، وزيادة الكلفة على الفقراء » . ويروى أن عمر بن الخطاب كان إذا حضر الشتاء تعاهد الناس وكتب لهم بالوصية يقول : « إن الشتاء قد حضر وهو عدو ، فتأهبوا له أهبته من الصوف والخفاف والجوارب ، واتخذوا الصوف شعاراً ودثاراً ، فإن البرد عدو سريع دخوله، بعيد خروجه ». وإنما كان عمر يكتب بذلك — كما روى — إلى أهل الشام لما فتحت فى زمنه ، فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن لهم عهد بالبرد . ولا شك أن عمر رضوان الله عليه كان بجوار هذا يعنى بالذين لا يستطيعون دفع شدة البرد عنهم ، فهو الخليفة الذى ضربت به الأمثال فى العطف على الرعية والشفقة بالأمة ، ولكننا نعود فنذكر مع هؤلاء المحرومين نعمة الله المتمثلة فى خفة الشتاء واعتداله فى بلادنا ، فإن جونا — والحمد لربنا — معتدل محتمل ، فشهور الشتاء عندنا لا تتجاوز ثلاثة شهور ، والشديد منها لا يتجاوز شهراً ، وبقية العام تمضى فى اعتدال طقس ولطف هواء ، أو فى صيف وحرارة محتملة ، وأين هذا الجو الخفيف والطقس اللطيف من بلاد يغمرها الثلج والصقيع فى الشتاء ، وتصهرها الريح السموم والحرارة الموقدة فى الصيف ؟ . . « وأما بنعمة ربك فحدث » ! . .

إن الإنسان لا يكاد يحس بالشتاء فى مصر ، وإنما الشتاء هناك على سفوح الجبال وقممها ، حيث الثلج والزمهرير ، والرياح التى تهرأ الأبدان ، وحيث تنزل الحرارة تحت الصفر درجات ، وحيث تتجرد الأرض من كل شىء إلا من الثلج الغامر ، أما فى مصر فالخيرات موفورة ، والمزارع دائمة الخضرة ، والأمطار خفيفة ، والنيل يجرى بالخيرات والبركات .

إن هذه الحال تذكرنا يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بامتنان الله جل جلاله على قريش بأن جعل لهم « رحلة الشتاء والصيف » فكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء ، لأنها بلاد حامية دافئة ، والأخرى فى الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة ، وقيل كانوا يقضون الشتاء بمكة لدفئها ، والصيف فى الطائف لرقة هوائها ، وعد الله سبحانه هذه النعمة من أجل النعم ، فذكرهم بها وطالبهم بحقها ومقابلها فى قوله جل من قائل : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . ونحن — والحمد لله — قد يسر لنا خالقنا الأمر ، وهون علينا العسير ، فجعل بلادنا معتدلة الطقس محتملة الجو ، لا يشتد الاختلاف بين صيفها وشتائها ، أفليس من مقابلة الجميل بالجميل ، والإحسان بالإحسان ، أن نقدر هذه النعمة وأن نشكرها بالقول والعمل : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . .

وقد يكون من حسنات الشتاء أن يقبل بستر العورات وتخفيف التبرج النسائى وتغطية اللحوم الذى سلخها من ثيابها جزار الفتنة والهوى ، فالأكمام تطول ، والأثواب تمتد ، وتختفى الصدور العارية والظهور المتجردة والسيقان المتبدية ، وإن كان ذلك اختفاء إلى ميعاد ، لأنه احتشام بالإرغام وتصون بالإكراه ، وعما قليل يقبل الصيف فتعود هذه الأجسام الغضة البضة إلى عرض مفاتنها ومغرياتها .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ! . . .

نحن الآن فى الشتاء ، وستدور أيامه وتمضى بطيئة أومسرعة ، ثم يقبل الربيع بجماله ونضارته ، ثم يعقب الربيع صيف وخريف . وهكذا دواليك ، لن يكف الزمن عن المسير :

لم يكون الشتاء ثم المصيف وربيع يمضى ويأتى الخريف

وارتحال من الحرور إلى البر د، وسيف الردى عليك منيف؟

يا قليل المقام فى هذه الدنيا إلى كم يعزل التسويف ؟

عجباً لامرئ بذل لذى الدنيا ويكفيه كل يوم رغيف !

والجهول غاية الجهل هو من ترك هذه الفصول تمر بلا تدبر أو اعتبار ، وبلا انتهاز للفرص الطيبة الطاهرة فى الليل والنهار ، والعاقل غاية العقل من أدرك أن له فى الحياة : هدفاً ورسالة ، وأن له غاية ينتهى إليها وهو حريص على أن تكون غاية شريفة مسعدة ، لأن صوت ربه يقرع سمعه مردداً : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

اين ربيع المسلمين

لله الحمد ، لا نحمد إلا أياه ، ولا نعبد ربا سواه ، أ إله مع الله ؟ . تعالى الله عما يشركون . سبحانه فاضت بالآيات آثاره ، وهدت إلى الرشد دلائله وأنواره ، « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، تخلق الحياة من العدم ، وتبعث ما رقد من الأمم : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما غفل يوماً عن ذكرك ، ولا توانى حيناً عن شكرك ، بل كان متقلباً فى الساجدين ، سابقاً بين أهل اليقين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله المنيبين إلى رحابك ، وأصحابه الواثقين بك اللاجئين إلى جنابك ، وأتباعه الراجعين كلما اشتبهوا إلى هدى كتابك ، أولئك هم أهل التقوى وأهل المغفرة : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

يا أتباع محمد عليه السلام ! . . .

إذا أدبر الشتاء وأقبل الربيع ، انقشع الغمام وذهب الصقيع ، وقد جعل الخالق سبحانه مطلع الربيع موعداً لميلاد الطبيعة فى كل عام ، فما تكاد بشائر الربيع تلوح بأصابعها الوردية وأناملها النورانية ، حتى ترى الأرض الهامدة الخامدة التى طال بها الجمود والركود ، وقد أخذت زخرفها وازنيت ، ففاضت الأنهار ، وتفتحت الأزهار ، وغنت الأطيار ، واتخذت الكائنات لها ثوباً جديداً تدل به على أنها قد نالت حظها من الرقاد ، وأخذت نصيبها الجديد من الحياة والنشاط ، وعادت إلى الدنيا بميلاد جديد ، تبدأ به تاريخها فى الوجود من جديد ؛ وكأن الحكيم العليم أراد وهو أفضل من ضرب الأمثال

أن يلفت نظر الإنسان ، وهو خليفته فى أرضه ووكيله فى ملكوته ، إلى حسن التشبه والاقتداء بما حوله من مظاهر الطبيعة ، مما يرتدى ثوب التجدد والتطور كلما أقبل موسم الربيع ؛ فليت شعرى أيها المسلم الكريم ؛ لماذا لاتستجيب لداعى الحكمة والرشاد ، فتجدد أنت الآخر حينما تلمح عن يمينك وشمالك هذه الصحوة الكبرى تصحوها الدنيا من سباتها ، وترى تلك الصحوة العظمى وهى تغمر دنياك بفيوض من النور والضياء ؟ . . . ألا يعيبك أيها الإنسان السوى العلى ، أن يقبل الربيع فى كل عام ، فيتجدد بإكسيره الجماد والتراب والنبات والطير ، وتظل وأنت أنت العاقل البصير جامداً لا تتحرك ولا تتجدد ، يا أفضل المخلوقات وأكرم الكائنات ؟ ! ...

ستزعم أيها الإنسان أنك بدلت الثياب وتخففت من الأثقال ، وغيرت أصناف الطعام وألوان الشراب ، وخرجت من لفائفك وزوايا بيتك ، ثم استقبلت الحياة بالسعى إليها والحرص عليها ؛ وتحسب أن هذا ربيعك ، وأن هذه مظاهر تجددك ؛ فنقول لك : لا لا ؛ بل نحن نريد ربيعاً يناسب ذاتك ورسالتك فى الحياة وغايتك منها ، ونريد تجديداً يتناول الجوهر لاالعرض والحقيقة لا المظهر ، والمعنى لا المبنى والروح لا الجسم ، نريد الربيع فى القلوب والعقول والنفوس ، ونريد التجديد الذى يصلحك من فساد ، ويوقظك من غفلة ، ويصلك بربك بعد طول انقطاع ، ويقذفك جندياً مخاصاً فى معركة الإيمان ، لتجاهد عصائب الشيطان وكتائب البهتان ، فتنصر دعوة القرآن وتؤيد شرعة الرحمن ! !

لقد تفتحت البراعم فى الرياض ، واخضرت الزروع فى الحقول ، واهتزت الأرض الجرداء وربت وأنبت من كل زوج بهيج ، بعد أن كان الناظر إليها أثناء الشتاء يحسبها قاعاً صفصفاً وصخراً جلمداً ؛ فخبرنى أتفتحت براعم الأمل فى صدرك ، أو اخضرت أعواد الرجاء فى قلبك بانتصار الإسلام

ودعوته ، ووجوب الرجوع إلى شريعته ، وقداسة الجهاد لإقامة دولته ، أم أن الأمل قد يبس فى نفسك وتصوح ، حتى ملت كما مال الأقزام إلى اليأس والقنوط ، مع أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟ . . . ولقد نضر الربيع بفضل الله وجوهاً صبيحة كساها بالجمال وغمرها بفيض الشباب ، فأين ربيع وجهك أيها الإنسان ؟ وأنبئنى أنضرت جبهتك بجمال التقوى وجلال اليقين وعز السجود للبارىء وحده ، ومجد الخضوع له دون سواه ، أو أن الوجه منك قد اسود كما اسود الفؤاد بخبث السريرة وسوء السيرة وعظم الجريرة ، فكنت — والعياذ بالله — قريباً من أقوام افتروا على الله وحاربوه ، وعطلوا شرائعه ، فأنذرهم يوماً يحشرون فيه إلى عقابه « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » ؟ . . . ولقد فاض الربيع فى مجاله ونواحيه ماء سلسبيلا رقراقاً ينفع ويمتع ، فأخبرنى أسالت منك أنت ينابيع النفع تجرى إلى ذوى القربى والجوار ، أو الشركاء فى الوطن والدار ، أم أنك لم تقدم لقومك إلا غسلينا من مكايدك وبلاياك ، ويحموما من خداعك وغدرك واستهتارك بالحقوق والحرمات ، ولم تجمع إلا لنفسك ، ولم تعن إلا بنفسك ، فلم تستحق أن تعيش فى حكم الحكيم الذى يقول : ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ؟ .

ترى أيها المسلم الراكد المتخلف عن ركب الإسلام والمسلمين ، هل انتهزت فرصة الربيع فنزعت عنك ثياب أخلاقك البالية وخصالك الذميمة ، وجددت غيرها من أخلاق المتقين وصفات المؤمنين ، فخرجت مثلا من ظلمات نفاقك وشقشقة لسانك ، وغادر عهودك وباطل وعودك ، واستقمت على الطريقة تعمل الخير ما استطعت ، وتتجنب الضلال ما قدرت ، حتى تخرج بذلك عن دائرة الكاذبين من الناس الذين قال فيهم شقيق البلخى :

« الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد خالفوها فى أفعالهم : يقولون نحن عبيد الله ، وهم يعملون عمل الأحرار ، وهذا خلاف قولهم ، ويقولون إن الله كفيل بأرزاقنا ، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا وجمع حطامها ، وهذا أيضاً خلاف قولهم ، ويقولون لابد لنا من الموت ، وهم يعملون أعمال من لا يموت أبداً ، وهذا خلاف قولهم ! . . أوهل خرجت أيها الإنسان فى عيد الربيع المجدد من غفلتك التى طالت فشغلتك عن دينك وخلقك ، وواجبات نحو نفسك ووطنك وربك ، وهلا انتهزت الفرص قبل أن تنقلب إلى غصص ، وادخرت لك وأنت قادر واسع الوقت والحيلة جانباً من صالح العمل أو كريم السعى ، قبل أن لا يكون هناك أجل أو عمل ، بل نعيم أو جحيم ؟ . . إذن لنجحت وربحت ، وانتفعت بما نقل عن إبراهيم التيمى حين قال : مثلت نفسى فى الجنة ، آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسى فى النار ، آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ؛ فقلت لنفسى : يانفسى ، أى شىء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً . قلت : فأنت الآن فى الأمنية فاعملى ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام ! . . .

ليس مما يستساغ أو يطاق أن يكون للدنيا كلها ربيع ، ثم يحرم أبناء الإسلام من نعمة ذلك الربيع ؟ . . . أتتجدد الهمم وتتوالد العزائم ويتضاعف نشاط الآخرين ، ثم نظل نحن خاملين مع أن ملتنا ملة الفتوة وديننا دين القوة ؟ . . أتسترد العقائد والمبادىء والأمم شبابها ونشاطها ، مع مافى الكثير منها من زيف وباطل ، ونظل نحن حيارى لانهتدى ، مع أن فى أيدينا أسطع نور وهو القرآن ، وأكرم دستور وهو الإسلام ، وأصلح شرعة فيما كان وفيما هو كائن وفيما سيكون وهى شرعة محمد عليه الصلاة والسلام . . ألا إنه دون ذلك ويذهب حلم الحليم ! . . .

ستحتجون يابنى الإسلام بكثرة الفساد وشيوع المنكر ، وضلال العباد وطغيان القواد وانفلات القياد ، وتقولون وما أسهل القول على من يريده حجة أو اعتذارا : لقد فسد الزمان وأهله ، واغترب الدين وجنده ، وحاق بدعاته ما حاق بهم من محن وفتن ، وما لنا مثل صبرهم ولا مثل قدرهم ، فليس لنا إلا أن نتابع ونسير مع التيار ! . . ومن هنا نؤتى أيها الناس ، ومن هنا تضيع كل دعوة خير وهنا يرتفع صوت الرسول مؤدباً ومعلما فيقول : « لايكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ! . .

ألا نسمة من نسمات السماء وهبة من ريح الجنة تطوف بنا فتوقظنا ، وتدفعنا إلى ذلك الصراط المستقيم ؟ ، ما ذلك وربى على الله ببعيد؛ ومن يدرى لعل مجاهيل منا يحسبون أنفسهم فى ذيل الرعيل وهم المختارون ليكونوا الأئمة فى هذه السبيل ، فاستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

مع مراحل الزمن

الحمد لله عز وجل ، خالق الخلق وأجرى الرزق : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، مهد للانسان طرق الرشاد والسداد ، وحرضه على التماس مواطن الخير والنفع ، ولفته إلى قيمة الوقت وعبرة الأجل : « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أفضل ما سارع إلى الخيرات ، وشغل الأوقات بالواجبات ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يذكرنا كر الغداة ومر العشى بأن الحياة مراحل ، وأن كل مرحلة لها قيمتها ومكانتها ، ولها كذلك واجباتها التى يلزم أن نؤديها فى وقتها المناسب وعلى وجهها الملائم ، وأن واجبات كل مرحلة تؤثر فى واجبات المرحلة التى تليها ، فإن كان أداؤها سليماً قويماً نفعت وأثمرت ، وإن أصابها التقصير أو الإهمال أضرت وأتعبت ؛ وهذه المراحل موصولة مفصولة ، فهى موصولة بتتابعها والتحامها فى مجرى الزمن ، وبتبادل التأثر والتأثير فيما بينها ، وهى مفصولة أيضاً ، إذ لكل منها كيان وواجب ، ولكل منها تبعة مطلوبة وحساب قائم ولذلك يقول الحسن البصرى : « ما من يوم ينشق فجره وتشرق شمسه إلا نادى منادى من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » . .

ولا شك أن الوقت له حرمة ومكانة ، وله كذلك أخطار ومعاطب ، فهو سلاح ذو حدين ، يتناوله المرء فى طرفه الملائم وفرصته المواتية ، فيصول

به ويجول ، ويكسب عن طريقه ويربح ، ولكنه حين ينام عنه أو يغفل عن قيمته ، ينقلب هذا الوقت وحشاً كاسراً وغولا مهلكاً لصاحبه ، فهو يرديه أو يشقيه ، ومن هنا قالوا : « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » ، فاللازم لكل وقت أن يكون مصحوباً بعمل يعمره ويلائمه ، وإلا خلف الحسرة والندم ، ورحل ضائعاً دون رجعة ، والقرآن الكريم يحرضنا على الاعتبـــار الدائم بعبرة الوقت ، لنتنبه تنبها موصولا إلى أداء الواجب ، فيقول : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . وذكر الله فى مختلف الأحوال ومتتابع الأوقات يحرض على أداء ما طالب الله به عباده من جهد وجهاد لتعمير الحياة وحسن الاستعداد للمستقبل ، ومادام الذكر موصولا والتفكير دائماً فسيظل العمل موصولا ودائماً كذلك ، ولعل هذا هو السر فى قول ابن عطاء الله السكندرى : « أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات » . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعتبر الأشخاص الذين لم يحسنوا استغلال أوقاتهم والانتفاع بصحتهم وقوتهم ، مغبونين مهضومين خاسرين ، فيقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

والواجب على الفرد والجماعة أنه كلما مرت مدة من الزمن وقفوا وقفة للمراجعة والمحاسبة ، ليحكموا بأنفسهم على أنفسهم فى اعتدال وبصيرة ، قبل أن يصير الحكم إلى غيرهم فلا يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ، والفاروق عمر يقول : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية » ويقول الحجاج : « رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ

أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه » ، فإذا كان المرء قد وفقه ربه فى سالف أيامه للخير وإتقان العمل حمد الله على ذلك ، واغتبط به ، وتطلب المزيد منه ، وعاهد ربه أن يواصل خطواته على هذا الصراط ، لأن خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وكذلك الجماعة أو الأمة لابدلها من وقفات فى مراحل كفاحها ونضالها ، تستعرض ما مضى من أيامها ، وتتبين حساب ما ربحته وحصلت عليه ، أو تبعات ما تحملته وتعرضت له ، ثم ترسم خطتها لقابل أيامها بما يجنبها الزلل ، ويعينها على صالح العمل ، وخير الأمم من لم يبطرها كسب حصلت عليه مهما كان عظيماً ، ولم يضعفها بأس تعرضت له أو شدة ذاقت طعمها ، بل تمضى على الطريق ساعية كاسبة ، آملة راجية ، لأنه لا يأس مع الحياة ، ولاحياة مع اليأس : « ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . . .

وإذا كانت هناك للطاعات مواسم ينتهزها أصحابها للتزود من الخير ، والاستكثار من البر ، فليس معنى هذا أن تخلف هذه المواسم بعدها ركوداً أو جموداً ، وإلا ضاع فى فترات الكسل ما تجمع فى أوقات العمل ، بل يقتضى العقل السليم والتصرف الحميد أن يكون هناك جهد مبذول موصول ، فى مختلف الأحوال والأوقات ، والحديث يقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وقد وصفت السيدة عائشة رسول الله عليه صلوات الله بأن أحب العمل إليه مادام عليه صاحبه . . والإسلام يعلم أبناءه كيف يتحررون من العبودية العمياء لأجزاء الزمان أو المكان ، وإذا كان الإسلام قد ربط بعض الأعمال ببعض الأوقات ، فجعل للحج أشهراً معلومات ، وللصوم أياماً معلومات ، فإنه لم يترك الأوقات الأخرى دون أعمال وواجبات ، وإذا كان قد خص بعض الأماكن بلون من التنويه والذكر ، فقد طالب بأداء

الواجب فى كل مكان ، وإذا كان قد فضل أفراداً من خلقه لمزايا فيهم ، أو لمكرمات كانت منهم ، فقد حذر مع هذا من الفناء فى الأفراد وترك الإخلاص للمبادئ والعقائد ، وهذا التحذير لا يتعارض مع الدعوة إلى محبة هؤلاء الأفراد الماجدين النافعين ، والتقدير لهم والوفاء بعهودهم . . . وأمامنا مثل رائع على ذلك وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه لقد كان أوفى الأوفياء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يفديه بنفسه وأهله وماله ، وضحى فى سبيله وسبيل معاونته على دعوته بكل ماملك ، ومع ذلك لم يلفته حبه لمحمد عن حبه لربه ودينه وعقيدته ، وهو الذى قال قولته الحازمة الصارمة يوم لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وزلزل الناس بسبب هذا المصاب زلزالا شديداً ، فذكرهم أبو بكر ببقاء الله الواحد الأحد ، وبقاء الدعوة مابقيت السموات والأرض ، قال : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن المسلمين الأصحاء حينما يودعون شهراً كرمضان ، ويستقبلون شهراً كشوال ، يتذكرون حق التذكر أن رمضان كان موسماً مباركاً للطاعات وفرصة طيبة للقربات ، ولكنهم يتذكرون فى الوقت نفسه أن الله الذى جعل رمضان قطعة من الزمان صالحة لتعميرها بالخير والبر هو الذى هيأ ما تبقى من أجزاء الزمان لكى يشغلها المسلم بما يرضى ربه ، ويصلح أمره فى دينه ودنياه ، فواجبه ألا ينكص على عقبيه بعد رمضان ليتفلت من واجب ، أو ليهمل فى عبادة ، بل هو يواصل الخطو مستعيناً بالله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، والذى لا يتخلف نصره عن عباده المخلصين . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

اقبل الخريف

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شئ ، « ولله مافى السموات ومافى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » . أشهد أن لا إله إلا الله يسبح له الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس : « تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قضى دهره لله عابداً ، وأفنى عمره فيه مجاهداً، فصلوات اللهم وسلامى عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « وإن للمتقين لحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من شأن المسلم العاقل أن يولع بالتدبر فيما يمر عليه ، ويحرص على الاعتبار بما يراه فى توالى الأيام والليالى : « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . ونحن الآن قد دخلنا أبواب الفصل الذى يسمونه فصل « الخريف » ، فقد انتهت حدة الصيف ، وأخذ الحر يكسر من شدته ، وشرع النهار يقصر ، والليل يطول ، وأخذ الأشجار تتهيأ لإسقاط أوراقها ، والريح تتأهب لتعصف هنا وهناك ، ولعل أول خاطر يخطر على بال المسلم وهو يشهد انتهاء فصل من العام وابتداء فصل آخر هو أن يتذكر اقتدار البارئ المصور على مداولة الأيام ، وموالاة الأعوام ، وتقليب الليل والنهار : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . ويخطر بباله أيضاً أنه إذا كان قد شهد مرحلة من الحياة فربما لا يشهد مرحلة مثلها بعد ذلك : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . ويخطر بباله أن المسيطر المقتدر الذى جعل عقب الصيف خريفاً ، وبعد الحرارة برودة ،

قادر على أن يجعل عقب الشتاء ربيعاً . وبعد الربيع صيفاً ، وهو قادر على أن يجعل بعد الضعف قوة ، أو بعد الحياة موتاً : « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » . ويخطر بباله خاطر المراجعة والمراقبة والمحاسبة لنفسه قبل أن يسير الحساب إلى غيره فهو يرى أياماً تمر وشهوراً تكر ، وعمراً يتناقص حينا بعد حين ، وكل يوم يطالعه من أيامه يقول له ، يا ابن آدم ، أنا يوم جديد ، وخلق جديد ، فماذا أعددت لى ؟ وكيف تقضينى ؟ . وهنا يتذكر المسلم قول خالقه جل جلاله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ ويتذكر الأثر الإسلامى الذى يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وكثير من الناس يعتبرون « الخريف » نذيراً بالإدبار بعد الإقبال ، وبالهمود بعد الحركة والنشاط ، حتى جعلوا الخريف مثلا فى هذا ، فقالوا : هذا الرجل قد أدركه الخريف . أى ضعف وشاخ ؛ وقالوا : هذه المرأة فى خريف حياتها . أى ذهب جمالها وبهاؤها . وقد يكون الخريف من المظاهر الخارجية ما يوحى بهذا الفهم ، ولكن الخريف فى الواقع فترة انتفاضة ، تخلع الطبيعة فيها ثيابها التى استعملتها فى وجوهها ، واستخدمتها فى أغراضها ؛ وكأن هذه الثياب قد بليت أو وهت فهى تريد أن تزيلها عنها وتجددها ، وتعد عدتها لارتداء ثياب جديدة قشيبة تصلح لأداء المطلوب منها فى عهد آت بعد قليل ، ولذلك تلقى الأشجار أوراقها ، وتخلع الأرض عليها ، وتنطوى على نفسها حيناً ، وكأن أمطار الشتاء تأتيها لتغسلها وتطهرها ، وتزيل عنها كسل التعب وغبار النصب ، وتهيئها لانتفاضة الحياة ونضرة

الازدهار فى مطلع الربيع بعد وقت يسير ، « فاعتبروا يا أولى الأبصار » « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

تعالوا بنا نشاهد الطبيعة كتاب الله المنظور لنرى كيف تتطور وتتجدد ، وليكون لنا من وراء ذلك عظة وعبرة ، ودرس ومثل . إن البراعم والأكمام تتفتح فى مطلع الربيع ، وتورق الأشجار ، وتزهر الرياض ، وتغرد الأطيار فيرى الناس فى ذلك جمالا ومتاعاً ومنفعة ، ثم يقبل الصيف بقوته وصولته ، فتنضج الثمار ويستوى الحصاد ، ويجمع الناس خير الأرض من هنا وهناك ؛ وكأن الطبيعة تحس عقب هذا الميلاد الكبير والإنتاج الواسع والإخصاب النافع بأنها قد تعبت وأجهدت نفسها ، فلا بد لها من راحة واستجمام ، فهى تنزع عنها فى الخريف ثيابها ، ثم تنطوى وتضمر ، وتتفاعل من داخلها أثناء الشتاء ، استعداداً لربيع جديد ، وصيف مخصب آخر ، ثم ينتهى الشتاء بزعازعه وزوابعه ، فإذا الطبيعة الغافية تتجدد وتنتفض انتفاضة تشعرنا بظهور الحياة القوية التى كانت مستورة لم تضع كما ظن بعض الناس : وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وإن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير » .

فلنتعلم من هذه الطبيعة أيها الناس . . . إن الحياة من سنتها التجدد والتنقل من حال إلى حال ، ولو بقيت على صورة واحدة بلا تطور أو تغير لما كانت حياة ، لأن الحياة فى أبسط معانيها حركة ، والحركة انتقال من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، ولو جمد الماء فى مكانه لفسد وأنتن ، ولو جمدت الشمس فى مكانها لضاعت فائدتها وتفاقم ضررها ، ولو استقر القمر فى موضعه لما سعدنا بضوئه ، ولو جمد كل حى على وضع له لما كانت هذه

الحياة الكبيرة الواسعة الدائبة التى نرى ونشاهد : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » .

فلنتعلم من الطبيعة أنها تقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتنام وتستيقظ ، وتستجم ثم تخصب ، فأين هذا من الذين قد ينالهم مرض طارئ أو فتور عارض ، وهم مازالوا فى وسط العمر أو نضرة الحياة ، فيخيل إليهم أنهم قد بلغوا أرذل العمر ، وأنهم شارفوا النهاية وإن لم يبلغوا الغاية ، فيستشعرون الضعف والوهن ، ويميلون إلى الجمود والكسل ، ولا يفكرون فى تجدد أو تطور ، أو معاودة للتفتح واستقبال الحياة ، ويخيم عليهم ظلال القنوط مع أنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ؟ « ولا تيأسوا من رحمة الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إن هناك كثيراً من الأشجار تسقط أوراقها ، وتتجرد أغصانها ، ويخيل لرائيها فى نهاية الخريف وأثناء الشتاء أنها قد صارت حطباً أو خشباً عديم الحياة غير صالحة للخضرة ، ولكن هذه الأشجار يأتيها الربيع . فتتفتح وتخضر ، وتزهر وتثمر ، ويجنى الإنسان منها الجنى الطيب والثمر اليانع ، لأن فيها من الداخل قوة الإخصاب وسر الإنتاج والاستعداد للتجدد والتفتح ؛ وهناك أنواع كثيرة من الأشجار تظل مخضرة مورقة من الظاهر طيلة العام ، ومع ذلك لا نجد لها ثمراً . ولا نجنى منها شيئاً ؛ فالعبرة إذن بالمخبر لا بالمظهر ، وبالقلب لا بالصورة ، وبالجوهر لا بالعرض . ومن هنا قال الرسول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » فإذا رزق الله عبده قلباً حياًنابضاً

واثقاً به ، مستمداً منه ، غير يائس أو قانط ، فقد فتح أمامه أبواب الحياة المتفتحة المتجددة المستجيبة لدوافع الطموح والرجاء . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول ربكم جل جلاله فى وصف ذاته : « كل يوم هو فى شأن » أى هو يحدث فى كل وقت أموراً ، ويجدد أحوالا ، على ما سبق به قضاؤه ، ويقول الحديث الشريف : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » فلنرفع أبصارنا وبصائرنا إلى رحمة هذا الخلاق القدير آملين أن يأخذ بنواصينا إلى ميادين الحركة واليقظة واليقظة والتجدد والتفتح للحياة ، ذاكرين أن الخريف بعده شتاء يتلوه ، ربيع فصيف ، وهكذا دواليك ، وبعد ظلام الليل نور النهار ، ومن خلف السحب الداكنة تتألق أشعة الشمس الساطعة ، ومن وراء الشدة فرج ، وبعد العسر يسر : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

فى موسم الصيف

الحمد لله عز وجل ، هو الخلاق الفعال لما يريد ، الذى يطمع بالوعد ويؤدب بالوعيد : « إن الله لا يخلف الميعاد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، زان الأبرار بنور اليقين والإيمان ، وأركس الفجار فى حمأة الضلال والخسران ، « وما ربك بظلام للعبيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عاش داعياً إلى الهدى ، مذكراً بكلمة التقوى ، « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

منذ حين لقد مضى الربيع وأقبل الصيف ، وإذا كان الربيع يذكر المسلم بموسم الورود والرياحين ، واعتدال الجو ولطف النسيم ، فإن الصيف يذكره بفترة من فترات الاختبار والابتلاء عن طريق الحر والقيظ ، ولقد كان الصيف يمر على أجدادكم فيرحبون به ويفرحون فيه ، ويتخذونه فرصة من فرص التدريب للعزائم على الثبات ، والتمرين للنفوس على الاحتمال ، فكانوا مثلا يحبون الصوم فيه راضين بما يذوقون خلاله من شدة الظمأ ، ولذلك نسبوا إلى الإمام على أن من أحب الأشياء إليه أن يصوم فى الصيف ، وكانوا يرحبون بالجهاد فيه ، ويرون فى العرق المتصبب من جباههم أثناء كفاحهم طهوراً يذهب حوباءهم ويحقق سراءهم ، وهذه غزوة تبوك تأتى فى وقت الحر والفقر معاً ، فيسارع إليها أبناء الإيمان مستخفين بالتعب والنصب ، معرضين عن الراحة والهدوء ، ويخرجون فى الظمأ واللظى ليؤدبوا أعداء الله وأعداء الإسلام ، وكان المنافقون يحرضون المسلمين حينئذ

على عدم النفير فى الحر ، ويغرونهم بالبقاء فى الظلال والرياش ، فلا يصغون إليهم ، ولا يسمعون منهم ، لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن عقاب الله على التفريط والتقاعس أشد وأنكى : « وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » ! . . .

نعم جاء الصيف وفيه ترتفع درجة الحرارة وتتمدد الأشياء فتتحرك الجراثيم من مراقدها وتكثر الحشرات والهوام ، مما يستلزم الحيطة والحذر ، ويدعو إلى النظافة والوقاية والحرص على التطهر والنقاء ، وبجوار هذه الحشرات والقاذورات الحسية تنطلق هوام بشرية لها شرها وضررها ، فهذه طوائف من النساء ينتهزن موسم الصيف للتعرى من الثياب والحياء معاً ، فيتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ويبدين من الزينة والأطراف والعورات ما يثير ويفتن ، ويلبسن تلك الملابس المتهتكة المخرقة ، الضيقة الملصقة ، التى يعجب الناس منها ويتساءلون عنها : كيف استطاعت هذه المرأة المتبرجة أن تحشر جسمها حشراً فى هذا الثوب الشفيف الضيق ، ولأى غرض أبدت ما أبدت ، وضغطت ما ضغطت ، وحددت ما حددت ؟ أو ما فعلت ذلك لتزيد العيون الجائعة نهماً وشراهة ، وتغرى الذئاب المترصدة بالهجوم والاعتداء ، وتثير فتنة جنسية ليست دواعيها قليلة . . . والأزواج ساكتون والآباء غافلون ، والأمهات لاهيات ، وأولياء الأمور لا يتدخلون ، وليكن ما يكون ، وإذا بالغت فى النقد واللوم عند فريق من هؤلاء أجابوك بقولهم : « إن للصيف حكمه » ! . . . فلا كان هذا الصيف الذى يفتح علينا أبواب البلاء بهذه الصورة ، ولا كان هؤلاء الذين يسيئون استغلال الصيف فيجعلونه موسم تحلل وفجور لا موسم راحة وهدوء . . .

ويقبل علينا الصيف فتقبل معه مأساة التهتك على الشواطئ التى خلقت للمتعة والخير ، فجعلناها للاثم والشر ، حيث يفتتح الشيطان ملعباً من ملاعب

الإثم والفتنة ، يعرض فيه لحوم النساء المسلوخة من صيانتها وعفتها أمام أنظار الرجال المتجردين من ثيابهم وغيرتهم ، وهناك يكون ما يكون مما أصبح الحديث عنه موصوفاً بالتكرار والسأم ، وإن كان الواجب ألا يسأم دعاة الخير من معاودة النصح وتكرار التذكير ، وبخاصة أن البلاء يزداد عاما بعد عام ، ففي الماضى كان الناس يقصدون المصايف على خجل واستحياء ، ويخلعون ثيابهم فى نوع من التستر والمواراة ، وأما اليوم فلا خجل ولا حياء ، وبالأمس كان هناك من علماء الإسلام من يقاومون تهتك المصايف ويناهضون ما فيها من تحلل ، وكان هؤلاء العلماء فى محل التقدير والإعجاب من الكثيرين ، وأما من يفكر اليوم فى مقاومة عبث المصايف وفجورها فإنه سيكون موضع السخرية والاستهزاء ، وهكذا أصبح الحق غريباً مهضوماً فى دنيا الباطل الأثيم ؛ وبالأمس كانوا يخصصون فى الشواطئ أماكن أو أوقاتاً للنساء ، فأصبح النساء حريصات على ترك وقتهن الخاص ليختلطن بكتل الرجال العراة ، وانقلب بعض الرجال إلى حيوانات حتى سمعنا عن بعضهم حمل زوجته حملا على التجرد من ثيابها لتنزل البحر مع مجموعة من أصدقائه ، ولما تمنعت بحكم حيائها الموروث وصفها بأنها لا تصلح لحياته الراقية ما دامت متأخرة بهذه الصورة ! . . .

وبالأمس كان الناس يخجلون ، فيستحى الرجل من المرأة وتستحى المرأة من الرجل : وأما اليوم فيصل الأمر إلى أن رواد أحد الحمامات فى فندق كبير مشهور يحتجون على صاحب الفندق ويشاجرونه لأنهم يريدون سيدات لتدليكهم ، ولما أحضر لهم صاحب الحمام رجالا للقيام بهذا التدليك رفضوا وثاروا وتضاربوا وانتقل الجميع إلى دار الشرطة . ونشرت الصحف القصة المخجلة المحزنة على الناس ، وليس ببعيد أن نسمع النساء فى الحمامات النسائية يتشاجرن لأنهم يطالبن برجال ليقوموا بتدليكهن فى هذه الحمامات ! ! ..

إن بعض مراجع الحديث تنسب إلى رسول الله عليه صلوات الله حديثاً فى درجته مقال ، ولكنه برغم ذلك يصور ما بلغته الحال بالفضيلة من سوء مآل فيقول : كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ . قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ . قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ . قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ؛ كيف أنتم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ . قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ، كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ، يقول الله تعالى : بى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران ؟ . . .

وأحب أن أسألكم : هل بقى حليم عاقل لم يشعر بمرارة الحيرة والحسرة مما صار إليه أمر الأمة الإسلامية من خروج على قواعد العفة والخجل والحياء ؟

وأين حالنا اليوم من حال أسلافنا ؟ . . . فهذا مثلا خامس الراشدين هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يتزوج فاطمة بنت عبد الملك وهى ربيبة القصور والترف وبنت الخلفاء العظام ، ومع ذلك يحملها على منهج الصيانة والعفاف والبعد عن الشبهات وعن الاختلاط ، فلا تعارض ولا تقاوم ويأخذ بناته وأولاده بالحزم والعزمفلا تبرج ولا تحلل ولا اختلاط ولا إظهار لما حرم الله أن يظهر . وكان عمر فى هذا المنهج قوياً صارماً ، حتى تريد إحدى بناته أن تتجمل فترسل إليه لؤلؤة ليرسل إليها بأختها حتى تجعلها قرطاً فيضع بين يديها جمرتين من النار قائلا : إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى

أذنيك بعثت إليك بأخت لها . . . وكأنما كان يريد أى يبعد بيته عن كل ريبة حتى يصير مثلا أعلى لبيوت المسلمين . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الله قد هيأ لنا فى الصيف أشياء يمكننا التمتع بها والتنعم بخيراتها فى صفاء وطهارة ، هيأ لنا البحار والأنهار ، والأشجار والأزهار ، وهيأ الهواء الرقيق والنسيم البليل فى الأصائل والأمسيات ، ومن الممكن للمسلم أن يأخذ من كل هذه الأشياء نصيبه الملائم فى اعتدال واستقامة ، وما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار ، وزادوا عليه رضا الله ، فلنقف على أبواب الصيف مفكرين متدبرين متذكرين أن لنا ديناً وأخلاقاً ، وأن كلا منا راع وكل راع مسئول عن رعيته . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الشباب فى الصيف

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعم وواسع الكرم ، يضاعف الآلاء للشاكرين ، ويسلب النعمة من الكافرين ، « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . أشهد أن لا إله إلا الله : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب . » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة وأدب الأمة ، وهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته ، وأهل صحبته ، وحزب دعوته : « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

شبابنا هم عماد بلادنا ومعقد آمالنا وأبطال مستقبلنا ، ولذلك كانوا أهلا للرعاية الواقية والهداية العاصمة ، وإذا كانت فترة الشبيبة بصفة عامة فترة خطيرة مبلبلة ، فإن خطرها يشتد إذا اقترنت بالفراغ والبطالة وقلة التوجيه ؛ وقد أغلقت المدارس والمعاهد أبوابها وانتهى موسم المذاكرات والامتحانات ، وأقبلت العطلة الصيفية بطولها وعقابيلها ، وبدأ الطلاب والشباب يفتحون مدارسهم الخاصة المعروفة فى الشوارع والحارات ، فأنت ترى على أفواه الأزقة وملتقى الطرق جموعاً من الشباب اللاهين الذين يجتمعون لكى يتبادلوا فاحش الكلام وخطير الأحاديث ، أو ليتواعدوا على الذهاب إلى الأفلام السينمائية القذرة ، أو ليعترضوا طريق الفتيات والنساء بالنظرات الوقحة والكلمات البذيئة والحركات السمجة الدالة على سوء التربية وتحلل البيئة وتميع الأخلاق . . . وترى الرقعاء من هؤلاء الشبان فيخيل إليك من استهتارهم وتوقحهم كأنهم لا آباء لهم يرعونهم ، ولا أمهات يقلن لهم كلمة توجيه ،

ولذلك لا يتورعون عن الجهر بأسماء العورات والمحرمات ، أو عن سب الآباء والأمهات ، أو لعن الدين والتطاول على الناس . . .

وبالرغم من استنكارنا الشديد لمسلك هؤلاء الشبان لا يمكننا أن نلقى التبعة كلها فى أمرهم على عواتقهم ، لأنهم فى الواقع ضحايا النشأة المنحرفة والإهمال الموصول وعدم ربطهم من أول الطريق بالدين والاستقامة ومكارم الأخلاق ، ولو قام آباؤهم وأولياء أمورهم والمشرفون عليهم بما يجب لهم من تأديب وتهذيب ، وإرشاد وتوجيه ، لما بلغوا هذا الوضع الأليم الوجيع ؛ وهاهم أولاء مثلا يقبلون على عطلة الصيف ، فيجدون هذا الفراغ اللعين الخبيث ، الذى يضيع العمر ، ويقتل المواهب ، ويثير الأفكار السود ، ويبعث على الجريمة ؛ والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . لأن المرء إذا لم يستغل صحته فى الإنتاج وفراغه فى العمل فقد أضاعهما وأضاع فائدتهما ، وإذا أضاع المرء صحته وأضاع عمره فماذا بقى له ؟ وأى غبن بعد هذا الغبن ؟ وأى خسارة بعد تلك الخسارة ؟ . . . وهؤلاء الفارغون اللاهون من فتياننا يجدون بين أيديهم فى الغالب الوسائل الثلاثة المؤدية للفساد والضلال ، وهى الفراغ والشباب والمال ، وقديماً قال أحد حكماء هذه الأمة :

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمـــرء ، أى مفسدة !

وتعالوا بنا نستعرض فى عجلة المنهاج اليومى لهؤلاء الفارغين المتبطلين فى الصيف . . . إن الواحد منهم يقوم من نومه فى نحو التاسعة صباحاً لأنه كان ساهراً إلى منتصف الليل ، ثم يغسل رأسه ورجليه للتنشيط لا للوضوء ولا للصلاة ، ثم يتناول طعام الفطور فى تراخ وكسل ، ثم يقف فى شرفة المنزل ، وربما وقف بالسروال والقميص ، وإن تأدب فبالمنامة (أى البيجامة) ، ويظل يحملق فى بيوت الجيران ونوافذهم وأفرادهم ، فنظرة سمجة هنا ،

وابتسامة وقحة هناك ، ومغازلة منحطة هنالك ، ثم ينزل إلى الشارع ليقف مع أنداده ، يبصقون وراء هذا ، ويسخرون من ذاك ، ويعتدون على ذلك ، ثم يعود فيتناول غذاءه وينام ، ثم يقوم قبيل الغروب فيرتدى ملابسه ويذهب إلى السينما أو الملهى أو السهرة العابثة الممتدة إلى نصف الليل ، فأى اختلال بعد هذا الاختلال ؟ وأى ضياع وراء هذا الضياع ؟ وماذا يبقى فى نفس الشاب مما بنته المدرسة طيلة العام فى حسه أو نفسه مادامت معاول الهدم والإفساد تتناول حياته بهذه الصورة المؤلمة ؟ . . .

ليت هؤلاء يقفون على المنهاج اليومى الذى كان يسير عليه الشاب المؤمن إلى عهد قريب فى الريف وفى البيئة الصالحة المتدينة أثناء العطلة الصيفية . . . إن هذا الشاب المستقيم ينهض قبل الشروق فيتوضأ ويصلى لربه ، ثم يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم للحفظ أو الاستذكار ، ثم يشارك أهله عملهم فى الحقل أو غيره ، ثم يأخذ حظه من المطالعة فى الكتب الدينية والعلمية والأدبية وهو يعظ الناس ويخطبهم ويدرس لهم فى أيام الجمع وغيرها من المناسبات ؛ ولسنا نقصد أن الشباب كلهم فى الريف على هذا المنوال ، ولكننا نتكلم عن بقايا الخير ، والخير قليل غريب أمام الباطل الكثير العربيد ، كما أننا لا نعمم الحكم القاسى على جميع الشباب فى المدن ، فهناك من غير شك صالحون منهم ، وإنما نقصد الخاطئين المنحرفين ،

والأمة الإسلامية منذ أقدم عصورها تتواصى بتربية الأبناء تربية دينية دنيوية رشيدة عامرة بالخلق والاستقامة ، وهذا مثلا هو الحاكم العادل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يوصى مؤدب أولاده بالحزم معهم والرقابة لهم ، ويأمره بأن يعودهم قلة الضحك لأن كثرته تميت القلب ، وأن يبغضهم فى الملاهى لأنها تبدأ من الشيطان وتعقب غضب الرحمن ، وأن يعودهم افتتاح كل يوم من أيامهم بجزء من القرآن المجيد يطالعونه فى تثبت وتفهم ، فإذا

فرغوا من الدرس فليتناولوا الأقواس والسهام والنبال وغيرها من أدوات الجندية وآلات التدريب وليخرجوا إلى الرياضة والتمرين الجسمي والعسكرى.. وهكذا يجمع الحاكم العادل فى تربية أولاده بين الدنيا والدين ، وبين العلم والرياضة ، وبين الروح والبدن ، وبين القول والعمل ، ويكتب إلى ابنه عبد الملك وصية طويلة منها قوله : « فراغ نفسك وشبابك وصحتك ، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلا فافعل » .

وإنما تحرص الأمة على توجيه شبابها وتهذيبهم لعلمها بأن ريح الجنة فى الشباب المؤمن ، وأن الخير كله فى الشباب الصالح ؛ وهذا هو سيد الإنسانية محمد يقول : إن الله ليباهى ملائكته بالشاب الصالح » ويقول : « إن الله ليعجب بالشاب ليست له صبوة » ويقول « إن الله تعالى يحب الشاب الذى يفنى شبابه فى طاعة الله » . ولا عجب فالله تعالى يقول فى أمثالهم : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن أولادكم أمانات من الله فى أيديكم ، إن رعيتموها حق رعايتها فزتم برضا ربكم ، وثواب خالقكم ، وبالراحة فى دنياكم ، والذكر الحميد بعد وفاتكم ، وإن ضيعتموها فياويلكم وياويلهم ، فإنكم ستجنون عواقب الإهمال والتضييع صاباً وعلقما ، وسيكون أولادكم وبالا عليكم اليوم أو غداً ، ثم يخلفون لكم أسوأ الذكر وأقبح الأحدوثة عند الناس ، فاتقوا الله فى أولادكم وأريحوا الناس من تطاولهم وسوء أدبهم وفراغ أوقاتهم ، وذكروهم أن شباب الأمم الدائبة العاملة الناهضة يجمعون من أعمالهم فى العطلات الصيفية وغيرها ما ينفقونه على أنفسهم طيلة العام الدراسى ، وأن كثيرين منهم ينتهزون فرصة هذه العطلات للقيام برحلات واسعة منظمة مفيدة ، ينفقون

فيها أقل النفقات ، ويكسبون منها أعظم الثمرات ، وأن كثيرين منهم ينتهزون أوقات الفراغ لتنمية الملكات واستغلال المواهب وتوسيع الأفكار وتثقيف العقول بالجديد من العلوم والمعارف والآداب ، وأن هؤلاء الشباب يشعرون برسالتهم وواجباتهم ، فيقبلون على حياة الجد والاستقامة والإنتاج ، لا على حياة اللهو والعبث والفرار من رقابة الأهل لاحتساء الخمر أو تدخين الحشيش أو مرافقة البغايا أو غير ذلك من ألوان الشذوذ . . ذكروهم بهؤلاء ، وذكروهم بأسلافهم الأوائل الأماثل ، واخلطوا الحزم بالحكمة ، والقسوة بالرحمة ، واشغلوهم بالرياضة والمطالعة والعبادة والرحلة والأعمال المفيدة المنتجة ، وخففوا جفاف حياتهم ببعض الفنون النظيفة كالأدب أو الرسم أو التصوير أو تتبع الآثار أو جمع الطوابع أو صيد الطيور والأسماك ، أو غير ذلك من الأعمال ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

نحن والبحر

الحمد لله عز وجل ، أيد الإنسان بالعقل والفهم ، وزانه بالمعرفة والعلم ، وتفضل عليه بالرعاية والتكريم : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ناضل نضال الشرفاء وعاش عيشة الأقوياء ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والعاملين بهديه وسنته ، أولئك هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

احتفلت الدولة أمس بعيد البحرية حيث أقيمت احتفالات عمادها جنود البحر ، كما أقيم عرض بحرى ظهرت فيه القوة البحرية التى وصلنا إليها ، وهذا أمر يشرح الصدور ويسر الخاطر ، لأن فيه رداً لاعتبار البحر الكبير الذى كدنا نعد شاطئه مسرحاً للعرى والاختلاط الفاضح بين الرجال والنساء ليس غير ؛ ومن نعم الله الكبرى علينا فى بلادنا أن وادينا المبارك يشقه نهر جليل من أعظم أنهار الدنيا إن لم يكن أعظمها جميعاً ، ويحف به بحر كبير واسع فى باطنه خيرات وفى محيطه طاقات ، ولو أننا قدرنا النعمة حق قدرها لأحسنا استغلال هذين البحرين العظيمين لنكون أهلا لدوام النعمة وبقاء الفضل : « وسيجزى الله الشاكرين » .

وبعض الجاهلين يظن أن صلة أجدادنا العرب بالبحر كانت مقطوعة غير موجودة ، وهذا غير صحيح ، فقد عرفوا البحر وركبوه منذ أقدم العصور ، على الرغم من بيئتهم الصحراوية ، وحياتهم البدوية وكانت كلمة « البحر » متداولة فى لغتهم كثيرة الاستعمال فى تعبيراتهم ، حتى شبهوا العالم الواسع العلم

بالبحر ، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس كان يسمى بالبحر . والرجل الكثير الكرم بالبحر ، ولقد ركب الرسول جواداً سريع الجرى لأبى طلحة الصحابى فقال عنه : إنى وجدته بحراً (أى واسع الجرى) ، والعرب تسمى البلدة بحرة أو بحيرة ، ومدينة الرسول نفسها كانت تسمى بحيرة ، ويروى أن النبى فى أول عهده بالمدينة وقف على قوم يعظمهم ويدعوهم إلى الله ، فتصدى له المنافق عبد الله بن أبى بن سلول وقال له : أيها المرء ، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا فى مجلسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فقص عليه ؛ وتألم النبى من ذلك . فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ، اعف واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة (يعنى المدينة) على أن يتوجوه (أى يملكوه) فيعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق لذلك (أى اغتاظ وغضب) ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد يقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يوافق معاوية على أن يعبر بجيش المسلمين البحر الأبيض لفتح قبرص حينما طمع معاوية إلى ذلك ، إذ خاف عمر من ركوبهم البحر ، وأيضاً كان الجيش الإسلامى لم يمهر الملاحة وركوب البحار وهو مجموعة كبيرة تحتاج فى هذا إلى تدريب ومرانة بخلاف ركوب الأفراد للبحار . وسبب هذا هو عدم اطمئنان الخليفة إلى الرحلة من جهة ، وخوفه على مصير الجيش الإسلامى الأساسى من جهة أخرى ، وهو يعتبر نفسه مسئولا أمام الله عن كل جندى فيه ، وهو الذى كان يقول : لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنها يوم القيامة لماذا لم أمهد لها الطريق . وحسبنا أن نعلم أنه لم يمض وقت طويل حتى فتح معاوية جزيرة قبرص سنة ثمان وعشرين للهجرة بجيش إسلامى خالص وقبل ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً ركب المهاجرون الأولون البحر الأحمر من جزيرة

العرب إلى الحبشة ، وكان من بينهم نساء لم يخفن ركوبه ، نتذكر منهن أسماء بنت عميس التى كانوا يسمونها « البحرية » لأنها هاجرت إلى بلاد الحبشة وركبت البحر ، وبعد حين رأينا الفاتح الإسلامى عقبة بن نافع الذى فتح شمال أفريقيا يقف على شاطئ المحيط فى بلاد المغرب ، ويخطو فى المحيط بجواده خطوات ، ويرفع رأسه إلى السماء قبلة الدعاء ويقول مناجياً خالقه : « اللهم رب محمد ، وحقك لو أنى أعلم وراء هذا البحر المائج أرضاً يابسة لخضت إليها هذا الموج الهائل بجوارى حتى أرفع اسمك العظيم فى أقصى بقاع الأرض وما هى إلا سنوات حتى أقبل طارق بن زياد فحقق أمنية عقبة أو خياله ، وعبر طارق مع جنود الإسلام البحر إلى أسبانياً وفتحوها باسم الإسلام وأقاموا فيها ذلك الفردوس المفقود الذى ظل عدة قرون يعرف باسم الأندلس ، والذى شهد حضارة عربية إسلامية يعز فيها النظير . وما هى إلا سنوات أيضا حتى صار المسلمون والعرب أئمة يهتدى بهم فى ركوب البحار وفنون البحرية ، وقد ركبوا المحيط الهندى إلى بلاد الملايو وأندونيسيا والصين ، وفى أثناء رحلاتهم هذه نشروا الإسلام فى آسية وأفريقية وغيرهما من البلاد .

ومما يدل على مكانة البحر وشئون البحرية فى الإسلام أن القرآن الكريم يحدثنا فى مواضع كثيرة عن البحار والفلك التى تسير فيها ، وعن الأمواج العاتية والرياح الشديدة ، وعن الخيرات المطوية فى بطون البحار من معادن وحيوانات ، فيقول : « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام » ويقول : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . والفلك هى السفن كبيرة كانت أم صغيرة ، للتجارة كانت أم للعمارة أم للدفاع ، تسير بالهواء أم بالبخار أم بغيرهما ، والمواخر هى الجارية بسرعة بين الأمواج ، وكأن من شأن

البحار فى نظر القرآن أن تكون فيها هذه الفلك المواخر ، وكأنه من المناظر المألوفة للمسلم أن يشاهد هذه الفلك المواخر فى البحار . والله تبارك وتعالى يقول عن سفينة نوح : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبـــال » والبحار تذكرنا فى العادة بأمواجها العالية وتياراتها العنيفة ، كأن الله جل جلاله فى قصة نوح هذه يقدم إلينا صورة ترمز إلى أن النجاة تكون من خلال الأمواج العاتية التى تشبه الجبال ، فسفينة نوح التى حملته ومن آمن معه كانت تجرى بأهلها فى موج كالجبال بعد أن نتح الله أبواب السماء بماء منهمر ، وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وهذه الصورة تحرضنا وتجرئنا على ركوب البحار ، والاستخفاف بالأخطار ، والاطمئنان إلى رحمة الأقدار.

ونستطيع أن نقف طويلا أمام قول الله تعالى عن نوح وسفينته : « وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » لنتدبر قوله البليغ العميق الأخاذ : « تجرى بأعيننا » إذ معنى ذلك أن السفن تسير بعناية الله ورعايته وصيانته ، وكأن هذا إيحاء قوى بالإيمان بالله وحسن الرجاء فيه وجميل الاتكال عليه وهو الكبير المتعال ، وفى هذا حفز للهمم على امتطاء ظهر البحار والاستخفاف بما فيها من أهوال : « سخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » .

والبحر يرينا عظيم قدرة الله تعالى ، فالبحر ملح . وهو مع ذلك سبب للماء العذب ، ولو شئنا لقلنا إن الأنهار ثمرة من ثمرات البحار ، لأن الشمس تلقى أشعتها القوية على مياه البحر فتتبخر وترتفع بخاراً فى طبقات الجو ، ثم تتكاثف حتى تصير سحباً ، ثم تقابلها البرودة مع الرياح فتتحول إلى قطرات تسيل أمطاراً . وتجرى فى الأرض أنهاراً ، فمن الماء الملح أوجد الله الماء العذب الذى يقول فيه : « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » والبحر برغم سعته وضخامته وروعته ليس بجوار ملكوت الله إلا شيئاً تافهاً :

أيها البحر لا يغرنك طول ... واتساع وأنت خلق صغير

إنما أنت ذرة قد حوتهـا ... ذرة فى فضاء ربى تدور

إنما أنـت قطرة فى إناء ... ليس يدرى مداه إلا القدير

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان البحر الأبيض المتوسط بالأمس بحيرة عربية تتحرك فيها السفن العربية وتخفق الألوية الإسلامية ، وكانت بوارج العرب والمسلمين تغدو وتروح فى هذا البحر آمنة مطمئنة ، سائدة قائدة ، لا ترهب عدوا ولا تخشى اعتداء ، ونحن اليوم نريد أن نستعيد ماضياً ، وأن نسترد مجدنا ، لا لنبغى على أحد ، ولا لنستولى على بلد ، بل لنكون أعزة أقوياء ، وذلك يتحقق بالعمل والصبر ، والجرأة والإقدام ، والثقة بالله والاعتماد عليه ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى موسم الامتحان

الحمد لله عز وجل ، حكم فعدل ، وأعطى فأجزل : « وما كان عطاء ربك محظورا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لايضيع أجر من أحسن عملا ، « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير مستجيب وأفضل منيب ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وأتباعه وحزبه ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد بدأ موسم الامتحانات فاهتم له الجميع ، فالتلاميذ يعيشون الآن على خوف وقلق ، وهم يبذلون جهودهم لينالوا فوزا يرتجونه ، يغدون فى الصباح على رجاء وأمل ، ويعودون فى الظهيرة على مراجعة وتقدير لما فعلوه ، ويقضون ليلهم فى استذكار واستعداد ، والآباء يمسكون قلوبهم بأيديهم خوفاً على مصير أبنائهم ، والمدرسون فى إرهاق وضيق ، يقضون صباحهم فى المراقبة ومساءهم فى التصحيح ؛ والامتحان مأخوذ من المحنة ، بمعنى الابتلاء والتمحيص والتهذيب ، تقول : محنت الذهب إذا عرضته على النار لتصفيه من الأوشاب التى علقت به ، ويقولون : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ؛ وذلك لأن الامتحان يكشف حقائق الناس « فمنهم شقى وسعيد » ، فإما أن يفوز الإنسان فيستحق التقدير والتكريم ، وإما أن يفشل فيبوء بالخيبة والخسران ، والقرآن الكريم يقص علينا كثيراً من ألوان الامتحان المختلفة وإن لم يسمها باسم الامتحان ، وقد جاء ذكر الامتحان بمادته الصريحة فى فى موضعين من القرآن أولهما فى قوله تعالى : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »

أى إن الذين يتأدبون بأدب الإسلام ويحفظون الوقار مع رسول الله ، فلا يرفعون أصواتهم عنده ، بل يسارعون إلى الإنصات إذا تكلم ، والاستجابة إذا أمر ، ويتكلمون بصوت رفيق يدل على الطاعة والأدب والذوق ، أولئك هم الذين أصلح الله قلوبهم وهيأها لتكون مواطن للفضيلة والتقوى ، ودرب عزائمهم على أن تكون أهلا للفضل والإحسان ، ولذلك من الله عليهم بالمغفرة لذنوبهم وبالأجر العظيم لهم يوم لقائه ؛ والموضع الثانى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن» . وذلك أن نساء متزوجات من مشركين كن يسلمن فى عهد الرسول ، ويهاجرن من مكة إلى المدينة ، فأمر الله المؤمنين أن يمتحنوا هؤلاء النساء حتى يتبين لهم أنهم أسلمن حقاً وصدقاً لاخداعاً ولا لعلة ، وذلك بأن تحلف المرأة بالله الذى لا إله إلا هو أنها لم تهاجر كراهية لزوجها ، ولا حباً لرجل من المسلمين ، ولا التماساً لمتاع الدنيا ، بل حباً لله ورسوله . فإذا تبين صدق المرأة أبقاها المسلمون بينهم ، وردوا على زوجها المشرك ما أنفقه عليها من مال .

والواقع أننا فى امتحان طويل خلال هذه الحياة : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » . يمتحن الله عباده بالصحة ليرى كيف يستخدمونها ، وبالمال لينظر كيف ينفقونه ، وبالجاه ليعلم كيف يستعملونه ، والحساب على ذلك كله عند الله العلى الكبير ، ولذلك يقول الحديث : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن شبابه فيم أفناه ، وعن عمره فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » . ومن الناس من يركبه شيطان العجلة فيريد الثمرة عاجلة غير آجله ، فلا يعنيه إلا أن يرتع فى هذه الدنيا كما يرتع الحيوان ، ويشبع منها كما تشبع البهائم ، ولا يعنيه بعد ذلك أعمرت أخراه أم خربت : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة

وماله فى الآخرة من خلاق » . ومن الناس أخيار عقلاء يرتقبون الآخرة مع الدنيا ، ويتطلعون إلى الباقية من خلال الفانية : « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

والله تبارك وتعالى يمتحن عباده ويبتليهم ليمحصهم ويصفيهم ، فإذا اعتصموا بحبله المتين ، وتعلقت قلوبهم بالله رب العالمين ، وتنزهت نفوسهم عما يخدش الدين والفضيلة ، وتسامت هممهم إلى مراتب الصالحين المصلحين ، فقد فازوا فى امتحانهم ، وساروا على بصيرة من طريقهم ، يأتون ما أمرهم به ربهم طائعين مختارين ، ويحذرون ما حرمه عليهم خائفين خاشعين ، وإذا عرضت لهم شبهة تباعدوا عنها خشية أن يصيبهم منها ما يخرج بهم عن دائرة الحلال ، أو يدخلهم دائرة الحرام ، والرسول يقول : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وامتحانات الدراسة مهما بولغ فى ضبطها والتشديد فيها لا يمكن أن تكون مثالية كاملة ، لأن عيوبها كثيرة عسيرة ، ولذلك يقول المربون : إن الامتحان شر لابد منه ، ومهما كان الامتحان فى هذه الحياة صعباً واسعاً فإنه لن يبلغ مبلغ الامتحان الأكبر الذى يجريه الإله الأعظم حين يمحص النفوس ويحصل مافى الصدور ، ويكشف ماوراء الأستار ، ويؤتى كل إنسان كتابه الذى لا يفرط فى قليل أو كثير : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة

إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا » ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . ولقد يرسب المرء فى امتحان هذه الحياة مرة ويفوز مرة أخرى ، وقد يفشل فى محاولة فيعرضها بالنجاح فى محاولة تالية ، ولكن الذى يفشل مع ربه ، ويستوجب مرجع عقابه وغضبه يسجل على نفسه الخسران الدائم والعذاب المستمر ؛ : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ويحاول كثيرون فى امتحانات هذه الحياة أن يختلسوا معلومات غيرهم ، وأن ينقلوا عن سواهم ، وفيهم من يفلت من عين الرقيب وينجو من وطأة العقاب ، ولكن امتحان الله لا يستطاع فيه غش أو اختلاس ، ولا يمكن فيه استعانة المرء بغيره : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى » ولو حاول إنسان أن يستنجد بغيره يومئذ فلن يجد السميع أو المستجيب ، فالهول أكبر من ذلك بكثير : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . وهكذا يعلمنا الله جل جلاله استقلال الشخصية وتميز الذاتية ، فكل امرئ مسئول عن نفسه ، وكل امرئ مطالب بتحقيق كيانه ، والإسلام لا يريد الفرد ظلا لغيره ، أو تابعاً لسواه ، والرسول يقول : « لا يكن أحدكم إمعة . يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

والسابقون الأولون من رجال هذه الأمة كانوا يعلمون خير العلم أنهم فى امتحان دائم ، ولذلك كانوا يعيشون على خوف زاجر وجهد موصول وتقدير للتبعة فى كل حين ، فعمر بن الخطاب يقول : « لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنها يوم القيامة : لماذا لم أمهد لها الطريق » .

وحفيده عمر بن عبد العزيز يقول مثل هذا ، ويقول أيضاً : « لقد وليت أمر هذه الأمة : صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم فى أقاصى الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن اللهتعالى سائلى عنهم وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم ، فخفت ألا يثبت لى عند الله تعالى عذر ، ولا يقوم لى مع رسول الله حجة ، فخفت على نفسى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، ونحن فى امتحان موصول ، متعدد الجوانب متشعب الفروع ، فلنحسن الاستعداد لهذا الامتحان ، ولنقبل عليه ، إقبال الواثقين المؤمنين ، الذين لا يتصورون الفوز فى خيال أو خبال ، بل يعملون ويجهدون ، لينالوا ثمرة تعبهم ، ويبلغوا غاية سيرهم ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون.

عيد الفلاحين

الحمد لله عز وجل ، هو رب العزة والجبروت ، وهو صاحب الملك والملكوت ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين أشهد أن لا إله إلا الله ، فسح لعباده المدى ، وطالبهم بالاستقامة والهدى : « يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون أ . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبى العاملين وقائد المفلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اليوم هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر ، وهو اليوم الذى اختارته الأمة ليكون عيداً للفلاحين ، حتى يزداد الفلاح المناضل شعوراً بمكانته وتقديراً لمنزلته ، وفى التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ قاد أحمد عرابى ثورة الجيش المصرى المكون من أبناء الفلاحين ضد الظلم والاستعمار ، وضد الخديو المتعاون مع السلطة الأجنبية ، واتجه عرابى إلى قصر عابدين ، وقدم — وهو فوق جواده — مطالب الجيش والأمة ، ولما أمره الخديو بأن ينزل . من فوق الجواد ، أبى وقال : « لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم ؟» . وكأن أحمد عرابى قد استلهم هذه الكلمة من الموقف الجليل الرائع الذى وقفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما بلغه أن ابن الوالى على مصر : عمرو ابن العاص قد ضرب أحد أفراد الرعية لأنه قد سبقه فى الجرى ، وأخذ يقول له : كيف تسبق ابن الأكرمين ، فأحضر عمر الوالى وابنه ، كما أحضر الفتى المضروب وأباه ، وأمر عمر الفتى المضروب أن بضرب ابن عمرو أمامه،

وكلما ضربه قال له عمر مشجعاً على الانتصاف ممن ظلمه : اضرب ابن الأكرمين ، ثم التفت عمر إلى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ . ولذلك قال الإمام على يحث المؤمن على العزة والكرامة : « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً » . وإذا كان الإنسان بطبعه يأبى الذل والهوان فإن المؤمن الحق لا يرضى بالعزة بديلا ، لأن ربه يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وإذا ذكر الفلاح ذكرت الأرض التى جعلها الله جل جلاله مصدر الخير والخصب ، وجعل إنباتها النبات وإخراجها الزرع ، بعد أن كانت هامدة جامدة ، آية من آيات الدلالة على قدرته وإبداعه ، ولقد قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ابتغوا الرزق فى خبايا الأرض » ، وهى عبارة نبوية مشرقة ، فيها حث على العمل والأمل ، فالرسول يدعو أتباعه والمؤمنين بهديه إلى أن يطلبوا مختلف أنواع الرزق من خبايا الأرض وطواياها ، وذلك يؤدى إلى الحصول على خيرات وفيرة وبركات كثيرة ، وأرض الله واسعة ممتدة ، وقد بسطها خالقها ومدها لكى يعمل كل عبد من عباده فى جانب منها ، فإذا طاقته المحدودة صالحة لاستنبات هذا الجانب قدر طاقته ، وبذلك تتعاون الأيدى الصالحة المصلحة المؤمنة على استخصاب سائر الأرجاء الممكنة ، ولو أن فرداً واحداً ، أوأفراداً معدودين استبدوا بهذه الأرض الواسعة دون غيرهم لأدى ذلك إلى سيئات من البغى والطغيان : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

وحين نرجع إلى القرآن الكريم نجده فى أغلب الآيات التى تتحدث عن الأرزاق المطوية فى خبايا الأرض ومناكبها ، يشير إلى أن الأصل فى هذه الأرزاق أن تكون لعباد الله الصالحين كلهم ، ولذلك يقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقة وإليه النشور »

فالدعوة إلى التحرك فى الأرض للاستخصاب والاستثمار ، ليست موجهة إلى فرد دون فرد ، ولا لطبقة دون طبقة ، ولا لجماعة بعينها دون سائر الناس ، بل لجميع العباد ، وكذلك يقول الله تبارك وتعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ويقول : « وجعلنا لكم فيها معايش » . والمغزى الذى يلحظه أولو الألباب من ذلك هو أن كل إنسان صالح فى مجتمعه من حقه أن يكون له نصيب ملائم من أرض الله الواسعة ، يحوزه بحق وجهد وعدل ونظام ، ويفلحه ويصلحه ، ويستخصبه ويستثمره ، ويبذل فى العناية به أقصى طاقته ، ليعطيه الخير المضاعف والنتاج الطيب ، فينفع بذلك نفسه وأهله وأمته ، ويؤدى منه حق الله — وهو السائل والمحروم — فى غير بخس ولا خداع .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه المجيد : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فإن الله عز وجل يجعل مشيئته فى كل وقت وحين قائمة على الحكمة والعدل والخير ، لأنه أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، فهو إذن يورث الأرض الذين يستحقون ميراثها بإيمانهم ويقينهم أولا ، وبعملهم بمقتضى هذا الإيمان وهذا اليقين ، وبحاجتهم إليها ، وسعيهم إلى نيلها فى غير ظلم أو بغى ، وصلاحهم لفلحها واستثمارها ، وإصلاحهم فيها لخير الفرد والجماعة ، وعدم تجبرهم فى الحياة ، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله سبحانه : « والعاقبة للمتقين » أى أن النصر الإلهى فى النهاية يكون لعباد الله الذين يتقون رذائل الانحراف والإسراف ، ويتجنبون كبائر الإثم والبهتان ، ويتباعدون عن مزالق الكفران والطغيان ، ويتحصنون ضد هذه الرذائل بالسلوك المستقيم ، والعمل الصالح ، والعدل الرشيد : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين

من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من حق الإنسان الصالح المصلح المؤمن أن يعيش فى هذه الحياة سعيداً هانئاً ، ولا يسلب هذا الحق من الإنسان إلا شيطان أو صاحب طغيان ، ومن واجب الإنسان أن يحرص على هذا الحق ، وأن يدافع عنه ، وأن يسترده إذا سلب منه ، ومن واجبه كذلك — أو قبل ذلك — أن يحسن استخدام كل حق فى يديه ، حتى يكون جديراً بالنعمة ، وحتى لا تصيبه النقمة ، فإن الحق جل جلاله يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » ، والله سبحانه هو الموفق للصالحين ، المؤيد للمصلحين : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى ركاب الصوفية (١)

لله الحمد ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، تهدى النفوس من ضلالها ، وتكسوها بأثواب جمالها : « والله يحكم لا معقب لحكمة وهو سريع الحساب » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، صبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ففاز ونجا ، وأرشد وهدى ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله أئمة الهداة الصادقين ، وأصحابه خيرة الموقنين السابقين ، وأتباعة المعتصمين بحبل الله المتين : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

تعالوا نشطح مع الصوفية ، فننسى أمور هذه الدنيا قليلا ، ونتسامى إلى ركاب أولئك الأعلام ، الذين أرادوا أن يضربوا للناس المثل العليا ، بإعراضهم عن شهواتهم ، واستخفافهم بلذاتهم ورغبات نفوسهم ؛ وإقبالهم على الله وحده ، يدعونه ويعبدونه ؛ ويرتجون منه العون والسداد .

والصوفية الصادقون . أيها الناس طائفة من البشر ، وهبهم الله قلوباً طاهرة ؛ ونفوساً بالخير عامرة ، وأرواحاً لربها ذاكرة ؛ فهى تهيم فى ملكوت السموات والأرض ، وتتدبر فى اختلاف الليل والنهار ، وتعتبر بساطع الدلائل والآثار ، فتهتف من الأعماق : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ! . . .

تراهم مثلا يعلمون المرء أن لا يفتخر بعمل ، أو يزهو بقربة من القربات ، فإن الفخار والكبرياء والاغترار بما يقدم الإنسان نحو ربه من أعمال سبب

لحقها ورفضها وعدم الإثابة عليها ، وكم من أناس تاهوا على غيرهم ، وافتخروا بأنهم أقوى منهم إيماناً أو أكثر صلاحاً ، فكان افتخارهم هذا محبطاً لما قدموا من عمل حتى جعله هباء منثوراً ، ولذلك نجد الصوفية يوصوننا بالتواضع لأن من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر عليه قصمه ووضعه ، ويفضلون من أخطأ فندم وتاب واستغفر واستقام ؛ على من أطاع الله ثم تباهى على غيره ، وتطاول بين العباد بتلك الطاعة ، ولذلك نجد الصوفى الكبير ابن عطاء الله السكندرى يقول فى هذا المقام : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » . ولذلك أيضاً كان الصوفى الصادق منهم يعمل ما يعمل من الخيرات ، ويقدم إلى ربه ما يقدم من الطيبات . وينهض بما ينهض به من الصالحات ، فإذا بشره أحد بالجنة أو الخلاص من العذاب ، خاف وارتعش ، وتضاءل وانكمش ، وقال : إنى لا آمن مكر الله ، اللهم اغفر لى مالا يعلمون ، ولا تفضحنى على رءوس الأشهاد يارب العالمين .

والصوفى الصادق رجل رزين هادئ ، لا يكثر من الادعاء والتظاهر ، ولا يحاول أن يكشف للناس ما استتر من تقواه ، وإلا كان مرائياً ، والرياء هو الشرك الخفى الذى يدب دبيبه المستتر إلى الإيمان الصحيح فيفسده ويلوثه ، بل يظل الصوفى يعبد ربه مخلصاً له الدين ، يحتجب عن عيون الناس ما استطاع ؛ ويعلم أن الأخيار الأبرار قد ذهبوا وطواهم الثرى إلى غير رجعة ، وأن الناس كانوا ورقاً بلا شوك فأصبحوا شوكاً بلا ورق ، فهو يجلس مع العامة بجسمه ، ولكن قلبه يهيم فى أودية أخرى ، وقد يبدو بينهم هادئاً ساكناً فى صورته وظاهره ، ولكنه فى داخله يتفتت غماً وكمداً ، أو يميد خوفاً ورهباً ، وإن شئت الدليل فها هو ذا شيخ الصوفية الجنيد الذى صافى المعاملة مع ربه ، وانصرف عن دنياه إلى آخرته ، وعمر ليله ونهاره بحسن العمل وجمال التقوى ، هذا الجنيد كان يجلس فيسمع آيات الذكرى والاعتبار ،

وشواهد العظة والادكار ، فتضطرب لها نفسه ويقشعر فؤاده ، ولكنه رغم هذا يظل وقوراً ثابتاً كأنه لم يصبه شيء ، لأن هذا شيء بينه وبين خالقه ، يريد أن يتحقق فيه الإخلاص الذى جعله الله سراً من أسراره ، يودعه قلب من يشاء من عباده ، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، حتى يلقى به ربه يوم القيامة ، فيثيبه عليه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . . ولقد سأل بعضهم الجنيد نفسه عن سر هذا السكوت ، وقال له : لماذا لا نراك تتحرك بشيء عند السماع ؟ فأجابه الجنيد بذلك الجواب المسكت البليغ : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » . . ولو فرضنا واشتهر الصوفى بين قومه بالصلاح والتقوى لانتشار الخبر عنه ، وسطوع النور منه ، وتوالى البركات على يديه ، فإنه كان لا ينخدع بذلك أو يغتر ، بل يخاف من ذلك ويهاب وهذا بشر الحافى مثلا ، وهو صوفى علم إمام ، كان يرتعد خشية من مثل هذا فيردد فى فراش مرضه هذا الدعاء : « إلهى ، رفعتنى فوق قدرى ، ونوهت باسمى ، وشهرتنى بين الناس ، فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحنى غداً يوم القيامة » .

ومن أخلاق الصوفية الصادقين أيضاً أنهم لا يطلبون ما فى أيدى الناس ، ولا يتكالبون على متاع الحياه الدنيا ، ولا يثقون بمغريات هذا العالم ، بل يرفعون أبصارهم نحو السماء ، ويتجهون بهممهم وعزائمهم إلى خالقهم ، ويسألونه من فضله العميم فى الدار الآخرة ، لأنها دار البقاء والهناء والنعيم المقيم ، « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . ولذلك نرى سفيان بن سعيد الثورى ، وهو إمام من أئمة الصوفية وعلم من أعلامهم .

كان عزوفاً عن الحياة زاهداً فيها ، كثير الجوع تشغله العبادة والعمل الصالح عن الطعام والشراب والثياب ، وكان يميل إلى العزلة والفرار من الناس ، حتى لا يصيبه شيء من سحت دنياهم أو باطل متاعهم ، وكان كثيراً

ما يردد هذا النداء « إلهى ، البهائم يزجرها الراعى فتنزجر عن هواها ، وأرانى لا يزجرنى كتابك عما أهواه ، فيا سوأتاه » ! . . وكان يتهم نفسه فيحرمها من كثير من الرغبات ، لا عن مرض أو ضعف أو عدم تذوق للطيبات ، ولكنه كان يفعل ذلك انتظاراً لما هو أجدى وأبقى ، وهو النعيم المقيم فى الفردوس العظيم تحت ظلال الكريم الحليم ، ولذلك لما مات رآه بعضهم فى النوم فسأله عن حاله وعما فعل به ربه ، فقال سفيان ابن سعيد الثورى :

نظرت إلى ربى عياناً ، فقال لى : هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد

لقد كنت قواماً إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصد أردته وزرنى فإنى منك غير بعيد !

والصوفية قوم يخافون الحياة الآخرة أشد الخوف ، ويهابون غضب الجبار فيها أشد الهيبة ، ويتعبون من أجلها كل التعب ، ويستعدون للقائها أكمل الاستعداد لعلمهم اليقينى الأكيد أنها دار المعاد والقرار ، وأن هذه الحياة الدنيا بمظالمها ومآثمها وشرورها وعجلتها ، لا يمكن أن تكون نهاية أبدية للبشرية ، وإلا فما أقسى ما يرتكبه الظالمون والفاسقون والمجرمون فيها من سيئات ومقابح ، ويتركون فيها بلا حساب أو عقاب ، لأن عين البشر مهما قويت وحرصت لا يمكنها بحال من الأحوال أن تنشر العدالة الكاملة فى أرجاء الدنيا ، أو تأخذ كل مجرم بجريمته ، وكم فى الدنيا من آلاف الطلقاء أو ملايينهم وكان الأولى بهم غيابات السجون ، وكم فيها من آلاف المأخوذين بجرم غيرهم ، وكان الأجدر بهم أن ينالوا حظهم من الحرية والتكريم . . .

ولذلك ترى الصوفية يرتعدون كلما ذكر اليوم الآخر ، ويرتعشون كلما مر عليهم ذكر الحساب والعقاب ، ويتعلقون بأسباب الأمل والرجاء حينما تدار عليهم كؤوس الحديث عن جنان النعيم . وتتقطع أفئدتهم خشية حينما

بمر حديث الجحيم . . . ولم لا وهم يسمعون الجبار يقول فى تنزيله المجيد : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا ، نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ؛ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ، يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تخففوا ولو قليلا من أثقال دنياكم ، وولوا وجوهكم شطر ربكم ولو من حين لحين ، فإن الاتجاه إليه يورث الاعتبار والذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وما أجدرنا ونحن عبيد لشهواتنا ولذاتنا أن نتطلب الدواء الشافى والعلاج الواقى والطهور النقى من لدن الله رب العالمين ، فهو الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم بإذنه إلى صراط العزيز الحميد ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

التصوف طهارة شاملة

الحمد لله عز وجل ، هو القديم بلا بداية ، الباقى بلا نهاية : « كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ضمن لجميع خلقه عدله ، وأوسع للصالحين منهم فضله « وما كان عطاء ربك محظورا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لربه فأنس به ، وتطهر له فقرب منه ، فكان سيد العالمين الواصلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

للامام السيد أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، كلمات بليغة حكيمة ، تصلح لتدبر أولى النهى ، وتذكر بالطاعة والتقى ، وهذه الكلمات قد استلهمها من اتباعه كتاب ربه الذى يعلو ولا يعلى عليه ، واهتدائه بسنة نبيه الذى أوتى جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارا ، ومن هذه الكلمات قوله : « الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته » . والأنس بالله تعالى — كما يقول الصوفية — هو الاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والاستعانة به ، وهو كما قال بعضهم : « أن تستوحش من الخلق ، إلا من أهل ولاية الله ، فإن الأنس بأهل ولاية الله من الأنس بالله » وهذا الأنس بالله — عن طريق الذكر له والثقة فيه — هو الذى يورث الإنسان الطمأنينة والسكينة ، ومن هنا قال الحق جلا جلاله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وهذه الطمأنينة هى رائد المؤمن إلى النجاة والرضوان فى دنياه وأخراه : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . وإذا كان الإمام الرفاعى قد قال : « الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته » فهو

فى هذا لم يبعد عن رحاب القرآن ، بل لعله قد استمد هذا من قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقوله : « والله يحب المتطهرين » .

والطهارة إذا عمت شملت واتسعت ، وهى ذات ألوان وأنواع ، وكل لون منها قد أعطاه الإسلام حقه من العناية والرعاية ، وجعله معواناً على تربية النفس الزاكية الصافية التى تصلح لتلقى نفحات ربها ، والصدق فى حبها ، والإخلاص فى عبادتها وقربها ، فهناك طهارة البدن التى عنى بها الإسلام ودعا إليها ، وشرع من أجلها إزالة النجاسة والخبث عن كل الأعضاء والأطراف ، وشرع الاستنجاء عند كل تبول وتبرز ، وشرع الوضوء عند الصلاة وقرر الأثر الإسلامى أن الوضوء على الوضوء نور على نور ، وشرع الاغتسال — وهو الاستحمام — عند مناسبات تتكرر كثيراً فى أوقات متقاربة ، وبذلك يضمن الإنسان نظافة جسمه دائماً ، فتعاون تلك النظافة على تجدد نشاطه وتفتح ذهنه ، وسلامة صحته ؛ والعقل السليم فى الجسم السليم ، والصوفية البصراء يجعلون من أحب الأشياء إليهم النظافة ، وتجديد الوضوء ، والمداومة على السواك ، والنزول عند المياه الطاهرة الجارية ، والاغتسال كل يوم جمعة والتطيب بالرائحة الجميلة تكملة للنظافة وتزييناً للطهارة ، ولبعضهم كلمة بليغة عميقة المدلول ، وهى قوله : « أطيب الطيب الماء الجارى » أى أن الماء النظيف الطاهر يستطيع أن ينقى الجسم ويصفيه من الروائح المنتنة والإفرازات المؤذية ، واستخدامه خير من وضع العطر على جسم قذر وسخ ، كما يفعل ذلك بعض النساء القذرات أو الرجال القذرين حين يحاولون ستر أوساخهم وعرقهم بوضع العطر على جسم وسخ .

وهناك طهارة الثياب التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله : « وثيابك فطهر » . ولا يلزم لطهارة الثياب أن تكون جديدة أو فاخرة أو غالية أو زاهية ، ولكن المهم أن تكون نظيفة طاهرة . وإذا كانت الصلاة تحتاج

إلى طهارة البدن والثياب ، فإنها كذلك تحتاج إلى طهارة المكان ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهورا » فلعله يرمز بذلك إلى أن الأرض يجب أن تظل طاهرة ، لكى تصلح أن تكون مسجداً ، وأن يظل ترابها نقياً ، ليكون على الدوام طهوراً ، يصلح للصلاة فوقه ، بل يصلح للتيمم إذا اضطر الإنسان إلى ذلك . وهناك طهارة المأكل والمشرب التى لابد منها لكى يتنزه جسم الإنسان عن السحت والخبث ، ولكى يصلح للأنس بحمى ربه سبحانه ، ولقد أكد القرآن الدعوة إلى ذلك حين قال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » وحين قال : « كلوا من طيبات مارزقناكم » وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » . وقديماً كان نساء المؤمنين يقلن لأزواجهن وهم خارجون إلى أعمالهم : يا رجالنا ، إنا نصبر على الجوع ، ولكننا لا نصبر على النار ، فإياكم وكسب الحرام .

وتنتقل الطهارة من الماديات إلى المعنويات ، فنجد الطهارة فى العقيدة التى يطالبنا بها الإسلام ، فلا وثنية ولا إشراك ، ولا واسطة بين العبد وربه ، فالله هو الذى يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، ألا له الخلق والأمر ، وهو الذى يسمع الدعاء ويستجيب له : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون » والله تعالى يقول : « ألا لله الدين الخالص » ويقول : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » . وطهارة العقيدة تستلزم طهارة العقل ، لأن الاعتقاد يقين ناشئ عن إيمان مبنى على نظر وتدبر يؤديان إلى دليل وبرهان ، فلا بد أن يطهر الإنسان عقله من الجهل وعماية الفكر وضلال الإدراك ، وأن ينقيه من الخرافات والأباطيل والأوهام ، وما أكثر قرع القرآن الكريم للأسماع بمثل قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب » « أفلا تعقلون » ، « قل هل يستوى

الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، ولابد من تزكية طهارة العقيدة وطهارة العقل بطهارة النفس ، حتى تصفو وتعلو للقرب من حمى الله تعالى ، وتطهيرها إنما يكون بصيانتها من الشهوات الخسيسة والأهواء المنحطة ، ودعمها بالفضيلة وتحصينها ضد الرذيلة ، والقرآن الكريم يقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وأخيراً هناك طهارة القلب من عواطف السوء ومشاعر الحقد ونزعات الشر والانحراف ، وما أروع الحث على تطهير القلب ، وجعله سليما قويماً ، فى قول الله عز وجل : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » والرسول يقول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ويقول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا ما طهر الإنسان جسمه وثيابه ، ومأكله وشرابه ، وعقيدته وعقله ، ونفسه وقلبه ، فقد صفا وعلا ، وسعد بقربه من المولى ، وتحقق له قول الإمام الرفاعى : « الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته » ، وما أجدر المؤمن بأن يكون طهوراً فى هذه الحياة ، ليسعد بالقرب من الله ، والله ولى الصالحين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

خواطر عن المعرض

لك الحمد يامحقاً للهدى وماحقاً للضلال ، وداعياً إلى الشرعة المثلى ومحذراً من الخبال ، والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، كتبت على نفسك الرحمة ، واستوجبت منك لعبادك النعمة وربطت بالتقى والرشاد صلاح الأمة وعلو الكلمة ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، الناصح الأمين ، والمذكر المبين ، وحجة الله على العالمين ، الذى اعتز بعصبته القليلة فدحر بها جموع الظالمين ، وثبت بجهادها لواء الحق إلى يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله البررة الأطهار ، وصحابته المصطفين الأخيار وأتباعه القانتين بالليل والنهار ، أولئك لهم عند ربهم أفضل المقام والقرار « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أنا حاضر إليكم من المعرض الزراعى الصناعى السادس عشر ، المقام الآن بأرض الجزيزة فى القاهرة ، والذى أدعوكم إلى مشاهدته لتثور فى نفوسكم عواطف الإعجاب بعبقرية المصرى القدير فى زراعته وصناعته ، ولتروا نماذج مدهشة تنبىء عن الكفايات والمواهب المدفونة المطمورة التى لو أحسن استغلالهاوأحكم توجيهها على الدوام لجعلت منمصر أسعد بقعة وأعز دولة فى العالم . والفوائد الكثيرة الجليلة المترتبة على إقامة مثل ذلك المعرض مما لا تحتاج إلى نص أو بيان ، ولذلك سأمر بها لا أتلبث أمامها لأضع أما مكم جانباً من ملاحظات خطرت لى وأنا أجوس خلال المعرض ، وأتطلع إلى محتوياته بعين المصرى المسلم الغيور على دينه ووطنه فى آن واحد ، فقط لاحظت

مثلا أن المعرض الذى أقيم ليكون برهاناً ساطعاً على نبوغ المصرى ، وتقدم الزراعة فى الوطن ، وتحرر الصناعة من سلطان الدخلاء ، قد اتسع مع شديد الأسف لكثير من الشركات الأجنبية التى تستغل أموالنا وتربتنا وأفرادنا متسترة تحت أسماء مصرية متخذة لتغطية صبغتها الأجنبية الخبيثة ضروباً من الخدع والأباطيل ، وهؤلاء مثلا الإجريج واليونانيون والأروام يسيطرون على أغلب المقاهى والنوادى والمقاصف هناك ، فيغلبون الثعالب الماكرة فى استلاب النقود ، لعلم هؤلاء بطبيعة المصرى الميالة إلى اللهو واللعب ، المستخفة بعزيز الأموال فى سبيل الشهوات ! . . ولقد كدت أصعق حينما قرأت فى إحصاء رسمى موجود بالمعرض أن مصر التى حدثونا عنها بأنها استقلت وتحررت ووقفت على ساقيها بجوار الأمم القوية بها ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة شركة أجنبية تكاد تستحوذ على منابع الثروة والإنتاج فى هذه البلاد ! .

كذلك ترى القائمين على أمر المعرض من المنظمين والعارضين يجارون طريقة العصر الحاضر فى التحرر الفاجر ، دون أن يرعوا لأخلاق البلاد أو عقائدها حرمة ، فهم مثلا يعرضون نماذج الثياب وغيرها على تماثيل مجسمة للنساء تظهر فيها الأثداء والبطون والأرداف وغيرها من الأطراف ، مما يضع أمام الناس مناظر تعوزها الحشمة والكرامة ، وهم يستغلون الفتيات الفاتنات المائلات فى عرض الأشياء والتحدث عنها أمام الزائرين على اختلاف أجناسهم وأحوالهم وكثيراً ما ترى هناك شباناً أغراراً يقفون طويلا أمام أشياء تافهة لا تستحق عناية أو درساً ، ولكن أمامها من تغرى وتجذب ، وينصرفون سراعاً عن أشياء خطيرة ذات بال لأن عارضيها من الرجال . ولعل فى تلك الإشارة ما يغنى عن تفصيل المقال . ولقد آلمنى كما آلم كل مسلم غيور بلا شك

أن تعرض هناك بعض الصور لنساء عاريات تمام العرى ليتطلع إليها الرجال والنساء والشبان والفتيات . . . ومما يدخل فى هذا الباب أنك ترى أغلب الآنسات والسيدات قد جئن لزيارة المعرض فى ثياب فاضحة كاشفة لما حقه أن يستر ويصان ، حتى ليحار المرء ويتساءل : أجاء أولئك النسوة ليزرن المعرض كما يدعين ، أم جئن ليعرضن مفاتن أجسامهن الخبيثة مما يشغل الناظر والخاطر على السواء ؟ ! . .

وقد أمطرنا أصحاب المصانع والمعامل والشركات والمحلات بفيض هاطل من النشرات والإعلانات وكراسات الدعاية ، مما فرحنا به فى بادئ الأمر ، ثم ضقنا به ذرعاً بعد ذلك لكثرته وتفاهته وقلة الذوق فى أكثره ، فهذه مثلا إعلانات عن أشياء معروفة ، وقد صيغت فى عبارات تجارية استغلالية وقد كان من الممكن أن تطعم هذه الإعلانات بمعلومات اقتصادية أو فنية أو قطع أدبية تشعر القارىء لها أنه إن لم يستفد إعلاناً ، فقد استفاد علماً وأدباً وأخلاقاً . . . وبعض هذه النشرات كان مكتوباً بلغات أجنبية ، وفى ذلك احتقار وامتهان للغة البلاد القومية الرسمية ، فإن قيل إن أمثال هذه النشرات خصصت لزوار المعرض من الأجانب قلنا : كان الواجب إذن أن يقتصر توزيعها على هؤلاء ! .

وقد حدثتنى نفسى وأنا خارج من المعرض فى نهاية الزيارة وفى يدى مجموعة ضخمة ثقيلة من هذه النشرات فقلت : ترى هل يجد العلماء والأدباء والمؤلفون أمثال هذه المئات من أطنان الورق ليطبعوا عليها كتبهم وآراءهم وأفكارهم عن الإصلاح كما لقيت هذه المتاجر ، أم أن قلة الوارد من الورق ، وقيود الأرصدة الاسترلينية ، وغير ذلك من المعاذير سينهض علامة نفى فى الجواب ؟ ! .

وبهذه المناسبة أقول لقد زرت المكان المخصص لنقابة الصحفيين ، ورأيت عشرات من الصحف والمجلات ، ولكن السؤال الذى كان يطن فى أذنى طنين الزنابير ، ولا يزال يطن إلى الآن هو : أفأدت الصحف والمجلات حقا رسالتها فى الدفاع عن الحق ، والوقوف فى وجه الباطل ، والجهاد فى سبيل الحريات ، أم أنها هى الأخرى قد جرفها التيار فأصيبت بالبوار والخسار ! ! . . .

وإذا كانت ساحات المعرض الرحيبة قد ضاقت عن كثير من الأشياء المفيدة الهامة التى كنا نود أن نفاخر بها فى ميادين الدين الأخلاق والعلوم فقد اتسعت لكثير من الجمعيات النسائية التى تعددت وتشعبت وتعقدت فى هذه الأيام ، وما بنا والله من حقد على المرأة أو استخفاف بها أو نكران لقيمتها ، وإنا لأول الداعين لها بأن يؤيد الله البلاد والعباد بنهضتها الإسلامية الأساس ، المحمدية البناء ، الشرقية التقاليد ؛ ولكنا لاحظنا فى المعرض أن هم المرأة كان مغموراً فى إتقان مظاهر الأناقة ومناظر السفور ، وعوامل التمرد على الحجاب والاستقرار ؛ وهذه مثلا إحدى الجمعيات هناك توزع منشوراً تطالب فيه بمنع تعدد الزوجات ومحاربة الطلاق وإلغاء قضايا الطاعة ، وتستغل الاستشهاد بالقرآن والحديث استشهاداً بعيداً عن الاستقامة والصواب ! . . ولقد تقدمت إلى امرأة فى جرأة وأعطتنى استفتاء مطبوعاً تساءلنى فيه هل أوافق على إعطاء المرأة حق الانتخاب ، واشتغالها بالأمور السياسية ، وتعيينها فى الوظائف العامة ، فكتبت ردى كما طلبت ، وكان بطبيعة الحال نفياً ومعارضة ، وأخذت المرأة ما كتبت ، وابتسمت حين رأته ابتسامة صفراء ساخرة ، ولجأت إلى أخت لها قريبة منها ، وجعلت تهامس معها على واصفة إياى فيما يظهر بالرجعية والتأخر والجمود ، ناسية أن اليوم الذى تتحكم فيه النساء فى مصائر الدولة هو اليوم الذى تنقلب فيه الرجال إلى حمير أو نعاج ! ! .

ومن الأشياء التى لا أنساها فى المعرض قسم السجون . . لقد تأنيت وتمهلت ودققت فى زيارته ودراسته ، لأحيط علماً بدنيا أو لئك الذين شاءت لهم الأقدار أن تدفعهم ظلمات الجهالة والضلالة إلى غياهب السجون... ما هذا أيها الناس ! هذه هى البراعة تتجسم فى أعمال المسجونين المعروضة وهذه هى العبقرية الدفينة تبدو واضحة جلية فيما عرضوه من ألوان الرسم والنحت والنقش والزخرفة والنسيج وغير ذلك ، وهؤلاء مساجين على سبيل المثال قد حرموا من سعادة العيش الهنيء الرأفة وسط المجتمع ، فأبوا إلا أن يهيئوا هذه السعادة لغيرهم من البشر ، فتعاون جماعة منهم على إنشاء حجرة فاخرة للنوم تشبه ما تحتويه قصور السلاطين ، وأسأل الموظف المختص عن ثمن الغرفة فيقول إنه خمسمائة من الجنيهات ، فأهتف : تعالى الله الذى سخر العباد فيما أراد . فكيف تكون الحال إذن لوزالت من سجوننا عيوبها الكثيرة الفاضحة ، حتى تصير حقاً مدرسة تأديب وتهذيب وإصلاح ؟ .

وأين الإسلام فى المعرض ياهؤلاء . إن هذا سؤال لن تعثر له على جواب وكأنما تسخر مصر من نفسها وتستخف بعقول غيرها حين تدعى أنها زعيمة الإسلام وقائدة المسلمين ، ففى المعرض تجد كل شيء ، ما يخطر على بالك ومالا يخطر ، وتجد اهتماماً بكل شيء . بالجليل والتافه ، بالعظيم والحقير ، بالقريب والبعيد ، بالنافع والضار . ولكنك لن تجد اهتماماً لائقاً بالناحية الإسلامية ، ولا يقتصر أمر أولئك المفرطين على عدم الاهتمام بالإسلام بل يتعداه إلى محاربته ونصرة أعدائه فالمظاهر كلها غير إسلامية ، وهناك شركة التأمين التى تدخل فى صميم القمار بلا نزاع ، وهناك المسجد الضئيل المهمل المنعزل الذى أريد به ذر الرماد فى العيون واتخاذه تكأة وتعلة لأنهم فعلوا شيئاً من أجل الإسلام ، مع أنه لا يتلاءم مع ضخامة ما هناك من استعداد وأعداد ، وهو أشبه شيء بالضريح العتيق الذى انقطعت زواره ونذوره

وهناك مدينة الشيطان ، أو مدينة الملاهى ؟ . وما أدراك ما مدينة الملاهى ؟ .
إنها مدينة الفجور والشرور ، والقمار والعقار ، والاحتيال والضلال ، وكل
ما وصلت إليه حيل الإنسان الماكرة الفاجرة لاستلاب الأموال وتحطيم
الأخلاق وكشف العورات وإضاعة الأعراض ؛ ولعله من المؤلم المخجل أن
أن المسيحيين فى قسم فلسطين بالمعرض اهتموا بالإسلام ومظاهره أكثر
من كثير من المسلمين ، فهناك فى هذا القسم نماذج فنية رائعة للمسجد الأقصى
وهو القبلة الأولى للمسلمين ، وهناك مصاحف قرآنية مجلدة بالصدف
ومحلاة بأروع النقوش ، وكأنما يريد هؤلاء أن يتظاهروا بالتسامح الدينى ،
وأن يرشقوا فى صدور المضيعون من المسلمين سهاماً تشعرهم بما هم فيه من
تفريط . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

اذهبوا إلى المعرض وادرسوا ما هناك ، ولكنى أسائلكم وأرجوكم أن
أن تستحضروا معكم روحكم الإسلامية وأنتم تسيرون ، حتى تستطيعوا أن
تحكموا على مجموع ما ترون حكماً صادقاً يرضى الله والوطن ، ولتؤمنوا بأنه
لا تزال أمامنا مراحل ومراحل يجب أن نقطعها فى صبر وإخلاص ، حتى
تكون أمتنا حقاً أمة الإسلام ، ووارثة النبى عليه الصلاة والسلام .، واتقوا الله
الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أثر الشمس فى الكون

أحمدك يا بارىء النسم ، ومبدع الكون من العدم ، وواهب الأمم جزيل النعم : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملات الكون على الإنسان نعمة وخيراً ، وأوسعته بفضلك تكرمة وبراً ، وأنت الرءوف الرحيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وهبته النفس الكبيرة والعين البصيرة فكان لك ذكوراً شكوراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله النجوم النيرة ، وأصحابه العصبة الطاهرة ، وأتباعه الكتيبة الظاهرة ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .

يقولون : إن كل ممنوع مطلوب ، وكل مألوف غير مرغوب ، وإن النعمة الجميلة العظيمة إذا باتت فى يد الكل فقدت روعتها ، وأصبحت من شيوعها وذيوعها معروفة مألوفة ، لا يلتفت الناس إليها ولا يحتفلون بها ؛ وهذا جد صحيح ، فما أكثر نسيان الإنسان ؛ وإنك لتجد مصداق ذلك فى موقف الناس من مظاهر الطبيعة الرائعة الشائعة ؛ كلون السماء الأزرق مثلا الذى هيأه الخلاق وأبدعه بصورة لا تمل العين من إدامة النظر إليه : وهناك أيضاً الأسرار والعجائب المستورة والمتبدية فى الماء والهواء والخضرة والضوء ؛ قل من يعكف عليها دارساً مستنبطاً ، أو معتبراً متدبراً ؛ ومن هنا ضعفت روح اليقين والإيمان ؛ واستأسدت نوازع الغفلة والكفران ؛ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ؟ ! .

ومن أمثلة ما ضاع تأثيره فى عامة الناس لأنه شاع ، مع أنه من جليل الآيات ونفيس المتاع ، تلك الشمس الكبرى التى نراها فى الصباح والمساء ؛

وفى ساعات النهار المتباعدة والمتتابعة ؛ فقد جنت رؤيتنا المتكررة لها على جلالها وسلطانها ، فأصبحت كالكنز الثمين ألقى فى طريق الناس ؛ ولكنهم يمرون عليه وهم عنه غافلون . . .

هذه الشمس السامقة العالية هى مصباح الله فى كونه العريض المديد ؛ جعلها الله سراجاً لعباده . تبدو فوقهم من مستقرها الرفيع بضخامتها التى لا يتصورها عقل الإنسان ؛ فتنير المسالك وتبدد الغياهب ؛ وتجلو ضحوة النهار ، وتفيض على القمر المعتم بالأشعة والأنوار ، فيهدى بفضلها الحائرين ويسدد بمددها خطوات السائرين ، وتتبدى بذلك فى السماء والأرض صورة لا تماثل لجلال البديع الخلاق ، مما يفضى بمتأمله إلى الاستقامة والسداد : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . . . ولو ذهبنا نفصل الحديث عن حجم الشمس وعلوها ، وبعد المسافة الهائل بيننا وبينها ، وكيف تنبعث الأشعة عنها ، وكيف تشمل هذه الأشعة الوسيع من البقاع والأصقاع ، لا نبهرت العقول وتضاءلت الفحول ! .

والشمس هى مصدر الحرارة الإلهية ، تبزغ من خدرها على العالم الراكد الآسن الرطب البارد ، فتحركه وتثيره وتجففه ، وتنأى به عن الوصب والعطب ولست أدرى ماذا يكون حال الناس عند الشتاء والصقيع وبرودة الجو ، لو انعدمت الشمس فلم تطلع عليهم من حين لحين ، لتمدهم بجانب من الدفء والحرارة ، تتهيأ به الأحياء لمواصلة السير فى مختلف الأنحاء ؟ . . . وليس هذا فحسب ، بل إن الجو الرطب العفن الملوث تتفشى فيه الجراثيم والديدان والحشرات والميكروبات ، وإن استتر ذلك عن العيون والأبصار ، فإذا

ما مدت الشمس خيوطها البيضاء كانت كأنها أنامل الطبيب الحازمة ، تطهر لتعمر ، وتبتر لتثمر ، وتقضى على الداء وحملته بلا إبطاء ! . . .

والكثيرون منا يتأففون ويتضجرون ويشكون من حرارة الشمس إذا قست ، مع أنهم يستطيعون التحفظ منها فى أغلب الأحيان بغطاء أو وقاء ، ثم يحسبون هذه القسوة فى الحرارة شراً ، وما ذلك إلا لأنهم يحكمون نفعهم الذاتى ومصلحتهم الشخصية فى أمر عام ، فهذه الحرارة القاسية نفسها هى التى تطهر الأجواء من الفساد ، وهى التى تنضج النبات الخارج من الجماد ، وهى التى تجذب إلى الجو ما تستخلصه عذباً من مياه البحار والمحيطات ليكون مطراً بعد ذلك ؛ ثم يبقى ما ينفع الناس فى الأرض مما فصلته عن تلك المياه ، وهى التى تؤثر فى نسيم البر والبحر المترتب عليه كثير من المصالح والأمور . . والشمس فى الوقت نفسه تؤدب بحرارتها من يصطلى بها ، فتعلمه ضعفه وتقفه على عجزه ، وترمز له إلى هول ما سيلقاه من حر السعير إن كان من الضالين ، وفى كل هذه آيات وعبر ونعم بعضها منشور وأغلبها مستور ، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا ومثله حين يقول : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .

والشمس بجريانها ودورانها هى التى تكون بأمر الله تتابع الليل والنهار ، وتوالى الظلمة والأبصار ، فزبى تطلع هنا فيكون صباح وإشراق وضاح ، بينما ترحل عن هناك فإذا فيه ظلام وإعتام ، وفى كلتا الحالتين إنعام وإكرام ، فالنهار معاش ومجال للكدح والاكتساب ، والليل لباس وسكن ورقاد ، ومن هنا كان إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل آية عظمى يمن الله بها على عباده فيقول : «و الشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ؛

والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعجرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

ودورة الشمس هى العماد فى الحساب وضبط الأوقات ، تلف الأرض حول الشمس ، أوتلف الشمس حول الأرض لفة ظاهرية كاملة ، فيتم بذلك عام من حياة الناس ، وتنتقل من فلك إلى فلك ، فتبدأ الفصول أوتنتهى ، وتشرق فيبدأ النهـــار ، وتغرب فينتهى النهار ويبدأ الليل ، فإذا عادت إلى الإشراق مرة ثانية فقد تم بذلك يوم كامل . . . بل ونحن تحدد بها أعمالا جليلة تتخلل اليوم نفسه كالصلاة مثلا ، فبشروقها ينتهى وقت الصبح ، وبزوالها يدخل وقت الظهر ، وبتصييرها ظل الآشياء مثلها أو مثليها يدخل وقت العصر ، وبغروب قرصها يدخل وقت المغرب ، ويزوال ما يتخلف عنها من شفق يدخل وقت العشاء ، وهكذا . . وحينئذ فما أبلغ القرآن حين يقول : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

ولو شئنا لأطلنا الحديث أيضاً عن أشعة الشمس وخصائصها فى تنمية الأجسام وتقويتها ، وشفائها لكثير من العلل والأمراض ، وبنائها للأجسام الفتية المنسقة ثم إيحائها من جهة أخرى بالحرص على العلو فهى فى منتهى السمو والارتفاع ، وبتحريضها على الصفاء فإننا لا نرى فيها كلفاً ولا دخناً ، بل هى المثل فى الوضاءة والنقاء ، وكيف لا تكون منيرة العالم كله مثلا فى النور والبهاء ! ؟ .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

تلك بعض آيات الله فى الشمس التى تحجب عن دنيانا يوماً من الأيام ،

والتى نحس بها على الدوام ، ومن هنا تعرفون ما لها من جلال وجمال وخطورة شأن ، ولسنا ندعوكم بهذا إلى عبادتها أو تقديسها ، فقد قال القرآن : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . . وإنما ندعوكم إلى أن تخصصوا من أعماركم لحظات أو فترات تولون فيها وجوهكم شطر الطبيعة محراب الله الواسع ، لتدركوا آثارها الباقية ومظاهرها الخالدة ، فمن وراء ذلك علم واكتشاف ، واكتساب وارتشاف ، ومن وراء ذلك إيمان ويقين ، ونور مبين ، فسيروا وانظروا ، وفكروا واعتبروا ، إنما يتذكر أولو الألباب ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم » .

آيات الله فى الرياح

لله الحمد ، يخلط الرغبة بالرهبة ويعظ بالنعمة والنقمة « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ويؤدب بالثواب والعقاب « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » نشهد أن لا إله إلا أنت ، لك فى كل شىء حكمة ، ومنك فى كل مظهر نعمة ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، تفتحت روحه الشريفة لمباهج الكون ومشاهد الحياة ، ففاضت عليه ينابيع العلم ومناهل الحكمة . فكان إمام العلماء وسيد الفقهاء فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله مصابيح الرشاد وأصحابه الهادين إلى السداد ، وأتباعه زينة العباد ، ومن يكن الرحمن قائده فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كنا جماعة من الأصدقاء نسعى فى بعض الأمكنة وفجأة هبت علينا عاصفة من الهواء شديدة ، ولم تلبث سوى دقائق قليلة عاد بعدها الجو إلى الهدوء والاستقرار ولكن أحد الرفقة انطلق لسانه بكلمة نابية يسب بها الريح فى استخفاف واستهتار ، فنهيته عن ذلك ، فتعجب منى قائلا : وهل هذا أيضاً يمنعه الشرع الشريف ؟ فأجبته نعم ياصاحبى ، لأن الدين الذى جاء ليكون عاما خالداً باقياً صالحاً لكل زمان ومكان ، قد عنى بكل كبيرة وصغيرة ، وجل القائل : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول فيما نحن فيه من موضوع « لاتسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر مافيها وشر ما أمرت به » فتساءل صاحبنا : وما هو السر فى النهى عن سب الريح مع أنها تقسو أحياناً حتى تكون كالنقمة

المتبدية المستعلنة التى لا تلين ؟ . فأجبته : لعل السر يا صاحبى هو أن الإسلام يريد أولا ألا يعود المسلم لسانه على الفاحش البذىء من الكلام ، وألا يتظاهر بالضجر والغضب من مظاهر الطبيعة التى تسايره وتحيط به : ويريد ثانياً أن يتذكر المرء أن الريح آية من آيات الله ، وعلامة من علامات قوته وعلاه ، وسمة من سمات جلاله واقتداره ، وحينئذ لا يليق بالعبد الذى يدين لخالقه بالخضوع والخشوع أن يصف شيئاً فاض عن يديه بما يشين أو ينوء ، ولذلك قال الرسول عليه الصلوات والبركات « الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، وسلوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

والريح يا صاحبى لو تدبرت أمرها رأيت من أسرارها وعلمت من أخبارها عجباً ، وعرفت عن طريقها أن للكون خالقاً سبحانه ، فالريح أكثر ما تكون تهب لينة رخاء ، فتتوقف عليها الحياة والتنفس فى جسم الإنسان الحى ، وتبعث النشاط والحركة ، وتجدد العزيمة بعد الفتور وتزيل عن المرء ما كان يحس به خلال الحر أو الركود أو الجو الفاسد المكتوم من ضيق ورهق ، وحسبك أن تتصور نفسك فى ظهيرة يوم قائظ شديد الحر راكد الهواء ، فلا نسمة ولا نأمة ، وكأن الكون قد أنصت ليتسمع حديثاً خفياً ، وأنت تكد وتكدح ، وعرقك يتصبب تباعاً ، وتتلمس هبة من هواء أو لمسة من نسيم فلا تفوز بما تريد ، وبعد لأى يقبل عليك مارجوت ،

فيصافح وجهك النسيم الجميل والهواء البليل ، فإذا أنت تقوى بعد ضعف وتنبسط بعد ضيق ، وتسعد بعد عسف ، ولا عجب فى ذلك ولا غرابة فإنه النسيم الذى يصافح الصعلوك فيسعده ويبهجه ، حتى يجعله ملكاً فى زى مسكين ، وسلطاناً وإن لم يكن من السلاطين . ولقد قيل لأعرابى كيف تصنع فى البادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شىء ظله (والتهبت الرمال وتسعرت الشمس)؟!

فأجاب الأعرابى : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقاً كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساءه ، وتقبل الريح من كل جانب ، فكأنه فى إيوان كسرى ! ! . نعم صدقت فيما قلت أيها الأعرابى ، فتلك لذة يعرفها أهلوها ومجربوها ، ولقد تنعم أنت بهذا الهواء حينئذ أكثر مما يتنعم به صاحب الإيوان أو سيد التاج والصولجان ! ! .

والريح هى التى تسوق السفن وتحرك الفلك فتذهب من مكان إلى مكان ، وتحمل المتاع والإنسان ، وتهيىء للبشر من وسائل الانتفاع والانتقال ما يطول عنه الحديث ، وقد امتن الحق سبحانه وتعالى على عباده بتلك النعمة ، وأبان لهم ما فيها من إكرام وإعظام ، وحذرهم سلبها وما يعقبه من تخسير وانتقام ، فقال عز من قائل « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ومن نعم الرياح أيضاً على الإنسان أنها وسيلة للتلقيح فى النبات ، ومن وراء ذلك الإخصاب والإثمار والحصاد والله يذكرنا بفضله فى ذلك بإشارة بليغة وجيزة معجزة فيقول « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ، وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون » . ومن نعم الريح أيضاً أن الله جعلها مظهراً من مظاهر الملك والسلطان : وارتفاع المكانة وعزة الشأن . فها هو ذا سبحانه يهبها لسليمان عليه السلام تجرى بأمره

رخاء حيث أصاب ، وجعل غدوها شهراً ورواحها شهراً ، فقال « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين »
ومن نعم الله فى الرياح أيضاً أنها تبشر بالرحمة وهو المطر ، فيكون منه الغيث وبه يسقى الزرع ، فيخرج الثمر وتتجمع الخيرات وقد حدثنا القرآن الكريم عن إرسال الرياح بشرا بين يدى رحمة الله ، وعن إثارتها للسحاب وبسطه فى السماء حتى يتيسر نزول الماء فقال : « « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » وقال فى آيات أخرى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شىء قدير » .

وحتى حين تشتد الريح فتصير زعزعاً أو نكباء أو إعصاراً أو هزيماً مرعباً أو زوبعة مضجرة لا تخلو من عظة وعبرة فلا تتجرد أيضاً عن معنى الفضل والنعمة فيها ، لأنها إذا كانت فى إعصارها حارة ملتهبة لافحة فإنها تذكر المرء من طرف خفى بلفح جهنم الذى تكلح منه الوجوه ، ومس النار التى تتقطع منها الجلود ، وإن كانت باردة فى هبوبها العاصف ذكرتنا بزمهرير الجحيم وصقيع الهاوية ، وجل من عذب بالسعير والزمهرير فى جهنم وبئس المصير .

ولاريب فى أن هذا التذكير يوحى إلى نفس المرء بالعظة والاعتبار فيردعها عن هواها ، ويدفعها إلى حسن الادخار لمأواها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم . . والله قد جعل الريح الشديدة آية من آيات تحذيره وإنذاره ، وعلامة من علامات تأديبه وتهذيبه فهو يبعثها

فى وقت الضيق حتى ليخيل للمرء أنه لا نجاة ولا فرار ، ثم يرفعها عنه وينجيه ليذكره بأنه العلى القدير وأنه هو البر الرءوف الرحيم ، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف أبدع تصوير ، فقال فى سورة يونس « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين ، فلما نجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعلمون » وقال فى صورة الأسراء : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ، ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وكذلك الريح فى شدتها يجعلها الله نصراً لأوليائه وإهلاكاً لأعدائه ، ومن أمثلة ذلك نصره للمسلمين بالريح العاصفة فى غزوة الأحزاب ، إذ أرسل على الكافرين ريحاً نحسة قلبتهم رأساً على عقب فولوا مدبرين مقهورين : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيرا » ومن قبل ذلك أهلك الله عاداً بريح صرصر فى أيام نحسات ، فأرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وفى هذا يقول : « وأما عاد فأهلكوا بريح

صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » ؟

ومن مثل هذا الإيضاح يتبين لك أن الريح لا تخلو من فائدة أو عبرة أو درس . فى حالتى قسوتها ولينها ، والمهم فى الوصول إلى إدراك هذه الأسرار هو أن يتسع أفق المرء فى الدراسة والاستطلاع والاستنتاج حتى يحيط بجوانب ما يدرس من موضوع قبل أن يتهجم بالحكم أو الاندفاع على غير أساس !

يا أتباع محمد عليه السلام . .

المؤمن الحق هو من ينطلق فى رحاب الكون الوسيع دراساً باحثاً منقباً ، ذكى الفؤاد حديد البصر لبيب العقل طهور القلب عف اللسان ، يستخلص من الجماد ماء ومن الدمامة بهاء ، ومن القلة كثرة ومن الشر عبرة ومن الخير ذخيرة ، وبذلك يبنى لنفسه قصر سعادتها بيديه ، ويدنو من رحاب خالقه فيزداد به إيماناً وعلى قوته اعتماداً . . وإن مشاهد الطبيعة التى تحيط بنا من شمس وقمر ، ونور وظلام ، وليل ونهار ، وماء وهواء ونبات وشاهقات ، وغير ذلك من آيات وعلامات ، لهى أحق الأشياء بطول النظر واستدامة الفكر ، ولقد أمرنا شرعاً أن نتفكر فى المخلوقات ، وألا نتبجح بالبحث عن ذات الخالق ، ويوم نحسن التفكير والاعتبار فى الآيات والآثار سنعرف ربنا حق المعرفة بلا جدال ، فنطلق لأنفسنا العنان فى ذلك الميدان ، فعن طريق البحث فى المصنوع تبلغ غاية العلم الممكنة بالصانع « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم ؟

حول بعثاتنا فى الخارج

فى كل يوم تبدو من القائمين بالأمر فينا تصرفات عجيبة غريبة ، تثير الأسف والحزن تارة ، وتشعل الغضب والهياج تارة أخرى ، ولقد كنا نظن أن سوء تصرفهم وفاسد تدبيرهم ، سيقتصر على الإهمال والتفريط فى الشئون الدينية والوطنية والاقتصادية ، فإذا بهم يأبون إلا الشطط أيضاً فى ميدان الثقافة والتعليم ، ولو أردت أن أحصى ما جناه ولاتنا فى عهودهم المختلفة على التربية والتعليم ، لامتد حبل الكلام ؛ ولذلك سأكتفى بالحديث عما ارتكبوه فى مهزلة البعثات العلمية المصرية إلى الخارج .

ماكادت الحرب تضع أوزارها ، وتنتظم أسباب المواصلات السلمية إلى الخارج ، حتى أخذت الحكومة المصرية ترسل إلى أوربا وأمريكا جيشاً كبيراً من شبابنا ورجالنا ليتخصصوا فى كثير من أنواع العلوم والآداب والفنون ، ولم تقتصر هذه البعثات على الآحاد أو العشرات ، بل وصلت إلى المئات ، فبلغت أربعمائة مبعوث ، وهو رقم فريد لم تعرفه مصر فى بعثاتها إلا اليوم ، ونحن المسلمين لا نكره العلم ، ولا نناهض التزود من المعرفة والثقافة ، فديننا هو دين العلم والمعرفة ، وإلهنا هو الذى يقول لنبيه الكريم عليه الصلاة والتسليم : « وقل رب زدنى علماً » ! ورسولنا هو الذى يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وتاريخنا الإسلامى حافل بالشواهد والأدلة على عناية الإسلام والمسلمين بالعلم والعلماء والفن والفنانين ، ولكنا مع هذا نلاحظ على تلك البعثات العلمية الأخيرة أنها انحرفت عن سواء السبيل فى عدة أمور :

نلاحظ أولا أن الحكومة قد أسرفت فى الإكثار من أعضاء هذه البعثات ، حتى ضجت الصحف والمجلات ، مثل مجلتى المصور والفجر الجديد

بالشكوى والاعتراض ، فأكثر الوزارات يوجد فيها المتخصصون الذين يستغنى بهم عن غيرهم ولو إلى حين ، وعندنا فى مصر جامعتان حديثتان تعطيان متخرجيهما أرقى الدرجات والشهادات ، وفيهما من المصريين والأجانب أكفأ الأساتذة والمربين ، الذين إن لم يضارعوا خير العلماء فى جامعات الغرب ، فلن يقلوا عنهم فى كثير ؟

ونلاحظ أن الحكومة عند اختيارها لأولئك المبعوثين لم تعن إلا بالناحية العلمية والنظرية ، أما النواحى العملية والأخلاقية والوطنية فلم تعرها اهتماماً ، ونحن يجب علينا كل الوجوب ، ألا نختار لهذه البعثات إلا الطاهرين الفضلاء ، والوطنيين الأوفياء . إذ كثيراً مايحدث أن ينحرف بعض المبعوثين فى أوربا عن جادة الخلق والفضيلة والوطنية ، ثم يعود فيكون كلا على أمته ، وبلاء لوطنه ، ونحن بجوار احتياجنا إلى العلم نحتاج إلى كثير من فضائل الأخلاق

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا ؟

ونلاحظ أن غالبية المبعوثين سيتخصصون فى المسائل النظرية التى لاتهمنا ولانحتاج إليها فى آونة يجب أن نبذل فيها كل شىء لتدعيم الأسس الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد ؛ فهل تعرفون مثلا أن هناك من سيتخصص فى الرقص التوقيعى مع أن مصر أمة إسلامية تدين بالإسلام وتتزعم المسلمين ؟ وهل تعلمون أن هناك من سيتخصص فى الخطوط ، مع أن مصر فيها مدرسة ملكية لتحسين الخطوط وقد عرف المصريون فى العصر الحاضر بإجادتهم كل الإجادة لجميع أنواع الخطوط ! ؟ .

ونلاحظ أن حكوماتنا لا تحسن الانتفاع بهذه البعثات بعد عودتها ، مع أنها تستنفد الآلاف من خزانة البلاد ، فترى المتخصص يعود وقد قضى فى الخارج سنوات وسنوات ، ونال أعلى درجة علمية فيما تخصص من أجله ،

فيأمل أن تنتفع الدولة بعلمه وخبرته وتخصصه فى الميدان الذى يصلح له ، ولكن الدولة ترمى بهذا المسكين فى وظيفة كتابية أو عمل ثانوى لا يتصل بمادته التى تخصص فيها ، وبذلك تذهب جهوده هباء منثوراً ؛ وإنا لنتساءل كما تساءل غيرنا : هل انتفعت الدولة بمن تخصصوا فى الماضى ؟ وهل شغلوا مناصب ومراكز تتناسب مع مؤهلاتهم وشهاداتهم ؟ . وهل ستحسن الدولة الانتفاع بمن سيعود من أعضاء البعثات الأخيرة يوم يعود ؟ . أم أن الدولة تريد أن تبذر أموال الشعب ذات اليمين وذات الشمال ، وتتظاهر ، فقط بمظهر الدولة الراقية المتمدنة دون أن يكون لها من ذلك فى الواقع نصيب ؟ ! .

ونلاحظ أن ولاة الأمور فينا قد أساءوا إلى مصر ، وإلى شعبها الفقير المحتاج ، إذ عجلوا بإرسال هذه البعثات إلى الخارج الآن ، ونار الغلاء لاتزال مشتعلة ؛ وحسبكم أن تعلموا أن كل مبعوث سيأخذ مبلغاً قدره سبعون جنيها مصرياً فى كل شهر خاصة بنفقاته ، وهذا عدا المصاريف التى ستنفق على الاستعداد والإشراف والمراقبة والاتصال والإعادة إلى غير ذلك .

فكيف استباح القوم فى مصر هذا الإسراف الشنيع الذى يمثل الترف العلمى الأرستقراطى بأجلى معانيه ، وهم ينظرون فيرون الفلاح المصرى فى فقره وبؤسه ، والعامل المصرى فى مرضه وتشرده ، والجمهور المصرى فى جهالته وأميته ؛ وهلا بذلنا أكبر جهودنا وأكثر أموالنا فى تقريب هذا الشعب الجاهل الغافل من نور المعرفة والثقافة ، بدل أن نتخم فريقاً ضئيلا من الشعب بهذا الزاد العلمى الدسم ؟ . وهلا انتظر القوم حيناً من الزمن حتى تعود الأمور إلى مجاريها ، وترجع الحياة السهلة إلى عادتها ، وحينئذ يرسلون من يشاءون؟ !

ولقد طالعت فى الصحف أن مولاناً الملك المعظم عند مارأى أن عدد

أعضاء البعثات العلمية الذين تقرر إيفادهم فى هذا العام إلى الخارج ، بلغ رقماً لم يبلغه فى أية سنة منذ عرفت مصر نظـام البعثـات من عهد جده محمد على باشا إلى الآن ، أراد أن يشمل بعطفه هؤلاء المبعوثين ، وأن يزودهم بالنصائح السامية فدعاهم إلى المثول بين يديه فى احتفال ملكى رائع ، أقيم بعابدين منذ أسابيع . . . قرأت هذا فذهب خيالى متنقلا بين العصور ، وتذكرت ما كان على عهد محمد على الكبير ، باعث النهضة العلمية والوطنية فى هذه الديار ، فرأيت الحال غير الحال ، ورأيت الأمر على النقيض مما هو عليه الآن ، إذ اختار محمد على أكثر الأعضاء للبعثات من شباب الأزهر الشريف ، بعد أن دقق فى اختيارهم تدقيقاً كبيراً ، وسافرت هذه البعوث وعادت فكان منها الخير الكثير ، ثم أخذت أقارن بين الماضى والحاضر ، فإذا بى أشعر بالأسى والألم ، إذ لم أجد بين بعثات اليوم أزهرياً واحداً بعث للتخصص فى علم من العلوم ، مع أن الأزهريين فى أشد الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية ، ليبلغوا بها رسالة الإسلام وإلى دراسة الشبه التى يثيرها أعداء الدين من الملحدين والمستشرقين والمتنصرين والمتهودين وغيرهم ليردوا عليها ، وإلى معرفة أسرار الحياة عند الغربيين ليقارنوا بينها وبين حياة المسلمين ، وإلى غير ذلك من الأشياء التى يجب أن يتسلح بها الأزهرى فى هذا العصر ليكون بحق رجل دعوة وإرشاد ، فلماذا ضنت الحكومة على الأزهر الشريف بما جادت بأضعافه على غيره من الجامعات والهيئات ؟ . . إننا لازلنا مع هذا نطمع ونؤمن بأن مليكنا المفدى الذى يجاهد للاسلام ويرعى الأزهر ويحميه سيولى هذا الموضوع لفتة ملكية سامية تيسر العسير وتقرب البعيد ، وبأن ولاة الأمر فى الأزهر سيهتمون بهذا الموضوع الجليل كل اهتمام ، حتى يكون من وراء ذلك خير كثير للعروبة والإسلام ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

قد يخيل لبعضكم أن أمثال هذه المسائل لا تدخل فى اختصاص الواعظ المسلم ، أو مهمة الخطيب فى المسجد ؛ وهذا الوهم بلا شك ناتج من الفهم الخاطئ القديم الذى فهمناه عن الإسلام ، وهو أنه مجرد عبادة وتسابيح ، ولكن الإسلام فى الواقع دين ودولة ، وقيادة وسيادة ، وتشريع وقانون ، وسياسة واقتصاد واجتماع ، وما أريد بالحديث عن هذه المسائل العامة إلا أن نشارك فى تكوين رأى إسلامى عام ، يكون له دراساته ونظراته ، وآراؤه واقتراحاته ، ويكون له من بعد ذلك قوته وسلطانه ، فهو يحذر ويوجه ، ويقوم ويهذب ، بدل أن نترك الحاكمين يفعلون ما يشاءون ، مع أن الحكومة فى الواقع ما هى إلا خادمة للشعب ، منفذة لرغباته ، مهتدية بهديه ، فتبصروا الأمور من حولكم ، وزنوا كل شىء بميزان دينكم ، وابذلوا كل ما استطعتم لتحملوا ولاتكم على الأخذ بتعاليم كتابكم ونبيكم ولا تفرطوا فى حق من حقوقكم ، واتقوا الله ربكم إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه ، فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزدادوا بها إثماً ، ويزداد الله بها سخطاً عليه .

كلب معروض للبيع

الحمد لله ، خلق الإنسان وهداه النجدين ، إما شاكراً وإما كفورا : « فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تزكى المحسنين فتجعلهم أبراراً ، وتركس المجرمين فتصليهم ناراً : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين» ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، عز يوم اعتز بقوة الكبير المتعال ، وذل غيره حين استجاب للهوى والضلال ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وصحبه الأطهار ، وأتباعه وجنده الأخيار : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لم نر فى هذا الكون عجباً كالإنسان ، إنه يستجيب لدعاء الخير ويهتدى بنور الحق فيصبح ربانياً ، وكأنه أحد الملائكة يمشى مطمئناً بين الناس ، وإنه ليتمرد ويتسفل حتى يصير شيطاناً من الشياطين ، وصدق القرآن المجيد : « قتل الإنسان ما أكفره » ، « إن الإنسان لظلوم كفار » .

ولقد نشر أحد المترفين إعلاناً فى صحيفة كبرى عن كلب عنده يريد أن يبيعه ، ولا شك أن هذا الإعلان قد كلف صاحبه ثمناً ملحوظاً ، فما هو الدافع الذى دفعه إلى ذلك يا ترى ؟ . . أيكون الرجل قد أفاق من غشيته ، وأدرك أن دولة الكلاب تصير اليوم إلى زوال ، وأن دولة الإنسان الفاضل تؤذن بإقبال ، فأراد الرجل المترف أن يتخلص من كلبه قبل أن يأتيه من يحاسبه على اقتنائه ، وافتنانه فى تدليله وتكريمه ؛ أم أن الأمر على النقيض من ذلك كله ، فالرجل يفهم أننا نعيش فى دنيا الكلاب ، وأن الكلاب قد صارت لهم سوق رائجة ومنزلة عالية ، فهم لا يلتقطون من الشوارع

التقاطاً ، ولا يستوهبون من الجيران بدون أثمان ، ولا يسامون الخسف والهوان كبقية المستذل من الحيوان ، بل يحترمون ويوقرون ، فيركبون السيارات ، وينامون على السرر ، ويطعمون أشهى اللحوم ، ويلبسون الدمقس والحرير ، ويتمتعون بأطواق الذهب أو الفضة فى رقابهم ، بينما الملايين من أبناء آدم يلتحفون السماء ويفترشون الغبراء ، ولا يجدون قوتهم إلا بشق الأنفس وهوان الوجوه .

أم أن الرجل على ما به أراد أن يشعر الناس بأن الكلب وهو الحيوان الأعجم النجس الذى لا ينطق أخف ظلا وأقل شراً وأكثر خيراً من بعض بنى الإنسان الذين ضجت من هول مآثمهم أركان الأرض ودعائم السماء ؛ وكأنه أراد أن يشير إلى ما نسب لابن عباس رضى الله عنه قال : كلب أمين خير من إنسان خؤون . وإلى أن الكلب يضرب مثلا فى الوفاء ، بينماانتشرت الخيانة والغدر بين الناس ، حتى ألف بعض الأئمة السابقين كالسيوطى وابن المرزبان كتباً فى تفضيل الكلب على بعض الناس ، وسموها : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ؛ وحق لهم أن يفعلوا ذلك ، فقد كان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول : كان الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً بلا ورق . فكيف لو أدرك أبو ذر زماننا هذا ؟ ماذا كان يقول عليه الرضوان ؟ . . . والأول يقول :

أنت فى معشر لو غبت عنهم بدلــوا كل ما يزينك شينا
فإذا ما رأوك قالوا جميعاً : أنت من أكرم البرايا علينا
لا أرى للأنام وداً صحيحاً عاد كل الوداد زوراً وميناً

فأين هذه الأخلاق الدون فى سفلة البشر من طبيعة الكلب الوفى ، الذى يطرد من بيت صاحبه فيعود ، ويضرب ثم ينسى الإساءة ، ويموت صاحبه

فيصوم عن الطعام هماً وكمدا ، وقد يرقد على قبر صاحبه حتى يدركه الموت وهو على ذلك . صدق ابن عباس : كلب أمين خير من إنسان خئون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أليس عاراً من صميم العار أن تنحط أخلاق البشرية فى عصر التحلل والهمجية ، حتى يقال إن الكلب الذليل خير من الإنسان الوضيع ؟ وأليس عاراً من صميم العار أن تكون للكلاب قيمة وصولة أكثر مما للانسان من حق ومنزلة ؟ . . . ألا دون ذلك وتنقطع رقاب الأحرار ، فإن الميتة فى ظل الكرامة خير من الحياة فى ظل الهوان ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

هذه مدنية الكلاب

لك الحمد يارب العالمين ، وقاهر الجبارين ، ومؤيد كلمة المؤمنين المتقين ، وخاذل جمع الفاسقين المبطلين ، سبحانك سبحانك ، أنت القائل : « ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . نشهد أن لا إله إلا أنت تهب لمن تشاء الهدى والرشاد ، وتكتب على من تضل الشقوة والفساد ، وإلى الله ترجع الأمور ، ونشهد أن سيد المرسلين ، وإمام النبيين محمداً عبدك ورسولك الذى لجأ إليك ، فكنت حصنه الذى لا يرام ، واستعان بك ، فكنت عزه الذى لا يضام ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين أنساهم ذكر ربهم كل عزيز ، وأصحابه الذين تعرضوا فى سبيل الله للمعاطب فحفظهم فى حرز حريز ، وأتباعه الذين طهروا أرواحهم فكانوا من صفائهم كنقى الإبريز أولئك حزب الله ، وحزب الله هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من الغرائز القوية المستبدة بالإنسان حب الفوز والانتصار ، وكثيراً ما يلجأ الإنسان فى إرضاء هذه الغريزة إلى سلوك سبل غير شريفة : فهمه أن يفوز ويصل ، ولو كان ذلك عن طريق الغش والاحتيال ، أو الباطل والضلال ؛ وأشد مظاهر هذه الغريزة خطراً ما كان متصلا بكسب المال ، فالمرء فى سبيل الحصول على المال يرتكب مالا يعد ولا يحصى من الجرائم والسيئات ، ولعل هذا هو السبب فى أن المصاب بآفة المقامرة إذا جلس إلى مائدة الميسر السوداء ، نسى دينه وأهله وخلقه ونفسه ، وغرق فى حمأة القمار القذرة ، فإن ربح حاول الاستزادة والاستكثار ، وإن خسر غضب وثار ، وحاول أن يربح ولو بعد تكرار الخسار ؛ وأصدق شاهد على ذلك

ما روته شركات الأنباء ونشرته كبريات الصحف اليومية منذ قريب ، من أنه حدث فى مدينة « كلكتا » أثناء أحد الأعياد السنوية ، أن بدأ أحد الهندوكيين يقامر بما معه من مال ، وكان حظه سيئاً ، أو على الأصح كان شيطانه معه مريداً ، فخسر الحمار البليد كل ما كان معه من مال فى القمار ؛ فما كان منه إلا أن قدم زوجته ليلعب عليها فخسرها ، وانتزعها منه خصمه ليلهو بها ، ويستخدمها كما يشاء ، وجزعت المرأة المسكينة لمصيرها المهين ، فأخذ زوجها التيس يعدها بأنه سيدخر خلال الأيام المقبلة مالا كثيراً ، وسيعود إلى استردادها عن طريق القمار فى العام القادم ! . .

من حقكم أيها الناس أن تعجبوا أو تغضبوا أو تسخروا من صنيع ذلك الحيوان الضال ، مع أنه غريب عن دياركم ودينكم ولغتكم ولا يضركم ضلاله شيئاً ، ولا ينالكم من جريمته إثم أو عار ، ولكنكم يجب أن تبكوا بدل أن تعجبوا ، وأن تضجوا بدل أن تسخروا ، وأن تثوروا بدل أن (تتندروا) ، حينما تعلمون أن ذلك الداء، وهو داء الميسر والقمار، منتشر بينكم، ذائع بين مواطنيكم ومشاركيكم وإخوانكم فى الوطن واللغة والدين ، لا نقول إن الميسر منتشر فى أنديته ومواخيره فحسب ، ولكنه متغلغل تغلغل السل الخبيث فى البيوت والدور ، والمخادع والقصور ، فهناك فى الأسر والعائلات تنصب أسواق للقمار فى كل ليلة وتتكون صفوف المقامرين والمتسابقين إلى الجحيم من الآباء ، والأمهات والأبناء ، والخالات والعمات والأصدقاء والصديقات ، ولا تقتصر الجريمة على ارتكاب معصية المقامرة فحسب ولكنها تحف بجرائم فأحياناً ترون كئوس الخمر تعطى المائدة السوداء سحرها وفتنتها ، وأحياناً ترون المراهنة ، لا على الأموال ، بل على القبلات أو الضمات أو غير ذلك ، ذلك من دنئ الأمور . . .

وقد هيأت هذه الجلسات الشيطانية والحيل الإبليسية لاختلاط الذئاب

بالشياه ، والثيران بالبقر ، والشبان الفاسقين بعقائل الأسر ، وكم من عميد أسرة تغافل أو غفل ، وتجاهل أو جهل وسمح لأسرته بأن تتسلى فتقامر ، وهو لا يدرى أنها لا تقامر فى الحقيقة على مالها ، ولكنها تقامر على شرفها وأعراضها . . .

ولكن ما بالنا نطيل الحديث ونعيده عن العرض والشرف ، والقوم فى مصر لا يقيمون لذلك الأمر الكبير ميزان ، حتى أصبحوا ينافسون الغربيين فى قلة المبالاة وكثرة الاستهتار ، ويسابقونهم فى المجاهرة بالمنكرات والإعلان عنها فى جرأة وإقدام فهذا مثلا ضابط مسلم يريد أن يهنئ زميلا له بزواجه ، فلا يهدى إليه مصحفاً ، ولا يدعو له دعـــوة صالحة ، ولا ينصحه نصيحة غالية ، ولا ينظم له قصيدة يتمنى فيها أن يكون الزواج بالرفاء والبنين ، بل ينشر إعلاناً فى صحيفة مشهورة يقول فيه إنه « يقبل صديقه ويقبل عروسه معه بمناسبة قرانهما » إى والله هكذا « يقبل زوجة صديقه » علناً جهاراً نهاراً ، وعلى رءوس الأشهاد ، من الخيرين والأشرار فى هذه البلاد ، وهكذا فلتكن التهنئة بين المسلمين اليوم بالزواج ، فهو لم يكتف بإتيان هذه الجريمة أو التحدث عنها سراً ، ولا بين الخاصة من الأهل والأقارب ، بل لابد من النشر والإذاعة فى صحيفة يطبع منها عشرات الألوف وتقرؤها عشرات الألوف من الصغار والكبار . . ولم لا نضع يا أخى أمام الناشئة من الفتيان والفتيات الوسائل المتحضرة للتعبير عن التهنئة والتبريك ؟! . دعهم يا أخى يتمتعوا وليكن بعدهم الطوفان ! . . .

ولا تظنوا أن « التقبيل » هنا مجازى ، بل إن القوم قد اعتادوا ذلك فى أفراحهم وولائمهم ، فلا يكون العرس عرساً عندهم إلا بالقصف والعزف ، والطبل والزمر ، والخمر والنساء ، والرقص والغناء ، والمكيف والمخدر ،

والقبلات والضمات ، والقمار والميسر ، لأنهم يريدون أن يكونوا كأبناء أوربا ، وإلا قيل عنهم إنهم شرقيون محافظون رجعيون متأخرون ! ! . .

ولقد قرأت أن بعض الدول فى أوربا اعتادت عادة فى أعراسها ، وهى أن أصدقاء الزوج يحضرون إلى منزله فى أول ليلة من زواجه ، ويقبلون زوجته على مرأى ومسمع منه ، مباركين مهنئين ، ثم يجردون الزوجة من ثيابها ويغسلون لها جسمها بالنبيذ ، ثم يجلسون وهى بينهم يسكرون ويعربدون ، ويلعبون ويقامرون ، وهكذا فليكن الشرف بين الأصدقاء ، ويخيل إلى أن المفتونين بتقليد أوربا بيننا سيصل بهم التبجح والإجرام يوماً ، إلى أن يتعودوا هذه العادة إن لم يجدوا الصفعة القوية الحازمة التى توقظهم من النوم وترد إليهم الرشاد ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

القمار ، القمار ، القمار ، فى النادى والشارع والمنزل وخدر العروس ، بين الصغار والكبار ، بين الأولاد والبنات ، بين المحارم وغير المحارم القمار فى كل مكان ، والمستور منه أدهى وأنكى من المكشوف المنظور ، والقمار هو الذى يجر إلى الفضائح والجرائم والنكبات ، فإن المرء يقامر فيخسر ، ثم يلعب فيخسر ، حتى تنفد نقوده الخاصة ، فيقامر بمصروفات منزله . ثم بأثمان ثياب أولاده ، ثم بأمانات الناس عنده ، ثم بما يسرقه من مال الدولة ، ثم بثيابه ثم بكل شىء فتدبروا أمركم رحمكم الله ، وافتحوا عيونكم جيداً وراقبوا أسركم وأولادكم بدقة وإمعان ، وامنعوا وسائل القمار المستورة التى يقال عنها إنها وسائل للتسلية وتزجية للفراغ ، فإنها ستنقلب سهاماً مسمومة بعد قليل ، وتذكروا جيداً أن القليل يفضى إلى الجليل ، وأن الصغير يؤدى إلى الخطير فإذا لعب الأبناء اليوم القمار بلا رهان فسيلعبون غداً بقطع الحلوى ،

ثم بالملاليم المعدودة ، ثم بالقروش القليلة ببقية المصروف ، ثم بالجنيهات ثم بالشرف والأعراض ، فكونوا حازمين ولا تظلوا غافلين حتى إذا ما وقعت الواقعة ونزلت الكارثة قلتم لم يكن ذلك لنا فى الحسبان ! . ها هو ذا النذير يقرع أسماعكم ويقول لكم إن اللهو الذى يظن أنه برئ اليوم سينقلب أخطر الأخطار بعد حين أو أحيان ! . .

فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة.

كلاب وآدميون

لك الحمد يا من أرسيت قواعد الدين بكتابك المحكم ، وعلمت الإنسان من آياتك مالم يكن يعلم ، سبحانك سبحانك ، خلقت فقومت ، وحكمت فأحكمت ، وحللت وحرمت ، وأنت رب العرش العظيم ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، وفقت من ذكر وشكر ، وأخزيت من فرط وكفر ، وأنت على كل شيء حسيب ، ونشهد أن سيدنا ومولانا ونورنا وهدانا ، محمداً عبدك ورسولك ، جاهد الغرور والكبرياء ، وحطم أصنام البغى والافتراء وسوى بين خلقك فعاشوا فى ظلال النعمة والصفاء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين آثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأتباعه الذين هدوا إلى الطيب من القول والصالح من العمل ، ففازوا بحسن القبول وتحقيق الأمل : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، فاللبيب من وعظ بغيره ، والذليل من جعله الله عبرة لسواه ، وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون . . لقد قرأت فى صحيفة يومية إعلاناً عن كلب ضائع ، وقد ذكر صاحب الكلب فيه أوصافه واسمه ، وطوقه الفضى المعلق فى رقبته ، ورجا من يعثر على الكلب المدلل « العزيز » أن يرده إليه ، وله على ذلك مكافأة حسنة تقدر بالجنيهات ! فوقفت طويلا أمام ذلك الإعلان ، وتذكرت أشباهاً له قرأتها من قبل ، ثم سبحت فى بحر لجى من الأفكار المثيرة والخواطر السود ، فتارة يتحير الدمع فى عينى أسفاً وحزناً ، وتارة أنفجر ضاحكاً ، كمن أصيب فى تفكيره فهو لا يقر له قرار ! ! .

هذا كلب سعيد محظوظ ، اشتراه صاحبه بثمن كبير من غير شك ،

وعنى به عناية خاصة ، فأطعمه شهى الطعام ، وسقاه هنىء الشراب ، وأنامه على وثير الفراش ، وخصه بالاستحمام فى حمام نظيف ووضع فى عنقه الطوق الفضى الجميل ، وأركبه معه فى السيارة ، وأذاقه ألوان المتع ، فلما ضاع حزن عليه وأعلن عنه فى جريدة تجارية استغلالية تأخذ عن السطور القلائل فيها المال الكثير ، أفلا يتضح لنا من هذا أن بيننا من يقيم للكلب اعتباراً وميزاناً أكثر مما يقيم لأخيه الإنسان ، مع أن الإنسان بشهادة العقول والعيون والأديان أشرف أصلا وأعلى رتبة من سلالة الكلاب ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ! ! .

واخجلتاه من المصريين ، لقد تمتع الكلب بينهم بهذه الميزات كلها ، مع أنه لا يستخدم إلا لغرض خسيس أو لهو بغيض أو إسراف ممقوت فهل تمتع بينهم ببعض هذه الميزات كثير من إخوانهم الفقراء والأشقياء فى مصر المسكينة ؟ . . ولقد ضل الكلب العزيز الغالى فوجد من يهتم به ويعلن عنه ويبحث عن مكانه ، ويعد بالمكافأة من يرجعه ، بينما يوجد هناك آلاف من الضالين التائهين الحائرين فى مصر ، فهل وجد هؤلاء من يفتش عنهم ، أو يفكر فيهم ويعنى بهم ؟ . . . وهناك آلاف من الفقراء البائسين الذى لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فهل فكر أولئك المسرفون من الأغنياء أصحاب الكلاب فى أن يخصوا هؤلاء الفقراء بجودهم ورحمتهم بدل هذه الكلاب الخسيسة ، أو على أسوأ تقدير أن يقسموا العطف والعناية بينهم وبين تلك الكلاب ؟! .

وهناك آلاف من الفتيات الساقطات اللواتى دفعتهن الحاجة ، أو سوء التربية ، أو شدة العوز إلى الاتجار بالعرض والشرف ، ولو وجدن من يكفيهن مؤونتهن ، ويصد عنهن تيار الفقر المهلك لتعففن واهتدين ، فهل

فكر فى إصلاحهن وتقويمهن وستر أعراضهن من فى يده المال والسلطان ؟ ! .
وهناك آلاف من الشبان الضالين والفتيان المتعطلين والغلمان المنطلقين على وجوههم فى الأزقة والشوارع انطلاق البهائم التى فقدت راعيها ، فهل وجد هؤلاء الحائرون من العلية السادة الذين خلت حياتهم من الشواغل ، وامتلأت جيوبهم بالمال ، من يمد إليهم يد المعونة والإرشاد . أو من يجد لذة فى إخراج هؤلاء التائهين من ظلمات الفقر والجهالة إلى أنوار العلم واليسار ؟ ! .

إنه لمن أفضح الفضائح وأثقل النكبات وطأة أن نجد فى مصر ، وبين من يدعون الإسلام ، وينسبون أنفسهم إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، من يهتم بكلابه أكثر مما يهتم بإخوانه فى الإنسانية والوطنية والدين ، ومن ينفق على هذه الكلاب أضعاف ما ينفقه فى سبيل الله والوطن ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ومن يدرى ؟ . . لعل هؤلاء المسرفين المجرمين العابثين يريدون أن يعيشوا فى دولة من الكلاب لا فى دولة من أسد الغاب ، أو أمة تهتدى بأفضل كتاب ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تذكروا جيداً أنكم محاسبون فى تدقيق على كل ما تفعلون ، « وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فليخجل العابثون من أنفسهم ، ولينصرفوا إلى ما هو أجدر بهم ، وأنفع لهم وأبقى عند ربهم ، فليربوا طفلا شريداً من أقربائهم أو مواطنيهم ، بدل أن يربوا كلباً نجساً قذراً ، إن لم يجلب لهم منفعة أو خيراً . وليهذبوا طفلة لطيمة يتيمة فقدت أبويها ، حتى يخرجوا منها فتاة مؤمنة أو صالحة ، بدل أن يدللوا قطة تموء لهم ، ولن تنقطع عن المواء إلى آخر عمرها أو عمرهم . . . ولينفقوا أموالهم إن زادت عن

حاجتهم ، وفاضت عن مطالبهم فى سبيل الله والوطن ، أو فليدخروها للزمان ، أو للأبناء والحفدة ، بدل أن ينفقوها إنفاق المجانين فى وجوه التبذير والإسراف « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . . وأنتم أيها المسلمون من واجبكم أن تصفعوا هؤلاء العابثين بينكم على وجوههم أو أقفائهم ليفيقوا من غفلتهم واستهتارهم « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان . .

وعن أبى مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحى فاصنع ماشئت ! ! . .

أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ! ! . .

بين الناس والذباب

لله الحمد حمداً كثيراً لا يحصى عدده ولا ينتهى أمده ، حمداً يليق بجلال إلهيته وجمال ربوبيته ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ويفصل الآيات لقوم يتفكرون ، فمن الناس من يعتبر بما يلقى إليه فيحسن قولا وعملا ، ومنهم من يفسق عن أمر ربه فيقول : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لجأ إلى حظائر قدسك أقوام سعداء فأعززتهم بعزتك وأكرمتهم بنعمتك وصــد عن طريقك أقوام سفهاء فجعلتهم بنكالك عبرة للمعتبرين ومثلا للذاكرين : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، زكى نفسه الشريفة فأفلحت وفازت ، وهذب جماعته الرشيدة فعلت وسادت فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله أعلام المفاخر والمكارم ،وأصحابه الناهضين بالجلائل والعظائم ، وأتباعه الموفين بعهدهم فى المغانم والمغارم ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أشبه الكثيرين من الناس اليوم بهذا الذباب ومعذرة بالغة إلى أصحاب الأذواق الدقيقة والأمزجة الرقيقة منكم ، فالحق فوق الذوق وفوق المزاج ، والمرء مضطر إلى ذلك الإغراب فى التشبيه لأسباب قد يبدو بعضها ، ويدق على الأبصار والبصائر بعضها الآخر والله العلى الكبير من قبل ذلك قد ضرب المثل بالبعوضة فقال عز من قائل فى محكم تنزيله المجيد : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً

ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » وضرب المثل بالكلب فقال « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وضرب المثل بالبهائم والأنعام فقال « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » وضرب المثل بالذباب نفسه فقال : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

نعم ما أشبه الكثيرين من بنى آدم فى هذه الأيام السود بالذباب ، وإليكم البراهين إن لم تكونوا من المصدقين فالذباب كائن قذر وسخ بغيض المنظر والمخبر والأثر ، محمل بالجراثيم والميكروبات مطوق بأسباب العلل والأمراض، تضم الذبابة الواحدة منه ملايين وملايين من الجراثيم على الرغم من صغر جسمها وضآلة حجمها واستتار سمها، وكذلك الكثيرون من الناس هم حشرات متنقلة وهوام متقلبة ، قد يدق جسمهم ولكن خطرهم جسيم ، وقد تتضاءل أشباحهم ولكن لؤمهم عظيم ، وقد يبدون بوجه ضاحك وثغر باسم ومن وراء ذلك لو علمت ناقع السم وصميم العلقم وكم فى الطوايا من خبايا ، ولعل الحديث الشريف يشير إلى بعض هذا حين يقول : لو تكاشفتم ما تعايشتم ، وكيف نتعايش حين ينكشف المستور من كل لئيم ذميم ؟ . حقاً :

أحسن الله بنـــا أن الخطايا لا تفوح !

فإذا المستور منـــا بين ثوبيـــه فضـــوح

ومن عجيب وجوه الشبه بين الذباب وهؤلاء الناس أن الذباب كما هو معروف يتكاثر ويتضاعف بشكل مدهش غريب ، يتكاثر ويتوالد بالملايين بعد الملايين فى الأيام أو الساعات ، وكذلك أشباه الذباب من حقراء الناس ، تراهم عديد الحصا والرمال ، يصدمون عينك وقلبك أينما اتجهت وحيثما وليت وجهك ، وليت كثرة هؤلاء الأغنام أو هذه الكتائب من ذباب البشر كانت نافعة ، أو ليت ضخامتهم كانت مفيدة ولكنها كثرة كغثاء السيل وهشيم النبات وهباء الرياح ، وصدق الرسول عليه صلوات ربه : الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ! .

والذباب حيوان دنئ خبيث المزاج وضيع الرغبة ، لا يستمد غذاءه إلا من الأوساخ والأقذار ، ولا يفضل إلا الفضلات والقمامات ، ولا يعيش إلا فى الثرى الملوث والماء الآسن ، وكذلك الكثيرون من الناس تعشى عيونهم من الأنوار فتجنح إلى الظلمات ، ويستحبون العمى على الهدى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وتراهم يستثقلون تبعات الفضائل فيسقطون فى مهاوى الرذائل ، ويعافون الحلال الطيب ويطعمون فى الحرام الوبيل ، يترك الواحد منهم مثلا زوجته إلى خليلته فيترك لحماً طهوراً خالصاً ويأخذ لحماً نيئاً خبيثاً هو كالوعاء الموضوع فى قارعة الطريق تلغ فيه جميع الكلاب ، ويترك سبيل رزقه الكريم السليم ويميل إلى السرقة والانتهاب ، وناهيكم بقوم يسرقون لا عن فقر أو ضيق ، بل لمجرد الانحراف النفسى والشذوذ الخلقى والشبه الذبابى فى هذه الحيوانات الإنسانية.. وليت هذا الخبث كان مقصوراً على أهله ، ولكن الذباب يقع حيث يقع من الأغوار والمستنقعات ، ويحمل ما يحمل من الأوساخ والقاذورات ثم يطير مسرعاً إلى جهات صالحة فيفسدها وأشياء سليمة فيعيبها ، يقع على اللبن النقى الأبيض المفيد فيلوثه ويفسده ويقع على وجه الصبى النظيف البرئ

فيشوهه ويمرضه ، ويقع على أطراف الشخص الهادئ المنصرف إلى عمله فيعكر صفوه ويضايقه ، وكذلك فى الناس أقزام وصعاليك لا يعلمون ويسوؤهم أن يعمل الناس ، ولا يرتفعون لا نحطاطهم ويبذلون جهودهم لينحط جميع الناس مثلهم وبذلك تتساوى الرءوس ، ويتطلعون من حضيضهم إلى المجاهدين المناضلين ، الذين يبذلون فى سبيل الله والدين والوطن والمجد ما يبذلون من أعصابهم وأوقاتهم وأموالهم وألسنتهم وعقولهم ، فيغيظ أولئك الصعاليك أن تظل تلك البدور ساطعة فى كبد السماء فيعملون جاهدين لمحقها أو حجب أنوارها ، ولعنة الله على أقوام أقلقت مضاجعهم مكارم الآخرين وزلزل قواعدهم فوز الفائزين فأبوا لهم إلا افتراء العيوب واختلاق الذنوب !.

نعم تساق اللعنة مضاعفة موفورة إلى أولئك الأقزام الذين لا يقنعون بنعمة الاستظلال بظل الكرام من عمالقة الرجال ، بل يحاولون فى خسة ودناءة أن ينقلب العمالقة مثلهم أقزاماً . . إلى أولئك الجياع الذين لا يرضون بأن يأكلوا الشهى الممتع من الأيدى البارة الخيرة بل يحاولون قطعها آثمين ، وأولئك العطاش الذين يرويهم المنهل العذب فلا يحمدون له صنيعاً ولا يشكرون له ريا بل يحرصون على طمسه بالأحجار والصخور . . إلى العميان فى بصائرهم وأفئدتهم الذين تتفتح عيونهم ونفوسهم بأضواء الرواد وأنوار الفاتحين من الجنود المجهولين الذين لا ينتظرون على جهادهم ثمناً ، ولا يريدون له جزاء أو شكورا . فإذا ما أبصر العميان الحسرة عمدوا إلى المصابيح السمحة التى هدتهم محاولين إطفاءها وتحطيمها . . إلى الضفادع الصغيرة الحقيرة التى لا تعمل شيئاً ولا تقدر على شىء ، وتظل تنق طول الليل ماخلا لها الجو ، فإذا ما سمعت حركة أو نأمة أو صوتاً أجفلت وصمتت . . إلى الفيران التى تقرض بأسنانها الحادة الباغية كل شىء ، ولكنها تسارع إلى جحورها جبانة وخوفاً عندما تسمع حركة من الحركات ! .

نعم تساق اللعنة موفورة مكزرة إلى الذين لا يجاهدون ويثبطون غيرهم حينما يجاهدون ، والذين يصمتون فلا يتكلمون عجزاً أو خوفاً ثم يتألمون ويحقدون ويكيدون ويدسون حينما يتحدث غيرهم عن قوة وإقدام واقتدار ، والذين يرتضون لأنفسهم الذل والهوان ثم يحاولون أن يشركوا الماجدين معهم فى ذلك الهوان ، والذين يحسنون النقد والاعتراض والتطاول السفيه وهم عاجزون عن الإنتاج أو الإثمار ، والذين ينامون ملء أجفانهم ويغطون غطيط البكر قد شد خناقه ، ثم يلومون بعد ذلك الساهرين الناصبين المقذين أبصارهم تحت أضواء المصابيح فى سبيل العلا والمجد ! .

إلى أولئك جميعاً تساق اللعنات مضاعفات فهم ذباب البشر فى هذه الحياة !

والذباب مخلوق حقير لئيم ، هو مضرب المثل فى الضعف والفرار من البأس ، فهو لا يستقر فى مكان ولا يثبت لنزال ومع ذلك لا يكف عن طنينه الثقيل وطيرانه البغيض وتنقله المشئوم ، وهو ينتهز دفء الجو وحرارة الشمس وسطوع الضوء وسهولة الانتقال ؛ فيظهر وينتشر ويحتشد ويتجمع ويمتص ويشرب ويكسب ويربح ، فإذا ماجد الجد واكفهر الجو وأقبل الشتاء بأعاصيره وزمهريره ، وبدأ الامتحان العصيب للكائنات ، سارع الذباب الحقير إلى الاستتار والاختفاء ، ولماذا يظهر أو يبين وليس فى الجو مكسب أو مغنم ، وليس هناك إلا التضحية والاحتمال ، وهو مخلوق تافه قد جعله الخالق الحكيم مثلا للأنانية وحب الذات وسوء الاستغلال وفحش الانتهاز وكذلك فى الحقراء من الناس من يحسن انتهاز الفرص ، فتراه مثال الصديق الوفى المخلص الرفيق أثناء الغنى وعند الطمع والرجاء ، ثم تفاجأ به وقد اتخذ لون الحرباء فبعد عنك عند طارق البلاء أو خفيف الابتلاء ، وكم فى حياتنا الخاصة والعامة من مواقف يضج منها صبر الحليم فى هذا المقام ،

فأين أولئك الأنعام من صحابة كرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصفهم بقوله « إنكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » ! وهكذا يكون دائماً أحرار الرجال ! .

ولله در من نعى على الخلق هذا الكفران وذلك النكران فقال :

وأين المودات من صحبـــة ... كنحل يحمن وأنت الزهر
قليلون عند امتناع القطاف ... كثيرون عنـــد رجاء الثمر
وكم من سقيت بشهد الوداد ... فلم يجـــز إلا بصاب الإبر !

والذباب طائر ضعيف هزيل لا يحتاج سحقه إلى تعب أو مجهود ، ولا يستعصم عند قتله بقوة أو عتاد ، ولكنه مع الأسف طليق لؤمه كما يقول الأول ، ولم يغلبك مثل مغلب فسحق الذبابة يعود على ساحقها بالأذى والضرر تتلوث يده وينحرف مزاجه وتتقزز نفسه ، وكذلك فى الناس مع شديد الأسى والأسف أقوام يشبهون الذباب تماماً فى هذه الناحية ، هم أهزل من الهزال وأضعف من الضلال ، ولا يحتاج القضاء عليهم إلى طويل تدبير أو كبير مجهود ولكنهم يظلون مع هذا بمنجاة من الهلاك أو التأديب لأن قذارتهم تحول بينهم وبين الأيدى الطاهرة التى تترفع عن الولوغ فى الماء القذر الملوث ، وما أشبه أولئك الناس فى هذا الموطن بالمومس الفاجرة الوقاح التى خلعت برقع الحياء وتبدت للناس كأفحش ما تكون المرأة وأوقح ما تكون البغى ، فهى تتطاول على الناس رجالا ونساء ، وهى تعتدى على القوى والضعيف ، ولا يجرؤ أحد أن يكيل لها بكيلها لأنه ما من حر كريم يستطيع أن يجاربها فى أسلوبها أو وسائلها ، وهذا يذكرنا بما كان من أمر الحسين رضى الله عنه حين كان فى ركبه أحد السفهاء ، فسئل فى ذلك فقال : إن لقينا سفيه بسفاهته جاوبه عنا ، فإنا والله لاندرى كيف نخاطب السفهاء .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

حذار أن تكونوا فى الدنيا ذباباً ، بل كونوا فيها كتاباً ناصع الصفحات يقرؤه القارىء فيعجب به وينتفع منه ويستفيد ، كونوا شموعاً نقية تحترق لتضىء شعاب الحياة لغيركم من الناس ، كونوا نفوساً عالية سيدة وعقولا حكيمة لبيبة وبدراً مشرقة نيرة نيرة تسطع على الدوام فترشد إلى سواء السبيل ، كونوا يعاسيب عسل مصفى تجمع الرحيق الشهى من مختلف الرياض والأزهار ، وتقدمه هنيئاً مريئاً للمحرومين من أبناء الحياة ، كونوا عباد الرحمن وجند القرآن الذين هم زينة الأرض وصلاح الكون وقصد الجور وضباء الظلام ، فو الله إن المرء ليتمنى من غيرته على دينه وحبه لأهل دينه أن يصبح فيرى جميع إخوانه فى الإنسانية والملة والوطن وقد صاروا الكملة البررة الأئمة الأعلام ، الذين تزدان بهم الدنيا وتستقيم بهم أمر الحياة ، فترى كل واحد منهم وله قلب طهور ونفس نيرة وعقل لبيب يليق بهمة الرجل السيد ، ورأى ثاقب وبدر يسطع فى ظلمات المشكلات وداجى الأزمات.

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الناس والأغنام

لله الحمد ؛ هو خير من ضرب الأمثال ؛ وأعلى من فصل المقال ؛ نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين آمنوا ، وتلين به جلود الذين استجابوا ، ويهتدى بنوره الذين حاروا ، ففيه من كل عظة بلاغ ، ومن كل مثل طراز ، ما بين دان قريب ودقيق بعيد : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ؛ وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون » .

وتلك الأمثال نضربها للناس ؛ وما يعقلها إلا العالمون . . نشهد أن لا إله إلا أنت مولانا الرقيب الشهيد ، وربنا المبدىء والمعيد ، ملأت الكون عظات وعبراً ، وجعلت فى كل آية حديثاً وخبراً ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، رق مع الراجين حتى كان غيثاً مدراراً ، وشق على المعاندين المارقين فكان سيفاً بتاراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، والمهتدين بسنته وأعماله ، والمستظلين فى طريقهم بظلالة ، أولئك الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا لاحظت عناية العلى القدير فريقاً من الناس سمت بهم ؛ ورفعت من أقدارهم ، ودفعتهم إلى المكارم والعظائم ، وباعدت بينهم وبين المناكر والمآثم ، فتراهم أشعة فى الظلام ، وجلاء لسحب القتام ؛ بهم تشرف

الإنسانية ، وتعلو قيمة الحياة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذوالفضل العظيم ، وإذا تولت الشقوة قوماً آخرين ، أضلت سعيهم ، وأفقدتهم وعيهم ، وجعلتهم كالأنعام بل هم أضل ، وصيرتهم كالحشرات بل هم أقل ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء . . .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يعيش فى دنيا العبيد ؛ ومن محن الأيام أن يقيم الإنسان فى مراتع الحيوان ، وإذا كان الأول قد قال منذ عصور وعصور : « إن الناس كانوا ورقاً بلا شوك ، فأصبحوا شوكاً بلا ورق » فإن اللبيب اليوم يتمنى لو ظل الناس كما كانوا أشواكاً ، على الرغم مما فى الأشواك من دواعى الأذى والهلاك ؛ إذا أنهم قد انقلبوا اليوم على وجوههم فخسروا كل شىء حتى قوتهم المتمثلة فى شوكتهم ، وغدوا قطعاناً حائرة ، يرتعون وما يشعرون أيان يبعثون ؛ ولو أراد متدبر أن يحصى وجوه الشبه بين كثير من الناس اليوم ، وبين الأغنام لوجد من هذه الوجوه الكثير ! . . .

إن الأغنام ترتع لتشبع ، ولايهمها إلا أن تملأ جوفها بالطعام من أى مكان وبأى سبيل ، دون فكرة تهديها ، أو عقيدة تبنيها ، أو مكرمة ترتجيها ، وكذلك أغلب الناس اليوم ، شغلهم نداء البطن وموسيقى الأمعاء وشهوة البدن عن رفيع المبادىء وكريم الرسالات ، واستبد بهم تنافسهم الأثيم حول خسيس المطالب والمآرب ، وكاذب المراتب والمناصب ، فجعلهم كالكباش الهائجة تتهارش وتتناطح بلا تعقل أو ارعواء ، مع أن الحق تبارك وتعالى يحذر الناس من الغفلة ويلفتهم إلى واجبهم ، ويتوعدهم على تركة العقاب الأليم ، فهو يقول « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ . .

والأغنام تنفش فى مرعاها ، ثم لا تكتفى بما سيق إليها ، بل تحوم حول الحمى وتقع فيه ، فتنال من شىء سواها ، وتجترىء على حق من عداها ،

دون نظر إلى وخيم العواقب أو وبيل النتائج ، وكذلك الناس يتيح لهم ربهم ساحات الحرية والمتاع ، ويحل لهم الطيبات ، ولا يحرم عليهم إلا الخبائث ، ويؤتيهم من رزقه كل جميل وكل مقبول ، فلا يقنعون به ولا يقتصرون عليه ، بل قد يتركون بعضه دون استعمال أو استمتاع ، ثم يمدون أعينهم إلى الحرام ، وتتطلع قلوبهم إلى الممنوع الخسيس ، فيتركون المال الطهور والعمل الشريف والمطعم النظيف والشيء الطيب المباح إلى سحت المكاسب ودلة الإجرام ، وإذا ما عابهم عائب على كثرة التردى فى الهاوية ، وتكرار الوقوع فى المنحدر ، تعللوا بوسوسة الشيطان واشتباه الأمور ، مع أن الرسول صلوات الله عليه يقول : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . ويقول : «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

ومن عجيب الشبه هنا بين الناس والأغنام أن الأغنام يصدها راعيها مراراً وتكراراً عما ليس لها ، ليسلم وتسلم ، ولكنها تتأبى عليه وتنفر منه وتسىء به الظنون ، وكذلك الناس كلما جاءهم واعظ أو مرشد ، ليصدهم عن خنا ، أو يدعوهم إلى علا ، سخروا منه واستهزءوا به أو تظاهروا له بالاستجابة والخضوع أثناء الاستماع ، فإذا ما حان حين التطبيق والتنفيذ ولوا عنه معرضين ، « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » . ؛ مع أن الله يلقى إلى هؤلاء بأقسى إنذار حين يهتف بهم : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ؛ قال رب لم

حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بأيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

والأغنام يأتيها صاحبها المستغل المتاجر ، فيرقدها على الأرض ؛ ويجز منها شعرها ليبيعه أو يستغله فى مصلحته ، وقد يوهمها أن ذلك تخفيف عنها ورحمة بها ، وقتل الإنسان ما أكفره ، فإنه فى الحقيقة يمتص دماءها ويستلب خيراتها ، وكذلك الدواب من الناس ؛ تهون عليهم نفوسهم ، وتذل فى صدورهم قلوبهم ، وتخشع فى الحياة هممهم ، فيعيشون أشباها للرجال ، بل نمالا بين الأفيال ؛ تقضى الأمور فلا يستشارون ، ويسامون الخسف فلا يغضبون ، وتستغلهم فى الكون جبابرة تسلبهم الغذاء ، وتمتص منهم الدواء ، وتتخذهم عبيداً وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وتضرب بعضهم ببعض ليسلم لها طاغوتها وجبروتها ، والضحايا الذليلة المهينة تبش لسالبيها ؛ وتقبل راحات قاتليها ، مع أن الله تبارك وتعالى يعلم عباده الانتصاف والاعتزاز فيقول : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ويقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويصف عباده بقوله : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ويقول الرسول عليه صلوات ربه العزيز المجيد : « من مات دون ماله فهو شهيد » ! . . .

والكبش فى دولة الأغنام قد يسطو بالنعجة . فيعاشرها ويواقعها على مرأى من الأغنام والناس لأنه حيوان ؛ وكذلك فى الناس من يأخذ المرأة الغريبة عنه المحرمة عليه فيخاللها ، ويذرع بها الطرقات متبجحاً فى دعارة وفجور وبلا خجل أو حياء ، وقد ينادى عليه صبيان الحى وأطفال الحارة قائلين بلغتهم العامية : « سيب النعجة ياخروف » فلا تستحى النعجة ولا يبالى « الخروف » الرقيع ! . . . ولم تستحى أو يبالى ونحن نعيش فى

بلد صارت فيه أمور العرض والعفة والفضيلة والشرف من أرخص الزاد وسقط المتاع ؟ ! . . .

والأغنام تلد خرافاً كثيرة العدد ؛ وقد تظن أن هؤلاء الأولاد سيكونون قرة عين لها ، ولكنها بعد قليل تفرط فيهم ، وتبعد عنهم ، وتستخف بهم ، وتصبح الخراف الجديدة مكسباً بارداً للجزار الذى لا يلين ، وقد تشهد النعجة مصرع وليدها على شفرة الجزار ، فلا تحرك ساكناً ولا تثير غضباً ؛ وإذا ما تحركت فانما تتحرك لتنجو بنفسها بعيدة سالمة من هذا المصير ؛ وليذهب الوليد العزيز إلى ألف جحيم ! . . .

وكذلك الكثير من الناس أصبحوا كمعامل التفريخ ؛ فحسب ، يلدون أولادهم وهم يحسبونهم قرة أعين لهم ؛ ولكنهم بعد قليل تشغلهم شواغل عن هؤلاء الأولاد ، فيتركون حبالهم على غواربهم ، فلا تربية ولا تقويم ، ولا خلق ولا تأديب ، بل يتركونهم طعاماً هنيئاً لخسيس المبادىء ، وخبيث النزعات ، وجامح التيارات ، وطائش الاتجاهات ، وتطول شقة البعاد والخلاف بين الآباء والأبناء ، فتتقطع بينهم الأسباب والروابط ، فيستهين الوالد بولده ، ويستخف الولد بأبيه ، فلا حرمة للأب عند ابنه ، ولارحمة عند الوالد لولده ؛ وقد يساق الوالد مساق الأخطار فلا يغار الولد ولايثور ، وقد يساق الولد إلى الشقاء فلا ينجده والده ، وما ذلك إلا لأن الوالد أهمل ابنه من أول الطريق ، فلم يغمره بفيض حنانه ، ولم يحطه بسياج رعايته ، ولم يغدق عليه من فيض تربيته ، ولم يصحبه فى مواطن تؤكد بينهما روابط الحب والوفاء ، وكيف والأب قد شغلته شواغل الهوى أو الشهوة أو المتاع الزائل ، فانفلت زمام ابنه من يده ، فخرج الولد إلى الحياة يعب منها الطهور والدنس ، بلا موجه حكيم أو قائد رحيم ؟ . . وكيف يطلب من هذا الولد إذن حين يكبر أن يحفظ حق أبيه أو يرعى له حرمته ومكانته ؟ ! .

وقديماً كان الآباء يراقبون الله والأبوة فى أبنائهم ، فيحفظونهم فى صغرهم ، وينشئونهم أكرم تنشئة ؛ ويرعونهم أفضل رعاية ، ويقودونهم إلى مواطن النبل والطهر والشرف ، فإذا شب الأبناء عن الطوق رأوا ثمار التربية فى نفوسهم ، فشكروا أصحاب الفضل عليهم ، وذكروا أن للوالدين حقوقاً تؤدى إليهما ، فحرص كل ابن على تلك الحقوق فأداها أكرم الأداء ، ثم هتف بعد ذلك داعياً ربه لهما : « رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

والأغنام لا تبالى أن تنام فى المكان الوسخ أو الموضع القذر ؛ ولا ترى ضيراً أن يعلق بها الروث والأوشاب ، وكذلك فى الناس كثيرون يندفعون إلى المنكر ، ويتقحمون فى الخطايا . ويلوثون أنفسهم بالسيئات . لا يتريثون ليعرفوا أيليق أم لا يليق ، وأحلال أم حرام ! ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . .

إن ربكم الرحمن ، وكتابكم القرآن ، وشريعتكم الإيمان ، وطريقتكم الإحسان ورقيبكم الديان ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ووالله ما جئتم إلى الكون لتكونوا أغناماً بل لتكونوا أعلاماً ، وما دخلتم أمة محمد لتذلوا أو تقلوا ، بل لتكثروا وتعلوا فإن يكن أصابكم هوان بعد تكريم ؛ وضعف بعد قوة ، وذلة بعد عزة ، فمنكم وبأيديكم ، وحسبكم تأديباً أن تروا الحق تبارك وتعالى يخاطب حبيبه وصفيه محمداً صلوات الله عليه فنقول له : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً » .

ولن يعز إنسان فى الوجود إلا إذا عرف ربه ، وعرف نفسه ، وعرف طريقه ؛ وعرف حقه ؛ وعرف واجبه ، ثم استقام على الطريقة ما استطاع ؛ وتقرب إلى الله ما قدر ، فإذا نازعته نوازع الشر ، أو جاذبته هواتف

السوء ، استمسك ورابط ، وهتف من الأعماق مستعلياً على كل عبودية غير عبودية الله فقال : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ! . .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم ،

بين الناس والحمير

لله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون سبحانك سبحانك ، أو ضحت المقال ومن أصدق من الله قيلا ، وضربت العبر والأمثال ، ومن أحسن من الله حديثاً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، مهدت الأسباب وفصلت الخطاب ، وأنزلت الكتاب تبياناً وعبرة لأولى الألباب ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ذل لك فعزبك ؛ ولجأ إليك فاستمد منك ؛ واعتمد عليك فما ضل عنك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله النجوم الزاهرة وأصحابه الجنود الباهرة ، وأتباعه العصبة الظاهرة : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

معذرة إلى أمزجتكم الرقيقة وأذواقكم العالية إذا قلت لكم إن كثيراً من الناس اليوم يشبهون الحمير ، ونقولها هكذا واضحة صريحة لأن السيل قد زاد والكيل قد استفاض ؛ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون والله رب الجلال والكمال والجمال لا يستحى كما قال أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها ، وهو الهادى إلى سواء الصراط .

إن أكثر الناس اليوم يحيطون علماً بالحلال والحرام ، ويفرقون جيداً بين الحق والباطل ، ويميزون بين الفضيلة والرذيلة ، وتلاقيهم العظات والآيات فى كل مكان وكل زمان ، ومع ذلك هم لا يستفيدون بما يعلمون ، ولا يتقيدون بما يؤمنون ، ولا يلتفتون إلى ما يحوزون من كنوز العلم والمعرفة

والدين ، بل ينطلقون على وجوههم منغمسين فى أقذار الحياة ومراتع الإثم ،
كأنهم تماماً حمير حملت ما عظم وكرم من أسفار الهداية والتهذيب ، ولكنها
لحماريتها الدنيئة لا تدرى أنها تحمل فوق ظهورها ما فيه النور والضياء :
« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس
مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

والحمار الأعجم نعلمه فلا يتعلم ، ونحاول تقويمه فلا يتقوم ، ونلزمه
العادة من العادات فلا يلزم ، بل ينفرد ويعاند ويتمرد ، ويصر على بقائه
فى عمى جهله ، حتى ضربنا بغبائه الأمثال فقلنا : أبلد من حمار . ولكننا فى
الواقع نظلم الحمار إذا جعلناه وحده مضرب المثل فى الغباء ، لأن فى الناس
أقواماً ينادون فلا يستجيبون ، ويعلمون فلا يتعلمون ، وكم من صيحة تقرع
أسماعهم فلا تحظى منهم بسميع ، لأنهم فى وديان من البهيمة يهيمون ، فكأنهم
ممن قال الحق فيهم : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون»
وقال : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ؛ ومثل هؤلاء
قد استيأس من رشادهم الدعاة المصلحون ، لأنهم سواء عليهم أأنذرتهم أم لم
تنذرهم لايؤمنون : « وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع
من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور » .

والحمار دائماً فوق الأرض بلا غاية ، ويمشى مسخراً لصاحبه بلا نهاية ،
ليس له فى حركته أو سكونه إرادة أو مشيئة ، وإنما هو آلة يديرها مالكها
عندما يريد هو لا عند ماتريد هى ، وقد يميل الحمار عند إعيائه إلى الراحة
ولكن صاحبه يريده على السير بالإرغام فيسير ، وقد يتوثب جسمه للعمل
ولكن صاحبه لا يريد ؛ ومن الناس أشباه ونظائر لذلك الحمار المجرد من
الإرادة والتدبير ، فهم ذيول لغيرهم وأتباع لسواهم ، لا تظهر لهم شخصية
ولا تتبين لهم إرادة ، ولا تستعلى لهم رغبة فكأنهم دواب عصبت عيونها

وسيرت على جهل منها وضلال ، ففقدت بذلك أهم صفات الإنسان الكريم وهى الإرادة والحرية والاستقلال : « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » . والحمار لأنه مسلوب الإرادة مفقود الشخصية تراه مركوباً على الدوام، يعلى عليه ولا يعلوهو مرة من المرات ، ومن الناس من يرضون الذل عن طواعيه واختيار ، بل منهم من إذا بعد عنه الذل لسبب من الأسباب بحث عنه وارتمى فى حمأته ، وكم فينا من أناس إمعات يتلقون الطعنات واللطمات فى دينهم وعرضهم وشرفهم وحقهم فلا يغضبون ولا ينتصرون ، بل يذلون ويخنعون ، وقد يرددون لك قول الإنجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » بدل أن يرددا قول العزيز الجليل : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ، « ولكم فى القصاص حياة »، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

والحمار حيوان شره منهوم ، يأكل كثيراً ثم لا يشبع بل يظل يأكل ويأكل حتى يطغى الطعام بثقله على حساسيته الحيوانية فيتبلد ، ومن الناس قوم أشباه فى ذلك للحمير ، فهم يعيشون ليأكلوا ويملاوا بطونهم التى لاتكتفى، ولا يزالون يأكلون مسرفين حتى يكثر شحمهم ويتراكم لحمهم ، ومن هنا يقل علمهم ويتضاءل فهمهم ، وإن راعتك ضخامة أجسامهم فلا تبال بها : جسم البغال وأحلام العصافير : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة » ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . وهم من إسرافهم البشع فى الطعام بلا عمل أو مجهود يشبهون الحمار فى ناحية أخرى قريبة من سابقتها ،

فالحمار إذا رأى الأنثى من جنسه نسى كل شيء ، وفقد ما بقى له من كيان حيوانى ، نسى صاحبه وطعامه وشرابه وعمله ، وثارت فيه شهوة الحيوان الدنىء الخسيس كأقبح مما تثور فى حيوان آخر ، وكذلك بعض الأشباه من الرجال ، يرون المرأة فيفقدون عندها دينهم وعفتهم ورزانتهم ، ويلقون بين يديها بأزمتهم ، وقد يبيعون فى سبيل إرضائها مالا يباع من حق الله والوطن والناس ، وصدق الرسول : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » ولعل الحمار هنا أفضل من بعض المخنثين الداعرين ، فإن الحمار يغار على أنثاه إذا اقترب منها حمار آخر ، وفى أبناء الحضارة من لا يغار ، فتراه يقدم المحرم من نسائه بيديه أو بعلمه إلى الصديق أو العشيق ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على « التيوس » الذين لا يغارون .

والحمار حيوان طويل الأذنين واسعهما ، ولكنه مع ذلك لا يسمع ولا يفهم ولا يعقل ، والله قد خلق للانسان أذنين مع فم واحد ليسمع ضعف ما يقول ، ولكن هناك أقواماً عكسوا الآية ، فياقلة ما يسمعون أو يفهمون ويا كثرة ما يلتون ويعجنون فى الكلام . . والحمار الخبيث له نهيق مرعب هو مضرب المثل فى القبح والاستنكار : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » وكذلك الكثير من الناس يتصايحون بالمنكر من القول والأثيم من الدعوات فى إرغاء وإزباد وإبراق وإرعاد ، حتى ليفكر الكريم فى التمثل بقول من قال :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى

وصـــوت إنســـان فـــكدت أطـــير

أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : ما أشبه بعض الأميين بالحمير ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام :

إنكم أعز على الله وأكرم من أن يكون فيكم مثل هؤلاء الحمير ، ولكنكم مطالبون بأن تبحثوا عن هؤلاء الحمير من الناس لتحاولوا أن تطهروهم وترفعوهم عن دنس الحمارية إلى مستوى البشرية ، حتى يسيروا معكم فى موكب الحق والخير والنور ، فإنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وليس بلائق منكم أن تنعموا بميزات الإنسانية بينما يحرم منها أقوام ينسبون إلى بنى جنسكم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .
واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الناس والثعبان

لله الحمد ، نحمده وحده فى السراء والضراء ، ونشكره وحده على النعماء والبأساء ؛ فلا يحمد على المكروه سواه ولا يقصد فى الشدائد سواه . نشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، أنت المطلع على سرائر القلوب ، العليم بخفايا النوايا والعيوب : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما داهن يوماً فى دينه ، ولا تزعزع لحظة عن يقينه ، بل كان سيد الثابتين وإمام المخلصين ؛ فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله البررة الكرام ، وأصحابه الأئمة الأعلام ، وأتباعه الداعين إلى دار السلام ، أولئك لهم البشرى ولهم جنات الخلود . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما أكثر وجوه الشبه بين الإنسان فى هذا الزمان وبين الثعبان ؛ وما أكثر العبر التى يجنيها العاقل من تدبره لهذه الوجوه ، لا على وجه التفنن فى البحث والتشقيق للحديث ، بل على وجه الاعتبار والادكار « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

إن أول ما يطالعك ويخدعك من الثعبان زركشة تشمل ظاهرة ، فيها نقوش وتقسيمات ، وقد يكون منظرها جميلا وتقسيمها بديعاً ، تتمنى العروس لو صنعت مثلها فى ثوب الزفاف ، ولكن هذه الزركشة تخفى وراءها حيواناً خبيثاً ومخلوقاً خطيراً ، يخشاه الكبار والصغار ، ويخافونه فى الليل والنهار ، وقد يقال لهم : إن ما تخشونه لين الجلد ناعم الملمس رقيق البشرة ، لاشوك

فيه ولا لبد . فلا يزيل ذلك خشيتهم ، ولا يقضى على خوفهم ، لأنهم يعلمون أن من وراء الملمس اللين أسناناً تقرض وتقطع ، وأنياباً تؤذى وتضر . . . وكذلك الكثير من الناس ، ما هم إلا ثعالب بشرية ، إن رق ملمسهم خبث طعمهم ، وإن لان مظهرهم التوى وتعقد مخبرهم ، وتراهم بكل ما أوتوا من قوة وحيلة واصطناع يزخرفون ملابسهم ومظاهرهم ، ثم ينطوون بعد ذلك على السوء والسواد ، وقد تكون فيهم ذلاقة اللسان أوبراعة التملق ، ولكنهم من الداخل ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد يتظاهرون بأنهم جنود إنقاذ أو رواد إصلاح أو زعماء مجد ، وقد يجدى بهتانهم فى خداع الناس حيناً أو أحياناً ، ولكنه لا ينفع عند من لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه قاصية ولا دانية ، فإنه لهم بالمرصاد ، يرتقبهم بسوء العذاب فى الدنيا ويوم المعاد ، ولذلك يقول الحديث الشريف : « يكون فى آخر الناس زمان يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم كقلوب الذئاب ؛ يقول الله تعالى : أبى تفترون ؟ أم على تجترئون ؟ فبى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » ! . . .

والثعبان تتطلع إليه فترى له رأساً صغيراً دقيقاً لا يمتاز عن سائر جسمه بثقل أو ضخامة ، ولكن حذار أيها الساذج ، فإن الداء كله هنا ، وإن البلاء كله قد استقر هنا . . . هنا العينان اللتان تكشفان ، والفم الذى يضم الأنياب والأسنان ، ومنبع السم الزعاف الناقع ، فلا تستخف بشأن هذا الرأس وإن دق وصغر ؛ وكذلك الكثير من الناس ، ترى الواحد منهم وقد اختفى ضرره وخطره فيما خف وزنه من الأعضاء ، فقد ترى له رأساً نحيلا قليلا ، فيه عينان دقيقتان غائرتان ، وفم ضيق بداخله لسان صغير ، ولكن الشيطان اللعين أو الإنسان الخبيث يستخدم هذا الرأس فى تدبير

المآثم والمهالك ، وتهيئة المناكر والمقابح ، فليس فى ذهنه إلا أن يحتال لهذا ، ويكيد لذاك ، ويوقع بذلك ، وهكذا . . . وترى عينيه تقدحان شرراً يترجم عما خالفه من حسد للناجحين ، وحقد على النابغين ، وضيق رخيص خسيس بفوز الفائزين ؛ ووقاك الله شر اللسان فى ذلك الإنسان ؛ نعم إنه صغير دقيق ، ولكنك لا تحصى جراحاته أو عثراته ؛ وكان هذا الأثيم يجهل أن دقائق أعضائه هى التى تعلو به إذا تطهرت ، وتخسف به إذا تقذرت ، ولذلك جاء : المرء بأصغريه قلبه ولسانه . وقال الرسول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . وسأل أبو موسى الرسول : أى المسلمين أفضل ؟ . فقال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . . . فذكر اللسان واليد مع أنهما أصغر الأعضاء والأطراف فى جسم الإنسان ، وانظر كيف قدم ذكر اللسان على اليد ، كأنه يريد أن يقول إن اللسان أشد خطراً من اليد مع أنه أصغر منها ، ولا عجب فقد قال الأول :

جراحات السنان لهـــا التئام ولا يلتـــام ما جـــرح اللسان

ومن الثعابين نوع كبير هائل ، يزحف على الأرض ببطء وهدوء ، كأنه فى نزهة أو فى حيرة من أمره ، ولكنه فى الواقع يبحث عن صيده المأمول هنا أو هناك ، وقد يصادف فى طريقه شاة ضعيفة ، فيلف جسمه الطويل حولها برفق وهدوء ، حتى يحيط بها تماماً ، والشاة تحسب أنه صديق أو رفيق ، وأنه يعبر بذلك الالتفاف عن شوقه أو حبه ؛ ولكن الثعبان الماكر يمط جسمه ، ويضغط قليلا قليلا على جسم الشاة ، ثم يضاعف الضغط بلا رحمة أو هوادة ، حتى يقسم جسم الشاة نصفين ، ثم يبدأ فى التهام الفريسة . . . وكذلك الكثير من الخائنين فى الناس ، ترى الواحد منهم

يسعى إليك مطأطأ الرأس خافض الصوت ، مبدياً لك التعفف عن مالك ، والزهد فى جاهك ، ومظهراً أتم استعداده ليكون أخاك الذى لم تلده أمك ، ولا يزال يلقى حباله وينصب شباكه ، وهو الخاضع المتواضع المتحبب ، حتى يصيب منك مقتلا ، أو يصادف فياك مغنماً ، فيضرب الضربة ، أو ينهب النهبة ، ثم يولى الأدبار ، بعد أن يتركك تصطلى بنيران غدره وخيانته ، كأنه لم يسمع قول الحق تبارك وتعالى : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما » أو لم يسمع قول الرسول : « من غشنا فليس منا » وقوله : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان ».

ومن عجب أن تجارب المجربين أثبتت أن الثعابين لا تؤذى الذين تمر عليهم إلا إذا أحست منهم بخطر ، ويعللون السبب فى عضة الثعبان بأن الثعبان إذا مس جسم الإنسان يخاف المرء منه ، ويتقلص جلده فى حركة اهتزاز وهيئة قشعريرة ، فيحسب الثعبان أن ذلك هو بدء العدوان عليه فيعض ؛ والدليل على ذلك أن الثعبان يمر على النائم المستغرق فى نومه فلا يعضه ، وأن الهنود كثيراً ما يجعلون الثعابين تمر على أقدامهم بلا أذى ، لأنهم قد تعودوا ذلك ، فلا تتقلص جلودهم عند مرورها عليها ؛ ومعنى ذلك أن الثعبان مع أنه خبيث غير مغرم بالعدوان ، والكثير من الناس على العكس من من ذلك ، إنهم لا تطمئن نفوسهم ولا ترتاح قلوبهم إلا إذا هدموا بناء ، أو أطفئوا سراجاً ، أو شوهوا جمالا ، أو ساعدوا الشيطان فى أى ميدان . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن دينكم الذى حمله لكم رسولكم عن خالقكم لا يريدكم أن تكونوا ثعابين خبيثة فى الأرض ، بل يريد كلا منكم أن يكون شجرة طيبة عاقلة

أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . . .
ولا يريدكم أن تكونوا أذلة كالحشرات التى تزحف على الأرض ، وتقنع
بظلام الأحجار والأوكار ، بل يريدكم شموساً ساطعة وبدوراً مشرقة ، تعز
فى نفسها ، وتسمو فى سعيها ، وتهدى غيرها بنورها وضيائها ؛ فاستجيبوا
لربكم وأنيبوا إليه ، فإن رحاب السماء بهديها أعلى وأصفى من حضيض
الغبراء .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق
يستجب لكم :

بين الناس والخنازير

الحمد لله ، يحب معالى الأمور ويدعو إليها ، ويبغض مناكر الأشياء وينفر منها ، وهو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً ، وهو بكل شىء عليم . نشهد أن لا إله إلا أنت ترحم فتسبغ نعمك ظاهرة وباطنة ، وتغضب فتصب نقمتك فاصمة قاصمة ، « إن بطش ربك لشديد » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، طهر البلاد من أودغاها ، وكسا البشرية حلة أمجادها ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وجماعته ، « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

معذرة إليكم إذا أطلت الحديث معكم عن وجوه الشبه بين بعض الناس وبين الخسيس من الحيوان ، فإن حوادث الأيام وعجائب الدهر تطالع المرء كل حين بما يثير حفيظته ويذهب سكينته ، فتقفز إلى ذهنه وجوه شبه كثيرة بين الناس والبهائم ، كأنها لا تريد أن تنتهى ؛ ولعل أقذر حيوان فى الوجود هو الخنزير ، حتى إن الإنسان المحسن لينقبض ويتقزز من اسمه ، فكيف بمشاهدته أو الابتلاء به ؛ ومع هذا فهناك فى الكون أناس من حقهم أن يعتبروا خنازير ؛ وإن شئتم حجة فإليكم الدليل فى إثر الدليل :

إن الخنزير حيوان نجس العين حرام الاستعمال ، تجب إبادته وقتله ، لأنه يجمع بين السبعية والبهيمية ، فسبعيته تتمثل فى الناب وأكله للجيف والأوساخ ، وبهيميته تتمثل فى عدم تمييزه وفى أكل العشب والعلف ، والسبعية وحدها كافية للنفور ، والبهيمية وحدها كافية للاستقذار ، فكيف إذا اجتمعتا ؛ وهناك من الناس كلاب وذئاب ، يجمعون بينهما أيضاً ، ففيهم الشره الباغى والطمع الدنىء ، والتعلق بالقاذورات فى المأكل والمشرب ،

يتركون حلائلهم إلى خلائلهم ، ويدعون جدهم وتقواهم إلى قمرهم وزمرهم وطغواهم ، وفيهم انطماس البصيرة وفقدان التمييز والانحدار إلى مراتع السوء ومرابع الفحشاء : « وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً » ، « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » .

والخنازير حيوانات دنيئة لا تعرف الغيرة التى يعرفها الكثير من الحيوانات والبهائم ، ولذلك تواقع ذكران الخنازير إناثها على المكشوف وتسرف فى الشبق والفساد ، ومن هنا كانت أكثر الحيوانات إنسالا ؛ والشر يكال فى الوجود بالقناطير ، والخير يوزن بميزان الدنانير ؛ والخنزيرة الأنثى يركبها الذكر وهى ترتع ، فربما قطعت أميالا وهو على ظهرها ؛ وقد يعد هذا عجباً ، ولكنه فى الإنسان العاقل أعجب وأعجب ، ففى الناس أيضاً خنازير فقدوا الضمير والحياء ، وأزهقوا فى أنفسهم العفة والارعواء ، وانطلقوا يلغون فى كل إناء ، ويتصرفون فى الأعراض والحرمات كما يتصرف المرء فى المتاع الرخيص المهان ، ولو فتشت فى قصور الكبراء ، وفى أندية المجرمين والسفهاء ، وفى حفلات المتبجحين السوداء ، لرأيت كثيراً من الخنازير ، فوقها أشكال من الثياب ، وفى أيديها أنماط من الأكواب ومن الواجب أن تنحى هذه الخنازير لتعود سيرتها الحيوانية الأولى ، ثم تساق إلى حظائرها الخسيسة بلا إبطاء . .

والخنازير حيوانات عديمة الهمة ضائعة العزيمة ، ولذلك تكتفى بالأكل من القمامات والفضلات والأرواث ، فلو ارتقت فى طعامها أو تطهرت فى مسلكها فسد أمرها ولم تبق خنازير ، ومن طبيعتها أن تمتلىء وتتضخم إذا سيق إليها طعامها الوبئ وغذاؤها الدنئ ؛ وكذلك هناك أناس لو فرقت أشلاءهم وقلت لكل شلو منها : عد إلى حيث كنت ؛ لتولى إلى ماخور

أو مجرور أو مستنقع ؛ ولو دعوتهم إلى حركة أو عمل أو تسام ، لتأبوا عليك وأخلدوا إلى الحضيض ثم تظاهروا بالتقى والتوكل ، فقالوا : علام نتعب أنفسنا والذى يرزق الكلاب والخنازير سيرزقنا ؟ . . . وهذا ضلال وزور ، فالله قد ساق إلى الكلاب والخنازير رزق الكلاب والخنازير ، فإن أرادوا الصدق فى القول فليسارعوا إلى إخوانهم ليعيشوا معهم ، فإن الطيور على أشكالها تقع ؛ أو فليرتدع الآثمون منهم عن سوء الاستغلال وفحش الاتجار بالدين والدنيا ، وإلا فياسوء العاقبة : روى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام ، ويحدث عنه ليكسب بذلك مالا ، فكان يفترى ويقول : حدثنى موسى صفى الله ، حدثنى موسى نجى الله ، حدثنى موسى كليم الله . . . حتى جمع مالا كثيراً ، فكانت النتيجة أن مسخه الله خنزيراً ، فسأل موسى ربه : رب لم صنعت هذا ؟ . فأجابه : لأنه كان يأكل الدنيا بالدين . . .

والخنازير تضرب كل يوم ضرباً شديداً مبرحاً يكاد يسيل منها الدم ، فلا تمرض الخنازير من هذا الضرب ولا تهزل ، بل تكتنز وتسمن ، ويترهل لحمها ويزداد وزنها ، وصاحبها يقصد ذلك السمن من وراء ضربها باستمرار ، وكذلك يوجد كثيرون لا يسمنون إلا على المهانة ، ولا يمتاثون إلا على الذلة والهوان ، تصفعهم اليد الفاجرة فيقبلونها ، وتركلهم الرجل الآثمة فيضعونها فوق جباههم ، يسخر بهم الشيطان الغشوم فيعدون سخريته تكريماً وتشريفاً ، وكل هذا فى سبيل الحياة الرخيصة أو الهوى المستبد أو المجد الكاذب أو الذهب الآسر ؛ والحرص دائماً يذل أعناق الرجال ! . . . فأين عمر رضى الله عنه يوم قال : يعجبنى من المرء إذا سيم خطة خسف أن يقول « لا » بملء فيه ! !.

هذا ولقد مسخ الله المنتقم الجبار فريقاً من اليهود خنازير بإجرامهم « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » ؛ وإن فى الديار كثيراً ممن

يقتربون بإفكهم وبهتانهم من حمى هذه الخنازير البشرية الممسوخة ، وليس على الله ببعيد أن يحقق فيهم وعيده المروى على لسان رسوله صلوات الله فى بعض الآثار حيث يقول : يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، فيصبحون وقد مسخوا خنازير ، وليخسفن الله بقبائل منها ودور منها ، حتى يصبحوا فيقولوا : قد خسف الليلة بدار فلان ؛ وليرسان عليهم حجارة كما أرسلت على قوم لوط ، وليرسلن عليهم الريح العقيم بشربهم الخمر وأكلهم الربا ولبسهم الحرير واتخاذهم القنيات وقطعهم الرحم ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا استضعفت المرء نفسه فلم يجعلها ملاكاً ، فلا يسرف فى الهوان ليجعلها شيطاناً ، وإذا عجز المرء عن أن يعيش للانسانية الكريمة مثالا ، فلا يمسخ ذاته خنزيراً ، وإذا لم يتيسر له أن يشيد فلا يضل فيهدم . . . ومن سنن الله فى كونه أن يتماسك أمام البهتان المنتشر صفوة قليلة من عباده حتى يأذن الله بالفتح أو أمر من عنده ، فلا أقل من أن تكونوا فى ركاب هذه الصفوة لتسعدوا وتجددوا ، « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » ، « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . . .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

٥١٤

بين الناس والبق

الحمد لله ضرب الأمثال وفصل المقال ، ليهدى الضال رحمة منه وإحساناً ، ويزيد المنيب صلاحاً وإيماناً ، ومن أحسن من الله حديثاً ؟ . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الميزان عندك هو إخلاص النية وصدق الجهاد، لاكبرياءالأنساب ولاكثرة الأعداد، والله ولى المتقين. ونشهد أن مولانا محمداً عبدك ورسولك، ربى أقواماً بهديك وملتك فكانوا خير القائدين ، وأذل أصناماً بنقمتك فكانوا فى الغابرين ، « إن ربك فعال لمايريد » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى سلالته الطاهرة النقية ، وأصحابه الذين أخلصوا العلانية والطوية ، وأتباعه الذين صدقوه عهده فكانوا خير البرية ، « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عندربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ».

يا أتباع محمد عليه السلام . . . .

عندما يهجم الصيف ويشتد الحر ، تأخذ الحشرات الخبيثة تسعى لتفتك بضحاياها من المهازيل الفقراء ، أو المفرطين الجهلاء ، وكأنها لا تكتفى بما أصاب البشرية الذليلة من فقر ومرض وهوان ، على أيدى الباغين عليها بسيوف الجبروت والطغيان ، بل تجىء هذه الحشرات لتمتص دماء هؤلاء فتجهز على البقية الباقية من كيانهم واستقلالهم . ولو قدر لكم أيها السادة أن تدخلوا بيتاً من بيوت أولئك الفقراء فى إبان هذا الحر اللافح ، لرأيتم على الحوائط ، وفى طوايا الفراش والثياب جيوشاً من حشرات دقيقة خبيثة تسمى « البق » . . . وكأنما حرص اختلال النظم وفساد الأوضاع وفقدان العدالة بين البشر على أن يظل المهضوم المحروم مطارداً بما يؤلمه ويؤذيه ، فله فى الشتاء جوع يشقيه وزمهرير يرديه ، وله فى الصيف جيش عرمرم من

الحشرات تراوحه وتفاديه ؛ ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على قوم يضيع بينهم الحق والإنصاف ! . . .

و « البقة » كما تقول اللغة دويبة صغيرة حمراء مفرطحة منتنة الرائحة ، وقد يكون هناك من لا يعرفها ، لأنه عاش متقلباً فى مطارف العز والنعيم فلا فقر ولا شقاء ، وقد يتقزز الكثيرون من الناس عند ما يذكر اسم هذه الحشرة ، فضلا عن رؤيتها أو الاكتواء بنارها ؛ ولكن ماذا تقولون إذا كانت هناك وجوه من الشبه بين تلك الحشرة وبين بعض الناس الذين لا يخرجون عن كونهم حشرات تسعى فوق الأرض لتكثر فيها الفساد ! . .

إن البقةحشرة صغيرة الجسم ضئيلة الحجم، يراها الجاهل بشأنها فلايحسب لها حساباً ، ولا يخشى لها ضرراً ، ولكنها فى الواقع خطيرة ، وعند الأذى كبيرة ، تذهب الراحة وتفسد الهدوء ، وتجلب القلق والغضب ؛ وكذلك فى الناس أقوام صغرت أجسامهم وكثرت جرائمهم ، تراهم صفر الوجوه دقاق العيون صغار الرءوس ضامرى الأبدان ، ولكنهم مع هذا أئمة فى المنكر ، لا يبيتون إلا على كيد ، ولا يستيقظون إلا على حقد ؛ ترى الواحد منهم يضيق بالخير ويفرح للشر : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » . وصدق المثل : معظم النار من مستصغر الشرر ؛ والعقرب الخبيثة الصغيرة قد تقتل الجمل ؛ وسبيل الأذى لا مسلكه إلا الحشرات وأشباه الحشرات من الحقراء ! .

والبقة حشرة لا ينبىء مظهرها عن مخبرها ، ولا يدل شكلها الخارجى على نتانة رائحتها وخبث مسعاها ، يراها الرائى فإذا هى حمراء اللون ، وقد تسميها العامة تظرفا بالذهب ، ولكنها فى الحقيقة رديئة رديئة ، وقذرة قذرة ، يعاف الأنف رائحتها السيئة الوبيلة ، وكذلك الكثير من الناس ،

تراهم فإذا هم منتهى الأناقة فى الثياب ، وغاية الجمال فى المظهر الخارجى ، ولكنهم فى الواقع ذئاب من الداخل ، لو كشفت عن سرائرهم وضمائرهم لرأيت الدمار والخراب ، ولأدركت أن من وراء المظاهر الخداعة حقائق تؤسف وتروع ، ولعلمت أن سيد الأنبياء محمداً صلوات الله عليه كان أبلغ البلغاء وأحكم الحكماء حين رمز إلى ذلك وغيره فقال : « لو تكاشفتم ما تعايشتم » وإن الشاعر أصاب حين قال :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح

فإذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذه الحشرة من لؤمها وخبثها لا تسرح إلا فى الظلام ، فإذا جاء الضوء أو النور سارعت بالهرب والاختفاء ، وهى تفعل ذلك لخستها ووضاعتها فهى تقرض حيث تسود الدياجى وتختفى الأشياء وتعجز الأبصار عن إدراكها حين تسعى سعيها الذميم . وكذلك الكثيرون من الناس ، لا يصيدون إلا فى الماء العكر ، ولا يسعون إلا فى الزلازل والفتن ، ينتهزون فرص الاختلال والاضطراب ، فيتجسسون ويتتبعون العورات من وراء ستار ، ويكيدون للضعفاء أو الغافلين بلا ارعواء ، ويقرضون لحوم الأطهار الأبرار بلا تورع أو حياء ، وكلما لا قوا فئة نافقوها وقالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ؛ مع أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : إن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . ويقول : من كان له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار . ويقول : إن من أكبر الكبائر استطالة المرء فى عرض رجل مسلم بغير حق ! . . .

وهذه الحشرة لا تحيا إلا فى المكان القذر ، المكتوم المسالك ، الفاسد الهواء ، وكذلك فى الناس من يعيشون فى الأعماق حيث الوحل والماء الآسن ،

ومن لايجرؤ على مواجهة الحقائق لأنه عدوها أو أضعف منها ، ومن لا يرضى بالطريق القويم ولا التصرف السليم ، بل يؤثر العيش الوبىء والمرتع الوضيم ، وتحرضه الدعاة على أن يرفع بصره وهمته إلى السماء ، فيأبى إلا أن يخلد إلى الحضيض والغبراء ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً . . .

والبقة وظيفتها فى الحياة أن تمص دماء البشر ؛ وما أكثر الذين يمتصون الدماء البشرية من الناس . . . هذه هى الأمم الطاغية الباغية تعدو على الشعوب الضعيفة والجماعات الذليلة فتستعبدها وتسخرها وتمتص دماءها ، وتتخذها كالبقرة الحلوب التى لا تملك من أمرها شيئاً ، وهؤلاءهم الحاكمون يمتصون دماء المحكومين حينما يسخرونهم تسخير الأرقاء ، فيزهقون حرياتهم ، ويعتدون على كراماتهم ، ويهملون حقوقهم ، ويعتدون عليهم ويكيدون لهم بدل أن يحفظوهم ويخدموهم ، ويسيمونهم الخسف والهوان ؛ وهؤلاء هم الكانزون الأغنياء يمتصون دماء البائسين الفقراء ، حين يأكلون حقهم ، ثم يجمدون الذهب من عرقهم المتصبب تعباً وكلالا ، ثم يتخذونهم كالدواب تحمل أثقال غناهم ، وتجر عربات زهوهم ، وتحترق لتضىء الشموع فى ليالى خمرهم وزمرهم ، وعزفهم وقصفهم . . وهؤلاء هم الضالون من المعلمين يمتصون دماء طلابهم حين يهملون أمر تعليمهم وتقويمهم ، ثم يسخرونهم بعد ذلك فى تنفيذ أغراضهم الدنيئة ، وتحقيق شهواتهم الجامحة . . وهؤلاءهم المحتالون من أدعياء الإرشاد والقيادة الروحية ، يخدعون العامة بالأباطيل والأكاذيب ، ويمتصون دماءهم باسم الدين أو التصرف أو حب آل البيت أو غير ذلك من الأسماء ... وهذا هو الذئب البشرى يمتص دماء المرأة حين يخدعها عن أمرها فيسلبها شرفها وعفافها ومالها وصحتها وجمالها ، ثم يتركها بعد ذلك كالزهرة التى أذبلتها الأيدى والأنوف فتلقى على الأرض وتسحق بالأقدام .

ولو أننا فتشنا جوانب الحياة التى تحتشد بالظلم والإجحاف لرأينا الألوف

والألوف من الطاغين والجبارين والمضلين والغاصبين الذين لا يخرجون عن عن كونهم بقاً خبيثاً يمتص دماء البشر بمختلف الوسائل والأسباب . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام لا يريد لأحدكم أن يكون فى هذا الكون حشرة يخبث مرآها ومسعاها ، بل يريده أن يكون ثمرة يحلو طعمها وشذاها ، ولا يريد لأحدكم أن يكون فى دنياه بقة منتنة تشمئز منها النفوس وتصدف عنها القلوب ، بل يريده أن يكون أمة ، له فى الخير همة ، وفى البر قوة ، يجلو الخطوب ويحطم الذنوب ، فاستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعملوا أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم ، وكونوا فى الحياة أزهاراً تهش الناس لمرآها وتحسن إليها عند غيابها ، ولا تكونوا أثقالا يضيق المجتمع بكم ويود الخلاص منكم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ماهي مهمة الاسلام

لله الحمد حمداً يكافىء فضله العميم ، ويليق بسلطانه العظيم ، ويناسب خيره الكريم ، سبحانه هو الله نور السموات والأرض ، وفالق الحب والنوى ومحيي الأرض بعد موتها ، وبارىء النفس ومزكيها ، وهو بكل شيء عليم نشهد أن لا إله إلا أنت ، الأمر كله منك وإليك، والاعتماد بك وعليك : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، بعث الأمة بفضلك من رقادها وأصلح البشرية بعنايتك من فسادها ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله شجرات الوجود المثمرة ، وأصحابه النجوم الساطعة النيرة وأتباعه العصبة الطاهرة الخيرة : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » ؟

يا أتباع محمد عليه السلام . .

افرضوا أن سائلا تقدم إليكم وطلب منكم وأنتم مسلمون أن تحددوا له : ماذا كانت مهمة الرسالة الإسلامية المحمدية فى العالم بعبارة واحدة ؛ فماذا يكون الجواب ؟ . وهل يستطيع كل منا أن يسارع بالرد على ذلك السؤال فى حكمة وصواب ؛ أو أن الموقف سيستدعى حيرة فى أول الأمر لطرافة السؤال ولغرابة التحديد بعبارة واحدة ، ثم يستدعى الموقف بعد هذا استعراضاً وبحثا وتنقيباً وتركيزاً وخصوصاً للآلاف المؤلفة من الذين ينتسبون إلى الإسلام ويتسمون بوسمه ، ويضاعفون أعداد أبنائه ولكنهم مع الحسرة الممضة المرة لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ذا بال . ولا يفقهون من تعاليمه ما يشفى الغليل ، حتى استدعانا ذلك الجهل المعيب من المسلمين للاسلام أن نهتف عدة مرات : ما أحوج الإسلام إلى التبشير به ، لا بين

الغرباء عنه بل بين أبناء الإسلام أولا ، لأنهم أحق من غيرهم بتقديم ذلك التبشير ! ؟ .

لقد سألنى شخص غير مسلم هذا السؤال فتأنيت مفكراً ثم أجبت : كانت مهمة الإسلام فى العالم هى : « تجديد ميلاد الإنسان والزمان والمكان والأديان » . وتطلع إلى السائل كأنه يرقب منى تفصيلا لما أوجزت ، وتحليلا لما ركزت ، فقلت : نعم كان الإسلام تجديداً لميلاد الإنسان فقد كان الإنسان قبل الإسلام ميت الأحياء ، لا يحس بكيانه ولا يؤمن بشأنه ، وكيف يحيا وهو مسترق للجبارين من الرؤساء ، مستذل لحسيس الرغبات والأهواء مستعبد لخرافات الوثنية والاشراك ، تائه فى أوهام الأباطيل والضلالات ، لا ينتفع بعقله لأنه مغلق معطل ، ولا ينتفع بجسمه لأنه عليل محطم ، ولا ينتفع لأنه غليظ محجب ؛ فلما جاء الإسلام العظيم بهديه الحبيب ونوره العجيب أحيا الإنسان من مواته ، ومكن له من الانتفاع بحياته ،وكيف لا وقد جمله بالعلم الغزير النافع ، والتقويم الجسدى السليم ، والخلق المحمدى الكريم ، ورفع شأنه فى الوجود فذكره بأنه خليفة الله فى أرضه ، وأفضل المخلوقات عند ربه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، « والتين والزيتون وطورسينين وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » ؟ « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك» ! وبهذا التعليم والتقويم والتكريم خلق الإنسان على يد الإسلام خلقاً جديداً بدأت به الدنيا تاريخها من جديد ! !

وكان الإسلام تجديداً لميلاد الزمان ، فقد كان الزمان قبيل الإسلام فى ضلالات الجاهلية وعمايات الإنسانية حملا ثقيلا ينوء به كاهل الإنسان .

وكان الناس يضيقون بأعمارهم وتضيق بهم ، فكل من الاثنين يبغى الفرار من صاحبه لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان الزمان مسلطاً على أهله كأنه لا يتحرك ولا يتغير ، فهو أشبه شيء بالكلكل الرابض على صدور أهليه لا يتخفف ولا يتلطف ولا يريم ، وكثيراً ما كان الإنسان يضيق بهذا الزمان ، فينفقه إنفاق السفهاء فى المآثم والمناكر والسيئات أو يتخلص منه بالغفلة السادرة أو الانتحار السريع أو التقاتل المبيد ، فلما أشرق الإسلام المجيد بضوئه الساطع علم الناس أن للزمان حرمة ، وأن للوقت كرامة ، وأنه كسيف إن لم تقطعه قطعك ، وأن أى يوم يمر من حياة الإنسان دون أن يستفيد فيه جديداً ، أو يحصل فيه علماً مفيداً ، أو يعمل فيه عملا مجيداً ، أو يدخر فيه عند ربه خيراً باقياً ، فليس ذلك من عمره ، بل هو نكبة تضاف إلى سيئاته ، وثقل يلقى على أحماله وأعبائه ، وأن المرء سيسأل بين يدى الحق تبارك وتعالى عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، فمن الواجب إذن على المرء كما ينادى الإسلام أن يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن صحته لمرضه ، ومن حياته لموته ، فما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الموت من دار إلا الجنة أو النار : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ! . . وحينئذ انطلق الإنسان المسلم فى أنحاء الكون وأرجاء المعمورة عاملا ناصباً جاداً مجاهداً مجتهداً ، قد شغلته فضائل الأعمال ومكارم الفعال وعظائم الأمور عن لهو الفراغ وباطل التضييع ، وبذلك سعدت البشرية بعد شقاء ، وعمرت الدنيا بعد خراب ، وسمت البشرية بعد انحطاط ، ورأينا موكب البشرية يتابع فتوحه فى كل ميدان .

ولقد كان الإسلام العظيم تجديداً لميلاد المكان ميلاداً تطهرت به الأرض التى بارك الله فيها وقدر أقواتها وأخرج منها ماءها ومرعاها ، حتى أصبحت

خليقة بأن يسرى فيها الصالحون والصديقون والشهداء . . فقد كانت أغلب بقاع الأرض قبيل الإسلام الحنيف الطهور تفيض بالاثم وتنبت بالعهر ، وتحتشد بالأصنام والأوثان والأزلام وتسيل بأنهار الخمر وجداول الدماء ، وتتسفل بحلقات الهجاء والميسر والتفاخر الكاذب ، ويتطاير عثيرها هنا وهناك ممزوجاً بالفحش والنكر ، وتتمزق أرجاؤها كل حين بشرعة البغى والطغيان ، فلا ملكية تحترم ، ولا حقوق تصان ، فلما جاء الإسلام أعاد ميلاد الأرض ميلاداً كريماً تحفه الطهارة والبراءة والصفاء ، فإذا بوجه الأرض يشرف بجباه الساجدين ، ويتطهر مرتوياً بدموع الخاشعين ، وتهتز أرجاؤها بابتهال الراجين ، وحلقات الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتغشاهم الرحمة وتنزل عليهم السكينة ، ويذكرهم الله فيمن عنده من أهل الملأ الأعلى .: وإذا بالإسلام يذكرنا بحرمة المكان فيتحدث عن البلد الحرام ، وعن المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، وإذا برسول الله يزكى هـذه الأرض ويرتفع بشأنها عن أدناس الناس وأوساخ البشرية ، فيجعلها له ولأهله ولأتباعه مصلى ومسجداً ، وليس وراء ذلك تشريف ، فيقول صلوات الله عليه وسلامه « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » وينص على أنها مصدر الخير والرزق والبركة حتى يكرمها الناس ويعنوا بشأنها ويرفعوا مقدارها ويحرصوا على تطهيرها ، ما دامت مصدر نعمة ومحل بركة ، فيقول الرسول « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » ويذكر بحرمة هذه الأرض وخلوصها لمالكها ، ويحذر من الاعتداء عليها أو الاستبداد بها أو سلبها من أهليها فيقول : « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » . . وإذا بكل مسلم تقى ذكور يردد فى دعائه بشأن المكان الذى يقيم فيه هذه العبارة : اللهم واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين !

ولقد كان الإسلام العظيم تجديداً لميلاد الأديان ، لا بمعنى أنه ناقضها أو أتى بسواها ، فالدين الإلهى واحد منذ نزل « إن الدين عند الله الإسلام » وما كان نبى الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام بدعا من الرسل ، وما كان إلا خاتم النبيين . . وإنما جدد الإسلام ميلاد الأديان بمعنى أنه أحياها من جديد ، وأعادها صحيحة سليمة إلى الوجود ، فقد وصلت الأديان قبيل الإسلام إلى حالة مؤسفة من التحريف والتبديل ، وبسط الأحبار والرهبان والكهان وأكلة الدنيا بالدين أيديهم الأثيمة الباغية فى كتب الله وتراث السماء وأمانات الأنبياء بما شاء لهم الهوى من التغيير والكتمان والحذف والافتراء ، حتى لم يبق على وجه الأرض يومئذ دين سليم بعيد عن هذا التطاول فجاء الإسلام مصححاً ومتمماً ومكملا ، ولذلك نرى الحق تبارك وتعالى يمنن بذلك على عباده حيث يقول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » ويدعونا فى صراحة إلى الإيمان بما سبق من رسالات وما سلف من كتب فيقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

ولقد كان الإسلام الحنيف فى هذا الموقف الفاصل صريحاً رفيعاً سامياً ، هدى الإنسان إلى طريق العبادة الحقة ، وأرشده إلى ربه الأحد الأعلى الذى لا يحجبه عنه شىء ، ولا يحيط به ستار ، ولا يحتاج إلى وسيط أو شفيع ، وليس له والد ولا ولد ولا صاحبة ولا قرين ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وبذلك ثبت الإسلام إلى الأبد دعائم التوحيد الخالص الصافى الصحيح الذى لا لبس فيه ولا إبهام : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بماشاء وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

هذا والله هو الإسلام الذى ندعو إليه ونحمل الناس عليه : هذا والله هو الإسلام الذى يقرع أسماعنا الحديث عنه فى الصباح والمساء وفى كل زمان ومكان ، هذا والله هو الإسلام الذى يلاقى رجاله الأحرار الصادقون المخلصون فى سبيل دعوته ونصرة فكرته وتطبيق شرعته ما يلاقون فى كل صقيع وفى كل فترة من عنت ورهق ، ومع ذلك لم ييأسوا ولم يقنطوا ، ولا يزالون يرجون ويأملون أن ترعوى الجماهير وأن تستجيب الناس لهدى الله الذى يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وكلما اشتدت حولهم دواعى اليأس ذكروا قول ربهم : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » وهذه هى رسالة الإسلام التى يجاهد المجاهدون منا لكى نسود الإنسان والزمان والمكان والأديان ، فهل لى أن أسائلكم أين أنتم من صفوف جنديتها وخطوط جهادها ، أو ماذا قدمتم من أجلها وأجل نصرتها من مالكم أو عملكم أو كلامكم أو جهودكم ؟ أو ماذا أقمتم من دعائمها وهياكلها حتى يحقق لكم الدخول فى حماها والانتساب إليها ؟ . أين أنتم من الشموع التى تحترق فى سبيل نصرتها وسيادتها ؟ . أين أنتم من المصابيح التى يترنح سناها ويتراوح ذات اليمين وذات الشمال بفعل الأعاصير وتتابع النكبات ؟ أسألكم بربكم أن تفكروا طويلا فى هذا وأن تحاسبوا أنفسكم حساباً عسيراً على هذا ولتذكروا فى نهاية المطاف أننا قد عرفنا ما هو الإسلام وبقى علينا أن نكون مسلمين ، وأن نحمل الناس على هذا الإسلام ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم !

مهمة الاسلام تجديد وتحرير

الحمد لله عز وجل ، ونور السموات والأرض ، وفالق الحب والنوى ، وبارئ النفس ومزكيها ، وهو بكل شيء عليم ، أشهد ألا إله إلا الله ، الأمر كله منه وإليه ، والاعتماد به وعليه : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله كان أحكم المصلحين ، وأفضل المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : أولئك هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى أعقاب الأعياد التى احتفل المسلمون فيها بميلاد محرر الإنسانية من العبودية والطغيان ، ومنقذها من ضلال الكفر وعماية الوثنية — سيدنا وقائدنا الأكبر ورائدنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم — تطالعنا أعياد قومية لها فى حساب التاريخ وزنها العظيم ، أعياد الثورة المباركة التى كانت من عناية الله بهذه الأمة ، إذ خلصتها مما حاق بها دهراً طويلا ، وجددت شبابها ، وهى كذلك أعياد للشعوب المتطلعة إلى الحرية والتجدد تمد يدها إليها ، وتساعدها على استرداد حقوقها المغتصبة وحرياتها المسلوبة ، وتهيء لها طريق الحياة الحرة الكريمة ، وإننا إذ نحتفى بها نتذكر فيها أهداف الإسلام العظيمة التى كانت بحق تجديداً لميلاد الإنسانية ، لافى دنيا العروبة فحسب ، ولكن فى دنيا الناس جميعاً ، سواء فى ذلك ميلاد الإنسان ، وميلاد الزمان ، وميلاد المكان .

نعم كان الإسلام العظيم تجديداً لميلاد الإنسان ، إذ كان الإنسان قبله ميت الأحياء ، لا يحس بشأنه ، ولا يؤمن بكيانه ، ويحيا وهو مسترق للجبارين من الرؤساء ، مستذل لخسيس الرغبات والأهواء ، مستعبد لخرافات

الوثنية والإشراك ، تائه فى أوهام الأباطيل والضلالات ، لا ينتفع بعقله لأنه مغلق معطل ، ولا ينتفع بجسمه لأنه معلول محطم ، ولا ينتفع بقلبه لأنه غليظ محجب ، فلما جاء الإسلام بهديه الحبيب ونوره اللألاء أحيا الإنسان من مواته ، ومكن له من الانتفاع بحياته ، كيف لا وقد جمله بالعلم الغزير والتقويم الجسدى الحكيم ، والخلق المحمدى الكريم ، ورفع شأنه فى الوجود ، فذكره بأنه خليفة الله فى أرضه ، وأنه أفضل المخلوقات عند ربه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، « والتين والزيتون وطورسينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » ؟ . وبهذا التعليم والتقويم والتكريم خلق الإنسان على يد الإسلام خلقاً جديداً بدأت به الدنيا فى تاريخ جديد كله حرية وكرامة .

ولقد كان الإسلام تجديداً لميلاد الزمان ، فقد كان الزمان فى ضلالات الجاهلية وعمايات الإنسانية حملا ثقيلا ينوء به كاهل الإنسان ، وكان الناس يضيقون بأعمارهم وتضيق بهم ، فكل من الاثنين يود الفرار من صاحبه لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان الزمان مسلطاً فوق أهله كأنه لا يتحرك ولا يتغير ، فهو أشبه شىء بالحمل الثقيل فوق الصدور لا يتخفف ولا ينتقل . كثيراً ما كان الإنسان يضيق بهذا الزمان فينفقه إنفاق السفهاء فى المآثم والمناكر والسيئات ، أو يتخلص منه بالغفلة السادرة أو الانتحار السريع أو التقاتل المبيد ، فلما أقبل الإسلام المجيد أشعر الناس أن للزمان حرمة ، وأن للوقت كرامة ، وأنه كالسيف إن لم يقطعه الإنسان قطعه ، وأن أى يوم يمر من حياة الإنسان لا يكتسب فيه جديداً ، أو يدخر عند ربه فيه خيراً باقياً فليس

من عمره ، وأن كل إنسان سيسأل بين يدى الحق عن عمره فيم أفناه ، فالواجب عليه أن يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن صحته لمرضه ، ومن حياته لموته ، فما بعد الموت من مستعتب : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم » . وحينئذ أحس الإنسان وقد استضاء بنور ربه أن عمره جوهرة ثمينة ، وأن أوقاته نعمة جليلة يجب ألا يكون مغبوناً فيهما ، فانطلق الإنسان المسلم فى أنحاء الكون عاملا ناصبا ، وقد شغلته مكارم الأعمال وعظائم الأمور عن الفراغ وباطل التصنيع ، وتعلقت همته وبصيرته بحياة العزة الراشدة والفضيلة الماجدة .

وكان الإسلام تجديداً لميلاد المكان ميلاداً تطهرت به الأرض التى بارك الله فيها ، وقدر فيها أقواتها وأخرج منها ماءها ومرعاها ، حتى صارت خليقة بأن يسرى فيها الصديقون والشهداء ، وقد كانت أغلب بقاع الأرض قبيل الإسلام الحنيف الطهور تفيض بالإثم وتنبت بالفساد ، وتحتشد بالأصنام والأوثان والأزلام ، وتسيل بأنهار الخمر وجداول الدماء ، ويتطاير عبيرها هنا وهناك مملوءاً بالفحش والمنكر ، وتتمزق أرجاؤها بشرعة البغى والطغيان ، فلا ملكية تحترم ، ولا حقوق تصان ، فجاء الإسلام فأعاد ميلاد الأرض ميلاداً تحفه الطهارة والبراءة والصفاء ، فإذا ترابها يشرف بجباه الساجدين ، ويرتوى بدموع الخاشعين ، وتهتز أرجاؤها بابتهال الراجين ، وحلقات الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتغشاهم الرحمة وتتنزل عليهم السكينة ، ويذكرهم الله فيمن عنده من أهل الملأ الأعلى ، وإذا الإسلام يذكر بحرمة المكان ، فيتحدث عن البلد الحرام ، وعن المسجد الأقصى ، الذى بارك الله من حوله ، وإذا الرسول يقول : « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » وينص على أنها مصدر للخير والرزق والبركة ، فيقول : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » ، وإذا بكل مسلم ذكور شكور يردد فى دعائه

عن المكان الذى يعيش فيه : « اللهم واجعل هذا البلد آمناً مطمئنا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا كان الإسلام العظيم الجامع الخالد الباقى قد صلح فى الماضى ليجدد الحياة فى كل جهة ، فإنه صالح اليوم وغداً ليجدد ويسعد : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وإذا كنا قد سمعنا رسالة الإسلام فإن علينا بعد السماع واجب الالتزام والاحتكام ، وواجب تقديم الدواء منه إلى المرضى ، نقدمه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ملتقى الفكر الاسلامى

الحمد لله جل جلاله ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، أقام دينه على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فهو الواحد الأحد : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » . وأمته هى الأمة الواحدة الماجدة « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، انقذ الأمة ووحد الكلمة ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه . وأتباعه وأحبابه ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنى عائد إليكم من الجزائر : بلد المليون ونصف مليون شهيد ، وأبرز دولة فى وطننا الإسلامى الكبير تحررت من الاستعمال — أو الاستدمار — باسم الإسلام لا باسم القومية ، ولا باسم الإقليمية ، ولا بأى اسم آخر ، ولذلك كان مطلع النشيد الجزائرى قولهم :

شعب الجزائر مسلم　　　وإلى العروبة ينتسب

ولقد قضيت هناك مع زملاء لى أكثر من أسبوعين نشارك فى مؤتمر إسلامى سموه « الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامى » والإخوة هناك يستعملون كلمة « الملتقى » بمعنى المؤتمر ، وقد دعوا إلى هذا المؤتمر مائة عالم ومفكر من علماء المسلمين ومفكرى الإسلام ، كل منهم متطوع متبرع ، كما أشركوا فى حضور الجلسات ألف طالب وطالبة ، لكى يتعودوا الاستماع إلى المحاضرات الإسلامية والموضوعات الدينية ، ويروا كيف يتباحث العلماء وكيف يتناقش المفكرون ، وبذلك يتدربون على حسن التفكير وسلامة

التعبير ، وكان يسمح للطلبة والطالبات فى وقت محدد بتوجيه أسئلتهم إلى علماء الإسلام ، وبإبداء آرائهم ومقترحاتهم ، وهكذا ظل هؤلاء نحو أسبوعين يشهدون جلسات طويلة ممتدة ، صباحية ومسائية ، فكانت تجربة ثقافية إسلامية واسعة انتفع بها عدد ضخم من شباب الإسلام الذين كانوا يضيعون بين القلق والفراغ .

وكان فى طليعة ما قرره هذا المؤتمر أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وأنها علاج حاسم لكل الأدواء الاجتماعية ، فى البلاد الإسلامية ولذلك يجب على كل دولة إسلامية أن يكون قانونها مأخوذا من الشريعة الإسلامية ، وأن يتعاون حكام المسلمين وعلماؤهم وشعوبهم على العودة إلى الأحكام المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، كما قرر المؤتمر أن أجهزة الأعلام فى أغلب بلاد الإسلام — من صحافة ومطبوعات ومرح وسينما وإذاعة وتليفزيون — أجهزة عليلة سقيمة ، ضعيفة منحرفة ، متحللة متفسخة ، لا تلتزم بالإسلام ، ولا تراعى حدوده أو حقوقه ، وأن مواد الإذاعة والتلفزة — فى أكثر هذه البلاد — تتضمن الكثير من السخف والعبث والكثير من دوافع الجريمة والانحراف ، وأن الأيادى الخبيثة النجسة المعادية للإسلام أو الخارجة عليه تهدم من الداخل بنيان هذه الأجهزة لتكن للاسلام والمسلمين ، وأنه لابد من حملات تطهير صارمة تشمل هذه الأجهزة ، لكى يخرج منها جنود الشيطان ويعمرها جنود الرحمن ، وبذلك تستقيم على الطريق ، بعد أن تأخذ بأسباب الهداية والتوفيق .

ومن الموضوعات التى عنى بها مؤتمر الجزائر موضوع « التبشير وصلته بالاستعمار » ، وقد طال الحديث هناك وامتد عن أخطار التبشير — أو بتعبير أدق أخطار التنصير — وبان لكل ذى عقل أن الصليبية العالمية مازالت واغلة بشراسة وإجرام أو مكر فى محاولات إخراج المسلمين عن دينهم إلى النصرانية ،

أو إفساد دينهم فى أنفسهم — على الأقل — وأنه يجب شرعاً على أبناء الإسلام فى كل مكان — حكومات وشعوباً — أن يقاوموا أخطار هذه الغزوات الصليبية الفاجرة ، ويتبتوا بالبصر والبصيرة أن هذه الغزوات متعاونة إلى أبعد مدى مع طواغيت الاستعمار الأجنبى — أو بتعبير أدق : الاستدمار الأجنبى — وقد عرضت اقتراحات تدعو إلى استعمال كلمة « النصارى » بدل كلمة « المسيحيين » . لأن القرآن لم ترد فيه إطلاقاً كلمة « مسيحى » أو كلمة « مسيحيين » ، بل وردت فيه كلمة « النصارى » ، مثل قوله : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء » وقوله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله » وقوله : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفا مسلما » وقوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » وغير ذلك كثير . ومن المقترحات كذلك أن نشيع فيما بيننا كلمة « التبشير » بمعنى الدعوة إلى الإسلام لأن كلمة « التبشير » لفظة قرآنية استعملها التنزيل المجيد فى شأن المؤمنين عدة مرات : « وما جعله الله إلا بشرى لكم » ، « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .ومن الواجب على أبناء الإسلام أن يبشروا بالإسلام فيما بينهم أولا ، لأن الكثير منهم لا يعرفون الإسلام ولا يتفقهون فى الدين ، والقرآن الكريم يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ويقول : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . ثم يبشروا بالإسلام بعد هذا بين غيرهم ، فى ضوء قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وعلى الرغم من الحسنات الكثيرة التى تجلت فى هذا المؤتمر الضخم الممتد ،

كانت هناك بعض العيوب فينا — نحن المؤتمرين — ومن واجبنا أن نتذكرها ونتدبرها لنعرف خطرها ونحذر شرها ، ومن هذه العيوب طول الأقوال وقصر الأعمال ، فقد كان هناك تزاحم ظاهر على مواقف الكلام والخطابة ، وشهوة عارمة أحياناً تبغى التطويل والتفصيل إلى درجة الإملال ، وكأن البعض قد نسى تماماً حكمتنا العربية المأثورة : « خير الكلام ما قل ودل » واستبدل بها شعاراً آخر له : « خير الكلام ما طال وأمل » . ومن هذه العيوب سيطرة الأهواء المذهبية أو الإقليمية أو الشخصية على بعض النفوس ، وإن حاول هذا البعض أن يغلف هذه الأهواء بأغلفة مصطنعة لا تخلو استخدامها من براعة وذكاء .

ومن هذه العيوب طول الحديث فى تصوير الأدوار التى شاعت وذاعت فى كيان الأمة الإسلامية ، مع قلة الحديث عن وسائل الإصلاح العملية لهذه العيوب ، والطبيب الذى يضيع الوقت الطويل فى تشخيص المريض المصاب أمامه قد يكون سبباً لموت هذا المريض ، وخير الأطباء من سارع فى التعرف إلى الدواء بدقة ، ثم شرع فى العلاج بحكمة : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . .

الحديث عن مؤتمر الجزائر صالح لكى يمتد ويطول ، ولكنها لمحة تعطيكم صورة مختصرة عما كان بين مجموعة من أشقائكم وإخوتكم فى الإسلام ورسولكم يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . — وليتنا — نحتذى ونقلد فى مجال الخير ، فنشغل شبابنا بالاشتراك فى مؤتمرات تعقد عندنا كهذا المؤتمر ، حتى نشغل شبابنا — ولو فى عطلة الصيف — بمثل هذه الثقافة الإسلامية التى تفيدهم فى دينهم ودنياهم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٥٣٣

الاسلام اصلاح لا ثورة

الحمد لله ، هو ولى الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا خير إلا منك ، ولا نصر إلا بك ، ولا اعتماد إلا عليك : (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أصلح الفساد وأنقذ البلاد وهذب العباد : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : (أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

فى الأمة الإسلامية قوم تربوا على غير مبادئها السليمة ، وأهدافها القويمة ، ترونهم يحسبون منها وينسبون إليها ، وهم لا يؤمنون بها ، ولا يثقون فيها ، بل تتجه ثقتهم دائماً إلى كل شىء يأتى من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالقلوب والعقول ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ . . . وخذوا إن شئتم على سبيل المثال تمدحهم الدائم المتكرر بالثورة الفرنسية ، فهم يتغنون بها فى حفلاتهم وكتاباتهم ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسانية ، وأعظم ناشر لمبادىء الإخاء والحرية والمساواة . . . وكذبوا والله ثم ضلوا ضلالا بعيداً . . إن الشمس عند أمتهم فكيف تركوها إلى المصباح الضئيل ، وإن السبق لدينهم العظيم الذى ينتسبون إليه ، فكيف يقدمون عليه لاحقاً لا يرتفع عن مرتبة الأقزام والذيول ؟ ! . . .

لقد سبق الإسلام ثورة فرنسا بأكثر من ألف عام فى تقرير حقوق الإنسان ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، والحرص عليها مع حياطتها بعوامل

السلام والأمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ؛ أو يسجلها ويبقيها ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ، ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا من أجلها ، ولا يلقوا أسلحتهم إلا إذا طمأنوا إلى تنفيذها وسيادتها ، كما وضعها أمام أبصارهم وبصائرهم فى فى كتابه المجيد يتلونه صباح مساء ، ويتدبرونه فى كل آن ، ويعبدون ربهم بترتيله مع تطبيق ما فيه ، وليس بعد هذا تركيز أو إعزاز ! . . .

وحسبنا فى مبدأ الإخاء قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) وقوله : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكر وا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) . وقول رسوله عليه صلوات ربه : (وكونوا عباد الله إخواناً) وقوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) . وحسبنا فى الحرية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام الصحيح أصدق ترجمة : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ! .

وحسبنا فى المساواة قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) وقول رسوله عليه صلاته وسلامه : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقول عمر لجبلة الغسانى حين أبى وهو ملك أن يقتص منه سوقة اعتدى جبلة عليه : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشىء ، إلا بالتقوى والعافية ! .

وهناك بعد هذا فرق جوهرى كبير جداً بين الوثبة الإسلامية والثورة

الفرنسية ، يبين لكم مدى الاختلاف بين عمل الإنسان وهدى الديان .
فقد كان عمل الفرنسيين ثورة ، والثورة مؤامرة يحرض عليها الخبثاء ، وينفذها الجهلاء ، ويجنى ثمرتها الجبناء ، وقد كانت حركتهم حركة تمردية غاضبة صاخبة ، لا تدرى كيف تخطو ، ولا إلى أين تتجه ، فليس هناك منهاج معلوم ، ولا طريق مرسوم ، بل ضاق الشعب الفرنسى من ظلم حكامه ، وبغى طواغيته ، وترف رؤسائه ، وفجور كبرائه ، وجاع حتى اشتد به الألم من المسغبة والحرمان ، فظن أنه ليس هنا أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الظالمين بلا تأن أو هوادة ، وأسرف فى فى ذلك إسرافاً مشيناً بلاقانون أو معادلة ، وشاءت الأقدار أن تنجح الثورة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ، ولا عن طريق التدرج فى الخطأ والمراتب؛ بل لأن الحظ كان مواتياً ، وانتهت الثورة بمبادئها الثلاثة التى أذاعتها فرنسا وتغنت بها ، ولكنها خرقتها ألف مرة ، ومآسى فرنسا السود فى التاريخ السابق والمعاصر مستفيضة ، تشهد بها فظائعها فى سوريا ولبنان ، وفى تونس والجزائر ، وفى غير ذلك من الأقطار ، وحديث الأفاعى طويل المدى ! . .

وأما الإسلام فقد كان على العكس من ذلك . لم يكن ثورة عمياء بل كان إصلاحاً مبصراً ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم ، بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن ضربة طائشة غير محددة الهدف ، بل كان صراطاً مستقيماً نزل به الروح الأمين ، من رب العالمين ، على قلب الرسول المبين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور . وما أوضح الرسول وأصرحه حين يهتف فى قومه أول الدعوة قائلا : (إن الرائد لا يكذب أهله ، الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما

تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبداً) .

جاء الرسول قومه بهدى ربه ؛ وقد بلغوا ما بلغوه من انحطاط وبوار ؛ فأبان لهم ماهم فيه من ضلال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلاص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأهداف والمقاصد : من التوحيد والفضيلة والإخاء والعزة والعبودية لله وحده ، إلى آخر مافى الإسلام من مبادىء مقررة مصورة ، ثم غرس الرسول بنور نبوته وتأييد دعوته وربانى كلمته هذه المبادىء فى نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وحرصوا عليها وعاشوا لها ، وأيقنوا أنه لابد للعالم منها حتى يرقى ويسعد ، ثم قاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبذلون دماءهم الزكية رخيصة فى سبيلها ، حتى حققوها فى ديارهم ؛ وفى الديار التى فتحوها باسم الإسلام ، على صورة لم نشهد لها مثيلا فى التاريخ ، ومن هنا يظهر الفرق الواضح بين الإسلام والثورة ، فالثورات الهائجة الصاخبة قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدى إلى عكس المراد منها ، وأما الإصلاح المرسوم المحدد ، المؤيد بالأدلة والشواهد ، الموثوق من حقه وصدقه فلا بد من نجاحه ، لأنه يمشى على نور ، ويصل إلى بلاغ ، ولقد جاء الإسلام إصلاحاً يقنع العقول ، ويجذب القلوب ، ويفحم الخصوم ويرسم الطريق ؛ ويضع لكل مشكلة علاجاً ، ولكل مرض دواء ، حتى ماخف من الأعراض والنوازل ؛ ولذلك كان من تأديب الله لرسوله فى القرآن : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

ولعل هنا عظة كبرى يجب أن نأخذها عن الإسلام ، فالإسلام لا يريد من القادة أينما كانوا أن يسيروا فى طرقهم صما وعميانا ، ولا أن يتصرفوا بلا قاعدة أو منهاج ؛ بل لابد من معرفة الطريق أولا : أين يبدأ وأين ينتهى ،

ثم الإيمان بتوصيله ، ثم الوثوق باستقامته ، ثم الثبات عليه ، وبذل الجهد والطاقة لبلوغ نهايته أو الشهادة أثناءه . . فليت الذين يضعون فى أيديهم مقاليد أمة محمد فى العالمين يأخذون لأنفسهم درساً أى درس من هذه العظة ، حتى يرسموا لأنفسهم خطة ، ويضعوا لأمتهم منهاجاً ، بدل أن يسيروا خاضعين للظروف والمناسبات . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام القيم الذى هدى الملايين لا يزال هو الإسلام ؛ (لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . . . وإن الإسلام الذى اهتدت به الملايين لا يزال صالحاً لهداية ملايين أخرى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . . . وهو لا يأتيكم باطشا بل مناقشاً، ولا يدعوكم إكراها أو إرغاماً ، بل طوعاً وإكراماً : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » .

وإن لكم فى هدى الإسلام لغنى عن دعوات تنهض ثم تتعثر ، وشجيرات تنبت ثم تتكسر وإن لكم فى صلاحه وإصلاحه لوقاية من نزوات تنشط وتنحرف أو شطحات تجرف ثم تنجرف : (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه ترجعون) .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

تم بحمد الله

الفهرس